

الفرق بين
حبي

تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصاوي

انتشارات فرهنگ اسلامي



مرکز تحقیقات کلام و فقه اسلامی

الفیه و تالیف



مکتبۂ تکوین و تدوین اسلامی

الفرقان فی تفسیر القرآن	الكتاب
الدكتور الشيخ محمد الصادق	المؤلف
الأول - سورة الفاتحة ، البقرة	الجزء
الثانية	الطبعة
مطبعة أمير - قم	المطبعة
انتشارات فرهنگ اسلامی - طهران	الناشر
تلفن : ۶۲۰۰۸۴	

سنة الطبع ۱۴۰۶ ق - هـ
عدد المطبوع ۳۰۰۰ نسخة

سماعة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفروقات

في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة

الجزء الأول

سورة الفاتحة - سورة البقرة

دار النواث الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان



مرکز تحقیقات کتاب ویر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دار التراث الاسلامي تقدم للمكتبة الاسلامية العالمية أفضل تراث إسلامي هو « الفرقان » في تفسير القرآن بالقرآن والسنة ، مطاطاة الرأس أمام هذه الموسوعة العظيمة البادرة البديعة التي جاد بها يراع مؤلفه ، جامعاً فيها بين إناقة التعبير وعلاقته ، وعمق المعنى والباقة ، وقد تكون جملة و تفسيراً منقطع النظر بين سائر التفسير التي جاد بها أقلام مفسري القرآن قديماً وحديثاً حيث تمتاز بميزات تالية مؤلفاً ومولفاً :

فالمؤلف عاش القرآن أليفاً ومدققاً دارساً ومدرساً خلال ما يربوا أربعين عاماً في الحوزتين المباركتين : النجف الأشرف وقم المشرفة ، ومنها سبعة عشر عاماً هي سني هجرته من شر الطاغوت - شاء عليه لعنة الله - حيث كان مدرساً ومبشراً فرأيا في مكة المكرمة ولبنان وسوريا والعراق ، وقد خرج مئات من طلاب علوم القرآن إلى أنحاء العالم الاسلامي . وألف في مختلف العلوم الاسلاميه كتابات قيّمة ، خاتمتها حتى الآن هي « الفرقان » ، ومن ميزات المؤلف بلوغه إلى أعلى قمم الاجتهاد في علوم القرآن ، وعلى ضوءها في الفقه والفلسفة الاسلامية

و أما المؤلف فهو يمتاز بأساليب عدة تكفي واحدة منها لتجعله متميزاً عن
سائر كتب التفسير :

منها جمعيته لأقدم الأساليب في التفسير وأحدثها ، فقد جمع بين سنة
الرسول ﷺ و أئمة أهل البيت ^(ع) تفسيراً للقرآن بالقرآن ، و بين أحدث النظريات
التي وصل إليها العلم الحديث ، جاعلاً للقرآن إماماً ككل و كل ما سواه يأتم به
دوماً أي تحميل عليه بدقيق أو جليل .

و منها رعاية جمعية الدلالات القرآنية ، دون تضيق لها بمضائق التفسير و
لاتوسعة كما يفعله المفرطون و المفرطون ، الذين يتضايقون أو يتواسعون في
نصوصه و ظواهره دوماً حجة من علم أو إثارة من علم أو كتاب منير .
و منها تفصيل البحوث الفقهية بكل حقولها على ضوء آياتها دوماً نأثر
شارد بروايات أو اجتماعات أو شهرات تخالف القرآن أم لاتوافقها ، مهما بلغت من
العدة و العدة ما بلغت ، فان لله الحجة البالغة .

و منها المقارنة في كافة المواضع القرآنية مع سائر كتابات الوحي وسواها ،
مما قد يجعله أفضل تفسير مقارن . فلقد حاول المؤلف دام ظلّه و إفضاله كل جهده
في إظهار مرادات الله ، دوماً نقل إلا آيات كأصل و روايات على هامشها بكل
هيمنة قرآنية بارعة دوماً إصغاء إلى أقوال أم أقاويل و لا ذكر لأصحابها ، لاتصغيراً
للعلماء وإنما تكبيراً للقرآن و السنة الاسلاميه السامية ، وإخراجاً لكتاب الله عن
معتك الآراء ، و عن المذهبيات المتعصية . والقيالات المترسبة .

و نحن إذ نتواضع أمام هذا المشروع العظيم نسأل الله العلي القدير أن يوفق
المؤلف لاكماله بتمامه و كماله و يجعله ذخراً للامة الاسلاميه .

بيروت : دار التراث الاسلاميه

طهران : انتشارات فرهنگ اسلامي

رسالة من صاحب تفسير « الميزان » تعريفاً بتفسير الفرقان

من عشرات الرسائل التي وصلتنا تعريفاً بتفسير الفرقان من مختلف رجالات العلم وعباقره الفضل والتفكير وأصحاب التفسير في شتى أنحاء العالم رسالة صاحب « الميزان » الإمام الأعظم سماحة الحجة السيد محمد حسين الطباطبائي دام ظله الوارف على رؤوس المسلمين ، وإليكم ترجمتها الحرفية :

فضيلة شيخنا الشيخ الدكتور محمد الصادقي المحترم دامت إفاضاته .
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

زرنّا مجلدين من تفسيركم الشريف (الفرقان) مع كتابكم الكريم ، فبعد فراق طويل بيننا بأعوام عدة ، وانقطاع اخباركم عنا بزمان بعيد ، يسرني أن وصلني نبأ صحتكم وتوفيق سماحتكم ، فحمدت ربي ، وأرجو منه سبحانه أن يقرنكم دائماً بالعافية والتوفيق ، وأن يسدّد خطاكم ، ويؤيدكم بالطافه وعناياته الخاصة .

إن تفسير « الفرقان » الشريف الذي زرته ، إنه لكتاب يقرأ عيوننا ، وهو سند عزنا وأصل من مفاخرنا - نحن المفسرين - إن شاء الله تعالى تكرر كافة طاقاتك وإمكاناتك وتبذل جميع مساعيك في مواصلة هذا الأسلوب الفريد من التفسير - أعني : تفسير القرآن بالقرآن - فلا تمل ولا .

تکسل ولا تفشل في هذا المشروع العظيم ، خدمة للمعارف القرآنية ،
وكشفاً للقناع عن ذخائر هذا الكتاب المكنون السماوي ، وأرجو من الله عز
اسمه لكم التوفيق وأن يؤيد سماحتكم في هذه السبيل ، والسلام عليكم
ورحمة الله وبركاته .

محمد حسين الطباطبائي



بسم الله الرحمن الرحيم

فان شریف آمده با جد تغیر شریف در حقان زیارت
دیس در زلفها سحر وقت در فطوح و خجسته رسیده سستی
در نصیحت صفا بی رود در یافت دایم محمد صفا بی آوردم
و امید دارم که پیوسته قرین عافیت و رفعت بوده
و با لطافت و عنایات خداوندی عزادارم که فرموده است
بایه .

تغیر شریف خرقه ای که زیارت شد که است که صبح
روزی می بینم و بایه و نماز است و بایه با تمام قوی
و کمال خود را در پیشگاه حق تعالی تغیر قرآن و تفسیر
مبتدوی دایم در خدمت بجا رفت قرآن و پرده
بر داری و در روی ذخایر و بزرگی بکون و کسوف حشمت
و عری نباشد و تفسیر و تفسیر صفا بی رود در خدمت
خداوند محمد و آل محمد .

بسم الله الرحمن الرحيم
محمد حسن عابدی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

المدخل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً . قيماً لينذر
بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجراً
حسناً .

تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً وهادياً الى الله
بأذنه وسراجاً منيراً .

وصلواته التامات الزاكيات على من أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره
على الدين كله وكفى بالله شهيداً ! .

اللهم صل وسلم وزد وبارك على محمد عبدك ورسولك ونبيك ونبيك
وصفوتك وصفيك وخير خيرتك نبي الأمة وإمام الرحمة ، وعلى آله
الطاهرين المعصومين الذين اذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً .

رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك
سلطاناً نصيراً .

رب وفقني لتقواك واجعل لي من أمري يسراً وكفر عني سيأتي وأعظم
لي اجراً . واجعل لي مخرجاً و« فرقاناً » انك كنت بنا بصيراً .

رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا

قولي وكفى بك هادياً ونصيراً .

إن القرآن « نور وبرهان » : « قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً » (٤ : ١٧٤) و « بيان » : « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » (٣ : ١٣٨) و « مبين » : « تلك آيات الكتاب المبين » (٢٦ : ٢) . « قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون » (٣٩ : ٢٨) وتبيان : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » (١٦ : ٨٩) .

وهذا النور البرهان - المبين البيان التبيان : قرآن عربي لا عوج له في كونه وكيانه ، في بيانه وبرهانه ، مفصلاً بليغاً بأعلى القمم لأعلى القيم في تبيانه ، وترى النور بحاجة الى نور ، والبرهان يحتاج الى برهان ؟! وهو نور الأنوار « نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء » . !

فـ « إن هذا القرآن هو النور المبين ، والحبل المتين ، والعروة الوثقى ، والدرجة العليا ، والشفاء الأشفي ، والفضيلة الكبرى ، والسعادة العظمى ، من استضاء به نوره ، ومن عقد به أموره عصمه الله ، ومن تمسك به أنقذه الله ، ومن لم يفارق أحكامه رفعه الله ، ومن استشفى به شفاه الله ، ومن أثره على سواء هداه الله ، ومن طلب الهدى في غيره أضله الله ، ومن جعله شعاره ودثاره أسعده الله ، ومن جعله إمامه الذي يقتدي به ، ومُعَوِّلَه الذي ينتهي اليه أداه الله إلى جنات النعيم والعيش السليم » (١) .

فـ « إنه هدى من الضلالة ، وتبيان من العمى ، واستقالة من العثرة ، ونور من الظلمة ، وضياء من الأحداث وعصمة من الهلكة ، ورشد من

(١) تفسير الامام الحسن العسكري عن ابيه عن آبائه عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

الغواية ، وبيان من الفتن ، وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة ، وفيه كمال دينكم ، وما عدل أحد عن القرآن إلا إلى النار»^(١) .

« فإذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن ، فإنه شافع مشفع ، وما حل مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار ، وهو الدليل يدل على خير سبيل ، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل ، وهو الفصل وليس بالهزل ... ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، له نجوم (تحوم) وعلى نجومه (تحومه) نجوم (تحوم) لا تحصى عجائبه ، ولا تبلى غرائب ، فيه مصابيح الهدى ، ومنار الحكمة ، ودليل المعرفة لمن عرف الصفة فليجل جلال بصره وليبلغ الصفة نظره ينج من عطب ويتخلص من تشب فان التفكير حياة قلب البصير كما يمشي المستير في الظلمات بالنور فعليكم بحسن التخلص وقلة التربص »^(٢) .

« نور لا تطفأ مصابيح ، وسراج لا يخبو توقده ، وبحر لا يدرك قعره ، ومنهاج لا يضل نهجه ، وشعاع لا يظلم ضلوه ، وفرقان لا يحمده برهانه ، وتبيان لا تهدم أركانه ، وشفاء لا تخشى أسقامه ، وعز لا تهزم انصاره ، وحق لا تحذل أعوانه ، فهو معدن الايمان وبحبوحته ، وينايع العلم وبحوره ، ورياض العدل وغدرانه ، وأثافي الإسلام وبنياته ، وأودية الحق وغيظاته ، وبحر لا ينزفه المنتزفون ، وعيون لا ينضبها المانحون ،

(١) اصول الكافي ٢ : ٦٠٠ - أبو علي الأشعري عن بعض أصحابه عن الخشاب رفعه قال قال أبو عبد الله (عليه السلام) : والله لا يرجع الأمر والخلافة إلى أبي بكر وعمر أبداً ولا إلى بني أمية أبداً ولا في ولد طلحة والزبير أبداً وذلك أنهم نبذوا القرآن وأبطلوا السنن وعطلوا الأحكام وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

(٢) اصول الكافي ٢ : ٥٩٨ علي بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله (عليه السلام) عن أبيه عن آبائه (عليهم السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

ومناهل لا يفيضها الوردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، وأعلام لا يعمى عنها السائرون ، وآكام لا يجوز عنها القاصدون ، جعله الله رباً لعطش العلماء ، وربيعاً لقلوب الفقهاء ، ومحاجاً لطرق الصلحاء ، ودواء ليس بعده داء ، ونوراً ليس معه ظلمة ، وحبلأ وثيقاً عروته ، ومعقلاً منيعاً فروته ، وعزاً لمن تولاه ، وسليماً لمن دخله ، وهدى لمن ائتم به ، وعذراً لمن انتحل به ، وبرهاناً لمن تكلم به ، وشاهداً لمن خاصم به ، وفلجاً لمن حاج به ، وحاملاً لمن حمله ، ومطية لمن أعمله ، وآية لمن توسم ، وجنة لمن استلام ، وعلياً لمن وعى ، وحديثاً لمن روى ، وحكماً لمن قضى ^(١) .

وهو « بيان ما قبلكم من خير ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من وليه من جبار فعمل بغيره قصمه الله ، ومن التمس الهدى في غيره أضله الله ، وهو جبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم . لا تزيفه الاهوية ، ولا تلبسه الاقضية ، ولا يخلق على التردد ، ولا ينقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء ، هو الذي لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا : « إنا سمعنا قرآناً عجياً يهدي إلى الرشd » من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن اعتصم به فقد هدي إلى صراط مستقيم ، هو الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ^(٢) .

(١) مما يروى عن علي أمير المؤمنين من غزير كلامه حول القرآن (نهج البلاغة) . الخطبة ١٩٣ ص ٢٢ - عبده .

(٢) تفسير العياشي بإسناده عن الحارث الأعور قال دخلت على أمير المؤمنين (عليه السلام) فقلت يا أمير المؤمنين ! أنا إذا كنا عندك سمعنا الذي نسد به ديننا وإذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة مغموسة ولا ندري ما هي - قال : أو قد فعلوها ؟ قال : قلت : نعم قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول اتاني جبرئيل فقال يا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ! ستكون في امتك فتنة - قلت : فما المخرج منها ؟ فقال : كتاب الله فيه . .

انه « بقية استخلفها عليكم كتاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع ، والضياء اللامع ، بينة بصائر منكشفة سرائره ، متجلية ظواهره ، مغتبط به أشياعه ، قائد الى الرضوان أتباعه مؤد الى النجاة استماعه ، به تنال حجج الله المنورة ، وعزائمه المفصرة ، ومحارمه المخدرة ، وبيناته الجالية ، وبراهينه الكافية ، وفضائله المندوبة ، ورخصه الموهوبة ، وشرائعه المكتوبة » (١)

وقد سئل علي (عليه السلام) هل عندكم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) شيء من الوحي ؟ قال : لا والذي فلق الحبة وبرأى النسمة ، إلا أن يعطي عبداً فهماً في كتابه (٢) تدليلاً على أن القرآن هو الوحي الاصيل ، والضابطة بلا بديل ، ووحي السنة هاشمي ليس يوصل إلا فهماً لوحي القرآن وتفصيلاً .

فلنخضع للقرآن كما لله قيامه خير كلام لله ، وقد روي عن الإمام الصادق (ع) انه قال : « من قرأ القرآن ولم يخضع له ولم يرق عليه ولم يغش حزنأ او وجلاً في سره فقد استهان بعظم شأن الله وخسر خسراناً مبيئاً ، فقاريء القرآن يحتاج الى ثلاثة اشياء : قلب خاشع وبدن فارغ وموضع خال ، فاذا خشع لله قلبه فر منه الشيطان الرجيم ، وإذا تفرغ نفسه من الأسباب تجرد قلبه للقراءة فلا يعترضه عارض فيحرمه نور القرآن وفوائده ، واذا اتخذ مجلساً خالياً واعتزل من الخلق بعد ان أتى بالخصلتين الأوليين استأنس روحه وسره بالله ، ووجد حلاوة مخاطبات الله عباده الصالحين ، وعلم لطفه بهم ، ومقام اختصاصه لهم ، بقبول كراماته ، وبدائع

(١) من خطبة الصديقة الطاهرة الزهراء بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما غصب حقها .

(٢) عن مصباح الشريعة المنسوب الى الامام الصادق (عليه السلام) .

اشاراته ، فاذا شرب كأساً من هذا المشرب فحينئذ لا يختار على ذلك الحال حالاً وعلى ذلك الوقت وقتاً بل يؤثره على كل طاعة وعبادة لأن فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك ، وكيف تحجب اوامره ونواهيه ، وكيف تمثل حدوده فانه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فرتله ترتيلاً ، وقف عند وعده ووعيده ، وتفكر في أمثاله ومواعظه واحذر ان تقع من اقامتك حروفه في اضاعة حدوده ^(١) .

فالاصل في كل شارد ووارد هو القرآن ، يُرد اليه غير الضروري من الدين ، ليُعرف به المارد عن الوارد ، ويميز به الغث عن السمين والخائن عن الأمين .

واذا كان القرآن هو المعول والمرجع لسواه ، فبأن يكون مرجعاً لنفسه أخرى ، حيث التمسك بالقرآن في الأمور المشتبهة إصلاح لها ، ووصول للرشد فيها ، فهو هو الحق ان يمسك في تفسيره بنفسه ، ﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لانضيق أجر المصلحين ﴾ (٧ : ١٧) ! فالذين لا يمسكون بالكتاب او يمسكون في تفسير الكتاب بغير الكتاب هم من المفسدين ، حيث المرجع الوحيد في المختلف فيه هو الله ، ولا يمثل الحكم فيه إلا كتاب الله : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله » (٤٢ : ١٧) ثم وموقف السنة المحمدية هو موقف الهامش الشارح لكتاب الله ، ما ثبت أنها من سنته ، ولا يُعرف إلا بموافقة لكتاب الله : « يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » (٤ : ٥٩) - ف « اردد الى الله ورسوله ما يضلحك من

(١) عن مصباح الشريعة المنسوب الى الامام الصادق (عليه السلام) .

الخطوب ويشتهه عليك من الأمور ، والرد الى الله الأخذ بمحكم كتابه ،
والرد الى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الأخذ بسنته الجامعة غير
المفرقة ^(١) .

ثم و « اولوا الأمر منكم » هم حملة السنة المحمدية السليمة ، كما امر
الله بطاعتهم المطلقة بعده وبعد رسوله : فطاعة اولي الأمر هي طاعة
الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث لا يصدر عن إلا عن الرسول ،
فمثنى الذيل في الآية « فردوه الى الله والرسول » هو مثلث الصدر فيها « . .
واولي الأمر منكم » فانهم لا يحملون إلا سنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)
وسلم) .

ففي هذا المثلث البارع من الطاعة المطلقة طاعة الله هي القاعدة
الرصينة وطاعة الرسول بعدها هي الزاوية الأولى حيث يصدر عن الله ، و
« اولي الأمر منكم » هم الزاوية الأخيرة حيث يصدر عن رسول الله ،
ولا سبيل للتعرف الى واقع السنة التي ترونها الروايات إلا موافقتها لكتاب
الله و « ذلك خير وأحسن تأويلاً » : مأخذاً ومآلاً .

ف « القرآن يفسر بعضه بعضاً وينطق بعضه على بعض » ^(٢) وآيات
العرض واحاديثه المتواترة تفرض على المستفسرين عن أي الذكر الحكيم ان
يبدءوا بالتدبر في القرآن نفسه كما يجب ، ثم عرض الأحاديث المفسرة للقرآن
على القرآن فيستفسر الموافق له ويرفض المخالف ، لكي يحصل على معاني
متلائمة ، غير متضاربة : « افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله
لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (٤ : ٨٢) .

(١) نهج البلاغة عن الامام علي امير المؤمنين (عليه السلام) .

(٢) نهج البلاغة عن الامام علي امير المؤمنين (عليه السلام) .

ولا يعني تفسير القرآن بالقرآن ضرب بعضه ببعض دون رعاية لمناسبات الآيات ، وإن تُنثر آياته نثر الدقل دون تأمل في ربا طاتها « وقد رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوماً يتدارثون فقال : هلك من كان قبلكم ، بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكلوه الى عالمه » (١) .

« وخرج على قوم يتراجعون القرآن وهو مغضب فقال : « بهذا ضلت الأمم باختلافهم على أنبيائهم وضرب الكتاب بعضه ببعض » (٢) .

فعل المفسر التدبر التام في أي الذكر الحكيم ، متحلاً عما أثبتته هو أو أثبتته الطرق العلمية أو العقلية أماميه ، مستنطقاً كل آية بنظائرها في المغزى ، فيستفسر عنها اشباهها ونظائرها ، مثبتاً عن الاحاديث الموافقة الملائمة لها .

فاختلاف الروايات في تفسير الآيات ، واختلاف المفسرين من جراءه ، ومن اختلاف افهامهم وأساليبهم ، هذه الاختلافات ترد إلى القرآن نفسه ، فلا يصدق عليه إلا ما يصدقه .

إذاً فمسالك التفسير كلها هباء وخواء إلا تفسير القرآن بالقرآن ، كما وإن الرسول والائمة من آل الرسول سلكوا هذا المسلك القويم في تفسير أي الذكر الحكيم ، وعلى المفسرين ان يتعلموا هذه الطريقة المثل من هؤلاء

(١) الدر المنثور- اخرج احمد عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عنه (صلى الله عليه وآله وسلم)

(٢) الدر المنثور- اخرج ابن سعد وابن الضريس في فضائله وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

المعلمين المعصومين . رجوعاً الى اساليبهم السليمة في تمسكهم بالكتاب ، تفسيراً للآيات بالآيات ، ثم سلوكاً في صراطهم المستقيم على طول الخط ومر الزمن .

فالتفسير بين حق وباطل ، تفسير بالقرآن وتفسير بالرأي « ومن فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار » « اخطأ أو اصاب كان مصيره الى النار » ولا يعني التفسير بالرأي إلا ان تحمل معك رأياً لك او لغيرك من قولة او رواية غير ثابتة ، ثم تحمله على آية لا تتحملة ، او لا توافقه او تخالفه ، وليس الكثير من اختلافات المفسرين في تفسير الآيات إلا لتفرقهم ايادي سبا عن تفسيره بنفسه ، او عدم المؤهلات لمن حاول تفسيره بنفسه ، فان له شروطاً حجة^(١) .

(١) روى ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن جعفر النعماني في تفسيره باسناده عن اسماعيل بن جابر قال : سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول : ان الله تبارك وتعالى بعث محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) فختم به الانبياء فلا نبي بعده وأنزل عليه كتاباً فختم به الكتب فلا كتاب بعده اخل فيه حلالاً وحرم فيه حراماً فحلّاله حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة فيه شرعكم وخبر من قبلكم وبعدكم وجعله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) علماً باقياً في اوصيائه فتركهم الناس وهم الشهداء على اهل كل زمان وعدلوا عنهم ثم قتلوهم واتبعوا غيرهم واخلصوا لهم الطاعة حتى عاندوا من اظهر ولاية ولاة الامر وطلب علومهم قال الله سبحانه : « فنسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم » وذلك انهم ضربوا بعض القرآن ببعض واحتجوا بالمنسوخ وهم يظنون انه الناسخ واحتجوا بالمتشابه وهم يرون انه المحكم واحتجوا بالخاص وهم يقتلون انه العام واحتجوا باول الآية وتركوا السبب في تأويلها ولم ينظروا الى ما يفتح الكلام والى ما يختمه ولم يعرفوا موارده ومصادره إذ لم يأخذوا عن اهل فضلوا واضلوا واعلموا رحمكم الله من لم يعرف من كتاب الله عز وجل الناسخ من المنسوخ والخاص من العام والمحكم من المتشابه والرخص من العزائم والمكي والمدني واسباب التنزيل والمبهم من القرآن في الفاظه المنقطعة والمؤلفة وما فيه من علم القضاء ..

فالمحدث يفسره بما يجده من أحاديث تناقلتها الروات ، ناظراً الى أسانيدھا ، غصاً عن متونها ، فاذا قيل : إسناده صحيح ، صحح به تفسير القرآن وافقه ام خالفه ، رغم وجود الكثير من وثنيات واسرائيليات ومسيحيات وأضرابها من خرافات تسربت الى أحاديث الإسلام فترسبت في كتب الحديث ، مهما صحت أسناد منها او ضعفت .

كما يروى من طريق السنة « ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سُحر » مساً من كرامة النبوة ، والقرآن يقول عن هؤلاء المختلقين انهم ظالمون : « اذ يقول الظالمون ان تتبعون إلا رجلاً مسحوراً » (٣٥ : ٩) (١) .

ويروى من طريق الشيعة في تفسير دابة الأرض أنها علي عليه السلام ! مساً جاهلاً او متجاهلاً من كرامة الخلافة الإسلامية المنصوصة المنصوبة .
وكثير أمثال هذه الخرافات الزور التي تناقلتها الروات والمفسرون من الفريقين دون رعاية لصريح القرآن او ظاهره حيث يمجّجه وينافيه .

فهذا ليس تفسيراً للقرآن بالسنة ، وانما بالرواية التي يعتبرها روايتها سنة ويتقبلها المفسر بالسنة كسنة ، وما هي سنة ، فانها ليست إلا قول الرسول او فعله وتقريره ، ولا سبيل اليها قوياً إلا موافقتها للقرآن حيث

= والقدر والتقديم والتأخير والمبين والعميق والباطن والابتداء من الانتهاء والسؤال والجواب والقطع والوصل والمستثنى منه والجار فيه والصفة لما قبل مما يدل على ما بعد والمؤكد منه والمفصل وعزائمه ورخصه ومواضع فرائضه واحكامه ومعنى حلاله وحرامه الذي هلك فيه الملحدون والموصول من الالفاظ والمحمول على ما قبله وعلى ما بعده . فليس بعالم بالقرآن ولا هو من اهله ومتى ادعى معرفة هذه الاقسام بغير دليل فهو كاذب مرتاب مفتر على الله الكذب ورسوله ومأواه جهنم وبئس المصير .

(١) راجع ج ٣٠ ص ٥٣٩ حول آية التفات في العقد ، وج ١٥ حول آية وكذلك الفرقان الآية ٨ .

لا يتبع الرسول في كل ما يفعل او يقول إلا وحي القرآن : « ان اتبع الا ما يوحى الي » (٦ : ٥٠) فلا يصدق على الرسول ما يكذبه القرآن وإن صحت أسناده، وقد يصدق عليه ما يصدقه القرآن وإن ضعفت أسناده ، فلا يُسند الحديث صحيحاً إلا متنه الموافق للقرآن دون سنده، ولا نحتاج الى صحة السند في متن صحيح إلا لاتقان النسبة الى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فان المتن الصحيح لا يختص بالرسول ، ثم لا تفيدنا صحة السند في متن لا يلائم القرآن ، فان الباطل لا يصدر عن الرسول^(١) .

وقد تواتر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : « لقد كثرت عليّ الكذابة وستكثر فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوء مقعده من النار فإذا أتاكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله وسنتي فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تأخذوا به »^(٢) .

او « ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته وما جاءكم بخالف كتاب الله فلم اقله »^(٣) حيث السنة ، وهي الشارحة الموافقة لكتاب الله - تندغم

(١) حالات الحديث اربع : ١- صحيح السند والمتن ٢- ضعيف السند والمتن ٣- صحيح السند ضعيف المتن ٤- ضعيف السند صحيح المتن - فالاول يسند الى الرسول والائمة من آل الرسول - والثاني يضرب عرض الحائط وكذلك الثالث اذا لم يتحمل التأويل، والرابع يصدق ولكن لا يسند الى الرسول - والاصل في صحة المتن موافقته لكتاب الله او سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الثابتة ، ولا دور للسند الا صحة الاسناد الى المسند اليه اذا كان المتن صحيحاً - فصحة السند لا تصحح المتن ، وانما هي من اسباب صحة النسبة على هامش صحة المتن .

(٢ - ٣) رواه الطبرسي في الاحتجاج بالاسناد الى ابي جعفر الجواد (عليه السلام) عند احتجاجه على يحيى بن اكثم - ورواه مثله الكافي ١ : ٦٩ عن محمد بن اسماعيل عن الفضل بن الشاذان عن ابن ابي عمير عن هشام بن الحكم وغيره عن ابي عبد الله عليه السلام =

في كتاب الله ، دون ان تكون فيها محادة لكتاب الله ، وانما هي كظل وهامش يوضح منه ما خفي على القاصرين .

ثم لا يفرق في هذا العرض حديث البر عن الفاجر ، كما في الصادقي (عليه السلام) : « ما جاءك في رواية من بر او فاجر يوافق القرآن فخذوا به وما جاءك في رواية من بر او فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به » (١) .

« .. فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا وسنة نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) فإننا اذا حدثنا قلنا قال الله عز وجل وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس له قال إلا قال » (٢)

المحاسن (٢٢١) البرقي عن ابي ايوب المدائني عن ابن ابي عمير عن هشام بن جهم وغيرهما عنه (عليه السلام) وفي المستدرک (٣ : ١٨٦) محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن هشام بن الحكم عن ابي عبد الله - ألا انها بحذف سني ، وانما كتاب الله

(١) المستدرک (٣ : ١٨٣) عن محمد بن مسلم قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) يا محمد ومثله ما في الصادقي (عليه السلام) ايضاً سئل عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به قال اذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله او من قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والا فالذي جاءكم به اولي وفي الكافي ٦٩ : ١ محمد بن يحيى عن عبد الله بن محمد عن علي بن الحكم عن ابان بن عثمان عن عبد الله بن ابي يعفور قال وحدثني الحسين بن ابي العلاء أنه حضر ابن ابي يعفور في هذا المجلس قال سألت ابا عبد الله (عليه السلام) ورواه في المحاسن (٢٢٥) مثله .

(٢) رجال الكشي (١٤٦) حدثني محمد بن قولويه والحسين بن الحسن البندار القمي قال حدثنا سعد بن عبد الله قال حدثني محمد بن عيسى بن عبيد عن يونس بن عبد الرحمن ان بعض اصحابه سأله وانا حاضر فقال له : يا محمد ! ما اشدك في =

الله ، بلفظ القرآن ام سواء - ف « ما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى » وكيف يناقض او يضاد وحي الله وحيه ا .

فالقرآن هو النور الذي يصوب الصواب ويخطيء الخطأ وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : « إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نورٌ فيها وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه » (١) .

وفي الباقرى (عليه السلام) « انظروا امرنا وما جاءكم عنا فان

= الحديث واكثر انكارك لما يرويه اصحابنا فيما الذي يملكك على رد الاحاديث فقال حدثني هشام بن الحكم انه سمع ابا عبد الله (عليه السلام) يقول : لا تقبلوا علينا حديثاً الا ما وافق القرآن والسنة او تجدون معه شاهداً من احاديثنا المتقدمة فان المغيرة بن شعبه لعنه الله دس في كتب اصحابي احاديث لم يحدث بها ابي فاتقوا الله ...

(١) اصول الكافي ١ : ٦٩ علي بن ابراهيم عن ابيه عن السكوني عن ابي عبد الله (عليه السلام) عنه (صلى الله عليه وآله وسلم)

وفي امالي الصدوق (٢٢١) قال : حدثنا احمد بن علي عن ابراهيم بن هاشم قال : حدثنا ابي عن ابيه ابراهيم بن هاشم عن الحسين بن يزيد النوفلي عن اسماعيل بن مسلم الكوفي عن الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) عن ابيه عن جده قال قال علي (عليه السلام) قال (صلى الله عليه وآله وسلم) وذكر مثله وفي المحاسن (٢٢٦) البرقي عن النوفلي عن السكوني عن ابي عبد الله (عليه السلام) عن آبائه عن علي (عليه السلام) مثله عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) الا انه قال : فخذوا به

وفي الوسائل ٣ : ٣٨٢ سعيد بن هبة الله الراوندي عن محمد وعلي ابني علي بن عبد الصمد عن ابيهما عن ابي البركات علي بن الحسين عن ابي جعفر بن بابويه عن ابيه عن سعد بن عبد الله عن يعقوب بن يزيد عن محمد بن ابي عمير عن جميل بن دراج عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة وذكر مثله وفي المستدرک ٣ : ١٨٦ محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن اسماعيل بن ابي زياد عن جعفر عن ابيه عن علي (عليه السلام) انه قال في حديث وذكر مثل ما في المحاسن .

وجدتموه للقرآن موافقاً فخذوا به وإن لم تجدوه موافقاً فردوه وإن اشتبه الأمر عليكم فقفوا عنده وردوه إلينا حتى نشرح لكم ما شرح لنا»^(١) .

وفي الصادقي (عليه السلام) : « ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف »^(٢) وهكذا نجد مستفيضاً من الأحاديث أن ما لا يوافق كتاب الله أو يخالفه فهو زخرف أو فاضربه عرض الحائط ، وكفى بما أوردناه نماذج وإن كان يكفيننا كتاب الله : « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » (٢٩: ٥١) « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » وما أجمله توافقاً بين الكتاب : المتن ، والسنة : الهامش ، في وجوب عرض الحديث على القرآن ! .

وهنا فوائد هامة :

١ - آيات العرض واحاديثه شاهدة على أن ظهور الكتاب - فضلاً عن صريحه - حجة ، وإلا فكيف يقاس الحديث على كتاب غير مفهوم ، أم لا حجة في دلالاته ؟ وما قولة القائل : « القرآن قطعي السند ظني الدلالة والحديث ظني السند قطعي الدلالة » إلا خرافة جارفة ومساً من كرامة القرآن الذي بيانه أفصح بيان وأبلغ تبيان^(٣) وما تفسير السنة للكتاب إلا إيضاحاً لما أجمل على القاصرين لا لقصور في دلالات الكتاب ، فانهايينات حتى في التشابهات، وإنما الغامض هو المعاني العالية المطلقة على الأفهام ، دون

(١) الوسائل ٣ : ٣٨٣ الحسن بن محمد الطوسي في الامالي عن ابيه عن المفيد عن جعفر بن محمد عن محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس عن عمرو بن شمر عن جابر عن ابي جعفر (عليه السلام) .

(٢) فهناك كثير من الاحاديث هي ظنية بين مشكوكة الصدور وظنيته ، ومتحملة التقية أم تغيير النص إلى غيره ، أم منسوخة أماميه ولكن القرآن لا يتطرق فيه شيء منها .

الألفاظ التي هي في أعلى قمم الفصاحة والبلاغة ، والرواية القائلة ان القرآن لا يفسر الا بالاثَر الصحيح عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) او عن الأئمة (عليهم السلام) تؤوّل الى الحظر عن تفسيره بالرأي ، ويا ترى إن تفسير القرآن بالقرآن محذور ، ثم واذا فسرتة بالحديث فلا محذور ! رغم ان القرآن تبيان لكل شيء وبيان للناس بلسان عربي مبين ، فكيف يكون بياناً للناس ولا يفهم من ظاهره شيء ، ان ذلك وصف له باللغز والمعنى ! وقد مدح الله المسكين به : ﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع اجر المصلحين ﴾ (٧ : ١٧٠) أنهم هم مصلحون ، ومدح المستنبطين : ﴿ لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ (٤ : ٨٣) وذم غير المتدبرين في القرآن : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب أقفالها ﴾ (٤٧ : ٢٤) ثم واحاديث العرض والثقلين تحملنا على الرجوع اليه كأصل ، وكيف نراجع مالا حجة في ظاهره ، وكيف نعرض على ما لا يفهم شيء من ظاهره ، إن هذا الا هراء جارفة تمس من كرامة هذا الكتاب المبين الذي فيه تبيان كل شيء !

٢ - ادلة العرض تحثنا على التدبر في القرآن كما يصح ويجب ، قدر ما يمكن ان يُعرض عليه الحديث ، فيعرف الغث عن السمين والخائن عن الأمين ، وما الاحاديث المروية إلا كهوامش مختلفة على متن الكتاب ، ما تلائم منها المتن تُقبل له شارحة ، وما لا تلائم تُضرب عرض الحائط ، وما يُشك فيهِ يرد الى قائلة او راويه .

فليس للمفسر ان يعتمد على حديث مالم يعرضه على القرآن ، ولا له ان يعرضه مالم يتدبر حقه في آيته ، تأملاً في جملاتها ، ولغاتهما مستفسراً للحصول على معناها من الآيات النظيرة لها ، لا إن يفسر آية بتفسير آية اخرى بضرب القرآن بعضه ببعض ونثره نثر الدقل ، وإنما يسرد الآيات

المتماثلة المغزى ، المتشابهة المعنى ، ونضدها تدبراً : ان يجعل كلاً ذبر
الآخرى كما يقتضيه ترتيب المعنى . . ناظراً الى الآية نفسها ، ثم ماتحتف بها ،
ومن ثم نفاثرها في سائر القرآن ، ثم يراجع الاحاديث الواردة في تفسيرها
ناظراً اليها من زاويتين : نظرة التثبت من صدورها بموافقتها للآية ، ثم
نظرة الإستيضاح لما استخفي منها من اشاراتها ولطائفها وحقائقها ان لم يكن
هو من أهلها ، او يستزيد منها عن أهلها الذين هم من اهل بيت القرآن ،
فاهل البيت أدري بما في البيت .

فاقل ما يجب التحري فيه هو فهم العبارة من الآية ، وهي المعنى المطابق
الظاهر ، ثم يتبناه لسائر الزوايا في مربع التفسير حيث هو على العبارة
والاشارة واللطائف والحقائق^(١) ، كما يتبناه في عرض الحديث على القرآن
اذا كان يعني تفسير العبارة ، كما يتبنى الثلاثة الاخرى فيما الحديث يعني
تفسيرها .

٣ - مما تدل عليه آيات العروض واحاديث ان هذا القرآن المعروض عليه هو
النازل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كلمات وآيات وترتيبات دون
نقائص او مزيدات ، والا فكيف يحتل المركز الاصيل الوحيد المعروض عليه
للاحاديث كل الاحاديث . اذاً فكل ما ورد في تحريف القرآن بزيادة او
نقصان هي مما اختلقته ايدي الزور والبهتان فانها مخالفة للقرآن ، وان كان
الخلاف في نقطة او اعراب او ترتيب او تركيب تخالف القرآن المتواجد عند
المسلمين ، المتواتر مر الزمن ، ومن لطيف الامر ان الاحاديث الحاملة
لكلمات او آيات يدعى انها محرفة بزيادة او نقصان ، هي بذواتها تشهد انها
اكاذيب زور اختلقها ايادي ائمة اسرائيلية او مسيحية وتسربت الى جهال

(١) يرويه الامام الحسين (عليه السلام) عن ابيه علي امير المؤمنين (عليه السلام)
كما ياتي بكامله (سفينة البحار تحت الحرف ك) .

يحسبونهم علماء ! (١).

والقرآن جملة وتفصيلاً دليل على براءته من زيادة او نقصان، فيما هي هذه الزيادة التي اختلطت بأي القرآن وما تميزت حتى الآن عند الخبراء باللسان ، ونرى كلام الرسول وعلي (عليهما السلام) - وهما أبلغ البلغاء - لا يخلطان بالقرآن ، إلا وهو لائح حتى عند السوقيين العرب وغيرهم .

وكيف يجرى أحد ان ينال من القرآن بزيادة او نقصان حتى في حرف منه او إعراب وقد ضمن الله حفظه : ﴿ انا نحن نزلنا الذكر وانزاله لحافظون ﴾ (١٥ : ٩) . . . وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، (٤١ : ٤٢) .

ان مدعي التحريف انما يهرف بما لا يعرف جهلاً ، او ما يعرف تجاهلاً ، ولا نجد لهم حجة إلا عليهم ، وسوف يمر عليكم قول فصل حول صيانة القرآن عن التحريف على ضوء آية الحفظ والعزة واضرابهما والله من وراء القصد .

٤ - وما تشهد عليه ادلة العرض ان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والائمة من آل الرسول (عليهم السلام) لا يفسرون القرآن إلا بحجة الدلالات القرآنية ، دون خلاف على معاني اللغات او سرد الجملات ادبياً ام ماذا ؟ وانما القرآن والقرآن فقط هو حجته على ما يقولون ، وكما كانوا يأمرون أصحابهم ان يتساءلوه فيما يفتنون ، اين ذلك من كتاب الله ؟ حتى يروضوا في حياتهم العلمية على دلالات القرآن ، دون أن تأخذهم الآراء والأهواء ايادي سبا .

(١) لقد جمع الميرزا حسين النوري في فصل خطابه ستة عشر موضعاً - بعد كذ مديد - مما يحتاج به على وجود التحريف بالنقيصة ، اكثرها تنحو نحو حذف اسم الامام علي (عليه السلام) وهو هو المحلوف لم يشر ابداً الى هذا الحذف المظلوم اليتم .

واذا كان تفسير القرآن بالحديث - دون نظر في متنه وعرض على القرآن - تفسيراً بالرأي ، فتفسيره بآراء المفسرين ، متفردين او مكثرين او مجمعين ، او تفسيره بالآراء العلمية في مختلف الحقول ، ان ذلك لأخرى ان يسمى تفسيراً بالرأي ، فانه يجمعه تفسيره بغير حجة من كتاب او سنة قطعية ، تفسيراً فيه تحميل على القرآن مالا يتحملة او لا يلائمه .

فعطف القرآن على الرأي كمعطف الهدى على الهوى يعطفان بالانسان الى الهاوية والردى وقد يروى عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) في اصلاحات المهدي القائم (عليه السلام) انه « يعطف الهوى على الهدى اذا عطفوا الهدى على الهوى ويعطف الرأي على القرآن اذا عطفوا القرآن على الرأي »^(١) .

فالذي يفسر القرآن جاهلاً بموازينه ، او تجهلاً عما يجب في تفسيره ، انه في ضلال مبين ، مهما أتى بعبارة براقية ، فلسفية او عرفانية اماهيه ؟ فان هذا الاسلوب الجاهل او المتجاهل او المبتدع المغرض يجعل من النور ظلاماً ، ومن الهدى ضلالاً : ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خساراً ﴾ (١٧ : ٨٢) .

مثل ما يهراه الهارعون المفرطون ان العبادة انما هي لغرض اليقين والوصول الى المعبود . فاذا اتاك اليقين فلا عبادة ، مستندين الى الآية : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ (١٥ : ٩٩) رغم ان اليقين درجات يتنقل العابد دوماً بين هذه الدرجات ، كما وان المعرفة درجات ، ولا نهاية لهذه او تلك وحتى لرسول الله وهو أول العابدين فضلاً عن هؤلاء المدعين ، فـ « حتى » هنا لا موقف له منتهى حتى تنتهي عنده العبادة ، وقد عبد

(١) نهج البلاغة في كلام له (عليه السلام) حول الامام المهدي (عليه السلام) .

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ربه وقام في عبادته حتى تورمت قدماه فنزلت : ﴿ طة ما انزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ فهل إنه بعد لم يكن أول العابدين. واصلاً الى درجة من اليقين التي وصلها هؤلاء المدعون ! وهو هو المخاطب في ﴿ فاعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ ؟ دون هؤلاء الأغباش الذين هم لم يصلوا بعد الى درجة من الايمان فضلاً عن اليقين ! .

او ما يتقوله بعض الفلاسفة ان الله عالمين : عالم الامر وهو إحداث المجردات، وعالم الخلق وهو إحداث الماديات مستندين الى الآية : ﴿ قل الروح من امر ربي ﴾ (١٧ : ٨٥) والآية : ﴿ ألا له الخلق والامر ﴾ (٥٤ : ٧) . فالروح من عالم الامر المجرد عن المادة دون الخلق المادة !

رغم ان الامر في الأولى هو مجموع الخلق والتقدير ، وفي الثانية الخلق هو الخلق والامر هو التدبير إذ ليس إلا له الخلق والامر ، الا بعد عرض الكون خلقاً وتقديراً : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة ايام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين ﴾ (٥٤ : ٧) فـ « ألا له الخلق والامر » تنبيه أن له أمر التدبير والتسخير في السماوات والأرض كما له خلقهما ، دون ان يكون هو الخالق ، والمدير سواء ، او هو المدير والخالق سواء ، بل انه « لا اله إلا الله » في الخلق والتدبير سواء ، ثم وخلق السماوات والأرض يعني خلق الكون اجمع فلا وجود لمخلوق مجرد عن المادة حتى يختص به الامر ، بل الامر يشمل كل الخلق ، ومن المستحيل قرآنياً وعقلياً ان يكون كائن مجرد عن المادة او الطاقة المادية سوى الله^(١) .

(١) راجع كتابنا « حوار بين الإلهيين والمادييين » وكذلك بطلان آيات الخلق والامر في الفرقان .

او ما يحمله على القرآن بعض من يسمى فقيهاً ، من رأى اتخذ تقليدياً ، كحرمة حلل الالبناء من الرضاعة التي تنفيها الآية : ﴿ وحلائل ابناءكم الذين من اصلابكم ﴾ (٢٣ : ٤) متقولاً ان قيد الاصلاب انما هو لاجراج الادعياء ، رغم ان ابناء الاصلاب نص في حرمة حللهم فقط وفي حلية حلل الالبناء من الرضاعة مع الادعياء ، ولو كان المقصود ما يهرفونه لكان النص « غير ادعيائكم » ومن ذلك كثير نأتي عليه في طيات آياتها .

ومن متفرنج أدهشته العلوم العصرية لحدّ كأنها هي الأصل والقرآن من فروعها ، كالشيخ الطنطاوي في جواهره ! حيث يعتبر فرضية انفصال الأرض عن الشمس لمفترضها الأوروبيين قانوناً علمياً ثم يختلق لها تفسيراً لبعض الآيات كالتي في سورة الانبياء : « أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما . . » (٢١ : ٢٩) متقولاً عليها أن السماوات هنا تعني الشمس والأرض هي هذه الأرض حيث فتقها الله عن الشمس بعد رتقها و « أولم ير » الماضي تعني هذا المستقبل الزاهر أن العلماء الكفار الغربيين يرون انفصال الأرض من الشمس ! .

وفي ذلك تحميل على الآية مالا تتحملة من تحويل ماضيها الى مستقبلها ، وتفسير سماواتها الى شمسها التي هي ذرة صغيرة من ادنى الجزر السماوية الاولى اليها ، ومن ثم ففتقها ، لا فتق الأرض من السماوات : الشمس ! .

ثم الآيات في فصّل تفصّل ان خرافة هكذا فصل باطلة حيث تقول بعد عرض خلق الأرض وكمالها : « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها . . فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح » وشمسنا هذه هي من مصابيح السماء الدنيا المخلوقة في

السبع بعد دخان السماء ، اذا فالشمس متأخرة عن الأرض بمرحلتين ١ .

ومن ذلك كثير عند المتفرنجين من المفسرين الذين غرقوا في العلوم والنظريات الجديدة ، ونسوا ان القرآن هو علم الله فلن يتبدل ، والعلم دوماً في تبدل وتحول من خطأ الى صواب ومن صواب الى أصوب . . .

فتفسير القرآن بفرضية العلم او رأيه ، او برأي العقل غير الضروري ، منك أمّن سواك من مفسرين او علماء آخرين ، أو احاديث غير ثابتة ولا ملائمة للآيات أو أياً كان من تفسير للقرآن بغير القرآن أو ما يصدقه ، كل ذلك تفسير له بالرأي ، دون علم او إثارة من علم او كتاب منير . .

فلا تغتر بالتحقيقات الفلسفية والتلطيفات العرفانية ، والتدقيقات العلمية ! التي تحول دون استنباط القرآن كقرآن ، تحميلاً عليه ما لا يتحملة .

وتحلل - حين ما تروم تفسير القرآن - عن كل شاردة وواردة حتى وعن مذهبك فضلاً عن رأيك او آراء الآخرين ، تحلل عن كل ذلك - وعش الآية التي تعني تفسيرها ، بمفرداتها وجملها ، بموقفها عما قبلها وما بعدها ، وينظائرها التي تعني معناها ، عشها كذلك محققاً صافي القلب خالي الذهن إلا عما تستمد به في تفهمها بمفهومها او مصاديقها ، سناداً الى عقل رائع وعلم بارع دون تحميل على الآية ما لا تتحملة نصاً أو ظاهراً ، او لا تخالفه ولا توافقه حيث لا تمت بصلة دلالية او معنوية بما تحمله عليها ، والله من وراء القصد .

فالذي يفسر القرآن برأيه او برأي مذهب او تقليده أو أياً كان من آراء انما يفسر نفسه او مذهب عبر القرآن بهواه ، دون ان يهتدي بهداه ، تفسيراً لنفسه دون تفسير القرآن نفسه ، فلذلك « كان مصيره السى النار » وليتبوء مقعده من النار .

ولان الأهوية والآراء تختلف ، والمذاهب تتخالف ، والنظريات تتضارب ، فمعاني الآيات لمن يحمل هذه وتلك تنهافت ، ويصبح القرآن مجال القيل والقال ومعتك الآراء والأقوال .

وأما إذ صدر المفسرون عن مصدر واحد ، وساروا في مسير واحد ، مفسرين للقرآن بالقرآن ، على ضوء السنة القطعية الملائمة للقرآن ، اغتربت خلافاتهم ، واقتربت أفكارهم ، وإذا جعلوا أمرهم شورى بينهم قل قليلهم وصح عليهم ، واستشرفوا الى ينبوع الوحي وإن كانوا في ذلك درجات . صحيح أن القرآن بيان للناس ، إلا أن بيانه درجات كما الناس درجات ، وكما يروي الامام الحسين عن ابيه علي أمير المؤمنين عليهما السلام : «إن كتاب الله على أربعة أشياء ، على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق ، فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للاولياء والحقائق للانباء » وهذه الاشياء المراحل هي متلائمة رغم درجاتها .

فالعبارة - وهي ما يعبر عنه اللفظ - هي التفسير الظاهر ، والإشارة هي التحقيق على هامش الظاهر ، واللطائف هي البطون ، والحقائق هي التأويل^(١) فالذي لا يعرف التفسير الظاهر هو أدنى من العوام^(٢) . ويروي عن ابن عباس «إن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن»^(٣) .

(١) سوف نجث عن التأويل والمعاني الباطنية على ضوء آية التأويل «... ولا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » انشاء الله تعالى .

(٢) بما أن الإشارة بعد المعنى الظاهر فليست العبارة هنا إلا التعبير عن الظاهر ، وكثير هؤلاء الذين يدرسون عشرات من السنين في الحوزات العلمية ولم يصلوا بعد الى درجة العوام في تقسيم الامام عليه السلام .

(٣) والمقصود تقدم العلم والعقل على مر الزمن فليس هناك آيات متشابهات لإيهام دلالي ، وإنما لعلو مدلولي عقلياً او علمياً فالتقدم العقلي والعلمي يفسر هذه التشابهات على قدره .

والمتشابه على حدّ قول الامام الرضا (عليه السلام) : « ما اشتبه علمه على جاهله » فالتشابه في آياته ليس من مقولة الدلالة اللفظية ، ان تكون الآية قاصرة الدلالة ، وانما هو لعلو المدلول على وضوح الدلالة ، وكما الافهام درجات في مفاهيم الآيات ، كذلك الآيات درجات في محكمات ومتشابهات ، رب محكمة من جهة متشابهة من اخرى ، ورب محكمة عندك متشابهة عند الآخر، فلا توجد اذاً آيات معدودات هي بعينها متشابهات وأخر محكمات ، وانما هي حسب درجات الأفهام ، فالتشابه والإحكام امران نسيان ، وان كانت بعض الآيات محكمات لكل من يعرف اللغة^(١) وبعضها متشابهات كالحروف المقطعة في اوائل بعض السور .

فليس للمفسر الخوض في آيات الله ، قائلاً بغير علم او إثارة من علم فليعلم أنها نازلة بعلم الله ، قدر ما يحتاجه العقلاء طول الزمن إلى انقراض العالم ، فليأخذ كل نصيبه من الفهم ، مثبتاً متدبراً في تفهمه ، فتقدم العقول والعلوم يكشف تجديدات وجديدات من معارف القرآن ، متشابهات عقلية او علمية تصبح محكمات على ضوء تقدم العقل والعلم ، فلا يستعجلوا فيما يخفى عليهم زاعمين ان لهم تفسير كل آية ، او كل زاوية من زواياها .

وعلى المفسر العارف ان يفسر الآيات - كما تهديه - بعضها ببعض ، دون اتكالية على آراء المفسرين ، فليسير في كل آية غورها ، دون تحويل الى كتب أو مقالات اخرى ، فلا يحوّل البحث والتنقيب عن آيات الأحكام الى الفقه او الى ما الف في آيات الاحكام ، حيث الفقه كما نراه لا يعتمد كما يجب على الآيات في الأحكام ، اللهم إلا احياناً وهامشياً محولاً الى

(١) سوف نسبر غور البحث عن المحكم والمتشابه في آية التقسيم من آل عمران.

التفسير او الكتب المؤلفة في آيات الاحكام ، فتصبح آياتها غير مفسرة لا في التفسير ولا في الفقه ، ولذلك نرى فتاوى تخالف كتاب الله من فقهاء الاسلام شيعة وسنة (١) ولا قيمة لفتوى لا تعتمد على القرآن وان اعتمدت على احاديث او شهرات ام واجماع . حيث القرآن هو المصدر الاصيل .

ولعمري لقد كانت تنحية القرآن عن القيادة المستقيمة ، واخراجه عن الحوزات العلمية حدثاً هائلاً في تاريخ الإسلام ونكبة قاصمة في حوزات الاسلام ، لم يعرف لها التاريخ مثيلاً في كل ما ألم المسلمين من نكبات ، فلا نجد كتاباً ظلم ولا نبياً أكثر من القرآن ونبي القرآن !

لقد كان القرآن يقود المسلمين بعدما فسدت الأرض وتعفنت الحياة والقيادات ، وذاقت البشرية الويلات من القيادات العفنة ، ولكننا الإستعمار من ناحية ، وجهل المسلمين من أخرى ، تعاونوا في تنحية القرآن عن المجتمع الإسلامي وعن الحوزات العلمية بوجه خاص ، لحد لا يُعتبر مدرس التفسير ومتعلمه من طلاب الحوزات وعلمائها ، بل ويُعتبر أحياناً من مخربها وناقضي سنتها !

نرى الطالب في حوزة علمية يدرس عشرات من السنين ، ثم يتخرج وليست له معرفة بمعارف القرآن ، والمسلمون بحاجة ماسة اليها وقد ضعف الطالب والمطلوب ! .

نرى القليل والقال في كل مجال من بحوث ادبية - اصولية - منطقية ام ماذا ؟ نراها متأصلة متعركة في متون الحوزات ، في حين أن القرآن لا مجال

(١) تجدد هذه الخلافات في طيات آيات الاحكام ، وإن ساعدني التوفيق لاكمال الفقه على ضوء القرآن فمجد فيه مجموعة من الفتاوى المخالفة للقرآن او غير الموافقة للقرآن وحرمة وحي الله اخرى بالرعاية من حرمان الفقهاء .

له ولا هامشياً ، وهذا ما يريده الإستعمار ويفتنمه إذ يرى بُغيته - وهي تنحيته القرآن عن أهله - حاصلة دونما صعوبة او محاولة مستمرة .

ذلك ! ورغم أن الإحتكام الى الله ، المتمثل في كتاب الله ليس نافلة وتطوعاً، نراه نافلة ضئيلة في حياتنا وكقرائه فقط ، رغم ان هذه البشرية - وهي من صنع الله - لا تفتح مغاليق عقليتها وفطرتها إلا بمفاتيح اخرى من صنع الله وهي هي القرآن لا سواه ! « ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم » (١٧ : ٩) فلا أقوم منه ولا قيّم ولا أقيم ، ثم ولا يسامى أو يوازي بكتاب سواه ولا ما بين يديه من وحي الكتاب فضلاً عن سائر الكتاب .

لقد تسلم القرآن القيادة الخالدة روحياً وزمنياً منذ بزوجه حتى يوم القيام ، ولكننا المسلمون قبل من سواهم تحللوا عن قيادته الزمنية الى الطواغيت ، وعن قيادته الروحية الى اجتهادات متخلفة مختلفة ، ولوانهم تبّنوا فيها القرآن كرأس الزاوية ، وهندسوا بنيان الإسلام على هذه الزاوية لقلت خلافتهم ، وذلت أعدائهم .

ومن المضحك المبكي ان المسلمين ككل او جُل لا يبالون بالقرآن مبالاتهم بروايات ونظرات ، وهم مصدقون كمبدئ ايماني أنه هو أصل الإسلام وأثافيّه ، وحجة رسوله في رسالته ودعوته ، فاصبح مثله عندهم كمثّل الموت على حد تعبير الامام الرضا (عليه السلام) « ما خلق الله تعالى يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت » .

فالقرآن - وهو يقين لا شك فيه - اصبح شكاً لا يقين فيه ، لحدّ لا يقتنع طالب العلم بآيته قبل روايته ، وهو مقتنع بروايته قبل آيته ! « أفمن يهدي الى الحق احق ان يتبع امن لا يهدي إلا ان يهدي فما لكم كيف تحكمون » !

فحياً الى القرآن ، علم الله النازل ، كتاب الزمن ، الوحي الاخير الذي يجمع مجامع الوحي في تاريخ الرسالات وزيادات .

ولسوف ترون لو ان القرآن دخل في الميدان في حوزاتنا العلمية كركيزة متينة أصيلة ، ومن جرائها دخل المجتمع الانساني ، لشملت علومه ومعارفه العالم ، وحلقت على كافة العقول وفي كافة الحقول : ﴿ اولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ (٢٩ : ٥١) .

ولا يعني الحديث عن الامام المهدي (عليه السلام) : ياتي بكتاب جديد . . . ، إلا أن اهل القرآن قبله تركوه ورائهم ظهرياً فنسوا او تناسوا معارفه واحكامه ، ولقد جرّبت مراراً هذه التجربة المرة في بعض الحوزات العلمية اني لما استشهد بآية قرآنية في مسألة خلافية فقهية ام سواها ، تقوم قيامتهم عليّ ، وبأي حديث تستدل ، واي قائل من العلماء يصدقك ، لا تكفي الآية بمفردها . . . في حين يستندون - احياناً - باحاديث أحاد لا توافق القرآن ، ام الى فتاوى لا شاهد لها من كتاب او سنة .
فهل ان حوزة كهذه اسلامية وقرآنية بعد : ؟! « اولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » ١٩ .

وهكذا ابتلي جمع من اخواننا السنة أنهم يفتون بما في مسانيدهم دون رعاية للعرض على القرآن ، وهذا الذي كان يزعم جمعاً منهم في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، إذا أنا أقول قال الله وهم يقولون : قال فلان وفلان ، وانهم يفضلون صحيح البخاري - عملياً - على كتاب الله ، وقليل هؤلاء الذين يعتمدون على القرآن ، رفضاً لما لا يلائم القرآن ، من شيعة او سنة ، وكثير هؤلاء الذين يفضلون الحديث على القرآن من سنة^(١)

(١) كما يفتون بحرمة المتعتين خلاف الآيتين « فما استمتعتم به منهن فاتوهن اجورهن »

وشيعة^(١) ، وان كان اخواننا السنة اكثر خلافاً على القرآن ، كما تعرفه في هذا التفسير ، وانما الطريقة المثلث هو اتباع القرآن كأصل ، واتباع الحديث على ضوء القرآن ، دون افراط من يقول : حسبنا كتاب الله ويترك السنة ، او تفريط من يقول : حسبنا السنة او الحديث ولا يفهم كتاب الله إلا بدلالة الحديث ، كانما القرآن لغز غير مفهوم ! فكيف اصبح حجة على الاولين والآخرين لاثبات رسالة الرسول ، وقبل ان يصدقوه وأهليه المعصومين .

وحقيق على حوزة تريد ان تتسم بسمة اسلامية ان تؤصل القرآن في كافة حقولها ، وتفرع عليه كافة علومها وعقولها ، تعوداً على مراجعة القرآن

« فريضة » « فمن تمتع بالمعصرة الى الحج فما استيسر من الهدى » ويفرضون الشاهدين في النكاح دون الطلاق معاكسين نصوص القرآن حيث الطلاق بحاجة الى شاهدين : « واشهدوا ذوي عدل منكم » دون النكاح حيث لا دلالة عليه في القرآن ، ويموزون الطلاقات الثلاث دون رجعات خلافاً للنص : « الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان ... فان طلقها فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره » (٢ : ٢٣٠) ومحللين ذبائح اهل الكتاب وان لم يذكروا عليها اسم الله ، وآيات تنص عليه « ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق » ورادفين نصف الميراث الى غير البنت الواحدة من عم او خال او ابن لها والنص : « واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله » وترى انهم اولى من البنت التي هي اقرب الى المورث منهم .

(١) كما نرى الكثير من فقهاء الشيعة يفتون بحلية نكاح الزانيات وإنكاح الزنات على كراهية والنص يحصر الحلية بالمحصنات : « والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من اللين اوتو الكتاب » ويحرم مناكحة الزانيات : « الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك وحرم ذلك على المؤمنين » ويحرمون حلل الابناء من الرضاة كما من الاصلاب والنص يخص التحريم بالاصلاب : « وحلائل ابناكم الذين من اصلابكم .. »

يفرضون الاضحية للحاج في الاضحى وان هدرت لحومها التي هي حق الفقراء والنص : « فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا البائس الفقير » وامثالها غير قليل .

كاصل لا ريب فيه . في كل اصل او فرع عقائدي او فقهي او فلسفي ام ماذا، نابع من ينابيع سوى القرآن آياً كان ومن اي كان وآيان، لكي تكون الحوزة صادرة عن القرآن ، واردة موارده، وإلا فهي ماردة غادرة ، ضالة ناكبة شاردة .

ولقد ضاع القرآن بين حالة منعزلة عن الحياة ، بهالة قدسية لا تنالها الأفهام عند من يبررون موقفهم السلبي وجاه القرآن ، قدسية خيالية خاوية تعزلها عن الحياة الاسلامية ، وكأنه كتاب ورد ودعاء تكفينا قراءته في حل المشاكل ، ويكفي شفاء للمرضى وشفاعة ورحمة للموتى ! رغم انه حياة مستقيمة لمن شاءها : ﴿ ان هو الا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم ان يستقيم ﴾ ﴿ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ !

وبين حالة بسيطة يناله كل من يعرف من لغته شيئاً ، ثم وليس وراء ما يفهمه البسطاء إشارات ولطائف وحقائق ، فلذلك لا حاجة الى دراسته ومدارسته !

والقرآن بيان للناس وفيه تبيان كل شيء : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفاها ﴾ ! .

ولسوف ترون ان القرآن برهان قاطع وبيان ساطع لا مرد له لاثبات المبدأ والمعاد وما بينهما ، ولا ثبات كل ما يحويه ويبيده من احكام عقلية ام ماذا ؟ فانه برهان بنفسه لمن أنزله وعلى من أنزل ولماذا أنزل ؟ : كتاب تدوين يخلق على التشريع والتكوين ببرهان يقين !

في هذا المدخل نقدم تنبيهات على امور كثرت فيها الاقاويل فخلقت القال والاقيل في الوسط الاسلامي وسواه من أوساط ، كالنسخ والتحرير والتفسير بالمأثور وشأن النزول وبطون معاني القرآن .

كلام حول النسخ :

القرآن - في جملة واحدة - ناسخ لسواه وليس منسوخاً بسواه ، قبله او معه او بعده ، وان كان فيه بعض التناسخ لنفسه في احكام مؤقتة امتحانية كحكم النجوى والزنا وعدد الكفاح في قتال الكفار : « ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

ولان الحكم الناسخ يبطل الحكم المنسوخ ، فعزة القرآن وغلبته تجعله بحيث لا يبطل ولا يُنسخ جملة او تفصيلاً ، كلاً او بعضاً « من بين يديه » من كتابات السماء حيث تؤيده ولا تبطله ، « ولا من خلفه » حاضراً لديه كوحي السنة ، او آتياً بعده كفتاوى الخلفاء والائمة ، فلو أن حكماً من الاحكام زمن الوحي او بعده يُنسخ حكماً من احكامه فقد أتاه الباطل ، الذي يبطله ويحوّله . والقرآن هو نفسه يُحيل للرسول ملتحداً سواه : ﴿ اتل ما اوحى اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ (١٨ : ٢٧) فانه الوحي الخالد الام الذي يتبنى شريعة الاسلام طول الزمن ، ومهما كان وحي السنة ايضاً وحياً ولكنه شارح له . هامشي ، لا يمكن أن يختلف عنه وينسخه ، وقد أمر الرسول ان يتبعه ، فيعيش متابعة وحي القرآن طوال الرسالة : ﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ (١٠ : ١٠٩) : ﴿ انا انزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصياً ﴾ (٤ : ١٠٥)

وقد حصر الرسول حياته الرسالية باتباع ما يوحى اليه : ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي .. ﴾ (٧ : ٢٠٣) ﴿ إن اتبع إلا ما يوحى إلي وما

أنا إلا نذير مبين ﴿ (٤٦ : ٩) .

وما مرت على الرسول ولا مرة يتيمة أن يخالف وحي القرآن ولو نسخاً لحكم من أحكامه . إلا ما اختلقته أيدي الزور والغرور أنه نسخ حكم المتعتين ، وليبرروا بدعة فلان التي يسمونها بدعة حسنة ! .

ولأن القرآن هو الوحي الاصيل الخالد حجة على العالمين . لم يكن الله ليوحي الى رسوله وحيّاً في سنة تنسخ وحي القرآن ، فالاحاديث التي تتحدث عن نسخ الكتاب بالسنة تضرب عرض الحائط ، لأنها تخالف الكتاب جملة وتفصيلاً ، كما وأن آيات العرض وأحاديثه المتواترة تضربها عرض الجدار ، مهما كثر محدثوها ومفتوها .

وإذا الرسول « لن تجد من دونه ملتحداً » فما لغير الرسول يسمح لنفسه أن ينسخ القرآن ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ... هم الظالمون .. هم الفاسقون ﴾ (٥ : ٤٤ - ٤٥ - ٤٧) .

فنسخ القرآن كفر وظلم وفسق بل وأظلم منها وأنكى ، فإن ثالث الكفر والظلم والفسق هو لمن لم يحكم بما أنزل الله ، فما هي حال من حكم بخلاف ما أنزل الله ؟

فالسنة إذاً لا تنسخ القرآن ، كما ولا تنسخ نفسها ، حيث السنة المنسوخة إن كانت خلاف القرآن فهي باطلة منذ كونها وليست سنة حتى تنسخ ، وإن كانت وفاق القرآن فنسخها إذاً نسخ للقرآن ولن يكون ! ، اللهم إلا في سنة لا توافق القرآن ولا تخالفه إذ لم يأت وحيها بعد في القرآن فقد يكون تناسخٌ بينها قبل قرآنها .

وأما نسخ القرآن للسنة فقد يكون ، حيث الرسول كان - قبل ان يوحى إليه القرآن - مستناً بسنة من قبله من رسول ، أو سته الخاصة بالنسخة

لما قبله ، ووحى القرآن يتدرج طوال الرسالة ، فقد كان ينسخ ما عنده وقد كان يُقرّه .

إذاً ففي مثلث النسخ المدعى لا نجد إلا نسخ القرآن للسنة في نجومه النازلة هنا وهناك ، او تناسخ السنة أحياناً .

ثم النسخ - خلاف ما قد يزعم - ليس إلا في الأحكام التكليفية او الوضعية ، وأما الأحكام العقلية ، والإخبارات الكونية ، فليس التناسخ فيها إلا تكاذباً ، كذباً فيها او أحدهما ، وحاشا عن ذلك وحى القرآن والسنة .

وكسما أن نسخ القرآن بالسنة لا يصدق في إزالة حكم من أحكامه ، كذلك في تقييد إطلاقاته أو عموماته التي هي نص في الإطلاق أو العموم ^(١) او في حمل ظاهر مستقر الى غير ظاهره ، فإنه أظهر من ظاهر الحديث أو ونصه ، أو في إطلاق آية مقيدة او تعميم آية خاصة او تخصيص آية عامة ، او تقييد آية مطلقة ، اللهم إلا في عام او خاص قرآني ليسا في مقام البيان فيصح تخصيص عامه وتقييد مطلقة بما ثبت من السنة ، وسوف نجد تفاصيلها في هذا التفسير .

(١) فقله تعالى : وأمها نساءكم - بعد - ربائبكم اللاتي في حجوركم من نساءكم اللاتي دخلتم بهن - انه نص في اطلاق الامهات حيث هن اعم من امهات النساء المدخول بهن وغير المدخول بهن - لمقابلته الربائب من النساء المدخول بهن اذ لو كانت الامهات مقيدات لذكر قيدهن كما ذكر قيد امهات الربائب

لذلك يطرح الحديثان المقيدان لأمهات النساء رغم صحة سندهما ، ويقبل الحديث العلوي - على ضعف سنده - القائل ، لأنهن مرسلات وأمها نساء الربائب مقيدات . ومن النص في العموم قوله تعالى : « ان الله على كل شيء قدير » وليس المحال شيئاً حتى يستثنى تعلق القدرة به ، وكذلك العمومات والاطلاقات الظاهرة في العموم او الإطلاق ، الا ان تكون سنة ثابتة تخص أو تقيّد .

صيانة القرآن عن التحريف :

لو لم تكن شئنة أعرفها من جاهل او متجاهلين ، الذين يخفون فيعرفون بما لا يعرفون عن القرآن ، هرفاً في التحريف ، لما كتبت عنه شيئاً ، لأن القرآن فوق هذه الأقاويل الزور ، والتي تسربت إلى أحاديث الإسلام فترسبت عند من غرب عقله ، فلذلك أجمل البحث عنه كما أجمله شيخ الطائفة واضرابه (١) .

وجملة القول عن نقول في هذا المضمار : أن القرآن محرف بنقصان فقط وفي التاليف (٢) واما الزيادة فمجمع على بطلانها ، ولا ريب أن الآيات الموجودة كلها قرآن ، ومنها ما نصّح بعدم التحريف أيا كان ، فقولة

(١) قال في مقدمة تفسيره : التبيان : واما الكلام في زيادته ونقصانه فما لا يليق به ايضاً لان الزيادة مجمع على بطلانها والنقصان منه فالظاهر ايضاً مع مذهب المسلمين خلافه وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا وهو الذي نصره المرتضى وهو الظاهر في الروايات غير أنه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصة والعامة بنقصان كثير من آي القرآن ونقل شيء منه من موضع إلى موضع طريقها الأحاد التي لا توجب علماً ولا عملاً والأولى الإعراض عنها وترك التشاغل بها لأنه يمكن تأويلها ولو صحت لما كان ذلك طعنًا على ما هو موجود بين الدفتين فان ذلك معلوم صحته لا يعترضه أحد من الأمة ولا يدفعه .

ورواياتنا متناصرة بالحث على قراءته والتمسك بما فيه ورد ما يرد من اختلاف الأخبار في الفروع اليه وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رواية لا يدفعها احد انه قال : اني مخلف فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا ابداً كتاب الله وعترتي اهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الخوض - وهذا يدل على انه موجود في كل عصر لانه لا يجوز ان يأمر بالتمسك بما لا نقدر على التمسك به . . واذا كان الموجود بيتنا مجمعاً على صحته فينبغي ان نتشاغل بتفسيره وبيان معانيه ونترك ما سواه .

(٢) راجع ج ٢٩ ص ٢٨١ - ٢٨٤ على ضوء الآية : ان علينا جمعه وقرآنه .

التحريف إذاً تناقض القرآن: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون» (١٥: ٩) والذكر هنا هو القرآن، فانه منزل، وليس الرسول وهو الذكر المنزل: «فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً يتلوا عليكم آيات الله بينات...» (٦٥: ١٠) فالرسالة دفعية منزلة، وليست تدريجية منزلة، ثم الذكر قبل آيته هو القرآن: ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ (١٥: ٦) وحفظ قرآنه حفظاً لبرهانه الرسالي الخالد يخفف عنه وطأة تهمة الجنون، فليس إلا حفظاً له ككل وفي أية ناحية كقرآن، طوال الرسالة الإسلامية، وبم تناول أيدي الناس، لا حفظاً في صدره هو وصدور المعصومين من خلفائه - فحسب، فانه لا يحافظ على كيان الرسالة إلا عند أهلها، والآية في مقام الإمتنان، وماذا يجديه حفظه عنده إذا كان ضائعاً عند الأمة، فهل نزل هذا الذكر إلا للأمة: «أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون».

ولا نجد أية كآية الحفظ - في أية مهمة إسلامية - فيها هذه التأكيدات العديدة: ١ - إن . ٢ - نا - ٣ - نحن . ٤ - نا . ٥ - إن . ٦ - نا . ٧ - له . ٨ - لنا . ٩ - حافظون .

فهل نسي الله أم عجز أو بخل عن حفظه وصيانه في تأليفه؟ أو عن زيادته أو نقصانه إذ غلب على أمره؟ والله غالب على أمره! وهو القائل العزيز: «وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (٤١: ٤٢): لا يأتيه الباطل من أي تهريف أو تحريف، رغم ما يأتيه المبطلون - لا يأتيه من بين يديه من وحي سابق يكذبه ويبطله، أو لا حق أو معاصر كذلك، فضلاً عن غير الوحي من دس المبطلين، لانه «تنزيل من حكيم حميد»: بل هو قرآن مجيد في

لوح محفوظ .

انه محفوظ جملة وتفصيلاً ، نزولاً وتزويلاً ، تأليفاً وترتيباً ، حتى في حروفه ونقطه وإعرابه ، فضلاً عن جملة وآياته ، وكما يشهد بذلك القرآن نفسه ولولا كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً وقد يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عدد كلمات القرآن وحروفه .

ثم وحديث الثقلين ، وآيات العرض وأحاديثه ، شهود صدق على صيانتهم عن التحريف ، فكيف يكون القرآن المحرف معروضاً عليه لكل حادث وحديث ؟ او يكون الثقل الأكبر بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مع أصغره حتى يرثاه الخوض ؟ .

وما خرافة تحريف القرآن إلا اختلاقاً إسرائيلياً وجد له سبيلاً الى غفلة جاهلين ، او طائفتين من سنة وشيعة ، كل يصدق اختلاقاً حول التحريف ليثبت مذهبه تغافلاً عن كيان القرآن وهو أساس الإسلام .

فالسني يهرف بنقصان آية الرجم : « الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة » ما يعرفه كل سوقي عربي انه لا يشبه الوحي القرآني .

والشيعي يخرف بنقصان اسم الامام علي وآله في مواضع هي غاية الكذب والكذب في باطله من أخبار آحاد^(١) .

(١) كما فعله ميرزا حسين النوري في « فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الارباب » كالتالي :

١ - فبدل الذين ظلموا آل محمد حقهم قولاً غير الذي قيل لهم فانزلنا على الذين ظلموا آل محمد حقهم رجزاً من السماء « ١ - والذين ظلموا هنا هم جماعة من اليهود حيث ظلموا انفسهم ونبههم فبدلوا قول الحق « حطة » بقولهم « حنطة » ، استهزاءً ، فابن ظلمهم بآل محمد او محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه في حنطتهم ؟ =

- ٢ - « بثسما اشتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل الله في علي » وهم انما كفروا بما عرفوه من النبوة المحمدية ولما يصل الامر بعد إلى علي !
- ٣ - « ولتكن منكم أئمة .. كتتم خير أئمة » والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يختصان بالأئمة وانما هما واجب الأئمة على شروطهما .
- ٤ - « يا ايها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم في ولاية علي وان تكفروا بولايته فان له ما في السماوات والارض » . وكأنما الرسول جاء بالحق فقط في ولاية علي قبل ان تثبت ولايته (صلى الله عليه وآله وسلم) ام ماذا ؟ .
- ٥ - « يا ايها الذين اوتوا الكتاب آمنوا بما انزلنا في علي نوراً مبيناً » والآية « بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل ان نطمس وجوهاً فنردها على ادبارها او نلعنهم كما لعنا اصحاب السبت وكان امر الله مفعولاً » (٤ : ٤٧) .
- والكتابي المنكر للرسالة الاسلامية - وهي الاصل - كيف يوجه الى فرعها وهو ولاية علي (عليه السلام) ؟ ثم لا أدري كيف يتصل قوله : « نوراً مبيناً » بـ « مصداقاً لما معكم ... » ؟
- ٦ - « اوفوا بالعقود التي عقدت عليكم لامير المؤمنين علي بن ابي طالب » ويا ليت شعري ما هي المناسبة بين عقد الولاية وبينها : « احلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم » اللهم الا ان مختلف هذا الحديث هو من بهيمة الانعام ! .
- ٧ - « بلغ ما انزل اليك في علي » وقد وردت في روايات ان « في علي » تفسير لما ورد الآية وليست من الآية .
- ٨ - « والله ربنا ما كنا مشركين بولاية علي بن ابي طالب » وناكر الولاية وحتى النبوة لا يسمى مشركاً ، وانما هو المشرك بالله ، ثم هذه مقالة اصاب الجحيم وناثر ولاية علي (عليه السلام) لا يستحق بذلك النار .
- ٩ - « انما انت منذر وعلي لكل قوم هاد » وليس علي هادياً للاقوام السابقين كما محمد لم يكن ، وانما هو هاد منذ خلافته ، كما محمد منذ رسالته .
- ١٠ - « رب اغفر لي ولولدي اسماعيل واسحاق - او - اسحاق ويعقوب - او - الحسن والحسين » وليت شعري كيف أقحم اسحاق مع اسماعيل ولما يولد ، فضلاً عن : اسحاق ويعقوب ، واخيراً : الحسن والحسين ! وأبوهما وجدتهما أخرى بالدعاء لو أن «

= ابراهيم يريد الدعاء لمن يأتي .

١١ - « ان هذا صراط علي مستقيم » وهنا غفل المفتري عن ان « مستقيم » وصفاً لـ

« صراط » المعروف بالاضافة الى علي - كما زعم - يجب تعريفه « المستقيم »

١٢ - « ان تكون ائمة هي ازكى من ائمتكم » ...

١٣ - « ولقد عهدنا الى آدم من قبل في محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والائمة من

ذريتهم » ولم يكن العهد المنسي الا الطاعة المطلقة لله وعدم طاعة الشيطان ، واما في

محمد وآله (عليهم السلام) فالآيات تلمح والروايات تصرح انه كان عارفاً بهم مؤمناً .

١٤ - « يا ليتني اتخذت مع الرسول علياً ولياً » .

١٥ - « يا محمد يا علي القيا في جهنم كل كفار عنيد » وليساهما من الزبانية !

١٦ - « واذا المودة مثلت بأي ذنب قتلت » والمودة لا تقتل وإنما المودة هي التي كانت

تقتل !

١٧ - « واتبعوا ما تتلوا الشياطين بولاية الشياطين على ملك سليمان » وهنا يبدو الاختلاق

الاسرائيلي واضحاً حيث يفترى على سليمان - وفقاً لما في التوراة - ان ملكه كان بولاية

الشياطين - وقد غفل المفتري عن ذيل الآية « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا »

ومن هؤلاء الشياطين مختلفوا هذه القرية على سليمان في التوراة وفي الآية المزعومة

القرآنية !

(١٨) « متاعاً الى الحول غير اخراج مخرجات » وليته يشعر ماذا تفيد « مخرجات » الا

تناقضاً في الحكم - حيث المعنى : تمتعوا المتوفى عنهن ازواجهن الى الحول دون اخراج

لهن حالكونهن مخرجات !

(١٩) « لقد جاءكم رسول من انفسنا عزيز عليه ما عتتنا حريص علينا بالمؤمنين رؤوف

رحيم » ومعلوم ان « كم » هم المرسل إليهم و « نا » هو المرسل ، فهل هناك جمع من

الآله بعثوا واحداً منهم رسولاً الى الناس ؟ او ان الله عبر عن نفسه بصيغة الجمع عناية

الى جمعية الصفات ، ثم الرسول هو من ذاته تعالى !

هذه زبانياتهم التسعة عشر التي اضرموها ليحرقوا بها القرآن ولكنهم مفضوحون ! واكثرها

من مرطقات بعض المتظاهرين انهم شيعة ، وليسوا إلا شيعية ، يروون او يصدقون =

ولكننا القرآن يقول كله تلميحاً، ونقول بعض آياته تصريحاً، انه لم يحرف ولن ،
ولكننا الحرفة الطائفية ليست لتسمح الرجوع في ذلك الى القرآن نفسه ، لحدّ يستدل
قائله بآية مشوهة حيث لم يجد فرصة للرجوع الى القرآن ، اذ كان يسبر أغوار
الأحاديث من عشرات وعشرات مؤلفات تضمها^(١).

وقد يعني [البعض من احاديث التحريف - غير الصريحة في نقص او زيادة
لفظية - تعني] تحريف المعنى، إمالة لمعاني آيات الى غير معانيها، وهذا مما
تعانيه منذ نزول القرآن : « يحرفون الكلم من بعد مواضعه - عن
مواضعه .. » (٥ : ٤١ - ٤ : ٤٦) وكما تشهد له رسالة الإمام الباقر
(عليه السلام) الى سعد الخير : (وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه
وحرفوا حدوده ، فهم يروونه ولا يروونه ، والجهال يعجبهم حفظهم
للرواية ، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية)^(٢) كما وان التأويل المصطلح

روايات اسرائيلية تنوّه كأنما القرآن نزل - فقط - ليثبت فضل آل محمد ، واما محمد فليس
إلا رسولا ليبلغ الى الناس هامة الولاية لآله فقط !

ان المحاولة الاسرائيلية المسيحية وجدت بين جهال من المسلمين من يستجيب لهم ،
كخدمات مذهبية : شيعية او سنية ، ليشوهوا سمعة القرآن كما كانت كتبهم ولكن « إنا
نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » « وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا
من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

(١) ينقل المحدث حسين النوري آية الذكر في كتابه المخطوط بيده : « انا انزلنا الذكر
وانا له حافظون » ثم يقول : الإنزال لا يدل على أنه الكتاب بل استعمل الإنزال
للرسول في قوله :

« انزلنا اليكم ذكراً رسولا » هذا! رغم ان آية الحفظ تقول « نزلنا » وهو ينقلها « انزلنا
اليكم » فلم ينظر الى آية الذكر حتى يعرف انه ذكر منزل وليس منزلاً ، ولا الى ما قبلها
ليعرف أنه القرآن ! فيا له مراماً ما أبعد وذكراً ما أغفله !

(٢) اصول الكافي

للآيات - وهو تفسيرها بخلاف ظواهرها المستقرة - هو أيضاً تحريف وتفسير بالرأي .

فالتحريف لغوياً هو الإمالة للشيء عن وجهه الى غير وجهه ، فيشمل وجه اللفظ الى لفظ آخر ، ووجه المعنى - وهو ظاهره - الى معنى آخر ، ووجه التركيب الى تركيب آخر وما الى ذلك من وجوه التحريف في الآيات ، ونحن لا نصديق إلا واقع التحريف في وجوه المعاني الصريحة او الظاهرة الى غيرها ، المندد به في القرآن والحديث ، دون غيره حيث يكذبه القرآن والحديث .

ثم وفي صيانة القرآن عن التحريف صيانة للسنّة المحمدية عن التجديف وصيانة لسائر كتب السماء عما تدخل فيها من وحي الأرض ، حيث يهيم على ما قبله من كتاب ، وعلى حد ما يروى عن رسول القرآن واهل بيته المكرام (عليهم السلام) فانه الثقل الاكبر بعد الرسول ، حيث يستمر به الثقل الأصغر ، إذ تعرض رواياتهم عليه فيعرف الخائن المفتري من الأمين والغث من السمين .

وفي تحريف القرآن - وهو كتاب الزمن - ضياع لكافة الرسالات الإلهية ورسالة القرآن ، وزوال للحجة البالغة الإلهية عن العالمين .

« وما انزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (١٦ : ٦٤) « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام » (٥ : ١٦) .

وهذا القرآن فيه من التواتر العام طوال القرون الإسلامية لحد أصبح كالشمس في رابعة النهار ، وما تهريف التحريف الا كذباب أو ذباب تحاول

كسف الشمس بجناحها وذبا .

فكل أمر يُرجع إلى القرآن لفظاً ومعنى وترتيباً وقراءة ، إذ لا نصدق أية قراءة لا توافقها المتواترة المتداولة ، المخطوطة والمطبوعة ، فذة او في التفاسير ، ولا سيما القراءات التي تغير المعاني .

وسوف ترى في هذا التفسير ان وصمة التحريف تهريف هراء من بعض الجهال او المعاندين ، وتجديف في أحاديثنا من إسرائيليات ومسيحيات تعني تشويه القرآن كما شوّهت سائر كتابات السماء ، وأن القرآن بنفسه يذود عن نفسه هذه الوصمة الجاهلة ، بالفاظه ومعانيه ، كما هو يثبت كونه وكيانه أنه إلهي واصب كالشمس في رابعة النهار ، فهو هو دليل لكل دليل ومدلول ، ولا يحتاج بنفسه إلى دليل ، اللهمّ لا لمن لم يعيش القرآن قلبه ، او يعيش قلبه عن نوره المبين وتبينه المتين ، فلينبه لذكراه ، ليهتدي إلى هداه .

ومن آياته أن تسمت جملاته بالآيات ، حيث اتسمت بانها دالات بكونها بذواتها إلهيات ، فكما أن معجزات الرسالات آيات كذلك القرآن كله آيات ولكنها خالجات .

التفسير المأثور :

نجد الكثير من احاديث التفسير لا تعني تفسير المفاهيم ، وانما المصاديق الجلية او الخفية او المختلف فيها ، دون أن تحصر الآيات بنفسها إذ لا تتحملها .

فتفسير النبأ العظيم والصراط المستقيم بعلي امير المؤمنين (عليه السلام) هو من قبيل الجري والتطبيق ، وبيان مصداق مختلف فيه ، ولو كان هو - فقط - الصراط المستقيم لأصبح النبي طالباً في صلواته ليل نهار صراط علي كانه (عليه السلام) أعلى منه (صلى الله عليه وآله وسلم) !

الظاهر والباطن :

ظاهر القرآن هو اللائح من المعنى المطابق حسب قانون الأدب اللفظي ، نصاً أو ظاهراً مستقراً ، والباطن هو الإشارة واللطف والحقيقة ، وهذه مراحل أربع وكما يرويه الامام الحسين عن ابيه علي امير المؤمنين : « كتاب الله على أربعة أشياء على العبارة والإشارة واللطف والحقائق فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطف للأولياء والحقائق للأنبياء » ولعل الحقائق هي التأويلات : المأخذ والنتائج كما يأتي حول آية التأويل .

فالعبارة هي المعبرة عن المعنى الظاهر دون مجرد اللفظ بلا عبارة له عن المعنى ، ولو كانت هي اللفظ لكان ثانياً المعنى دون الإشارة ، وقد ثناه بالإشارة التي هي بعد المعنى ، ثم هذه العبارة المعنى تشير للخواص الى لطائف ، وهذه اللطائف قد تشير الى الحقائق وهي خاصة بأهل الوحي : أهل بيت الرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) .

إذاً فالمعاني الباطنية هي سلسلة إشارات فلطائف ثم حقائق تنبع من المعاني الظاهرية لمن شرح الله صدره بالقرآن ، عاش قلبه القرآن فعاش القرآن قلبه ، فأصبح عشيراً للوحي القرآني ^(١) .

= رفعه الى خيمة قال قال ابو جعفر (عليه السلام) : ...

(١) قال المغفور له الفيض الكاشاني في المقدمة الخامسة من تفسيره : « ان من زعم ان لا معنى للقرآن الا ما يترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه ولكنه مخطئ في الحكم ببرد الخلق كافة الى درجته التي هي حده ومقامه ، بل القرآن والاخبار والآثار تدل على ان في معاني القرآن لارباب الفهم متسعاً بالغاً ومجالاً رحباً قال الله تعالى : « افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب أقفالها » وقال : لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على احسن الوجوه » .

الظاهر والباطن :

ظاهر القرآن هو اللائح من المعنى المطابق حسب قانون الأدب اللفظي ، نصاً أو ظاهراً مستقراً ، والباطن هو الإشارة واللطيفة والحقيقة ، وهذه مراحل أربع وكما يرويه الامام الحسين عن ابيه علي امير المؤمنين : « كتاب الله على أربعة أشياء على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء » ولعل الحقائق هي التأويلات : المأخذ والنتائج كما يأتي حول آية التأويل .

فالعبارة هي المعبرة عن المعنى الظاهر دون مجرد اللفظ بلا عبارة له عن المعنى ، ولو كانت هي اللفظ لكان ثانيه المعنى دون الإشارة ، وقد ثناه بالإشارة التي هي بعد المعنى ، ثم هذه العبارة المعنى تشير للخواص الى لطائف ، وهذه اللطائف قد تشير إلى الحقائق وهي خاصة بأهل الوحي : أهل بيت الرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) .

إذا فالمعاني الباطنية هي سلسلة إشارات فلطائف ثم حقائق تنبع من المعاني الظاهرية لمن شرح الله صدره بالقرآن ، عاش قلبه القرآن فعاش القرآن قلبه ، فأصبح عшиراً للوحي القرآني (١) .

= رفعه الى خثيمة قال قال ابو جعفر (عليه السلام) : . . .

(١) قال المغفور له الفيض الكاشاني في المقدمة الخامسة من تفسيره : « ان من زعم ان لا معنى للقرآن الا ما يترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه ولكنه مخطئ في الحكم ببرد الخلق كافة الى درجته التي هي حده ومقامه ، بل القرآن والاخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن لارياب الفهم متسعاً بالغاً ومجالاً رحباً قال الله تعالى : « افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب أقفالها » وقال : لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على احسن الوجوه » .

فليست الإشارات إلا من مشيرات المعاني الواسعة لمن شرح الله صدره ،
ولا اللطائف إلا من هذه الإشارات ، درجات تلو بعض لمن يتدرج اليها
بمدارج التدبير ولطيف التفكير وواسع الصدر ، دون فوضى ادعاء لكل من
يهوى ما يهواه فيسميه إشارة او لطيفة او حقيقة ! .

فليتجنب المفسر عن استعمال القياس في القرآن - ف « من نصب
نفسه للقياس لم يزل دهره في التباس ومن دان الله بالرأي لم يزل دهره في
ارتباس »^(١) - « مائلاً عن المنهاج ، طاعناً في الإعوجاج ، ضالاً عن
السبيل ، قائلاً غير الجميل »^(٢) .

وفي الصادقي (عليه السلام) : « إن للقرآن بطناً وللبطن ظهراً وليس
شيء أبعد من عقول الرجال منه ، إن الآية لتنزل أولها في شيء وأوسطها
في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل ينصرف على وجوه »^(٣) .

مركز تقيت كاميون علوم اسلامی

- ثم قال : « فالصواب ان يقال : من أخلص الإنقياد لله ولرسوله وأهل البيت (عليهم
السلام) وأخذ علمه منهم وتبع آثارهم وأطلع على جملة من أسرارهم بحيث حصل له
الرسوخ في العلم والطمأنينة في المعرفة وانفتح عيناه قلبه وهجم به العلم على حقائق
الأمور وياشر روح اليقين واستلان ما استوعره المترفون ، وأنس بما استوحش منه
الجاهلون وصحب الدنيا بيدن روحه معلقة بالمحل الاعلى ، فله ان يستفيد من القرآن
بعض غرائبه ويستنبط منه نبذاً من عجائبه ، ليس ذلك من كرم الله تعالى بغريب ولا
من جوده بمعجب ، فليست السعادة وفقاً على قوم دون آخرين وقد عدوا جماعة من
اصحابهم المتصفين بهذه الصفات من انفسهم قالوا : سلمان منا اهل البيت
(١) قرب الاسناد حدثني هارون بن مسلم قال وحدثني مسعدة بن صدقة قال حدثني
جعفر بن محمد عن ابيه ان علياً (عليه السلام) قال : ...
(٢) المستدرك عن الامام الحسين (عليه السلام) .
(٣) العياشي عن جابر قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) يا جابر : ...

وفي النبوي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ان للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن » وهذه السبعة - كما في الصادقي (عليه السلام) هي ادنى مال الإمام ان يفقي علي سبعة وجوه - ثم قال : « هذا عطاءنا فامتن أو أمسك بغير حساب » (١).

وفي الباقر (عليه السلام) : « ان للقرآن بطناً وللبطن بطناً وظهراً وللظهر ظهراً » (٢).

وهكذا يشار الى مراتب البطون ، ان الظاهر الاول ظهر لأولى البطون وهذا البطن ظهر للبطن الثاني والثاني ظهر للثالث ، فكل بطن ظهر لما بعده وبطن لما قبله ، سلسلة تنبؤات وخواطر متدرجة تتبع من منبع النص والظاهر القرآني

وفي العلوي (عليه السلام) : « ان الله جل ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدثه المبطلون من تغيير كلامه قسم كلامه ثلاثة أقسام ، فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل ، وقسماً لا يعرفه إلا من صفى ذهنه ولطف حسه وصح تمييزه ممن شرح الله صدره للإسلام ، وقسماً لا يعرفه إلا الله وأنبياءه والراسخون في العلم ، وانما فعل ذلك لئلا يدعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من علم الكتاب ما لم يجعله الله لهم ، ويقودهم الإضطرار إلى الإيتمار لمن ولاء أمرهم ... » (٣).

(١) العياشي عن حماد بن عثمان قال قلت لابي عبد الله (عليه السلام) ان الاحاديث تختلف عنكم ؟ قال فقال عليه السلام : ان القرآن نزل على سبعة احرف ...

(٢ - ٣) تفسير البرهان ونور الثقلين .

فتجريد الآية عن مضيق من شأن نزولها هو من البطن الأول^(١) فاذ يقول الله تعالى : «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً» لا يحمل الآية فقط على «الذين حملوا التوراة» بل يجريها ويأخرى - على «الذين حملوا القرآن ثم لم يحملوها» فمثلهم إذا ليس فقط - كمثل الحمار ، بل أضل سبيلاً ، كما أن حمل القرآن أثقل فإنه أقوم قبلاً .

إذا فنحن المسلمين المحملين القرآن كل على حدّه المستطاع ، كثير منا مثله كأضل سبيلاً من الحمار ، من تارك جملة في علومه ومعارفه ، ومن تارك تطبيقه بعد معرفته ومن ...!

ثم وتحريرها عما تستأنسه الأفهام العامة من معاني محدودة هو من البطن الثاني ، وتزويدها سعة وعمقاً وإيضاحاً بنظائرها من آيات هو من البطن الثالث ، وتحريرها عما قبلها وما بعدها من اقراءن ومتعلقات غير أصيلة من البطن الرابع ، وهكذا الى بطون أخرى ، رعاية لأصل الدلالة اللفظية كمنطلق ، وحجج ودلالات قرآنية أخرى كوسائل للتحرير والتوسعة ، معتمدين في كل ذلك على حجة من علم الكتاب أو إثارة من علم ، متجنين عما نهوا من أهواء علمية أماهيم ، لكي نبتعد عن تفسير القرآن بالرأي ، وانما القرآن بالقرآن ، وعلى ضوء السنة والله هو الموفق هده .

والقول ان القرآن هدى للناس وهو بين لهم كلهم ومبين فلا حاجة الى التأمل الزائد في تفهّم معانيه أو بطون له ؟ إنه غير متين ، كما مضت في هذه

(١) ومن البطن الأول هم الذين عملوا بمثل اعمال من نزلت الآية فيهم كما يروى عن الامام الباقر (عليه السلام) « ظهر القرآن الذين نزل فيهم ويطنه الذي عملوا بمثل اعمالهم » (البرهان ١ : ٢٠ عن حران بن اعين عنه) (عليه السلام) .

الروايات وصرحت به آيات التفقه (١) والتدبر (٢) والتفكر (٣) والتعقل (٤) والتذكر (٥) والعلم (٦) والشعور (٧) .

اجل ان القرآن بيان وتبيان وهدى للناس اذا تفقهوا وتدبروا وتفكروا وعقلوا وتذكروا وعلموا وشعروا ، وأما أن يُتقنوا فقط اللغة ثم يحيطوا علماً

(١) « انظر كيف نصرف الآيات لعلمهم يفقهون » (٦ : ٦٥) « قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » (٦ : ٩٨)

(٢) « افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفاها » ($\frac{٤٧}{٢٤}$) « فلم يدبروا القول ام جاءهم ما لم يأت آبائهم الاولين » ($\frac{٢٣}{٦٨}$) « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليذبروا آياته وليذكر اولوا الالباب » ($\frac{٣٨}{٢٩}$) .

(٣) « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » (٢ : ٢١٩ و ٢٢٦) « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » (٧ : ١٧٦) « كذلك فصل الآيات لقوم يتفكرون » (١٠ : ٢٤) « وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (١٣ : ٣) « فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » (١٦ : ٦٩) « وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (٥٩ : ٢١)

(٤) « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » (٢ : ٢٤٢) « قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون » (٣ : ١١٨) « انا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (٢ : ١٢) « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » (٢٤ : ٦١)

(٥) « افمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون » ($\frac{١٦}{١٧}$) « سورة انزلناها وفرضناها وانزلناها فيها آيات بينات لعلكم تذكرون » ($\frac{٢٤}{١}$) « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ($\frac{٥١}{٤٩}$) « ولا يقول كاهن قليلاً ما تذكرون » ($\frac{٥٦}{٣٣}$)

(٦) « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » (٢٩ : ٤٣) . « افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى انما يتذكر اولوا الالباب

(١٩ : ١٣) « كتاب انزلناه اليك مبارك ليذبروا آياته وليتذكر اولوا الالباب » (٣٨ : ٢٩) .

(٧) آيات تحمل تنديدات كثيرة بالذين لا يشعرون « الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » ($\frac{٢}{١٧}$) « وما يضلون الا انفسهم وما يشعرون » ($\frac{٣}{١٩}$) « وان يهلكون

الا انفسهم وما يشعرون » ($\frac{٦}{٢٦}$) « وما يمحرون الا بانفسهم وما يشعرون » ($\frac{٦}{١٢٣}$)

بكل معاني القرآن فلا ! حيث الفرق بين الترجمة والتفسير ام ماذا ؟

الترجمة والتفسير والتاويل

فقد يُترجم القرآن من لغته الى اخرى تحويلاً للمعنى المفهوم منه-كما يفهمه العربي الساذج- إلى لغات أخرى .

او يُفسر كشفاً للقناع عن المفهوم منه حيث المفاهيم القرآنية درجات فوق بعض ولا يفهمها كل عارف باللغة العربية ، أم كشفاً للقناع عن الإجمال المقصود حيث لا يراد التفصيل فلتُفسر الآية بآية أو آيات أخرى تعني تفصيل ما أجمل فيها^(١) .

واما ان يفسر كشفاً عن قناع في المعنى الذي لا سبيل إلى تفهمه ، أم قناع في اللفظ قصوراً^(٢) او تقصيراً^(٣) ، فساحة القرآن بريئة عن هذا المثلث فانه بيان للناس ، لا قصور في دلالة ولا تقصير ، ولا غموض في معانيه لحد لا يمكن تفهمه .

والتاويل راجع الى المعنى المفهوم من القرآن إرجاعاً إلى ماأخذه أو نتيجته ، ولم يات التاويل في سائر القرآن إلاّ بهما ، بخلاف ما يُعرف أنه تفسير بخلاف النص او الظاهر لدلالة عقلية أو علمية أو حسية أم ماذا ! .

(١) فمثل قوله تعالى : **لَا تَهْمُوا الصَّلَاةَ** لا يدل على تعدادها وأوقاتها ، وإنما المتكفل لهذا البيان آياتها المفصلة حيث تُفسر أعداد الصلاة وأوقاتها .

(٢) قصور الدلالة فيما يقصر المتكلم عن بيان مراده ولا قصور في ساحة الألوهية

(٣) التقصير في الدلالة فيما يقصر المتكلم في بيان مراده على امكانية البيان كما في بعض العبارات المخلقة الغامضة رغم وضوح المفهوم لو كانت الدلالة ظاهرة .

فالترجمة راجعة الى اللفظ والتأويل يخص المعنى والتفسير يشملهما،
معنى عالياً بعيداً عن تفهم الناس إلا من كان عالياً في التفهم ، أم لفظاً لا
يعني فيما يعني هنا ما تطلبه من تفصيل ، ففي خماسية الاحتمالات للمعنى
من التفسير لا يصح إلا هذان دون الثلاثة الأخرى .





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



سورة الفاتحة



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

« سورة الفاتحة - مكية - وآياتها سبع » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ •
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ •
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ •
إِيَّاكَ نَعْبُدُ •
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ •
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ •
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ •

مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

« سورة الفاتحة » التي افتتح بها الكتاب تأليفاً كما افتتح تنزيلاً - هي صورة مصغرة عن « تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » أفرد الله بها الإمتنان على الرسول العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ جعلها ردفاً للقرآن العظيم : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ (١٥ : ٨٧) (١).

(١) عيون اخبار الرضا (عليه السلام) باسناده الى الامام الحسن العسكري (عليه السلام) مسلسلاً عن ابيه عن آباءه عن علي (عليه السلام) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ان الله عز وجل قال : يا محمد ! ولقد آتيناك سبعاً =

نجد فيها تجاوباً رائعاً بين كتابي التدوين والتكوين عِدَّة وعُدَّة، فأياتها سبع، وأسماءها سبعة، كما السماوات سبع، والأرضون سبع، وأيام الأسبوع سبعة، والطواف بالبيت والسعي سبعة أشواط، ثم وتغلق بسبعها أبواب الجحيم السبع^(١) كما نرمي الشياطين بجمرات سبع حيث الشيطانات هي السبع^(٢) : كما وتفتح بها أبواب الجنة الثمان^(٣).

١ - ﴿فهي فاتحة الكتاب﴾^(٤).

لافتتاحه بها تنزيلاً وتأليفاً براعة بارعة لاستهلاله، حيث تنير علينا

من المثاني والقرآن العظيم، فأفرد الإمتنان علي بفاتحة الكتاب وجعلها بإزاء القرآن العظيم وإن فاتحة الكتاب اشرف ما في كنوز العرش، وإن الله عز وجل خص محمداً (صل الله عليه وآله وسلم) وشرفه بها ولم يشرك معه فيها أحداً من انبيائه ما خلا سليمان فإنه اعطاه منها «بسم الله الرحمن الرحيم» (١ : ٣٠١ والبحار ٩٢ : ٢٢٧) وفي الدر المنثور ١ : ٢ - أخرج الواحدي في اسباب النزول والشملي في تفسيره عن علي (عليه السلام) قال : «نزلت الفاتحة بمكة من كنز من كنوز العرش».

(١) تفسير الفخر الرازي ١ : ١٧٥ روي ان جبرئيل (عليه السلام) قال للنبي (صل الله عليه وآله وسلم) يا محمد ! كنت اخشى العذاب على أمتك فلما نزلت الفاتحة أمنت، قال (صل الله عليه وآله وسلم) : لم يا جبرئيل ! قال : لان الله تعالى قال «وان جهنم لموعدهم اجمعين لها سبعة ابواب لكل باب منهم جزء مقسوم» وآياتها سبع فمن قرأها صارت كل آية طبقاً على باب من ابواب جهنم فتمرأمتك عليها سالمين.

(٢) وهي الشيطان - البقر - النمر، ثم كل جمع بين اثنين منها ثم مجموع الثلاثة فهي سبع

(٣) وعلها باب المعرفة بما تكبر الله في صلاتك و- ٢ - باب الذكر بالبسملة و- ٣ - باب الشكر بالحمد له و- ٤ - باب الرجاء بالرحمتين الرحمانية والرحيمية و- ٥ - باب الخوف يوم القيامة و- ٦ - باب الاخلاص في العبودية والاستعانة بالناجاة عن معرفة الربوبية و- ٧ - باب الدعاء والضراعة في طلب الهداية و- ٨ - باب الاهتداء الى صراط اهل النعمة.

(٤) وقد تواترت الاحاديث لهذا الاسم.

دروياً من علوم الكتاب جملةً كما يفتح الكتاب تفصيلاً ، فتفتح بها أبواب
خزائن أسرار الكتاب لأنها مفتاح كنور لطائف الخطاب .

٢ - ٣ - ﴿وهي أم القرآن وأم الكتاب﴾^(١).

أما لتفصيل الكتاب بآياته المحكمات والمتشابهات ، كما المحكمات من
أم الكتاب ، فكما المحكمات من أم للأطفال المتشابهات ، كذلك آيات
الكتاب كله هي أطفال الأم السيدة .

فكل أصل وكل مجتمع وكل مأوى ومحور أم، والقرآن المفصل يضم مربع الربوبية والنبوة والمعاد وما بين المبدء والمعاد بتفاصيلها، وأم القرآن يضمها محكمة مختصرة، حكيمة مختصرة.

ومن ثم الأم تأتي بمعنى الراية للعسكر والفاخرة راية لعساكر السور

(١) الدر المنثور عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنها أم القرآن وأم الكتاب وفيه اخرج البخاري والدارمي في سننه وابو داود والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «الحمد لله رب العالمين» أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني -

ومن طريق أهل البيت (عليهم السلام) روى العياشي ١ : ١٩ عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : اسم الله الأعظم مقطع في أم الكتاب، وعن عبد الملك بن عمر عنه (عليه السلام) إن إبليس رنَّ أربع رنات... وحين نزل أم الكتاب، وفي دعوات الراوندي عن موسى بن جعفر (عليهما السلام) قال : سمع بعض آبائي رجلاً يقرء أم القرآن فقال : شكر واجر (البحار ٩٢ : ٢٦١) ورواه مثله محمد بن أحمد بن يحيى بسند عن جعفر بن محمد (عليه السلام) عن أبيه (عليه السلام) (تهذيب الأحكام ٨ : ١٩٠) وروى الشيخ الطوسي في تبيان ١ : ٢٢ عن النبي (صل الله عليه وآله وسلم) أنه سماها أم القرآن وأخرجه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن عن الترمذي عن أبي بن كعب قال قال رسول الله (صل الله عليه وآله وسلم) ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن .

بآياتها وهيبة لجنودها، فحقاً هي راية القرآن إذ تقدمه وتعرفه وتعنيه !.

٤ - ﴿ وهي اساس القرآن : ﴾

إذ أسست تفاصيله فيها مجملة جميلة وضاءة^(١) والقرآن المفصل يتبني الأساس أساساً لتفاصيله .

٥ - ﴿ وهي الكافية : ﴾

تجزى ما لا تجزى شيء من القرآن حيث « تكفي من سواها ولا تكفي عنها سواها »^(٢) في أولى السورتين من الأولين لفظياً حيث تكفي من سائر القرآن في الركعتين ولا يكفي سائرهما فيها ، ومعنوياً فإنها على اختصارها تحمل متناً حاصراً من غزيرة الوحي الهائل ، وخطاباً لربنا في معراج الصلاة إذ تكفي عن كافة التفاصيل المسرودة في الذكر الحكيم حيث تناسب ذلك الخطاب .

٦ - ﴿ وهي الحمد : ﴾

حيث تحمل أحمد حمد لرب العالمين ، وخير ما يحمده به الحامدون ، حمد غائب « الحمد لله .. » ومن ثم حاضر « إياك نعبد .. » فإنها بشرطها

(١) الدر المنثور ١ : ٢ اخرج الثعلبي عن الشعبي ان رجلاً شكاه اليه وجع الخاصرة فقال : عليك بأساس القرآن قال : وما اساس القرآن ؟ قال : فاتحة الكتاب .

(٢) المصدر اخرج الثعلبي عن عفيف بن سالم قال : سألت عبد الله بن يحيى بن ابي كثير عن قراءة فاتحة الكتاب خلف الامام فقال عن الكافية تسأل ؟ قلت : وما الكافية ؟ قال : الفاتحة ، اما تعلم انها تكفي عن سواها ولا تكفي عنها سواها ؟

واخرج ابو نعيم والديلمي عن ابي الدرداء قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : فاتحة الكتاب تجزي ما لا يجزي شيء من القرآن واخرج الدارقطني والحاكم عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ام القرآن عوض عن غيرها وليس غيرها عوضاً عنها .

حمد مهما اختلف الموقف والتعبير وكله عبير، ثم وهي بادة بالحمد،
فلذلك كله سميت - فيما سميت - بسورة الحمد.

٧ - وهي السبع المثاني ^(١) :

لأنها حسب القرآن العظيم سبع من المثاني « ولقد آتيناك سبعاً من

(١) الدر المنثور ٤ : ١٠٥ - اخرج الدارمي وابن مردويه عن ابي بن كعب قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : فاتحة الكتاب هي السبع المثاني - وفيه ١ : ٣ - اخرج الدارقطني وصححه والبيهقي في السنن عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : اذا قرأتم الحمد فاقرؤا : بسم الله الرحمن الرحيم - إنها ام القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني و « بسم الله الرحمن الرحيم » إحدى آياتها واخرج ما في معناه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) البخاري والدارمي في مسنده وابوداود والترمذي وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه واحمد في مسنده وابن جرير والطبراني في الأوسط والبيهقي والبخاري والنسائي وابن حبان وابو عبيد وابن خزيمة وابو ذر الهروي وعبد الله بن احمد بن حنبل في زوائد المسند وابن الضريس في فضائل القرآن - أخرجه هؤلاء الحفاظ في مسانيدهم كما رواه علي امير المؤمنين (عليه السلام) وعمر ايضاً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - فما يروى عن ابن عباس في بعض رواياته وسعيد بن جبير دون نسبة الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنها السبع الطوال : البقرة - آل عمران - النساء - المائدة - الانعام - الأعراف - يونس - أنها لا تصدق لمخالفتها المتواتر عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنها الفاتحة ، وأنها نزلت قبل السبع الطوال وسواها من مدنيات ومكيات ، وأنها ليست مثاني باي معنى من معاني المثاني اللهم الا كما القرآن كله مثاني « كتاباً مثاني » ولا يخص السبع -

ومن طريق اهل البيت (عليهم السلام) عن محمد بن مسلم قال : سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن الآية فقال : فاتحة الكتاب يثنى فيها القول (العياشي ١ : ٢٢) ورواه مثله عن يونس بن عبد الرحمن عمن رفعه قال : سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن هذه الآية قال : هي سورة الحمد، ورواه مثله عن محمد بن مسلم وعن السدي عمن سمع علياً (عليه السلام) يقول مثله .

المثاني والقرآن العظيم ، ومهما كان القرآن كله مثاني : « الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني .. » (٣٩ : ٢٩) ولكن « سبعا » ومن ثم « القرآن العظيم » تخصها بهذه المثاني بما لها من مثنيات ومعاني ، فهي تحمل ازدواجية المثاني .

ثم « المثاني » جمع المثنى او المثنى وهو الذي يثنى ، فأقلها ثلاث مثنيات ولكننا نجد لها سبعا من المثاني :

١ - مثنى نزولاً في عهدي المكي والمدني ، أول ما نزلت بمكة ، وحين حولت القبلة في المدينة ، ولا مثنى هكذا إلا هيه ! .

٢ - مثنى في أوليتها في التأليف كما في التنزيل ولا مثنى هكذا إلا هيه ! .

٣ - مثنى في الصلوات مفروضة ومسنونات^(١) إذ تثنى في أوليها إلا في وتر الليل .

٤ - مثنى إذ تثنى بغيرها في الصلوات كلها إلا في وتيرة العشاء .

٥ - مثنى في ثنائية التأويل حيث تعني القرآن جملة ويعنيها القرآن بالتفصيل .

(١) الدر المنثور ٦ : ١٠٤ - اخرج البيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس في الآية قال : هي ام القرآن تثنى في كل صلاة وأخرج ابن جرير وابن الضريس عن قتادة في الآية قال : فاتحة الكتاب تثنى في كل ركعة مكتوبة وتطوع وأخرجه ابن الضريس عن ابي صالح مثله .

وفي تفسير العياشي ١ : ١٩ ، عن يونس بن عبد الرحمن رفعه قال : سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن هذه الآية قال : هي سورة الحمد ، وانما سميت المثاني لانها تثنى في الركعتين وعن محمد بن مسلم عن ابي عبد الله (عليه السلام) هي فاتحة الكتاب يثنى فيه القول

٦ - مثنى في المعنى الإتياء فنصفها ثناء الله ونصفها عطاء الله .

٧ - ومثنى بشائية الآيات حيث تتبنى في كل من السبع أمرين اثنين

ف :

- ١ - « بسم الله - الرحمن الرحيم » ٢ - « الحمد لله - رب العالمين » ٣ - « الرحمن - الرحيم » ٤ - « مالك - يوم الدين » ٥ - « اياك نعبد - واياك نستعين » ٦ - « اهدنا - الصراط المستقيم » ٧ - « صراط الذين انعمت عليهم - غير المغضوب عليهم ولا الضالين » ! .

مثنى سبعة في السبع المثاني في أم كتاب التدوين تتجارب مع سبع التكوين ، سبع الزمان وسبعي المكان : سماوات وأرضين ، وسبعي الطواف حول البيت وبين الصفا والمروة ، كما ومراتب خلقه الإنسان سبع : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (٢٣ : ١٤) .

كذلك ومراتبه الباطنة سبع : الروح - الفطرة - العقل - الصدر - القلب - اللب والفؤاد ، وكما الصلاة أعمالها الظاهرة الملموسة سبعة حيث النية فعل القلب ، وهي : القيام - الركوع - الإنتصاب منه - السجدة - والإنتصاب جلوساً بينهما - والقعود تشهداً وسلاماً ، والسبع المثاني لهذه السبع كالروح في الجسد ، كما هي روح للإنسان .

وكما الشيطانات والشياطين وأبواب الجحيم سبع وهي تغلق بالسبع المثاني ! .

« والذي نفس محمد بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في

الزبور ولا في الفرقان مثلها»^(١)؛ ف «من قرأ فاتحة الكتاب فكأنما قرأ التوراة والانجيل والزبور والفرقان»^(٢).

لذلك «رَنَ إبليس أربعاً حين نزلت فاتحة الكتاب وحين لُعن وحين هبط إلى الأرض وحين بعث محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)»^(٣) فقد جعلت عدلاً للرسول كما هي عدل القرآن، حيث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو القرآن والقرآن هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي تمثلها جملة كما هما يمثلانها تفصيلاً.

إنها أول ما نزلت على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فانها فاتحة الكتاب، وأصل الكتاب المنزل ثم الكتاب المؤلف، ولا تحمل الخمس الأول من العلق النازلة قبل الفاتحة إلا البسملة^(٤).

(١) الدر المنثور ١ : ٤ - أخرجه جماعة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج على أبي بن كعب فقال، يا أبي! وهو يصلي - فالتفت أبي فلم يجبه فصرى أبي فخفف ثم انصرف إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: السلام عليك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): كيف تقرأ في الصلاة؟ فقرأ بأم القرآن فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): والذي نفسي بيده...

(٢) المصدر ١ : ٥ - أخرجه أبو عبيد في فضائله عن الحسن قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)...

(٣) المصدر أخرجه وكيع في تفسيره وابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ في العظمة وأبو نعيم في الحلية عن مجاهد قال: رَنَ إبليس أربع رنات ومن طريق أهل البيت (عليهم السلام) في تفسير البرهان ١ : ٤١ عن أبي عبد الله (عليه السلام) مثله ورواه مثله العياشي ١ : ٢٠.

(٤) القمي في تفسيره في قوله تعالى: اقرأ باسم ربك.. قال قال: اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، وفي أسباب النزول للواحدي النيسابوري عن ابن عباس أنه قال:

فقد توحى « اقرأ » أنه ما كان قارئاً قبله ، ثم « باسم ربك » يعلمه بماذا يبدأ قراءة الوحي ، ولأن أفضل أسماءه هو الله ، فباسم ربك هو « بسم الله » ثم « الذي خلق » هو « الرحمن » حيث الخلق هو اعم الرحمات ولا اعم من « الرحمن » .

ومن ثم « خلق الانسان من علق » هو الرحيم ، فانه رحمة خاصة ، ثم الأخص منه « الأكرم الذي علم بالقلم » ثم « علم الإنسان ما لم يعلم » رحيم في أخصه حيث يعم سائر الوحي على سائر رجالات الوحي .

فبداية الوحي تلميحاً كتصريحة بأفضل آية من كتاب الله « بسم الله الرحمن الرحيم » حيث هي تقرأ قبل كل أمر ذي بال والقرآن يفوق كل أمر ذي بال !

وقد صلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مع علي وخديجة لما رجع من بازغة الوحي ، وبطبيعة الحال قرأ الحمد ، إذ « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب » (١) .

= أول ما نزل به جبرئيل عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال يا محمد استعذ ثم قل : بسم الله الرحمن الرحيم .

(١) الدر المنثور ١ : ٢ - اخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابو نعيم والبيهقي كلاهما في دلائل النبوة والواحدي والثعلبي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لخديجة : إني اذا خلوت وحدي سمعت نداءً فقد والله خشيت ان يكون هذا امرأ فقالت : معاذ الله ما كان الله ليفعل بك فوالله إنك لتؤدي الامانة ، وتصل الرحم وتصدق الحديث - الى ان قال - : سمعت نداءً خلفي يا محمد يا محمد فأنطلق هارباً في الأرض فقال ورقة لا تفعل اذا أتاك فائت حتى تسمع ما يقول ثم انتني فأخبرني فلما خلا ناداه يا محمد ! قل : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين - حتى بلغ - ولا الضالين - فاق ورقة فذكر له ذلك فقال ورقة ابشر ابشر فاني اشهد أنك الذي بشر به ابن مريم وانك على مثل ناموس موسى وانك نبي مرسل .

ورواية نزولها في المدينة تعني نزولها الثاني عند تحول القبلة ، وهي نازلة قبلها في مكة ، وآية السبع المثاني المكية ليست لتعني سورة مدنية لولا نزولها بداية في مكة .

وكما القرآن المحكم نزل على قلب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في ليلة مباركة هي ليلة القدر بعد زهاء خمسين ليلة من بداية الوحي ، ثم القرآن المفصل بعد الحمد إلى المائدة ، تفصيلاً للمحكم النازل ليلة القدر .

فالحمد لله الذي جعل لنا نصيباً من القرآن المحكم كما خص رسوله بنصيبه ليلة القدر ، واين محكم من محكم ؟

ثم البسملة هي افضل آيات السبع المثاني ، كما السبع افضل القرآن العظيم ، مهما كانت الأقوال حول : هل هي آية من الحمد وسائر القرآن إلا البرائة عشرة كاملة^(١) إلا أن تسعة منها ناقصة مناقضة لحجة الكتاب والسنة .

فكونها آية من النمل دون خلاف يؤكد كونها آية قرآنية أينما حلت ،

(١) وهي - ١ - ليست آية من آية سورة ! - ٢ - آية من كل سورة سوى البرائة - ٣ - آية من الفاتحة دون غيرها - ٤ - بعض آية من الفاتحة فقط - ٥ - آية مستقلة انزلت لبيان رؤوس السور تيمناً ولللفصل بينها - ٦ - يجوز جعلها آية من الحمد وغير آية لتكرار نزولها بالوصفين - ٧ - بعض آية من جميع السور - ٨ - آية من الفاتحة وجزء آية من سائر السور إلا البرائة - ٩ - جزء آية من الفاتحة وآية من السور الا البرائة - ١٠ - انها آيات مستقلة حيثما كانت ، وترى ان ما سوى القول الاول من هذه العشرة متفقة على كونها آية وان اختلفت في جهات أخرى ولا حجة في القول الاول كما لا حجة في كونها بعض آية - تأمل :

فجملة واحدة كيف تكون هنا آية وفي سواها ليست آية وليست هي
الآهية ؟!

وكون السورة سبعاً من المثاني بشهادة القرآن والرواية المتواترة تجعلها آية
منها ، وإلا فهي ست من المثاني ، وقد رقت بواحدة مهما لم ترقم
في سواها ، فما أمرها إلا واحدة لأنها آية واحدة .

وكونها فصلاً بين السور لا تجعلها غير آية ، ولا تفتح بها البراءة وهي
سورة فذة ، ولا غرو ان تفصل بين السور بآية مكررة كما يعرف بها ختام
سورة وبداية أخرى .

وكيف يُقحم في القرآن ما ليس منه مهما كان لفصل وسواه ، إذ يحصل
الفصل بسواه ، أفاقحاً في القرآن جملة كآية لكل سورة إلا البراءة ؟
وقد امر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في بازغ الوحي ان يقرأه
بالبسملة « اقرء باسم ربك » كما أمر دائماً مستمراً بقراءتها في الصلاة « وذكر
اسم ربه فصلی » (٨٧ : ٥) والصلاة بلا تكبيرة او بسملة دخول في الدار
دون استئناس واستئذان من صاحب الدار « (١) .

(١) الدر المنثور ١ : ٧ - أخرج ابن أبي حاتم والطبراني والدارقطني والبيهقي في سننه
عن بريدة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا أخرج من المسجد حتى
أخبرك بآية - أو سورة - لم تنزل على نبي بعد سليمان غيري قال : فمشى فتبعته حتى انتهى
الى باب المسجد فأخرج إحدى رجله من اسكفة المسجد وبقيت الأخرى في المسجد فقلت
بيني وبين نفسي ذلك فأقبل عليّ بوجهه فقال : بأي شيء تفتتح القرآن اذا فتحت
الصلاة ؟ قلت : بسم الله الرحمن الرحيم - قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : هي هي ثم
خرج ، وأخرج الدارقطني عن ابن عمر ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)
قال : كان جبرئيل اذا جاء بالوحي أول ما يلقي عليّ « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ثم وفي كل القرآن « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتلاً » (٧٣ : ٨) أفليست هي بعد آية من القرآن ، وهي أفضل آية من القرآن حيث تعني أم القرآن إجمالاً كما هي تعنيه إجمالاً وهما تعنيانها تفصيلاً مهماً بان تفصيل عن تفصيل .

ولان البسملة افضل آية في الذكر الحكيم (١) فلتذكر في أفضل عبادة هي الصلاة ، وليكن عبد الله بسملة الله في مجراه ومرساه ، فابتداء أقواله وأفكاره وأعماله « بسم الله » وانتهاءها « بسم الله » إذا قام « بسم الله » وإذا نام « بسم الله » إذا عقد النطفة « بسم الله » وإذا حضر الموقف « بسم الله » وليكن هو بتمامه اسماً لله ، يدل بكله على الله ، اعلاناً بالثناء على الله ، وإذاعة لذكر الله ، كما وان الكون كله اسم الله .

(١) تفسير البرهان عن تفسير العياشي عن أبي حمزة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : سرقوا أكرم آية في كتاب الله : بسم الله الرحمن الرحيم ، وعن الحسن بن خرزاد وروي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : إذا أم الرجل القوم جاء الشيطان الذي هو قريب الإمام فيقول : هل ذكر الله ؟ يعني : هل قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ؟ فان قال : نعم هرب منه ، وإن قال : لا ركب عنق الإمام ودلى رجله في صدره فلم يزل الشيطان إمام القوم حتى يفرغوا من صلاتهم . وعن عيسى بن عبد الله عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام) قال : بلغه أن أناساً ينزعون بسم الله الرحمن الرحيم . قال : هي آية من كتاب الله أنساهم إياها الشيطان ، وعن اسماعيل بن مهران قال قال أبو الحسن الرضا (عليه السلام) ان بسم الله الرحمن الرحيم أقرب الى اسم الله الاعظم من سواد العين الى بياضها ، اقول وسواد عين البسملة هو الله حيث توسط بياضها وعن خالد بن المختار قال سمعت جعفر بن محمد (عليهما السلام) يقول : ما لهم قاتلهم الله عمدوا الى اعظم آية في كتاب الله فزعموا أنها بدعة إذا أظهروها وهي بسم الله الرحمن الرحيم .

فما لهم تركوا أفضل آية من كتاب الله ، اخفتوا بها ثم تركوها ،
والكتاب القاطع والسنة القاطعة حجتان لا مرد لها أنها آية (١) يجهر بها

(١) في تفسير الثعلبي روى الشافعي عن مسلم بن جريح عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة أنها قالت : قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاتحة الكتاب فعد « بسم الله الرحمن الرحيم » آية « الحمد لله رب العالمين » آية « الرحمن الرحيم » آية « مالك يوم الدين » آية « إياك نعبد وإياك نستعين » آية « اهدنا الصراط المستقيم » آية « صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » آية وفي الدر المنثور ١ : ٣ - اخرج الدارقطني وصححه والبيهقي في السنن عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا قرأتم الحمد فاقروا « بسم الله الرحمن الرحيم » إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني و « بسم الله الرحمن الرحيم » إحدى آياتها، وفيه اخرج الدارقطني والبيهقي في السنن بسند صحيح عن عبد خير قال : سئل علي (عليه السلام) عن السبع المثاني فقال : الحمد لله رب العالمين فقبل له : إنما هي ست آيات ؟ فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم » آية، وفيه اخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه في تفسيره والبيهقي عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الحمد لله رب العالمين سبع آيات « بسم الله الرحمن الرحيم » إحداهن وهي السبع المثاني والقرآن العظيم وهي فاتحة الكتاب، أقول : ومن أمثاله نتين أن « الحمد لله رب العالمين » تعبيراً عن السورة لا يعني استثناء البسملة عنها ، بل هو تعريف باول آية غير مشترك فيها ولأنها سورة الحمد .

وأخرج الدارقطني ، والبيهقي ، عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان إذا قرء وهو يؤم الناس افتتح بسم الله الرحمن الرحيم، واخرج أبو عبيد وابن سعد في الطبقات وابن أبي شيبة واحمد وابو داود وابن خزيمة وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه والخطيب وابن عبد البر كلاهما في كتاب المسألة عن أم سلمة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله .. قطعها آية آية وعددها عد الاعراب وعد بسم الله الرحمن الرحيم ولم يعد عليهم، واخرج الثعلبي عن أبي هريرة قال : كنت مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في المسجد اذ دخل رجل يصلي فافتتح الصلاة وتعوذ ثم قال : الحمد لله رب العالمين - فسمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

في الجهرية فرضاً وفي الاخفاتية نفلاً . فمن تركها فلا صلاة له كما استفاضت بها السنة مهما اختلف المتخلفون عنها فيها .

فعل كل من يؤمن بالقرآن وأنه لم يحرف بزيادة ولا نقصان ، الايمان بانها آية من القرآن .

وعلى كل من يؤمن بالسنة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يتابع أثر الرسول فيما كان يفعل ويقول ، وكما أجمع عليه ائمة اهل البيت (عليهم السلام) والخلفاء الثلاث في أصلها ، والشافعي في الجهر بها ، وأحمد أنها آية منها ، وأبو حنيفة في أصل قرائتها وجماعة آخرون من الصحابة والتابعين ^(١) في انها آية جهراً او اخفاتاً ^(٢) .

= وآله وسلم) فقال : يا رجل اقطعت على نفسك الصلاة ؟ اما علمت ان « بسم الله الرحمن الرحيم » من الحمد فمن تركها فقد ترك آية ومن ترك آية فقد افسد عليه صلاته واخرجه الثعلبي عن طلحة بن عبيد الله مثله ، وأخرج الشافعي في الأم والدارقطني والحاكم وصححه والبيهقي عن معاوية أنه قدم المدينة فوصل بهم ولم يقرء « بسم الله الرحمن الرحيم » ولم يكبر اذا خفض واذا رفع فناداه المهاجرون والانصار حين سلم يا معاوية ! أسرقت صلاتك ؟ اين « بسم الله الرحمن الرحيم » واين التكبير ؟ فلما صلى بعد ذلك قرء « بسم الله الرحمن الرحيم » لأم القرآن وللسورة التي بعدها وكبر حين يهوي ساجداً ، واخرج البيهقي عن الزهري قال : سنة الصلاة أن يقرء بسم الله الرحمن الرحيم وإن أول من أسر بسم الله الرحمن الرحيم عمرو بن سعيد بن العاص بالمدينة وكان رجلاً حبيباً !

(١) كابن عباس وعمار واسحاق وابو ثور وابو عبيد وابو هريرة وابن عمر وعائشة وام سلمة والنعمان بن بشير والحكم بن عمير وانس وريدة وجميع من رووا حديثها عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعن وائمة اهل البيت (عليهم السلام) .

(٢) رواه عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيمن رواه علي بن ابي طالب (عليه السلام) وعمار وابو هريرة وانس وابن عمر انه صلى خلف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واي بكر وعمر فكانوا - يجهرون بيسم الله الرحمن الرحيم والنعمان بن بشير أن =

فحتى ولو لم تكن آية فلتقرأ قبل كل تلاوة لا سيما القرآن ، ف « كل امرئ ذي بال لا يبدؤ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع أو أبتر أو أجذم كما في مستفيض السنة ، فهلاً تكون الفاتحة أمراً ذا بال وفي الصلاة وهي خير موضوع ، وهذه عمود الدين وتلك عمود القرآن ، اذا فالصلاة دون بسملة مقطوعة ببراء والله منها براء .

وكما أن الفاتحة هي فاتحة الكتاب ، فأولى بالبسملة لأنها فاتحة لكل كتاب من قرآن وسواه .

= رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان جبرئيل فجهر بها، والحكم بن عمير أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) جهر بها في المكتوبة والنافلة، وعن عائشة أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يجهر بها، وأخرج الدارقطني عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : علمني جبرئيل الصلاة فقام فكبر لنا ثم قرء « بسم الله الرحمن الرحيم » فيها يجهر به في كل ركعة، وأخرج الثعلبي عن علي بن زيد بن جدعان أن العبادلة كانوا يستفتحون القراءة بيسم الله الرحمن الرحيم يجهرون بها وهم : عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، وأخرج البزار والدارقطني والبيهقي في شعب الإيمان من طريق أبي الطفيل قال : سمعت علي بن أبي طالب (عليه السلام) وعماراً يقولان : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يجهر في المكتوبات بيسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب، وأخرج الطبراني والدارقطني والبيهقي في شعب الإيمان من طريق أبي الطفيل والدارقطني والحاكم عن انس قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم، وأخرج الدارقطني عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال : كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم في السورتين جميعاً، وأخرج عن ابن عمر قال : صليت خلف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وابي بكر وعمر فكانوا يجهرون بيسم الله الرحمن الرحيم، وأخرج عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أمّني جبرئيل (عليه السلام) عند الكعبة فجهر بيسم الله الرحمن الرحيم .

فكيف لا يُجهر بها أو تُترك من أصلها وهي إعلان ثناء على الله وكما يُعلن بالثناء على غير الله: «فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً» (٢: ٢٠٠) أشد نداء في الجهر به ، وأشد ذكراً في إكثاره ، وأشد تبركاً في الافتتاح به وأشد معرفياً في عبوديته :

ولأن القرآن هو كتاب من الله الى الناس ليحيّدوا عن أخلاق النسناس نرى كتاب الله يبدأ باسم الله ويختتم بالناس ، إيجاءً بأنه يحمل جميع رحمت الله، عامةً رحمانية، وخاصةً رحيميةً للجنة والناس وللعالمين أجمعين .

وكما التنزيل بازغ باسم الله كذلك التأليف ، فهو البداية وهو النهاية ، وهو المبدء وهو الغاية :

ولكي نقرأ القرآن سوراً أم آيات فلنبء بالإستعاذة « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » (١٦ : ٩٨) فقل : اعوذ بالله - او - استعذ بالله من الشيطان الرجيم .

يُردّد المسلم هذه السورة قليلة الآيات ، كثيرة الطوابع والمحتويات في الصلاة مرات ومرات ، حين يقف بين يدي ربه مبتهلاً ، فارضاً او متنفلاً ، ولا تقوم صلاة إلا بها وكما استفاض عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب .

وفيها من كليات التصورات الأصلية والعقيدة الإسلامية ، والمشاعر السلمية السليمة ، ما توحى بطرف من حكم اختيارها مناجاةً في معراج الصلاة ، فكل صلاة دونها باطلة ، وكل صلات من دونها عاطلة ، كما وكل صراط غيرها مائلة قاحلة .

ان الصلاة وهي خير موضوع ، وقد وضعت الحمد قبلها كخير موضوع في خير موضع ، إنها تتبنى أركاناً معنوية هي الركينة فيها وقد

تتبنّاها أركانها بسائر فروضها الظاهرية .

فلتعرف يا عارجاً معراج ربك من أنت ؟ وأمام من واقف أنت ؟ وماذا تعني فيما تفعله وتقوله أنت ؟ :

أنت اللاشيء حقاً ، مهما كنت شيئاً بما هباك الله ، فكلُّ شيئك أمام ربك لا شيء ، فأنه الواهب كل شيء لكل شيء !

وهو كل شيء إذ خلق الشيء الذي منه كل شيء لا من شيء !
أنت الفقير في غناك فكيف لا تكون فقيراً في فقرك ، وهو الغني ..

إعرف من أنت ، وأمام من واقف أنت ، وماذا تقول أو تعني بما تفعله أنت ، ولتكن في صلاتك قطعاً بصلاتك عما سوى الله ، وصلةً كُلُّك بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

لأنها تحوي ما تحويه الحمد كما حوت هي القرآن كله ، فالبسمة إذا هي القرآن كله ، فعلينا التدبر فيها بكل إناقة وعلاقة لكي نحصل - لأقل تقدير - على الاصول الثلاثة ، الاستفادة من خماسية الكلمات في البسمة .

فالباء هي مثلثة المعاني مصاحبة واستعانة وابتداء ، والاسم مسببة المصاديق ، والحاصل واحد وعشرون أكثرها معنية بالبسمة ، و« بسم » تتعلق بالمعاني الثلاثة: أبتداء وأصحاب وأستعين باسم الله الرحمن الرحيم .

وهل الاسم من الوسم : العلامة ؟ أو السمو : الرفعة ؟ ظاهر الأدب لفظياً والمناسبة معنوياً يساعد الوسم ، قلباً للواو الى الألف خلاف السمو ، وأن الاسم علامة لمسماء وليس يعلوه مرتفعاً عليه .

إلا أن وصليّة الألف حذفاً لها عند الوصل ، دليل لعدم أصالة

الألف بديلة عن الواو ، ثم تصغيره على سُميّ وجمعه الأسماء دليل حذف الواو عن آخره ، وإلا فلا سُميّ ولا أسماء ولا حذف للألف عند الوصل لو كانت من الأصل .

إذا فالإسم من السموالرفعة ، رفعة العلامة على المَعْلَم ، في الدلالة دون الرتبة ، حيث الإسم يتقدم المسمى معرفة مهما كان المسمى يتقدمه مرتبة ورفعة .

وعَلَّه مشتق من الوسم والسمو معاً باعتبار المعنيين واللفظ للسمو ، فهو - إذا - علامة للشيء تعلوه لتدل عليه ، علوّ التدليل دون التعالي لديه ، مهما كان أدنى منه أو يساويه ام ويعلو عليه .

ثم الإسم منه لفظي هو الأدنى علامة فانه بالوضع ، ومنه عيني وهو أعلى منه حيث الدلالة ذاتية دون وضع ، ثم الإسم العيني لله تبارك وتعالى منه ذاتي كصفات ذاته الثلاث : الحياة والعلم والقدرة ، أم فعلي كصفات الفعل المشتقة من صفات الذات ، أم خلقي كسائر الخلق ، فانه مَثَلُ لله يدل عليه بما يفتقر في ذاته إليه .

- ١ - فمن اسماء اللفظية : : الله - الرحمن - الرحيم « أماميه .
- ٢ - واسماء الذاتية هي واقع الحياة والعلم والقدرة .
- ٣ - واسماء الفعلية هي واقع صفاته الفعلية .
- ٤ - ومن أسماء الخلقية كل الخليقة .
- ٥ - ثم الخاص منها أنت الواقف أمامه .
- ٦ - ثم الأخص منها العبادة فانها سمة من سماته .
- ٧ - ثم أخص الخواص هم انبياء الله وفضلهم خاتمهم وأئمة أهل بيته المعصومين . (عليهم السلام)

ففي اسمه اللفظي تأتي الإبتداء والمصاحبة كما يروى عن الإمام علي (عليه السلام) : « إن العبد إذا أراد أن يقرأ أو يعمل عملاً فيقول : بسم الله الرحمن الرحيم - أي : بهذا الإسم أعمل هذا العمل ، فكل عمل يعمل يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فإنه مبارك له فيه »^(١) ثم لا استعانة بهذا الإسم إلا بضرب من التأويل .

وفي أسماء الذاتية والفعلية تأتي الاستعانة كما عن الإمام علي الهادي (عليه السلام) : « أستعين على أموري كلها بالله الذي لا تحق العبادة إلا له »^(٢) وأما الإبتداء فضلاً عن المصاحبة فلا يناسبان هذه الأسماء ، مهما صاحبنا الله بصفاته الفعلية أم والذاتية بضرب من التأويل ، و « الإسم صفة لموصوف »^(٣) ونحن لا نصاحب صفات الله أو نبتدئ بها ، فإن صفاته تعالى تصاحبه ذاتية أم فعلية ، ونحن نستعين بها فيما نروم من مرضاته .

وفي أسماء الخلقية بوجه عام لا مصاحبة ولا استعانة ولا إبتداء إلا في مثلث الخواص ، اللهم إلا مصاحبة في عبادة الله والسجود لله فـ « الله يسجد من في السماوات ومن في الأرض وظلالهم ... » (١٣ : ١٥)

(١) تفسير البرهان نقلاً عن تفسير الامام العسكري (عليه السلام) عن الامام علي (عليه السلام) وعن محمد بن جرير الطبري باسناده عن ابن عباس قال : ان أول ما نزل به جبرئيل على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قال يا محمد قل استعيز بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال : قل : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال قال له جبرئيل : قل بسم الله يا محمد ! يقول : اقرء بذكر الله ربك وقم واقعد بذكر الله :

(٢) تفسير الامام العسكري عن الامام علي (عليهما السلام) .

(٣) ابن بابويه بسنده عن ابن سنان قال : سألت ابا الحسن الرضا (عليه السلام) عن الإسم ، ما هو ؟ قال : صفة لموصوف .

واستعانة بهم فيما يصح سلوكاً الى الله .

وفي ذاتك كاسم من اسماء الخلقية تأتي مثلث معاني الباء ، مصاحبة واستعانة وابتداء ، أصحاب نفسي في عبادة الله وسواها فلاجردها عن الهوى حيث النفس آية من آيات الله فلتصاحب نفسها كآية تدل على الله .

وأبتدء بنفسي في العبادة وسواها مما يرضاه الله ، حيث البداية في الخير بازغة بنفسك ثم من سواك : « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » .

ثم ابتداء بعبادة الله وبكل فعل يرضاه الله تقدماً لمرضاته على سواه ، ومصاحبة لها على أية حال ، واستعانة بها في كل حل وترحال : « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » (٢ : ٤٥) وكما عن الإمام الرضا (عليه السلام) : « أيسم على نفسي سمة من سمات الله وهي العبادة والسمة هي العلامة (١) »

ثم ابتداء - في عبادة الله - برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيت الرسالة كدلالة للطريق فهم السبل الى الله والأدلاء على الله .

واستعانة بهم في سلوكنا الى الله ، ومصاحبة لهم ، فما صحبة الرسول هي ملازمته في حياته الجسدية الدنيوية ، بل هي صحبته في رسالته الإلهية ، إستئناً بستته واتباعاً لشرعته واستجابة لدعوته ، فهم القائلون « نحن أسماء الله الحسنى » ويصدقهم قول الله . . . « وعلم آدم الأسماء كلها » فانهم الذوات القدسية من أهل بيت الرسالة المحمدية (عليهم السلام) كما « ثم عرضهم » يدل عليه حيث « هم » وهو لذوي العقول لا تعني إلا إياهم !

(١) تفسير البرهان ١ : ٤٤ عن ابن بابويه القمي في توحيده بإسناده الى علي بن الحسن الفضال عن ابيه قال سألت الرضا (عليه السلام) عن بسم الله قال . . .

فنحن في مثلث الإستعانة المصاحبة للإبتداء للسبعة أسماء الله ، إلا ما لا يناسب ساحته وسماحته ، فابتداء كل أمر ذي بال بيسم الله توحيداً لله ، وتركه إلحاداً في الله ، وإشراك غيره في الإبتداء به إبتداع وإشراك بالله ، وكل ذلك - لأقل تقدير - في لفظة القول ، وعلى الموحّد أن يوحد الله قالاً وحالاً وافعالاً .

ولأن الإسم في « بسم » جنسه لا شخصه ، فقد تعني كلّ هذه الأسماء ، حيث تتبناها « الله - الرحمن - الرحيم » .

فالله هو ذاته بصفاته الذاتية والفعلية كما هو إسمه اللفظي ، والرحمن صفاته الفعلية العامة ، والرحيم هي الخاصة ، وهما تعمان المنفصلة وسواها وهكذا تعني البسملة ما تعنيه السبع المثاني والقرآن العظيم جملة وتفصيلاً ! ثم « الله - الرحمن - الرحيم » أسماء ثلاثة تكفي عن سائر الأسماء ولا تكفي عنها سائر الأسماء

ف « الله » هو إسم للذات المقدسة لا يسمى به سواه « فهل تعلم له سميّاً » (١٩ : ٦٥) كلاً يا الله ! وهو الإسم الأعظم الظاهر ، كما « هو » هو الأعظم الباطن ، وقد اشتقت منه كلمة التوحيد « لا اله إلا الله » حيث ألقت من حروفه الثلاثة ، وكذلك « هو » في وجه (١) .

وفيماء يروى عن امير المؤمنين (عليه السلام) « الله أعظم الأسماء من

(١) من لطيف الامر في ميّزات اسم الجلالة « الله » بين اسمائه الحسنى أنك كلما حذفته منها حرفاً تبقى الدلالة على الذات المقدسة بحاله ومحفوظة عن شريك ف « الله » تجده محذوف الالف في « الله » ومحذوف اللام ايضاً في « إله » ثم محذوف اللام الثاني في « هو » حيث الواو ليست فيه متناً يبقى كما وتحذف في « هم - هما » ف « الله » و « هو » اسمان يختصان بالذات المقدسة .

أسماء الله وهو الاسم الذي لا ينبغي أن يسمى به غير الله لم يتسم به مخلوق .

فطالما المشركون يسمون اصنامهم وطواغيتهم آلهة ، ولكنهم لم يسموها « الله » إذ كانوا يرونه الأصل في الألوهية فحادوا عن تسميتها باسم « الله » .

فكما الله واحد في ذاته وأفعاله وصفاته كذلك في اسمه « الله » وقد ذكر في الذكر الحكيم (٢٦٩٧) مرة وهي أكثر بكثير من سائر أسماء وأسماء من سواء ، اهتماماً زائداً به إلى مسماه ، وأنه اسم للذات المقدسة المستجمعة لجميع صفات الكمال جمالاً وجلالاً .

ثم « الله » علم للذات المقدسة ، سواء أكان أصله « الإله » ، معرفاً فعلمً باختصاص ، أم علماً في الأصل عربياً كان أم عبرياً أو سريانياً ، جامداً أو مشتقاً ، كما اختلف فيه علماء اللغة والأدب واحتاروا فيه كما احتار الفلاسفة والعرفاء في ذاته المقدسة وصفاته ذاتية وفعلية .

وعلى أية حال فالألف واللام فيه أصليان لا تسقطان ولا الألف ، بخلافهما في التعريف والوصل ، فالهمزة أصل وليست وصلاً سواء أكان أصلها غيرها وهي بديلها أم هي هيه ، وحتى إذا كان للتعريف فهو الآن لا يحتاج إلى تعريف فمنسلخ - هو - إذاً عن التعريف .

أو علّه ليس مشتقاً من شيء كما لا يشتق منه شيء ، فلا يقال أللهي أو إلهاً أمّا هي .

ولان « الله » في العبرانية في الأصل « يهواه » وعلى الهامش « إلوه » فقد نحتمل أنه معرب « إلوه » أم وله أصل في العربية أيضاً بين « إله » و « ولاه » هما من « إلوه » -

ولكن « إلهيم » جمع « إله » قد يجعل الأصل العبراني سواء . فإن الله لا يُجمع ، وقد لا ينافيه كما يجمع الإله أيضاً بالآلهة وإن كان الله ليس ليُجمع

إذا فـ « إله » هو « إله » يُجمع بـ « إلهيم » في العبرية وبـ « آلهة » في العربية ولكن « الله » لا يُجمع بشيء .

ثم الأصل العبراني لـ « الله » عله كما أنه « إله » : « إله » كذلك هو وبأحرى معنوياً « يهواه » .

و « الله » كإسم ظاهر لله هو أقرب أسمائه إلى الإسم الباطن « هو » وعله مشتق من « هو » كما هو مشتق من « إله » وقد تشهد له آياته الـ « ٨٠ » .

ثم الأصل المشتق منه فعلاً في العربية في نظره لغوية أو سمع مما قدمناه بين « ولّه - آله - إله » وتناسبه كلها في معناه ، وأصل هذه الثلاث « إله » :

فهو من « آله » يعني عبَدَ ، والله هو المعبود الحق وسائر الآلهة باطلة ، أم من ألهتُ إلى فلان أي سكنت ولجأت حيث يُطمئن ويسكن إليه « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (١٣ : ٢٨) .

أم من الولّه وهو ذهاب العقل والحيرة الكاملة النائية ، وهو واقع لامرء له بالنسبة للسالكين في سبيل المعرفة فقد تاهت العقول عن كنه معرفته .

أم من « لاه » : إرتفع - لانه المرتفع المترفع عن سائر الكون ذاتاً وصفاتاً وفعالاً ، وعن أن تطير إليه طائرات العقول .

أم من « إله فيه يآله آلهًا » إذا تحير، إذ حارت العقول عن كنه معرفته .
 أم من « لاه يلوهُ » إذا احتجبت حيث احتجب بكنه ألوهيته ، فلا يرتفع
 حجاب ذاته للسالكين إليه وحتى لأول العابدين محمد (صلى الله عليه وآله
 وسلم) فضلاً عن سواه :

يا من هو اختفى لفرط نوره الظاهر الباطن في ظهوره
 أم من « إله » الفصيل إذا ولع بأمه ، حيث العباد يولعون به
 ويتضرعون إليه .

أم من إله الرجل يآله إذا فزع حيث الخلائق يفزعون إليه ويستجيرون
 به .

ثمانية معان عدد أبواب الجنة الثمان كلها واردة بحق الله تبارك وتعالى
 فانه - ١ - المعبود - ٢ - المسكون إليه - ٣ - المؤله فيه - ٤ - المرتفع عن
 خلقه - ٥ - المتحير فيه - ٦ - المحتجب عن خلقه - ٧ - المولع به - ٨ -
 المفزوع إليه ، وهي كلها منصوصة في روايات عدة متظافرة .

ثم « الرحمن » هي في الدرجة الثانية من صفاته وأسمائه الحسنى ، فإنها
 الرحمة العامة بجميع خلقه ، ولا تعم صفات ذاته فضلاً عن ذاته ، فـ « الله » تعني
 الذات المقدسة بنوعي الصفات ، و « الرحمن » تخص صفات الفعل المتشعبة
 عن صفات الذات : « العلم والقدرة والحياة » فانها صادرة عن هذه
 الثلاث ، كما هي والذات واحدة وحدة الذات وصفات الذات ، دون
 زيادة صفات على ذات ولا تعطيل للصفات .

ثم « الرحيم » هي الثالثة حيث تخص خاصة الرحمت ولا تعم
 عامتها ، وهي والرحمن مبالغتان في الرحمة ، ولكننا الرحمن أبلغ من الرحيم
 لزيادة المبني وتوسّع المعنى ، والرحيم أرق وأدق لأقلية المعنى كما والمبني ،

مهما كان كيفها أعمق واشفق :

تُذكر « الرحمن » في سائر القرآن (٥٧) مرة وحدها ، أم مع الرحيم التي تقابلها ، أم عامة الرحمت التي تفسرها ، في حين لا نجد « الرحيم » في سائر القرآن إلّا (٩٥) مرة ، لا نجدها وحدها إلا قرينة بخاصة من الرحمت تدليلاً على أنها أخص من الرحمن .

والرحمة الرحمانية المطلقة ليست إلّا الخلق والهداية . . . الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (٢٠ : ٥٠) وهي الهداية العامة التي تعم كل شيء . ومن ثم سائر الرحمت كلها رحيمية قياساً لها ، مهما كانت بالنسبة لبعض البعض ، رحمانية ورحيمية مع بعض .

ف « ربك الذي خلق » رحمانية مطلقة ، و « خلق الانسان من علق » رحيمية بالنسبة لمطلق الخلق ، ولكنها رحمانية أمام « وربك الاكرم الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » ثم وهذه الرحيمية رحمانية بالنسبة لرحمة الايمان في الانسان المعلم ما لم يعلم .

وفيا يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأئمة أهل بيته (عليهم السلام) تجاوبٌ لطيف حفيف مع الآيات كما هي دأبهم دائبين مشياً على ضوء القرآن الكريم !

« فالرحمن اسم خاص بصفة عامة والرحيم اسم عام بصفة خاصة » (١) ومن خاص الرحمن اختصاصها تسمية ومعنى بالله إذ لا يسمى بها سواه ، وكما لا رحمة عامة لسواه ، والرحيم يسمى بها سواه كما الرحمة

(١) نور الثقلين عن الامام الصادق (عليه السلام) .

الخاصة ، كما هي له تكون لسواء، مهما بان البون بين الرحمتين على أية حال .

كما والرحمن خاصة بالأولى لعموم الخلق والهداية فيها ، دون الأخرى حيث المعاد في المعاد هم المكلفون فقط لا سواهم ، والمرحومون بينهم هم المؤمنون لا سواهم ، والرحيم نعم النشأتين « فالرحيم أرق من الرحمن وكلاهما رفيقان » (١) .

وقد نعم الرحمن الآخرة كما الأولى نسبياً فـ « الملوك يومئذ الحق للرحمن » (٢٥ : ٢٦) فهو « رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما » (٢) حيث المكلفون كلهم يحشرون برحمة رحمانية كما خلقوا أول مرة ثم المؤمنون منهم يُرحمون برحمة رحيمية .

ولأن الرحمة العامة أوفق بالأولى من الأخرى ، كما الخاصة أوفق بالأخرى من الأولى ، إذاً فـ « الرحمن رحمن الدنيا والرحيم رحيم الآخرة » (٣) . « ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين آمنوا وكانوا يتقون »

(١) الدر المنثور ١ : ٩ - اخرج البيهقي عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث تقسيم الحمد : بين الله وعبد فإذا قال العبد « بسم الله الرحمن الرحيم » قال الله : عبدي دعاني باسمين رفيقين أحدهما أرق من الآخر فالرحيم أرق من الرحمن وكلاهما رفيقان .

(٢) المصدر - اخرج ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن سابط قال كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يدعو هؤلاء الكلمات ويعلمه : اللهم فارحهم وكاشف الكرب وعجيب المضطر ورحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك .

(٣) مجمع البيان للطبرسي عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

(١٥٦:٧) فالرحمة الواسعة هي الرحمانية حيث تسع كل شيء ، والمكتوبة هي الرحيمية التي تخص المؤمنين المتقين .

وما « الرحمن بجميع خلق والرحيم بالمؤمنين خاصة » ^(١) إلا بياناً لمصداق خاص للرحيم بين مختلف مصاديقها ، فإنها تعم الكافر الذي هو في سبيل الهدى كما تصرح لها آيات وتلمح لها أخرى ، كما تعم السابقين والمقربين المخلصين ، وبينها متوسطون ، وهم المؤمنون فعلاً بدرجاتهم « بالمؤمنين رءوف رحيم » (٩ : ١٢٨) .

ثم الرحمة وهي في الخلق رقة ، ليست في الخالق كما هي ، فانه « رحيم لا يوصف بالركة » ^(٢) فد ان الرحمة ما يحدث لنا منها شفقة ، ومنها وجود ، وان رحمة الله ثوابه لخلقه ، والرحمة من العباد شيآن أحدهما يحدث في القلب الرأفة والركة لما يرى بالمرحوم من الضر والحاجة وضروب البلاء ، والآخر ما يحدث منا بعد الرأفة واللفظ على المرحوم ، والمعرفة بما نزل به ، وقد يقول القائل : « أنظر إلى رحمة فلان » وإنما يريد الفعل الذي حدث عن الرقة التي في قلب فلان ، وإنما يضاف إلى الله عز وجل من فعل ما حدث عنا من هذه الاشياء ، وأما المعنى الذي في القلب فهو منفي عن الله كما وصف عن نفسه ، فهو « رحيم لا رحمة رقة » ^(٣) .

فالرحمن والرحيم هما من الصفات المتشابهة : كالسميع والبصير وأضربهما ، يجب ان تجرد الله عن صفات الحدوث ، مشاركة في الألفاظ

(١) تفسير البرهان ١ : ٤٤ محمد بن يعقوب باسناده عن عبد الله بن سنان قال سألت

ابا عبد الله (عليه السلام) عن تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال ..

(٢) نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام) .

(٣) في كتاب الاهليلجيه عن الامام الصادق (عليه السلام) .

ومباينة في المعاني ، فانه تعالى وتقدس « باين عن خلقه وخلقه باين عنه » و « لا يتغير بانغيار المخلوقين كما لا يتحد بتحديد المحدودين » فإنما رحمته تعالى رحمانية ورحيمية هي معاملة الرحمة دون رقة في قلب أو سواه ، إذ ليس له انفعال وانغيار أو رقة في قلب أو سواه ، فصفات الله تعالى تفسر كما يناسب ساحة الذات « ف سبحانه الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين » :

وإذا كان البدء باسم الله يمثل ما يعيشه المسلم من الكلية الأولى من توحيد الله ؛ فان استغراق الرحمة لحالاتها ومجالاتها رحمانية ورحيمية يمثل كلية ثانية تقريراً لعلاقة المسلم في حياته كلها بالله ، عائشاً في ظلال رحمته أينما حلّ وارتحل .

وقد أجملت البسمة عن الأصول الثلاثة ، ما توضّحه الفاتحة ، وتفصله القرآن العظيم .

ف « بسم الله » تعني الفقر إلى الله ، ولزوم مصاحبة عبادة الله ، تدليلاً من رسول الله ، وسواها مما تعنيه في مثلث معاني الباء ومسبّع الإسم .

كما « الله » تدل على وحدانيته ، حيث الكائن اللا محدود وهو صرف الوجود بكافة اللانهايات من كمالات الوجود ، يستحيل تعدده ، فان لزوم التعدد وجدان كل ما يفقده الآخر وهو نقص وحد .

ثم الرحمن تدلنا على باسط رحمته وواسع رأفته ، وقضيته « اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (٢٠ : ٥٠) وكما الأشياء درجات ، فهدايتها درجات حسب الدرجات ، وللإنسان وهو في أحسن تقويم أعلى الهدايات .

ثم الرحيم تقتضي هذه الرحمة الخاصة بالإنسان ، وقضيته هداية الوحي المعصوم بواسطة نبي معصوم حيث يحمل رسالة الله بهداه ، وقضيته

ثانية ضرورة المعاد « لتجزى كل نفس بما تسعى » ولولا المعاد لكانت رحمة الهداية زحمة ، وكيف العالم القادر العدل الرحيم يترك القضاء العدل بين عباده ؟ فإذا لا نرى جزاء وفاقاً في الأولى فليكن في الأخرى « والله الأخرى والأولى » .

فهذه جملة مما في البسملة من المبدء والمعاد وما بين المبدء والمعاد .
وعلى من حكم تثلث الأسماء « الله - الرحمن - الرحيم »
لتشمل عباد الله أجمع « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » (٣٥ : ٣٢) فهو « الله »
للسابقين اذ يعبدونه لانه الله وتلك عبادة الأحرار ، وهو الرحيم
للمقتصدين اذ يعبدونه بين طامع في ثوابه وخائف من عقابه ، وهو الرحمن
بسائر خلقه من الظالمين من يعفى عنهم ومن لا يعفى ، فانهم تشملهم
رحمته الرحمانية في الدنيا مهما كانوا كافرين !

وبالمسئلة حتى الضالين من كلامنا كما علمنا ربنا كيف نكلمه في
معراجنا ، فانه تعالى لا يستعين أو يبتدئ ويصاحب أمراً في أموره « إنما أمره
إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » كما وأنه لا يعبد ويستعين « إنما يعبد
ويستعان ، ولا يطلب الهداية لنفسه إلى صراطه المستقيم ، مهما يحمد نفسه
بـ « الحمد لله رب العالمين » ولكنه أيضاً إعلام وتعليم .

ف « بسم الله » في كل ما عناء لأنه « الله » و « بسم الله » لأنه
« الرحمن » و « بسم الله » لأنه « الرحيم » فإذا « الحمد لله رب العالمين » .

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ (٢) .

ان « الحمد له » تتلوا البسملة في الفضيلة فانها بداية كل امر ذي بال

٩٠ الجزء الأول

كما هيه فـ « كلُّ أمر ذي بال لم يُبدء، فيه بحمد الله فهو أقطع »^(١)
فإنها بلام الجنس تستغرق كل حمد من كل حامد لله دون إبقاء، إذ
تستجيش له كل حمد دون سواه، أولاً لأنه « الله - الرحمن - الرحيم »
واخيراً لأنه « رب العالمين . مالك يوم الدين » دون سواه فـ « له الحمد في
الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون » (٢٨ : ٧٠) .

إنها فاتحة الكتاب كأول دعوى في الأولى، ثم في الآخرة لأهل الجنة
هي آخر دعوى : « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » (١٠ :
١٠) :

وهي خير تحميد لله تبارك وتعالى بخير أوصاف كما علّمها عباده
المخلصين : « قل الحمد لله »^(٢) وأكمله « الحمد لله رب العالمين » كما
هنا وفي سواها « فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين » (٤٠ :
٦٥) وقد ذكرت الحمد لله رب العالمين قرينة برهوبات خاصة (٣٢) مرة
في سائر القرآن، بياناً لربوبيته تعالى في مختلف الخلق والتدبير ويجمعه
« رب العالمين » .

وقد تشهد آيات من الحمد بخماسية السبب في اختصاص الحمد به
دون سواه .

فلأنه الله : « قل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في
الملك » (١٧ : ١١١)

(١) حديث مستفيض في الحمد والبسملة عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)
والائمة من آل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(٢) فإنها بنفس الصيغة تذكر في (٦ : ٤٥) (١٠ : ١٠) (٣٧ : ١٨٢)
(٣٩ : ٧٥) (٤٠ : ٦٥) .

سورة الفاتحة آية - ٢ ٩١

ولأنه الرحمن : « الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ... »
(٦ : ١) .

ولأنه الرحيم : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له
عوجاً » (١٨ : ٢)

ولأنه رب العالمين في آيات خمس سوى الفاتحة و « فسبح بحمد ربك
وكن من الساجدين » (١٥ : ٩٨)

ولأنه مالك يوم الدين : « الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض
ننبؤ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين » (٣٩ : ٢٤) وهذه الخمس
هي أسس الربوبية المطلقة تبتدء بالله وتنتهي إلى « مالك يوم الدين » وبينهما
متوسطات « رب العالمين - الرحمن - الرحيم » .

ويا له من تجاوب لطيف بين القرآن المحكم « الحمد » والقرآن المفصل
في آيات الحمد ما يُطمئن أن السبع المثاني صورة مصغرة عن القرآن
العظيم .

إن « الحمد لله رب العالمين » هي « رأس الشكر »^(١) و « فاتحة
الشكر وخاتمته »^(٢) فائقاً على النعم المشكور لها فلا قيمة لها أمامها^(٣)

(١) الدر المنثور ١ : ١١ - أخرجه جماعة من أرباب السنن عن عبد الله بن عمرو بن
الخاص عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . .

(٢) تفسير الفخر الرازي ١ : ٢٨٤ روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن
إبراهيم الخليل (عليه السلام) سأل ربه وقال : يا رب ! ما جزاء من حمدك ؟ فقال :
الحمد لله ، فالحمد لله فاتحة الشكر وخاتمته .

(٣) الدر المنثور ١ : ١١ - ١٢ - أخرجه جماعة عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

وهي « كمال العقل في مدحته لربه ^(١) » .

وكما لام الحمد تستغرقه الله ، كذلك اللام في الله تختصه بالله دون أن يعدوه إلى سواه .

وعلى الحامد لله أن يحمدَه بفطرته وعقله وصدره وقلبه ولبه وفؤاده وكل جوانحه وجواره ، فيصبح ب كله حمداً لله وفاقاً بين جنباته دون نفاق ، دون قولة فارغة منافقة يكذبها الجنان وسائر الأركان .

فعلينا أن نعيش « الحمد لله رب العالمين » ونعيش به « الحمد لله رب العالمين » في كل حل وترحال ، على أية حال ومجال ، في كل فكر أو فعل أو قال حتى نصبح « الحمد لله رب العالمين » تجاوباً مع الكون كله في محراب الحمد ، من رعدِهِ وبرقه والملائكة من خيفته : « ويسبح الرعد

مركز تحقيقات كميته علوم اسلامی

عليه وآله وسلم) : ما انعم الله على عبده نعمة فقال : الحمد لله الا كان الذي اعطى افضل مما اخذه وروى مثله عن جابر والحسن عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي تفسير الفخر الرازي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : اذا أنعم الله على عبده نعمة فيقول العبد « الحمد لله » فيقول الله تعالى : انظروا الى عبدي أعطيته ما لا قدر له فاعطاني ما لا قيمة له أقول، وهذه نهاية الرحمة الإلهية وما لا قدر له أنه علمنا الحمد له ثم وفقنا بالحمد له ثم قدر انه لا قيمة له ا .

(١) تفسير الفخر الرازي روى عن علي (عليه السلام) انه قال : خلق الله العقل من نور مكنون مخزون من سابق علمه فجعل العلم نفسه والفهم روحه ، والزهد رأسه والحياة يمينه والحكمة لسانه والخير سمعه والرافة قلبه والرحمة همه والصبر بطنه ثم قيل له تكلم فقال : الحمد لله الذي ليس له ند ولا ضد ولا مثل ولا يعدل الذي ذل كل شيء لعزته فقال الرب : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً اعز علي منك :

سورة الفاتحة آية ٢ ٩٣

بحمده والملائكة من خيفته « (١٣ : ١٣) ومن كل شيء : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (١٧ : ٤٤) .

ومن لزوم الحمد معنوياً أن يُشْفَع بالتسبيح ، تسبيحاً بحمده ، حيث الحمد ثناءً على ثبوتية الصفات ، فلأنها فيما نعرفه من صفات تصاحب خالجة الإمكانيات الخارجة عن ساحة الذات ، نسبُّه بحمده عن صفات الممكنات ، فنعني من حمده بعلمه وحياته وقدرته نفى الجهل والموت والعجز عن ذاته حيث الثابتات منها في معروفنا ممكنت ولا نستطيع تصورهما كما يناسب ساحة قدسه « فسبحان الله عما يصفون : إلا عباد الله المخلصين » (٣٧ : ١٦) :

لذلك لم يرد في سائر القرآن حمدٌ بالسنة غير المخلصين من المكلفين، إلا الله حيث يحمد نفسه ، فهذا نوح يؤمر : « فقل الحمد لله الذي نجَّانا من القوم الظالمين » (٢٣ : ٢٨) : وإبراهيم « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق » (١٤ : ٣٩) ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : « وقل الحمد لله » (٢٧ : ٩٣) وداود وسليمان « وقالوا الحمد لله » (٢٧ : ١٥) إلا ما حكاه عن أهل الجنة وهم المطهرون من خطايا القول وخطئه : « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » (١٠ : ١٠) .

فنحن إذ نؤمر بالحمد في الحمد وفي سائر الأحوال فلنشفعه بتسبيحه حتى يكون كما وصفه عباده المخلصون : « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » (٧ : ١٨٠) . والحمد - ككل - هو الثناء الجميل على الجميل ذاتاً وأفعالاً وصفات ، فـ « الله » حمدٌ للذات بصفات الذات ، و « رب العالمين » حمدٌ لصفات الفعل والأفعال ، فهو « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (٢٠ : ٢٠) :

(٥٠) كما وأسماءه جميلة : « الله الأسماء الحسنى فادعوه بها » (٧ : ١٨٠) كما وذاته أجمل الذوات .

ثم وكل جمال وكمال في الخلق فائض منه وراجع إليه ، فليختص به الحمد كله ، كشعور يفيض به قلب المؤمن حين يذكر الله ، في كل خطوة وفي كل لحظة أو لمحة ، وفي كل خالجة أو خارجة ، كقاعدة رصينة للتصور الایمانی المباشر المعاصر .

فليكن « الحمد لله » كما البسمة في موقعها اللائق وهو كل أمر ذي بال ، ولا أقل من أقل الحلال ، فإنها في غير الحلال تستع « استغفر الله » .

ثم الرب هو المالك المدير المتصرف للإصلاح والتربية اللاتئة السابقة ، فمن مالك لا يدبر جهلاً أو عياً أو بخلأ أمأذا ، ومن مدبر لا يملك المدبر حق يسطع على إصلاحه كما يجب ويجب ، وهذا وذاك هما مطلق التدبير والمالك ، والله الربوبية المطلقة لا يعرقلها أي مانع ولا يردعها أي رادع ، لا كربوبية الخلق دون الأمر ، ولا الأمر دون الخلق « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (٧ : ٥٤) .

وكما ربوبية الخلق تعم الخلق لا من شيء كالخلق الأول ، والخلق من شيء كسائر الخلق ، كذلك ربوبية تدبير الأمر وهي هداية كل شيء لشئته : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (٢٠ : ٥٠) من جماد ونبات وحيوان والملائكة والإنس والجان أم أياً كان ، فلكل سبيل يسلكه بما هدى الله ، تكوينية وغريزية وتشريعية أمأهيه ؟ .

فإطلاق الربوبية للعالمين دون إبقاء هو نظام التوحيد الحق وجاءه فوضاها التي تفسح لغير الله مجال ربوبيات أو تسمح ، وقد تطاردها براهين

العقل والآيات حيث توحد الربوبية في الله وتوحده في كافة الربوبيات .
وهذا هو مفرق الطريق بين نظام الربوبية وفوضاها ، تزيل كل شائبة
وكل غيبش وهاجسة عن توحيد الله ، هذه التي تعزل الرب عن الحياة
وتصرفاتها ، انقساماً في الألوهية بين الذات والصفات والأفعال .

ف « رب العالمين » هو مالكهم وخالقهم وسائق أرزاقهم إليهم من حيث
يعلمون ومن حيث لا يعلمون ، فالرزق معلوم مقسوم وهو يأتي ابن آدم
على أي سيرة سارها من الدنيا ليس تقوى متق بزائده ولا فجور فاجر
بناقصه ، وبينه وبينه ستر وهو طالبه . (١) .

والعالمين هم الخلق اجمعين ، وهو جمع العالم من العلم العلامة ، او
من العلم المعرفة ، وكل العالم علامة للمخالق وآية ، وكل العالم يعلم ربه
ويسبح بحمده ، وجمعه السالم سليم عن الشذوذ ، ففيها يعني الخلائق اجمعين هو
ترجيح لجانب العقلاء بينهم برزخاً وسطاً من الحقيقة والمجاز ، ام هو
حقيقة تحتاج الى قرينة كما هنا وفي سائر الآ (٧٣) موضعاً من الذكر
الحكيم ، اللهم إلا فيما يخص ذوي العقول ، كذكرى القرآن : « إن هو إلا
ذكرى للعالمين » (٩٠ : ٦) والرسول : « إن هو إلا ذكر للعالمين » (١٢ :
١٠٤) ورحمة الرسالة : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٤١ : ١٠٧)
ونذارتها « ليكون للعالمين نذيراً » (٢٥ : ١) .

حيث القرآن ، والرسول برسائله ونذارته يخصان العقلاء المكلفين دون
سائر العالمين ، ولان الملائكة غير مكلفين برسالة القرآن ومنهم الرسل الى
الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وليست لهم شهوة النفس حتى يسمى

(١) تفسير الامام الحسن العسكري (عليه السلام) عن الإمام علي (عليه السلام) .

تكليفهم تكليفاً ، ولم يرد في القرآن ، ولا لمحة أنهم مكلفون بالقرآن ، وأن أقل الجمع ثلاثة ، فليكن بعد عالم الإنس والجن ثالث لأقل تقدير أم يزيد لكي يعنيه « العالمين » وقد تلمح لهم آية الشورى : « ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » حيث الدابة العاقلة في السماوات الراجع إليها « هم » فيمن هو راجع إليه ، ليست هم الملائكة ، فهم إذاً ثالث من العالمين أم ويزيد .

لا تجد في سائر القرآن « عالماً » إلا « العالمين » جمعاً للخلائق أجمعين ، أم خاصاً بالمكلفين ، فليكن ضروب المكلفين في أبعاد الزمان والمكان دون إبقاء .

وأفضل الربوبيات - هي طبعاً - لأفضل البريات ، وهو الإنسان الذي خلق في أحسن تقويم ، فشريعة الإنسان شرعة لسائر المكلفين ، كما رسول الإنس رسول لهم أجمعين ، مهما كانوا أدنى من الإنسان كالجنان ، أم بمستواه في حسن التقويم كمن لا يعرفهم **الحد الان**

ثم الأفضل الأحسن بينهم ! والأكثر حظوة من هذه الربوبية القمة هو الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فإنه أول العابدين « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » .

تلك هي الربوبية الوحيدة الموحدة اللاتقة بالذات المقدسة دون الضئيلة المحددة التي اختلقتها ركام الظنون والأساطير والتصورات الخاوية والجارفة المجازفة ، خليطة من حق وأضغاث الباطل ، فإذا الحق يُعرض بصورة الباطل ، والباطل يُفرض بصورة الحق ، وهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى .

لقد كانت البشرية تعيش تيهاً لا قرارة فيه ، لضخامة الركام الذي

كان يبتليه ، فجاء الاسلام فاخرجها من الظلمات إلى النور ، إلى صراط
العزیز الحمید ، من ظلمات الفلسفات والمهرطقات التي تخبطت فيها ، إلى
نور الحق المبين بالقرآن المتين والرسول الأمين .

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ (٣)

أترهما مكرورتان ويفاصل آية واحدة ؟ حسب الظاهر نعم ، وفي الحق
لا ! حيث البسملة على كونها آية وأفضلها ، هي بنفسها مكرورة للفصل
كما للفضل ، فليست - إذاً - لتحل محل الآي في كل سورة ، فالرحمتان هما
كآية مستقلة في صلب السورة بعد ان كانتا بعض آية من البسملة ، تأكيداً
للمسة البارزة في تلك الربوية الشاملة ، وتأيداً لها في كل مقالة ومجالة ،
وتثبيتاً لقوائم الصلة الدائبة بين الرب والمربوبين ، التي تقوم على الطمأنينة
وتنبض بالمودة .

وقد تعنيان في البسملة رحمن الدنيا ورحيمها وفي الحمد له رحمن
الآخرة ورحيمها ، أم هناك نعم الآخرة والأولى . وهنا تخص الآخرة كما
تلمح لها « مالك يوم الدين » .

فحقى ولو كانتا مكرورتين بنفس المعنى ، ففي التكرار عناية ليس في
الوحدة ، قرب العالمين ليس ليطارد المربوبين مطاردة الخصوم كآلهة الأولب
في أساطير الإغريق ، فحقى فيما له غضب ، لم يكن إلا وقبله منه نضب ،
فقد سبقت رحمته غضبه ، لا يعذب عباده المستحقين إلا أقل ما
يستحقون ، ما لولاه لكان إجحافاً بالالحين ، وحيافاً للطالحين ، حيث
الإنذار له موقعه في ترك المحذور ، والإنذار لئلا يبي عن واقع العذاب إدغال
وتدجيل وإغفال .

﴿مالك يوم الدين﴾^(٤)

إنه دون ريب «مالك» في كتب القرآن تواتراً دون خلاف ، وهل يصح «مَلِك» كما صح «مالك» ؟ فيه روايتان عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) متهافتتان ، فأنهما متفقتان في «كان يقرأ» مختلفتان في «مالك» و «ملك» فالإستمرارية المستفادة من «كان يقرأ مالك» تنفي «ملك» كما المستفادة من «كان يقرأ ملك» تمنع «مالك» والثلاثة المشتركون في روايتهما تزيد تهافتاً فيهما على ما كان، وبعرضها على القرآن يصدق «مالك» لا سواء ، ومثلها المرويتان عن الصادق (عليه السلام)^(١).

(١) فقد اخرج جماعة من ارباب السنن عن ام سلمة وانس وسعيد بن المسيب والبراء بن عازب والزهرى وابي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه كان يقرأ «ملك» من دون الف ، كما اخرجوا عن انس وسالم عن ابيه والزهرى وابن شهاب وابي هريرة وابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه كان يقرأ «مالك» بالالف (الدر المنثور ١ : ١٣ - ١٤).

فالثلاثة : انس - ابو هريرة ، والزهرى مشتركون في نقل الروايتين فالتعارض فيها منهم من ناحيتين ، مهما كان سائداً من جهة واحدة في رواية غيرهم فأم سلمة وسعيد بن المسيب والبراء بن عازب يرون كلمة واحدة «ملك» ثم سالم عن ابيه وابن شهاب وابن مسعود يروون «مالك» .

وقد يجمع بينهما أن الناقل «ملك» ظن «مالك» في امالة القراءة «ملك» .

ومن طريق اصحابنا روى العياشي في تفسيره عن محمد بن علي الحلبي عن ابي عبد الله (عليه السلام) انه كان يقرأ «مالك يوم الدين» وروى عن داود بن فرقد عنه (عليه السلام) قال سمعته (عليه السلام) يقرأ ما لا احصى «ملك يوم الدين» .

وقد قرأ عاصم والكسائي وخلف ويعقوب «مالك» والباقون «ملك» وهذا تعارض القرائتين ، والمتعارضان رواية وقراءة معروضان على القرآن ، وهو يصدق في متواتر كتبه «مالك» .

والقول بالتخير بين «مالك وملك» لا يلائم الروایتين ولا القراءتين ، وهو مخالف للقرآن ، وإضافة الى أن السنة ليست لتخالف القرآن ، كيف تثبت سنة في مثل هذه المسألة العامة الدائمة الإبتلاء ، بمثل هذه الرواية المبتلاة بمعارضة ؟

ولو أن الآية كانت نازلة بهما لكانت مثبتة فيه بهما ، أم ثابتة كما القرآن بـ «مالك» وبمتواتر السنة «ملك» فالأقوى بل الأقوى انحصار القراءة في «مالك» وانحصارها عن «ملك» وكيف يترك القرآن المتواتر برواية غير متواترة ، ولا يترك حتى بمتواترة ، اللهم إلا تواتراً يوازي القرآن في التخير بين القراءتين ، وهنا واحدة تحمل «ملك» قائلة أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أم حفيده الصادق (عليه السلام) كانا يقرئان «ملك» وهو على ضعفه في أصله يرفض «مالك» .

«مالك» في سائر القرآن يذكر هنا وفي «مالك الملك» (٣: ٢٦) ثم «ملك» في خمس : «فتعالى الله الملك الحق» (٢١: ١٤) و (٢٣ : ١١٦) «الملك القدوس» (٥٩ : ٢٣ و ٦٢ : ١) و «ملك الناس» (١١٤ : ٢) . ومن ثم «الملك» تأييداً للملك في (٢٤) موضعاً ، ومن مجموع الـ (٢٩) نرى الملك قريناً بيوم الدين في أربع : «قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور» (٦ : ٧٣) «لمن الملك اليوم الله الواحد القهار» (٤٠ : ١٦) «الملك يومئذ الله يحكم بينهم» (٢٢ : ٥٦) «الملك يومئذ الحق للرحمن» (٢٥ : ٢٦) .

أترى أن اكثريّة الملك بقرينة ترجحه في الفاتحة على «مالك» أم - لأقل تقدير - تسمح له بديلاً عن مالك ؟

كلّا ! فانها إنما ترجح في غير القرآن ترجيحاً لصدور الراجع على المرجوح ، وأما القرآن الثابت دون ريب فلا تراجع فيه صدوراً ، وقَرَنُ

المملك بيوم الدين لا ينفي المملك فانها متلازمان في الله ، مهما كان بينهما عموم من وجه فيمن سوى الله .

ثم المملك ليوم الدين والأمر فيه ومن فيه نجده في آيات أخر ، مما يجعله مثلاً فيه دون إبقاء لأي ملك فيه إلا ويحويه : « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » (٥٤ : ٥٥) شاملة لها كلها « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » (٨٢ : ١٩) شمولاً للأمر كله « ولا يملك الذين من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » (٤٣ : ٨٦) « فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون » (٣٤ : ٤٢) . « رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً » (٧٨ : ٣٧) .

ثم هنا ليس من المملك والمملك إلا المجازي المستودع لبعض مافي الزمان والمكان ، دون الزمان أيأ كان وأيان ، ودون المكان إلا خصوص ما يملكه ملكاً او ملكاً ، فقد يملك المملك وقد لا يملك ، كما قد يكون المالك ملكاً وقد لا يكون ، وفيما يجتمعان يختصان ببعض المكان ، وبعض ما - او - من في الزمان والمكان .

ولكن الله مالك ومملك لمثلث الزمان والمكان وما في الزمان والمكان ملكاً ومملكاً حقيقياً لا جَوْل عنه ، فالكون أيأ كان لزامه ذاتياً في العمق أنه مملوك لله وهو مالكة ومملكه ، إذ « بيده ملكوت كل شيء » . (٣٦ : ٨٣) وهي حقيقة المملك والمملك ، والمملك أعظم تدليلاً على السلطة المطلقة من المملك وإن كانت الحقيقة منهما متلازمتان دون فكاك ولا احتكاك ، حيث المالك يملك العبيد وليست لهم أية خيرة أمام المالك ، وللمملك سلطة على الرعية ولهم حق المطالبة بما يرونه حقهم ، فلكي نجتث خالجة أية خيرة للعبيد يوم الدين ياتي هنا « مالك يوم الدين » دون « ملك » وهما لله سيان ! حيث العبيد أدون حالاً

من الرعايا .

ثم المالك ليوم الدين على وجه الإطلاق يملك كل مالك بملكه وكل مَلِكٍ بملكه حيث يملك مثلث الزمان والمكان بما فيهما ، ولكن المَلِك قد يكون بجانبه مالكون ، فالوجهة العامة في التصور عنها تصور المالك المطلق أملك من المَلِك المطلق ، مهما كانا في الله على سواء ، وهو مَلِكٌ كما هو مالك ، ولكنهما أم القرآن بسبعهما المثاني تقتضي أم التعبير ، و « مالك » أم « مَلِك » وإلى سائر التعبير كما الدين حيث يشمل كل ما في القيامة وهو أبرز سماته وحجر الأساس من كل خصوصياته .

إذاً فهو مالك لكل كائن ومَلِك على كل كائن ، ملكاً ومُلكاً للزمان والمكان وما فيهما ، ومن الهراء القول أن « مالك » لا يناسب « يوم الدين » حيث لا يملك الزمان ، فانه يخص كل زماني دون خالق الزمان !

وإذا كان هو مالك الزمان فلماذا خص هنا بـ « يوم الدين » وهو مالك يوم الدنيا كما يملك يوم الدين ؟ كما وأنه مالك المَلِك يوم الدنيا ويوم الدين .

إنه ليس في الحق من الاختصاص ، فانما ترجيح ذكراً ليوم الدين ، فان آيته تخص الإنذار بيوم الدين ، وفي عرض مالكيته بخصوصه تهيئ أكثر وتهيب للمصدقين بالدين ، ولأن مالكيته يوم الدنيا كانت قريبة في طولها بمالكية عَرْضِيَّة مستودعة لأهل الدنيا ، وهذه منفية عن أهلها يوم الدين « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » فان قال « ملك الايام » لم يكن بذلك التحديد والتهديد ، حيث الملوك والملأك يوم الدنيا يخبرون بجانبه فيما يفعلون ويفتعلون ، فعلمهم كذلك يوم الدين ، فلا يصل الى كل ذي حق حقه ! وأما « مالك يوم الدين » فقد يحصر المالكية له يوم الدين دون سواء وإن مستودعاً باختيار لاختبار ، فانها ليسا في عقبي الدار .

كما وان مالكيته الحقيقية تبرز لنا كرمها يوم الدين ، وتزداد ظهور وبهوراً لمصدقها يوم الدين ، وفي هذه الأربع كفاية لظاهر اختصاص « مالك » هنا بـ « يوم الدين » .

والدين في الأصل هو الطاعة والشرعية ، شريعة الطاعة وطاعة الشريعة ، عنيت منه في (٤٧) موضعاً في القرآن ، مهما عني الجزء بها يوم الجزء في (١٥) موضعاً آخر .

ولكننا الجزء على طاعة الشرعة وعصيانها هي بروزاً لحقيقة الطاعة أو عصيانها ، فلها إذاً يومان ، يوم التكليف بها وهو الأولى ، ويوم ظهورها بحقيقتها وهو الأخرى فـ « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » (٢٧ : ٩٠) فالدين هو الطاعة للشرعة كما هو ظهورها جزءاً في الآخرة فـ « مالك يوم الدين » تعني الثانية مهما يملك يوم الأولى كما هي .

فلأن بروز الطاعة بحقيقتها هو جزءها في الأخرى ، تسمى يوم الدين ، كما المالكية الإلهية بارزة يوم الدين أكثر مما هي يوم الدنيا ، تختص هنا بيوم الدين .

كما وأن من أيام الله « وذكرهم بايام الله » (١٤ : ٥) هي الأيام التي تبرز فيها شريعة الله وحكمه وطاعته ، وهي على الترتيب يوم الرجعة والموت والقيامة ، فيوم الدولة المهدوية (عليه السلام) من أيام الله حيث تظهر فيه شرعة الله كما في قسيميه مهما اختلف ظهور عن ظهور ، كما وقد تظهر قبل دولة المهدي (عليه السلام) موضعياً وعلى هامشها فله نصيب من أيام الله قدر ما له نصيب من تحقيق شرعة الله .

ومالكية يوم الدين تمثل قاعدة ضخمة رزينة رصينة عميقة التأثير في حياة التكليف ، فكثيرون يدينون بالوهمية الله وخالفته - أم - وتوحيده ، ولا

يدينون بيوم الدين ، عائشين حياة اللامبالاة والأريحية إذ لا يخافون يوماً آخر للدين ، وآخرون يدينون بيوم الدين معتبرين استمرارية الملك والمُلك فيه لآخرين ، فهم يملكون فيه إعفاءً أو تخفيفاً أو إفلاتاً عن حكم أحكم الحاكمين .

وإذ كان الله لا سواه « مالك يوم الدين » يملك يومه بمن فيه وما فيه من حساب وثواب وعقاب أو توبة وشفاعة وعفو أو إعفاء ، إذاً فلا مجال لأمنيات كاذبة كاسدة رخيصة في فوضى الحساب والجزاء يوم الدين ، ف « الأمر يومئذ لله » (٨٢ : ١٩) و « إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم » (٨٨ : ٢٦) و « الملك يومئذ الحق للرحمن » .

وقد تعم « يوم الدين » مثلث أيام الله ، مهما كان الأصل هو القيامة الكبرى إماتة وإحياء ، فالبرزخ برزخ في الدين ، ودولة المهدي (عليه السلام) ساعة من ساعات الدين كما هي من أشراط الساعة الدين . و « يوم » هنا مطلق الزمان ، محدوداً كما لأهل النار، وغير محدود كما لأهل الجنة ، ف « يوم الدين » كمطلقه غير محدود فإن لأهل الجنة « عطاء غير مجذوذ » .

ولأن « الدين » هو أبرز سمات ذلك اليوم وأجمعها ، يختص السبع المثاني بذكره، إشارة إلى كل سماته في القرآن العظيم ، إجمالاً يشير إلى تفصيل ، وكما هو سائر في آياتها السبع .

فالقيامة بتدميرها وتعميرها وحسابها وسائر ما لها من أسماء بسماتها ، مطوية في « الدين » فانه ظهور الطاعة وخلافها ، فهو الأصل الأصل، وهي كلها من فروعها وآثارها ، وقد دلت عشرات من الآيات على إنعكاس

الأعمال كلها يوم الدين، وأنها هي بنفسها الجزاء ، وأنَّ الدين الحق هو الميزان لثقل الميزان وخفته « والوزن يومئذ الحق » فالقيامة هي يوم الدين الشرعة والكتاب ميزاناً ، والدين الطاعة والمعصية ظهوراً ، والدين بحقيقته جزاء وفاقاً .

وهكذا يكون آيات السبع المثاني بكلماتها ، نماذج رئيسية محكمة عن تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين .

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ (٥) .

العبادة هي الانتصاب للمعبود في منصب المعبودية ، إستجاشة لكل الطاقات والإمكانات في جانحة أو جارحة لخدمته، بكل ذل وانكسار ، بعيداً عن كل عزة واستكبار ، وهي درجات كما الإستكبار درجات ، ولأن العبد « المملوك » قد يملك بعضه ويملك في بعض ، لملك أو مالكين، وهو مطلق العبد ، وآخر يملك كله لشركاء متشاكسين وهو العبد المطلق ولكن ليس في إطلاق العبودية وإخلاصه لملك واحد ، وقد يملكه مالك واحد ولكنه يستسلم له مع أهواء آخرين ، وذلك الثالث خارج عن مغزى « إياك نعبد » فإنها عبادة خالصة لله رب العالمين، بملكية حقيقة لا تشذ عن ذاته ولا عن عبادته شيئاً لغير الله وفي غير الله .

وهي جوهرية تنافي الإستكبار : « إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » (٤٠ : ٦٠) كما الإخلاص فيها ينافي الإشراك لها : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » (١٨ : ١١٠) كما وبأحرى ينافي الإشراك فيها « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » (١٧ : ٢٣) .

إن المعبود الحق وهو الله يملك عبادة سواك ف « إن كل من في

السموات والارض إلا آتي الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدّهم عدداً «
(١٩ : ٩٤) ولكنك لا تعبد معبوداً بحق سواه ، وهو يربّيكَ كأن ليس له
عبد سواك ، ثم أنت تعبدّه - ان كنت عابده - كأن لك أرباباً سواه !
إنه لا بد لك من معبود حقاً أو باطلاً ، وقوله القائل : إن العبودية ذلٌّ
أيّاً كان المعبود ، والإنسان عزيزٌ أيّاً كان ، فليرفض العبودية لأيّ كان ،
إنه هرطقة هُراء ، والله منها براء .

أجل إن العبودية الذل أمام الدليل والأذل كما يفعلها الذين يعبدون من
دون الله ، إنها ذلٌّ وظلم ومُسٌّ من كرامة الإنسان ، ولكنها أمام الله عزُّ
وعدل وفضل يرجع إلى الإنسان ، ولا يتحلّل أيّ ذي حجب أم ذي شعور
عن عبادةٍ ما حقاً أو باطلاً .

وبصيغة مختصرة مختصرة إن في الكون إلهين اثنين معبودين : حق
وباطل ، فالباطل هو عبادة النفس والهوى ، والحق هو عبادة الله على
هدى ، وليست عبادة من سوى الله إلا ناعجة عن عبادة الهوى : « ولا تتبع الهوى
فيضلك عن سبيل الله » (٣٨ : ٢٦) .

ومثلاً على العابدين الإنسان أيّاً كان ، وحتى الذي يدعي الألوهية
من دون الله ، فإن له إلهاً وآلهة من أصنام وأوثان ، مهما كان هو طاغوتاً
لمستضعفي الإنسان ، ولأقل تقدير هو يعبد نفسه وهواه « أفرأيت من اتخذ
إلهه هواه » (٤٥ : ٢٦) .

إنه ليست لله تعالى حُظُوةٌ في عبادتنا ، فنحن الذين نحظوا بعبادته ،
حظوة معنوية لأنها اتصال معرفي باللانهاية في الكمال ، وأخرى حيوية
أخرى ، أنه يدلنا بها إلى التقوى ويردعنا عن الطغوى : « ما خلقت الجن
والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله

هو الرزاق ذو القوة المتين » (٥١ : ٥٨) « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٢ : ٢١) .

والناس بين من يعبد الله وحده على درجاتهم ، أم يعبده شركاً في عبادته ، أم شركاً به معبوداً سواه ، أم لا يعبد إلا سواه ، بديل ألا يعبد إلا إياه » وإن الشرك لظلم عظيم » فضلاً عن تخصيص العبادة لغير الله . !

إن العبودية العادلة الحكيمة هي مفرق الطريق بين التحرر المطلق عن كل عبودية ، وبين العبودية لغير الله من طواغيت ، وأوثان واصنام ونظم وأوهام وعادات وأحلام ، فالناس بين عابدين لغير الله ، ومدعين التحلل عن كل عبادة وعبودية حتى الله ، مفرطين فيها أو مفرطين عنها ، رغم استحالة التحلل عن أية عبادة وعبودية ، فإنهم يعبدون شهواتهم ومشتبهات غيرهم من طواغيت ثم يدعون التحلل عن كل عبودية ولهم منها أبطلها وأحقها ! .

فإذا يعبد الإنسان ربه الخالق له المدبر أمره فهذه مفخرة له إذ ترفع من كيانه ، وحين يعبد أضرابه أو من دونه فقد حط من كيانه كإنسان، ورد إلى أسفل سافلين .

ثم و « نعبد » قد تكون من العبادة كما هي من العبادة ، فمن العبادة الرضى بلا خصومة ، والصبر بلا شكاية ، واليقين بلا شبهة ، والشهود بلا غيبة ، والإقبال بلا رجعة ، والإيصال بلا قطيعة .

ومن العبادة الصلاة بلا غفلة ، والصوم بلا غيبة ، والصدقة بلا منة ، والحج بلا إراة ، والغزو بلا سُمعة ، والذكر بلا ملالة ، وسائر العبادات بلا أية رثاء وسمعة وآفة .

ف « نعبد » تشمل باطلاق التعبير كلا العبادة والعبودية كما كلُّ منهما

درجات وفي التخلف عنها دركات .

وهنا في « إياك نعبد وإياك نستعين » إنتقالة من غياب الحمد إلى حضور العبادة والإستعانة ، حيث المعرفة البدائية وهي شرط العبادة ، هي غائبة بطبيعة الحال ، ومن ثم إلى حضور المعبود المعروف بما عرّف نفسه وتعرّفنا إليه في خطوات سابقة سابقة : بسم الله - إلى - مالك يوم الدين « أنت قبل صلاتك منشغل عن الله بمشاغل الحياة وشواغلها ، فلما تكبر وتعني به أنه أكبر من أن يوصف ، تأخذ في التغافل عما سوى الله والإنشغال بالله ، ولكي تنتهي لحضوره في معراج الصلاة تُقدّم ما تُقدّم على « إياك نعبد .. » وحين تُكَمِّل أصول المعرفة والدين بالبسملة - إلى - مالك يوم الدين ، هنا يسمح لك أن تخاطب صاحب المعراج بـ « إياك نعبد وإياك نستعين » .

فمن قبل كنت في غياب هو مطلق الحضور ، وأنت الآن في الحضور المطلق .

ف « اعبد ربك كأنك تراه وإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

في « إياك نعبد وإياك نستعين » خرق لكافة الحجب ظلمانية ونورانية ، وهو مجال فاسح لمقام التدلي في « أو أدنى » بعدما « دنى » فالدنو المعرفي الغبودي كقاب قوسين ، يعني أن ليس بينه وبين الله أحد ، ثم التدلي هو أن ينمحي العابد عن نفسه كما عَمِيَ ما سواه فلا يبقى إلا حجاب الذات المقدسة وهو لزام الألوهية : بيني وبينك إني ينازعني - فارفع بلطفك إني من البين .

الله تبارك وتعالى حاضر لدى كل كائن ، وناظر إليه رقيب عليه ، وهو أقرب منه إليه « وأنا أقرب إليه من حبل الوريد » قرباً علمياً وقيومياً ، لا

ذاتياً او زمانياً ومكانياً فانها بُعد في ساحة الالهية ، ومس من كرامة الربوبية :

فلتكن في حاضر خاطرك ، في علمك وعملك ، في سرّك وعلايتك ، في جوارحك وجوانحك ، حاضراً لديه ، أقرب منك إلى نفسك فضلاً عما سواك ، إنمحاء لنفسك لكمال الحضور ، فأنعدم هنا عن كافة شخصياتك وتعلقاتك أمام ربك حتى تتوجد متعلقاً بل وتعلقاً بربك متديلاً به .

أم تحضر بحضرته كما أنت حاضر لنفسك ، أم - لاقل تقدير - كما أنت حاضر عند عزيز من أعزتك وأنت تراه ، أم وادى منه أنه يراك ، آه يا ويلنا ونحن بعيدون في معراجنا عن هذه الأربع ، بل نجد كل ضالة سوى الله في صلاتنا ! أفنحن أضعف من نساء في المدينة بالنسبة لحضرة يوسف ؟ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، ويوسف عبء من عبيد الله ، فهن تناسين أنفسهن فيقطعن أيديهن من جمال الحضور ، ونحن نشاغل عن معراج الصلاة لحد النفور ، فإين تفرون ؟ !

فليكن المصل في معراجه حضوراً مطلقاً لدى ربه دون غياب ، فان إليه إلاب وعليه الحساب وهروب الأرباب .

تتقدم « إياك » هنا على « نعبد ونستعين » . تدليلاً على حصر العبادة في الله والله ، وحصر الإستعانة في الله : نعبدك أنت لا سواك . ونستعينك أنت لا سواك ، تعبيراً عبيراً عن « لا إله إلا الله » .

تتقدم ، لأن الله أحق في التقديم عليك وعلى عبادتك بكل موازين التقديم ، فمن أنت حتى تتقدم على ربك وإن في حضرة العبودية ، وما هي عبادتك حتى تتقدم على المعبود في حضرته ؟ !

و « نعبد .. ونستعين » جمعاً ليس جمع التعظيم للمفرد حيث المقام مقام

التطامن والتذلل ، فإبراز نفسك كفرٍ زائدٌ أمام ربك فضلاً عن جمعك .
وإنما يعني أموراً عدة بين راجحة ومفروضة ، وكلها مفروضة في شرعة المعرفة .

فلكي لا تكذب في صلاتك ادعاءً لحصر عبادتك في الله، تدمج نفسك في جموع العابدين، من الملائكة والجنة والناس أجمعين ، من السابقين والمقربين وأصحاب اليمين ، حتى تصدق دعواك في حصر العبادة ، فإن المخلصين صادقون في حصرهم بأسرهم ، فأنا - إذاً - قائل عنهم ، وناقل منهم وإن لم أكن بنفسي أهلاً لتلك الدعوى ، فلعلي أسير بسيرتهم فأكون معهم ﴿ ومن يقطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ (٤: ٦٩) .
فإذا أنت تقبل حق العبادة أيها الرب الجليل، فاقبل مني أنا الذليل البائس الهزيل ، تلك العبادة الخليطة بعبادات المخلصين .

ثم دمجاً لنفسي في كل العالمين ممن يعبدني ويسجد له طوعاً أو كرهاً فـ
« إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً » والكون محراب فسيح تعبد فيه الكائنات ربها بلسان فصيح وغير فصيح .

ولأن الصلاة جماعة أخرى أم هي مفروضة كأصلها فـ « إياك نعبد » هي حكاية الحال الحاضرة والمقال لجموع المصلين ، ومعنا ملائكة الله إن كنا في صلاتنا فاردين، ومعنا سائر الكون على أية حال .

وحتى إن كنا في حصر العبادة لله صادقين ، علينا أن نخفي أنفسنا في جموع العابدين تحزراً عن الإنية والظهور ، وإعفاء لأثر الشخصوس والغرور ، فلا أنا لائق للإشخاص والشخصوس ، ولا عبادتي تليق بحضرة المعبود ، إذا فـ « نعبد ونستعين وإهدنا » في مثلث من انمحاء الشخصية أمام

حضرة المعبود :

إن العبودية المطلقة تقتضي الطاعة المطلقة وبينهما عموم مطلق ، فكل عبودية طاعة وليست كل طاعة عبودية اللهم إلا مطلق العبودية الجامعة مع الشرك خفياً وجلياً .

ولماذا تنحصر العبادة بأسرها في الله ؟ لأنه « الله - الرحمن - الرحيم - رب العالمين - مالك يوم الدين » وكل من هذه برهان تام لا مرد له على ضرورة الإنحصار .

فهو « الله » في مثلث الزمان وقبلة وبعده ، سرمدياً ما له من فواق ولا رفاق ، الكمال المطلق الصادر منه كل كامل وكمال « فبأي حديث بعد الله وآياته تؤمنون ؟ » « فأين تذهبون ؟ ! »

وهو « الرحمن » لا سواه ، قبل أن يخلقك وبعد خلقك ، لا رحمان إلا إياه ، « فأين تذهبون » « إفكاً آلهة دون الله تريدون » ؟ ! .
وهو « الرحيم » بمن يستحق خاصة الرحمات لا سواه .

وهو « رب العالمين » لا رب سواه خلقاً ولا تدبيراً فمن ذا نعبد إلا إياه ؟

وهو « مالك يوم الدين » ليس إلا إياه فكيف نعبد سواه ، وإليه الإياب وعليه الحساب ؟

فإن كنت تعبد ما تعبد حباً للكمال المطلق فهو الله فلا تعبد - إذاً - إلا إياه .

وإن كنت تعبد استدراكاً للرحمة أم إدراكاً فالرحمة المدرار خاصة بالله فلا تعبد إلا إياه ، شكراً واستكمالاً به ، واحتراماً لديه ما أنت المحتاج إليه دونه .

وإن كنت تعبد لمكان الربوبية فلا تعبد إلا إياه فإنه - فقط - رب العالمين لا سواه :

وإن كنت تعبد طمعاً في الثواب أو خوفاً من العقاب فلا تعبد إلا إياه فإنه - فقط - « مالك يوم الدين » لا سواه :

فمثلث : العبادة الحرة وطلب الثواب وخوف العقاب، منحصر في الله منحسر عن سواه ، فكيف - إذاً - تعبد سواه وقد « أمر ألا تعبدوا إلا إياه » ؟ !

ثم الواجب في شرعة التوحيد عبادة الذات « الله » حضوراً وإدراكاً : « إياك نعبد » ومن زعم أنه يعبد بالصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب « عبادة من لا يحضره فلا يعرفه اللهم إلا بما أنعم ، فلولا النعمة لم تكن عبادة ! » و « إياك نعبد » تنافي الغياب ، فالله تعالى حاضر لك وأقرب إليك منك ، فلتكن حاضراً لديه علماً به وإدراكاً دون إحاطة ، فلو كانت عبادتك بالصفة الفعلية فهي إحالة على غائب ، وكثير هولاء الذين يعبدون الغائب :

« ومن زعم أنه يعبد الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد لأن الصفة غير الموصوف » وهي الصفة الفعلية دون الذاتية فإنها عين الذات ، فعبادة الذات بصفة الفعل ، أم بصفة الذات اعتباراً لها زائدة على الذات ، إنها ناحية عن خالص التوحيد إلى خالص الشرك أم شائبه ، حيث الثانية شرك في الذات وشرك في العبادة ، أن تعبد الذات بصفات الذات كأنها زائدة على الذات ، والأولى شرك في العبادة أن تعبد لأنه « الرحمن الرحيم - رب العالمين - مالك يوم الدين » فإنها عبادة التجار والعبيد دون الأحرار ، حيث يعبدون الله لأنه الله ، ومهما صحت الثلاث وقبلت ، إلا في شرك الذات - فالعبادة الصحيحة هي عبادة الذات سواء كانت للذات فقط ، أم للذات

والصفات تعليلًا لعبادة الذات ، وأما أن يُعبد الذات والصفات ذاتية أو فعلية ، أو يُعبد الصفات كما هي ، أو يُعبد الصفات تفريعاً عليها الذات ، فكل ذلك إبطال للتوحيد فذلك بين إشرارك وإلحاد !

« ومن زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغر بالكبير »^(١) حيث يجعل الصفات أصلاً يفرّع عليها الذات ، ففي عبادتها هكذا مع بعض شرك أنحس من التسوية ، وفي عبادة الصفات أصالة بتفريع الذات إنزلاق إلى إلحاد ، وفي عبادة الذات بأصالة الصفات ، أن يعبد هو هذه الصفات ، تَحَلُّلٌ عن عبادة الأحرار إلى العبيد والتجار « وما قدروا الله حق قدره » (٦ : ٩١) .

فالعبادة درجات : ١ - خوفاً من عذاب الله وهي عبادة العبيد وكثير ما هم و ٢ - طمعاً في ثواب الله وهي عبادة الأجراء وهم أقل منهم^(٢) - ٣ - أن تعبد الله لأنه الله وهم أقل قليل وكما عن مولانا امير المؤمنين علي (عليه السلام) : ما عبدتك خوفاً من تارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك اهلاً للعبادة فعبدتك^(٣) .

وهذه المراتب مطوية في « إياك نعبد » في ظلال ما قبلها ، فد « إياك نعبد » لأنك الله ، فأنت أهل أن تُعبد « لا نريد منك غيرك ، لا نعبدك بالعوض والبدل كما يعبدك الجاهلون بك المغيبون عنك »^(٤) .

(١) يرويه اخواننا عن الامام الصادق (عليه السلام) وبين الأقواس بيانات منا .

(٢) الكافي محمد بن يعقوب بإسناده عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان العباد ثلاثة قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد وقوم عبدوا الله طلب الثواب فتلك عبادة الاجراء وقوم عبدوا الله حباً فتلك عبادة الاحرار وهي افضل العبادة .

(٣) مرآة العقول للمجلسي من باب النية ج ٢ ص ١٠١ .

(٤) تحف العقول عن الامام الصادق (عليه السلام) :

سورة الفاتحة آية - ٥ ١١٣

وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ لِأَنَّكَ «الرحمن - الرحيم - رب العالمين» طمعاً في رحمتك وربوبيتك :

وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ لِأَنَّكَ «مالك يوم الدين» طمعاً في ثوابك أو خوفاً من نارك وهذا أضعف العبادة .

وهذه الدرجات الثلاث كلٌ منها درجات كما أن عبادة غير الله دركات .
وكما « الحمد لله » تنبئ هذه الخمس ، كذلك « إياك نعبد » فإنه كمال الحمد .

وكما أن عبادة التآليه تخصه ، كذلك عبادة الطاعة ، وعبادة الأفعال والأقوال ، فالقول : لولا الله وفلان لما نجحت إشراك في القول ، وسجدة الإحترام وركوعه لغير الله إشراك في فعل الإحترام ، والطاعة المطلقة لغير الله إشراك في طاعة الله ، وإن كان « من يعط الرسول فقد أطاع الله » ولكنها طاعة لله دون سواه مركز تحقيق كتاب توحيد علوم إسلامي

ولماذا تتقدم « إياك نعبد » على « إياك نستعين » ؟ والإستعانة لزام العبادة ، حيث الموكول إلى نفسه على توقُّر العراقل بينه وبين ربه ليس ليعبد ربه ؟

علَّه حثٌ لاستجاشة الطاقات وتكريس الإمكانيات لـ « إياك نعبد » ثم إكمالها بـ « إياك نستعين » فالعبادة هي فعل العبد مشفوعاً بعمون الله ، فعليك الحركة ، وعلى الله البركة ، رفضاً للإتكالية في الأمور المختارة ، وتحريضاً على السعي ثم الإستعانة في كماله وإنتاجه .

كما وإن الاستعانة تعم العبادة وسواها ، والعام يذكر بعد الخاص تعميماً له ولسواه ، فـ « إياك نستعين » في « إياك نعبد » وفي كل ما ترضاه .

ثم العبادة لا تنحصر في مجالات الذكر والصلاة والحج : فانها تشمل كافة حركات الحياة وسكناتها ، فلتكن كلها صلاة لله وصلاته بالله لتصبح الكل عبادة لله .

ولأن العابدين فرادى وجماعات لا يقدرّون على إخلاص العبادة لله لضعفهم في أنفسهم ووجاه عرقلات الشياطين ، فلا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله ، فعلينا الإستعانة بالله في « إياك نعبد » كما في سواه ، إستعانة تكوينية وتشريعية في : كيف نعبد ، هدياً إلى صراط مستقيم في عبادته ، وفي تحقيق حق العبادة الخالصة هدياً إلى الصراط إيصالاً إلى المطلوب منه ، فلولا الإعانة تشريعية وتكوينية لم تتحقق العبادة اللائقة الخالصة .

فـ « إياك نستعين » على طاعتك وعبادتك « وعلى دفع شرور أعدائك وردّ مكائدهم والمقام على ما أمرتنا به » (١) و « إياك نستعين » : إستزادة من توفيقه وعبادته واستدامة لما أنعم الله عليه ونصره (٢) « وإياك نستعين » : أفضل ما طلب به العباد حوائجهم (٣) .

ولماذا « إياك نستعين » دون « بك نستعين » ؟

لأنّ بينها فارقاً والنصر يوحى بتوحيد الأولى دون الثانية ، ساعماً للإستعانة بغير الله في الله وإلى الله حين ياذن الله ويرضى ، فالمستعان - فقط - هو الله، ثم المستعان به في الله وإلى الله في إعانة هو الله ومن ياذن به

(١) تفسير الامام الحسن العسكري (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(٢) من لا يحضره الفقيه عن العلل عن الرضا (عليه السلام) .

(٣) مجمع البيان عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

الله، حيث الدار دار الأسباب، وإن كان الله قد يقطع الأسباب كآية رسالة أو كرامة أو عناية خاصة بمن يحب ويرضى.

ففي توحيد الاستعانة بالله منع عن كل إستعانة بغير الله، وأما التوحيد في إستعانته فهو سائد في الإستعانة بما ياذن به الله كما في الإستعانة بالله. فكما « الحمد لله » والعبادة لله، كذلك المستعان هو الله لا سواه، ومهما حمدنا سواه واستعنا بسواه فلسنا نعبُد سواه إذ « أمر ألا تعبدوا إلا إياه ».

فنحن « نستعين » بهدي الرسول الله في : كيف نعبد « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ».

و « نستعين » باستغفار الرسول الله في غفرانه كما أمر الله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » (٤ : ٦٤).

كما « نستعين » بدعاء الرسول وشفاعته الله بإذنه « لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » (٧٨ : ٣٨).

او « نستعين » الله بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وذويه (عليهم السلام) في كشف الكربات ودفع الأذيّات وأضرابها من حاجات كوسائل كريمة مأذونة لم تخرج عن توحيد إستعانة الله، إبتغاء الوسيلة إليه بإذنه : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون » (٥ : ٣٥).

وسيلة مشفوعة بالتقوى والجهاد، دون إكتفاء بها وإستقلال لها، تاركين التقوى فيها والجهاد، وإنما إستغلالها بأمر الله وإلى إبتغاء مرضات الله :

فليس لنا ان نتوسل بكل شيء إلى الله ، ولا أن نُوَصِّل شيئاً فيما نبغي أمام الله فنستقلها بجنب الله .

إذا قال الله يَسْتَعَانُ فقط دون سواء ، وبغير الله يستعان إلى الله وفي الله بإذنه ورضاه ، فقد نستعين الله فيما نستعين به عن سوى الله ، لأن الإعانات كلها من الله ، وراجعة إلى الله ، بوسائط أم دون وسائط ، ولكننا الوسيط في الاستعانة تكويناً وتشريعاً لا بد له من إذن الله ، وكما استعان ذو القرنين في بناء الردم بمن ظلموا : « قال ما مكّني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً » (١٨ : ٩٥) .

إذا فالإستعانات الإيمانية بإذن الله كلها إستعانة الله ، وهي هي إلا إيمانية إشراك بالله أو إلحاد في الله .

فالتوسل بالأصنام والأوثان أو عبادتها ليقربوكم إلى الله زلفى ، أم يؤثروا تأثيرات إستعانة بغير الله فيما يمنع الله شركاً بالله أو إلحاداً في الله .

كما التوسل بالأحجار والأشجار أماذا من جمادات ونباتات أم حيوان وإنسان أم ملك أو جان أم أياً كان ، كل ذلك توسّل شركي إن توسلت بها إلى الله ، أم إلحادي فيما تستقلها من دون الله .

فنحن نتعاون في الله : « تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » (٢ : ٥) ونستعين بعبادة الله : « واستعينوا بالصبر والصلاة » (٢ : ٤٥) ونستعين برسول الله وكل الهداة إلى الله تعرفاً إلى مرضاة الله ، وكل ذلك إستعانة الله وإستعانة بالله « وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون » (١٢ : ١١٢) .

والضابطة السارية في الإستعانة بغير الله في الله وإلى الله في أمور عادية غير عبادية ، أن تكون مأذونة بالوحي بصورة خاصة أو عامة ، فعلم

الإذن - إذا - دليل المنع لأن منصب العون خاص بالله فضلاً عن المنع .
ومن المأذونة بصورة عامة هو التعاون والإستعانة في كافة الأمور
والمشاغل الحَيَوِيَّة المباحة ، وهي في غير المباحة - فقط - غير مباحة دون شرك
أو إلحاد ، إلا إذا أُشركت بالله أم أُسْتُقِلَّت بجنب الله .

﴿ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٦)

هل يصح « السراط » كما في الشواذ ؟ كلاً وإن اتحد المعنى ، حيث
النص المتواتر هو « الصراط » مهما كان أصله اللغوي من سراط الطعام (١) .

وهو هنا الدين ككل لأنه مؤدّ إلى استحباب الثواب واستدفاع
العقاب ، طريقاً قاصداً ومنهجاً رائداً وبيانا زائداً يوصل إلى الهدف المقصود .
إنها خير دعاء واستدعاء في قلب السبع المثاني، وهي قلب الصلاة، كما
هي قلب العبادات فإنها خير موضوع ، وإن لها خير موضع في خير
موضوع ، فإنها بعد خطوات المعرفة والعبودية والإستعانة ، فلأن الدعاء هي
مخ العباداة فلتكن في مخ العباداة .

وإنها دعاء لا يستغني عنها أحد من عباد الله حتى أسبق السابقين
وأقرب المقربين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله الطاهرين (عليهم
السلام) فضلاً عمن دونهم من سائر المخلصين والمخلصين وعباد الله
أجمعين .

(١) في الدر المنثور ١ : ١٤ - إهدنا السراط بالسين عن عبد الله بن كثير وابن عباس وفي
اسانيد عن ابن عباس « الصراط » وكما أخرج الحاكم وصححه وتعقبه الذهبي عن أبي
هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ « إهدنا الصراط المستقيم » .

ولأن موقع الدعاء هو أقرب حالات القرب إلى الله ، فدعاء الهداية وهي رِقمَةُ الدعاء أصبحت رابع الخطوات ، بعد المعرفة الغائبة في « بسم الله - الى - مالك يوم الدين » ثم الحاضرة بخالص العبادة في « إياك نعبد » ثم أخرى هي بخالص الإستعانة ، فلما اكتملنا خطواتنا الثلاث ووصلنا إلى القمة المقصودة، فلكي نثبت على ما نحن عليه من الهدى ، ثم نستزيد هدى على هدى ، نقول : « إهدنا الصراط المستقيم » .

والهداية هي الدلالة بعطف ولطف بكل مرونة وازدهار، دون أية خشونة واستكبار ، وحتى بالنسبة لأكبر المستكبرين فرعون : « فقولا له قولا لينا . لعله يتذكر أو يخشى » (٢٠ : ٤٤) .

ثم من الهدى - وهي رحمة - عامة تعنيها « الرحمن » وخاصة تعنيها « الرحيم » وهنا أخصّ تعنيها « إهدنا الصراط المستقيم » والخلق في مثلث الهدى درجات حسب الدرجات .

١ - ورحمانية الهدى هي تكوينية لاسواها: « ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (٢٠ : ٥٠) مهما اختلفت درجات الخلق ويمستواها هداها ، وهي إزام كل خلق دوغما حاجة إلى استدعاء ، فالقوانين المحكّمة على المادة تكوينية دوغما استثناء من كيماوية وفيزيائية وفيزيولوجية نباتة أم حيوانية أم إنسانية أمّا هيه -

والكون كله على صراط مستقيم في هذه الهداية الإلهية دوغما تخلف واختلاف، حيث الربوبية الإلهية مستقيمة دون خلاف « إن ربي على صراط مستقيم » (١١ : ٥٦) :

٢ - ومن ثم تكوينية رحيمية كما في هدى العقل والفطرة : « وهديناه النجدين » (٩٠ : ١٠) وهما لكافة المكلفين من الملائكة والجنة والناس

أجمعين آمن هم من لا نعرفهم ؟ ونحن نطلب فيما نطلب تجلي الفطرة وزيادة العقل ، لكي نهتدي إلى صراط مستقيم .

٣ - أم تشريعية ككل شرعة إلهية : ﴿ هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ وهذان حاصلان لكل مكلف قدر تكليفه ، فلولاها لم تك من المصلين حتى تطلب الهداية ، إذاً فلا دعاء لها ولا استدعاء اللهم إلا تداوماً فيها واستزادة ، أن يزيدنا لباً ونوراً وفرقاً لتعرف أعرف إلى شرعته .

٤ - أم رحيمية تكوينية هي التوفيق لقبول الهداية لمن يتطلبها « فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله يحسبون أنهم مهتدون » (٧ : ٣٠) فكذلك الأمر ، فلولا قبول الهدى لما اهتديت إلى الصلاة :

٥ - أم هي واقع الهدى بعد الإهتداء إليها توفيقاً لزيد الإيمان وعمل الصالحات : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم » (١٠ : ٩١) « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » (٥ : ١١٦) فهذه من أحسن الدعوات وأفضل المستدعيات لأن هديها من أفضل الهديات .

٦ - أم هي التوفيق لدوام الهدى والثبات عليها بعد الوصول إليها : ﴿ أولئك الذي هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (٦٠ : ٩٠) ومنها العصمة والتسيد في البقاء على هدي الصراط المستقيم « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » (١٧ : ٧٤) « ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً » (١٧ : ٨٦) .

٧ - أم هي استزادة من هدي الصراط المستقيم ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾

حيث الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو « من المرسلين . على صراط مستقيم » يتطلَّب في صلواته ليل نهار هُدي الصراط المستقيم ، فضلاً عن دونه في صراطه .

٨ - ام هي - أخيراً - صراط الجنة الأخرى على هدي الجنة الأولى ، التي هي جنة عن كل ضلالة في الأولى والأخرى ﴿ وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ (٤٣: ٧) وهي في الأخرى جنتان ثانيتهما ولولاها جنة المعرفة والرضوان : « ورضوان من الله اكبر » .

فبالسبعة الأخيرة من هذه الثمان :- عدد أبواب الجنان - تغلق أبواب النيران ونفتح أبواب الجنة الثمان : فأولى الهدى هي الفطرة والعقل ، غير مكسوفة بطوع الهوى ، وأخرها هي لمن بلغوا الذروة من الرعيلى الأعلى وبينهما متوسطات ، ولكل نصيب مما كسبوا وما ربك بظلام للعبيد ، والعطيات حسب القابليات ، والطرُق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق ، فما من أحدٍ إلّا وهو يحتاج هُدي الصراط المستقيم :

ولماذا نطلب هداية الصراط المستقيم ، دون الهداية «إلى» أم «على» أم «له» ؟ علّه لأن الهداية «إلى» لا تعم الهداية «على» وهي الخيطة الشاملة على الصراط المستقيم ، فإنها واقع الهدى ، لا السبيل إلهلوالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو على صراط مستقيم ، مهما كان إليه في البداية : « قل إني هُدي ربي إلى صراط مستقيم » دينا قيميا . . . » (٦ : ١٦١) فقد كان إليه ثم أصبح عليه فكيف يتطلَّب « إهدنا إلى او على الصراط المستقيم » ! ثم الهداية «على» تخص أهلها الخصوص ، والهداية «لـ» أمر بين أمرين ، ودعاء الهداية في الصلاة تعم عامة المصلين ، وأما هُدي الصراط المستقيم فهو يعم مثلث الهدى !

فهدي الصراط المستقيم في مثلث ولكل درجات ، ولأن دعاء الهداية عامة فلتشمل كافة المتطلّبين ، حتى ومن هو على صراط مستقيم ، أم هو هو صراط مستقيم حيث يهدي إليه « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » (٤٢ : ٥٢) .

إذا ف « إهدنا الصراط المستقيم » تعم الهداية « إلى » و « ل » و « على » ثم وأعلى منها كالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وذويه الذين هم - فعلاً - على صراط مستقيم .

والجمع في « إهدنا » كما الجمع في « نعبد ونستعين » يجمع في دعاء الهداية كل العابدين الله والمستعينين الله في مثلث الدرجات ، من هو مثلك أو دونك أم فوقك ، وحاش لله أن يستجيبك فيمن فوقك كما هي طبيعة الحال ، ثم يتركك بمن هو مثلك أو دونك على ما أنتم ، وهذه من أسس الدعاء أن نجمع إلى أنفسنا غيرنا من صالحين وطالحين ، ليستفيد الطالحون ، ويفيدنا الصالحون .

كما « الصراط المستقيم » دون إليه أو عليه لمحة إلى أن القصد دمجنا في الصراط المستقيم ، ودمجنا فينا حتى نصبح نحن الصراط المستقيم ، ولكي نثبت عليه ونهدي إليه ، في أية درجة من مدارجه .

ونحن نطلب هداية الدلالة والتوفيق والإيصال لما لم نصله حتى الآن ، والتثبيت على أصل الهدى التي وصلناها حتى الآن ، تثبيتاً حتى لا نرجع القهقري ، ودلالة لما فوقها بمعنيها تكاملاً إليها ، فنحن - إذاً - في أبعاد أربعة من تطلب الهدى .

والصراط - كما السراط - من سراط الطعام إذا ابتلعه وزرده بسهولة ودون إبقاء ، فهو السبيل المستسهلة السوية التي يتلعبها سالكها أو تبتلعه ،

منحلبة إلى المقصود ، ضامنة لسالكها أن ينحدر ولا ينهدر .
والملدكور منه في سائر القرآن (٤٥) مرة ، موصوفاً في كله بالمستقيم
أو ما يعني معناه كالعزيز الحميد (١٤ : ١) والحميد (٢٢ : ٢٤) أم
« سواء الصراط » (٣٨ : ٢٢) - « صراطاً سوياً » (١٩ : ٤٣) عما يدل
على أن هناك صراطاً غير مستقيم ولا سوي ، مضاداً لصراط العزيز الحميد
كصراط الجحيم . ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون .
من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ (٣٧ : ٢٣) فهو - إذاً -
صراط المغضوب عليهم ويتلوه صراط الضالين .

فصراط المغضوب عليهم إلى الشيطان ثم إلى الجحيم يسرطهم ابتلاءً
دون إبقاء ، فيوصلهم بلا هوادة إلى الجحيم .

ثم الضالين يسرطهم صراطهم ابتلاءً في ابتلاء الضلال ، فلا يدعهم
ليهتدوا ، فهم من « الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم
يحسبون أنهم يحسنون صنعا »

فقد انقسم الصراط إلى ثلاثة ، نهدي إلى قسم المستقيم « غير المغضوب
عليهم ولا الضالين » ؛

فهنا طريق ثم سبيل ومن ثم صراط هو أبلجه وأنهجه ، وهو المستقيم
للمنعم عليهم .

فالطريق هي التي تطرق ويمشي عليها باستواء أو إرتفاع أم إنحدار ،
فمنها ما هي إلى الجنة : « يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم » (٤٦ : ٣٠)
وما هي إلى النار : « إلا طريق جهنم خالدين فيها ابداً » (٤ : ١٩٦) ثم
هي بين طريق باطن كما هما ، أم وظاهر : « فاضرب لهم طريقاً في البحر
يبساً » (٧٧ : ٢٠) .

والسبيل هي الطريق المنحدرة المسبلة للسالكين، فهي أخص من الطريق وأكثر استعمالاً في غير الظاهر، وأسهل سلوكاً للسالكين، ولكنها - على انحدارها - قد تُوصِل إلى المنزل المقصود بسهولة أو صعوبة وقد لا تُوصِل، فلذلك قد تُجمع كما الطريق، فليست واحدة إلا طريق أو سبيل مستقيم: «وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» (٦: ١٥٣).

فالسبيل منها سبيل السلام ومنها دون ذلك، والصراط المستقيم إلى الحق سلام وليس دون ذلك: «يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيلاً للسلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم» (٥: ١١٦) فسبيل السلام هي درجات لا تخلو إلا واحدة منها من ظلمات يخرجهم الله منها فيستخلصون إلى صراط مستقيم ليس فيه أي ظلام، مهما كان هو أيضاً درجات حسب الدرجات.

فبين نقطة العبودية والربوبية صراط مستقيم بين سبيل السلام، كما هي بين كافة السبل، ومن ثم هي أيضاً بين كافة الطرق. خط مستقيم لا عوج له ولا حول عنه، بين سائر الخطوط الملتوية، منحنية أو منكسرة، موصلة على عقباتها أم غير موصلة.

وللصراط المستقيم درجات أعلاها صراط الرب فـ «إن ربي على صراط مستقيم» (١١: ٥٦) صراط يخصه لربوبيته، لا شريك له فيه ولا يشرك فيه أحداً، إذا فلما نطلبه من ربنا ولا أول العابدين، وكما لنا نطلب صراط الهدى التكويني، الرحمانية الأولى، فإنها كائناً لزام كل خلق على أية حال! وأين صراط من صراط؟

وأدناها «الصورة الإنسانية التي هي الطريق إلى كل خير، والخسر

الممدود بين الجنة والنار» (٤٨) ظرفاً صالحاً كأصلح ما يكون لَتَطْلُب الصراط المستقيم ، ولكنها كائنة لكل إنسان أياً كان ، وحتى من انكدرت فطرته وغرب عقله ، فهذا يستدعى ربه أن يهديه إلى صورته الإنسانية حتى يهتدي بها إلى صراط مستقيم ، ولأن الصورة الإنسانية درجات سبع ، من الروح والفطرة والعقل والصدر والقلب واللب والفؤاد ، فالمستدعاة منها - إذاً - لكل صورة تَلُو بعض ، ليستعد السالك براجلته في هذه الرحلة المدرسية العالية ، معرفة بربه ثم عبودية ، إذ لا عبودية إلا بعد شيء من المعرفة تجذب إلى عبودية .

وبينهما متوسطات من الصراط ، كصراط العبودية : « ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » (٣ : ٥١) وهذا الصراط لزامٌ عسيرٌ منذ الأول حتى الأخير ، راحلةً ووسيلةً وغايةً ، فبأقدام العبودية والمعرفة يحضر العبد محضر الربوبية الذي هو الصراط المستقيم .

وهو إعتصام بالله : « ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم » (٣ : ١٠١) فلا عصمة في هذه الرحلة دون إعتصام بالله إلا انفصاماً عن العروة الوثقى ، ولا إعتصام إلا بعصمة المعرفة والعبودية .

كما الإعتصام والایمان به ذريعة إلى صراط أعلى مستقيم : « فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة وفضل ويهديهم صراطاً مستقيماً » (٤ : ١٧٤) فلا إعتصام إلا بإيمان كما لا إيمان إلا باعتصام بعشيريهما المعرفة والعبودية .

وهذه كلها لا تحصل إلا على ضوء هدي القرآن : « قد جاءكم من الله

نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم ، (٥ : ١١٦) حيث القرآن أقرب السبل الواضحة المعصومة من الله إلى الله ، يعرفنا كيف نؤمن بالله ونعتصم بالله ونعرف الله ونعبد الله ، نُحْطِئاً كُلَّ خَالِجَةٍ خَارِجَةٍ عَنْ الْحَقِّ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ .

وإِلَّا عَلَى هَدْيِ رَسُولِ الْقُرْآنِ : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (٤٢ : ٥٢) حيث الرسول كما القرآن بياناً من الله يبين القرآن ويفسره ، وفي سبيله ما لا يتوَصَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ، فهو صراط مستقيم كما القرآن ، يهديان إلى صراط مستقيم :

ثم الإسلام المطلق بالعبودية الضافية، والتوحيد بالمعرفة الصافية هما الصراط المستقيم ، نتذرع إليهما بالصورة الإنسانية وبالعبودية والايان والإعتصام بالله ، على ضوء هدي القرآن ونبي القرآن : « فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ » (٦ : ١٢٦) « قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَبِيماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (٦ : ١٦١) فالهدف هنا ليس هو الرسول والقرآن ، فإنما هما بما معهما من وسائل زَادُ لِلسَّالِكِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ : إسلام التوحيد وتوحيد الإسلام ، كما والصورة الإنسانية هي الظرف والراحلة ، ولكلٍّ درجات حسب درجات السالكين .

فالرسول الهادي إلى صراط مستقيم ، وهو على صراط مستقيم ، ليس ليتطلب لنفسه ما هو عليه ويهدي إليه ، وإنما صراطاً مستقيماً أعلى لنفسه ، كما الإستمرار على صراطه المستقيم ، ثم وصراطاً مستقيماً يهدي إليه لمن دونه ،

فهو - اذاً - في مثلث الدعاء مثلث الصراط له ولآخرين ، وقد يجمعها ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » (٣ : ٨) في بعدي التثبيت والاستزادة ، وكما يروى انه « استرشاد لدينه واعتصام بحبله واستزادة في المعرفة لربه عز وجل وكبرياءه وعظمته » (١) و « ادم لنا توفيقك الذي به اطعناك فيما مضى من أيامنا حتى نطيعك كذلك في مستقبل اعمارنا . . وهو ما قصر عن العلو وارتفع عن التقصير فاستقام فلم يعدل الى شيء من الباطل » (٢) و « ارشدنا للزوم الطريق المؤدي الى محبتك والمبلغ دينك والمانع من ان نتبع اهواءنا فنعطب او نأخذ بآرائنا فنهلك » (٣) .

كل ذلك يعنيها الرسول في « اهدنا » لغيره تحصيلاً لما قصروا عنه وتثبيتاً لما حصلوا عليه ، ولنفسه تداوماً لعصمته وتكاملاً لمعرفته .

ونحن أيضاً مع الرسول نتطلب لانفسنا وله ولبن دوننا من هذه السبعة من الصورة الإنسانية - العبودية - الإيمان الاعتصام بالله - كتاب الله - رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الإسلام لله وتوحيد الله ، سبعة في قلب السبع المثاني يجمعها « الصراط المستقيم » ولكل درجات ، كما لكل أهل ، فلا يستعني عنها ككل أي من العالمين وحتى أول العابدين ، حيث يطلب لنفسه استدامة ما هو عليه واستكمالها ، ولآخرين ما ينقصهم من درجات الصراط المستقيم .

(١) . تفسير البرهان ١ : ٥١ عن ابن بابويه في الفقيه عن الامام الصادق (عليه السلام) .

(٢) المصدر عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام) .

(٣) المصدر عن الامام الرضا (عليه السلام) .

وإن كانت هذه السبع بين درجات ثلاث من أصل الصراط المستقيم، كالعبودية الخالصة لله، والإسلام له والتوحيد الخالص، والمعرفة به ومن الذرائع إليه، وهي إلى الصراط المستقيم، كالإيمان والاعتصام بالله وعبوديته على ضوء القرآن بنبي القرآن، ومن الظرف الصالح له كالصورة الإنسانية، فإنها راحلة للسالك، فكيف تُطرق الطريق دون أية راحلة صالحة، والعبودية وسيلة هي أخرى منها غاية، حيث الغاية هي الزلفى والمعرفة، ولكن العبودية هي لزامها على طول الخط، فكلما ازدادت العبودية ازدادت المعرفة وكلما ازدادت المعرفة ازدادت العبودية.

فالإسلام التوحيد وتوحيد الإسلام بمعرفة وعبودية قمة هي الغاية المقصودة، وغيرها بين ظرف ووسيلة.

فالإسلام التام هو العبودية التامة، والتوحيد التام هو المعرفة التامة : ف «إياك نعبد» يمثل الأولى الغاية، و «إياك نستعين» الثانية الوسيلة، والعبد يمثل الظرف : الثالثة، بالفطرة والعقلية السليمة حيث تتقبل هذه وتلك.

ولأن النص هنا «إهدنا الصراط المستقيم» فقد يشمل مثلث الصراط بمسبغته، به وإليه وإياه، فأكمل بها دعاء وأجمل.

ثم فاعتراف الجمع في «نعبد ونستعين» والدعاء للجمع في «إهدنا الصراط المستقيم» ذلك الجمع المثلث هو قاعدة الإيمان الجماعي التي تمثل جامعية الإسلام وإجتماعيته، حتى وفي صلاته حيث تضم ضمن الصلاة لله صلات بعباد الله :

﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾^(١).

والنِّعْمَة - كسراً - هي الحالة الحسنة حسية وروحية، تأتي في سائر القرآن (٣٤) مرة وهي فتحاً - حالة رديئة تقلبياً لنعمة الله كفوفاً ونعمة : « وزرع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين » (٤٤ : ٢٧) « ذرني والمكذبين أولى النِّعْمَة ومهلهم قليلاً » (٧٣ : ١١)

وهل تصح « صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين » ؟ كما قرء في الشواذ^(١) قطعاً لا ، لمخالفتها النص المتواتر في القرآن مهما اتحد المعنى أو صح اللفظ وهو لا يصح .

فلأن الصراط قد يكون مستقيماً بين نقطتي العبودية والربوبية ، أم غير مستقيم يفرق بالسالك عن سبيل الله أو يخرج به ، أم هو بين نقطة العبودية والشيطنة وهو صراط الجحيم ، لذلك يعرف هنا بإثبات وسليين ، فالإثبات يتكفل لاستقامته ، والسلب الأول لما يقابله من صراط الشيطان ، والثاني هو العوان بينها قضية الضلال ، فلا إلى الحق عارفاً ولا إلى الضلال عامداً ، مذبذباً بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء !

(١) في الدر المنثور : ١٥ بسند عن عمر بن الخطاب أن كان يقرأ : « صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين » وعن عبد الله بن الزبير مثله إلا في « صراط » وكما عن عكرمة والأسود مثله وفي نور الثقلين ١ : ٢٤ ج ١٠٦ تفسير القمي حدثني أبي عن حماد عن حريز عن أبي عبد الله (عليه السلام) انه قرأ « صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين » قال : المغضوب عليهم النصاب والضاالين اليهود والنصارى ، وعنه عن ابن أبي عمير عن ابن أذينة عن أبي عبد الله (عليه السلام) « غير المغضوب عليهم وغير الضالين » .

فإنما المستدعاة هنا هي صراط المنعم عليهم ، دون المغضوب عليهم الذين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها: « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » (٢٧: ١٤) يعرفون الحق ثم يحيدون عنه كأنهم لا يعرفون، أو يعرفونه باطلاً ، ودون الذين ضلوا عن الحق قاصرين أو مقصرين فلم يهتدوا إليه .

ولأن الهدى هي الروحية ، والصراط الحق المستقيم هنا هو الموصل إلى حقها وحقاقتها ، وأن نعم الدنيا تعم المغضوب عليهم والضالين ، إذاً فـ « أنعمت عليهم » تعني النعمة القيمة الروحية ، ولأنها لم تقيد هنا بقسم دون آخر، فهي مطلق النعم السابعة الروحية .

من الصورة الإنسانية جسراً إلى كل نعمة ، والايان والاعتصام بالله في صحبة العبودية الصالحة ، والإسلام لله وتوحيده على ضوء كتاب الشريعة وسنة رسوله ، وأفضل النماذج السابقة السابعة للمنعم عليهم - على مختلف درجاتهم - هم : النبيون والصديقون والشهداء والصالحون : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً . ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً . وإذا لآتيناهم أجراً عظيماً . ولهديناهم صراطاً مستقيماً . ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً » (٤ : ٧٠) .

هنا نجد القيمة العليا بين المنعم عليهم وهو الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فمن يطع الله والرسول فأولئك مع هؤلاء المنعم عليهم في تلك الطاعة مهما اختلفت المرتبة وكما هم درجات ، النبيون أعلامهم والصالحون أدناهم ، والصديقون والشهداء أوسطهم ، وهم كلهم برفاقهم المطيعين لله والرسول ، عائشون تحت ظل ظليل من هذا الرسول العظيم ،

وهو على عظمه وصراطه القِمة المقتدى به يتطلَّب في صلواته ليلَ نهارٍ
« إهدنا الصراط المستقيم »!

وكيف لا يكون هو صراطاً ومطاعاً للمنعم عليهم طولَ الزمان وعرضَ
المكان ، وقد كانت نبواتهم وكتاباتهم مشروطة بالإيمان به ونصرته ، فهو
أولهم ميثاقاً وخاتمهم مبعثاً :

« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم
رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم
إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » (٦ : ٧٥) .

ونرى في سردِ حكيم في الذكر الحكيم للأولين من مربع المنعم
عليهم ، عديداً من النبيين : كزكريا - يحيى - عيسى - إبراهيم - إسحاق -
يعقوب - موسى - إسماعيل وإدريس : « إنه كان صديقاً نبياً ، ورفعناه مكاناً
علياً : أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع
نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبتنا إذا تتلى عليهم آيات
الرحمن خروا سجداً وبكياً » (١٩ : ٥٨) .

وعلَّ ممن هدينا واجتبتنا مَنْ لم يُذكروا من النبيين ، وكذلك الصديقين
والشهداء والصالحين .

ثم النعمة للأولين وأضرابهم من المعصومين كالصديقين ، هي نعمة
العصمة على درجاتها ، فإنهم كانوا على صراط مستقيم ، هادين إلى صراط
مستقيم .

والمعنى المعنوية هنا لمن يطمع الله والرسول هي المعية في أصل الصراط ،
لا سيما وأن الصراط المستقيم إلى الله واحد ، مهما كان الطرق إلى الله بعدد
أنفاس الخلائق ، والصراط المستقيم - على أية حال - هو سلالة ماتستهدفه

رسالات الله وكتابات، يحمله رسل الله، كائنين عليه دالين إليه ، فلولاً الرسول لم يكن قرآن ولا إسلام التوحيد وتوحيد الإسلام ، ولا صورة إنسانية جادة، ولا اعتصام تام بالله، ولا عبودية صالحة .

إذا فالرسول يمثل الصراط المستقيم ، كما أن صنوه ، ومثيله الذي صنعه على مثاله ، وبنيه المعصومين من بعده ، هم الصراط المستقيم بعده كما في متظافر الروايات .

فطالما النبيون ومن ثم الصديقون هم على صراط مستقيم ، إلا أن لكل درجات « وفوق كل ذي علم عليم » فالأمة الإسلامية تتطلب الهدي إلى صراط الصديقين ، وهم طالبون صراط محمد خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكما سائر النبيين يطلبون صراطه ويؤمنون به قبل ابتعائه ، فكل إلى ذاك الجمال يشير .

لذلك نرى أن الصراط المطلوب لنا في صلواتنا هو « صراط محمد وآله » (١) كما يرويه الفريقان ، أم « صراط علي » (٢) كمصداق ثانٍ لذلك الصراط ، كما سائر مصاديقه هم أهل بيت الرسالة المحمدية (عليهم السلام) (٣) كما وأن صراطهم هو صراط محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

(١ - ٣) اخرج الثعلبي في الكشف والبيان في الآية قال مسلم بن حيان سمعت ابا بريده يقول : صراط محمد وآله، وفي تفسير وكيع بن جراح عن سفیان الثوري عن السدي عن اسباط ومجاهد عن عبد الله بن عباس في الآية قال : قولوا معاشر العباد : ارشدنا الى حب محمد وأهل بيته، وأخرج الحموي في فرائد السمطين باسناده عن أصبغ بن نباتة عن علي (عليه السلام) في قوله تعالى : إن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون « قال : الصراط ولايتنا أهل البيت، وأخرج ابن عدي والديلمي في الصواعق ص ١١١ عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : أثبتكم على الصراط أشدكم حباً لأهل بيتي، وأخرج =

= شيخ الاسلام الحموي باسناده في فرائد السمطين في حديث عن الامام جعفر الصادق (عليه السلام) قوله : نحن خيرة بالله ونحن الطريق الواضح والصراط المستقيم الى الله واخرج ابو سعيد في شرف النبوة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : أنا وأهل بيتي شجرة في الجنة وأغصانها في الدنيا فمن تمسك بنا اتخذ إلى ربه سبيلاً (ذخائر العقبى ص ١٦) وأخرجه مثله الحافظ الحسكاني في شواهد التنزيل (١ : ٥٧) بسند متصل عن أبي بريدة ويسند آخر عن ابن عباس وثالث عنه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي بن أبي طالب : أنت الطريق الواضح وأنت الصراط المستقيم وأنت يعسوب الدين ويسند رابع عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إن الله جعل علياً وزوجته وأبناءه حجج الله على خلقه وهم أبواب العلم في أمي من اهتدى بهم هدي إلى صراط مستقيم .

ومن طريق أهل البيت في عيون الاخبار ص ٣٥ - ٣٦ باسناده عن سيد العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) قال : ليس بين الله وبين حجته حجاب ولا الله دون حجته ستر نحن أبواب الله ونحن الصراط المستقيم ونحن عيبة علمه ونحن تراجمه وحبه ونحن أركان توحيده ونحن موضع سره .

وفيه عن جعفر بن محمد (عليه السلام) في « صراط الذين انعمت عليهم » يعني محمداً وذريته .

وفي أمالي الصدوق (ص ١٧٣) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من سره أن يجوز على الصراط كالريح العاصف ويلج الجنة بغير حساب فليتول وليي ووصيي وصاحبي وخليفتي على أمي علي بن أبي طالب ومن سره أن يلج النار فليترك ولايته فوعزة ربي جل جلاله إنه لباب الذي لا يؤق إلا منه وإنه الصراط المستقيم وإنه الذي يسأل الله عن ولايته يوم القيامة، وأخرج ابن شهر آشوب في المناقب ج ٣ : ٧٢ عن إبراهيم الثقفي باسناده عن أبي برزة الأسلمي قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية : « إن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه » سألت الله أن يجعلها لعلي ففعل، ورواه مثله المجلسي في البحار ج ٣٥ : ٣٦٤ والسيد البحراني في غاية المرام ج ١ : ٢٤٧ عن الروضة لابن =

وسلم) والذي يستهديه محمد نفسه لنفسه هو صراط فوقه والتثبيت على ما هو عليه ، ولن سواء - بطبيعة الحال - دونه ف « لكل درجات مما علموا وما ربك بغافل عما يعملون » (٦ : ١٣٢) ف « هم درجات عند الله والله بصير بما يعلمون » (٢ : ١٦٣) و « نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم » (٦ : ٨٣) :

و ﴿ المغضوب عليهم ﴾

هم كل من غضب الله عليه دون جماعة خصوص ، وتفسيرهم باليهود^(١) . تفسير مصداقي كأصدق مصاديقهم وأنحسهم فإنهم منهم وليسوا كلهم ، فمن اليهود من لم يُغضب عليهم مهمل لم يكونوا مسلمين

= الفارسي، وروى محمد بن الحسن الصفار بإسناده عن أبي حمزة الثمالي في الآية قال : هو والله علي هو والله الميزان والصراط (غاية المرام ج ١ : ٢٤٦) .

وعن جابر بن عبد الله ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بيثا أصحابه عنده إذ قال - وأشار بيده إلى علي - هذا صراط مستقيم فاتبعوه (ج ٢ : ٤٣٥) وعن سعد عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية قال : آل محمد الصراط الذي دل عليه (تفسير العياشي ج ١ : ٣٨٤) وإلى عشرات من هذه الأحاديث أخرجهما الفريقان عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعن أهل بيته المعصومين (عليهم السلام) .

(١) كما عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في روايات عدة أخرجهما عبد الرزاق وأحمد وابن مردويه في مسنده والبيهقي في الشعب وعبد بن حميد وابن جرير والبخاري في معجم الصحابة وابن المنذر وأبو الشيخ عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هم اليهود .

كما وأخرجه سفيان بن عيينة في تفسيره وسعيد بن منصور عن اسماعيل بن أبي خالد عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) وأخرجه أحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسن وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه عن عدي بن حاتم عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) =

كالمستسلمين للحق مهما كانوا من الضالين ، او المقصرين فيه غير معاندين ولا مكذبين ، كما ومن غير اليهود مغضوب عليهم وان كانوا من المسلمين إذ « ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءً يُجزّيه ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » (٤ : ١٢٣) .

فذكر اليهود كأنهم هم المغضوب عليهم دون سواهم ليس إلا لأنهم كمجموعة - لا ككل - هم أنحس حماقى الطغيان طول التاريخ الرسالي والرسولي (٥٧) .

فمن المغضوب عليهم « من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون » (١٦ : ١٠٩) .

مركز تحقيق كاتبيت علوم اسلامی

= وآله وسلم) واخرجه احمد وابو داود وابن حبان والحاكم وصححه والطبراني عن الشريد عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) (الدر المنثور ١ : ١٦) .

(٥٧) في نور الثقلين : ١ : ٢٤ ح ١٠٦ - القمي حدثني ابي عن حماد عن حريز عن ابي عبد الله (عليه السلام) انه قال . . . المغضوب عليهم النصاب والضالين اليهود والنصارى وعنه عن ابن ابي عمير عن ابن اذينة عنه (عليه السلام) قال . . . المغضوب عليهم النصاب والضالين الشكاك الذين لا يعرفون الامام وفي الفقيه فيما ذكره الفضل من الجبل عن الرضا (عليه السلام) انه قال : « غير المغضوب عليهم » استعاذة من ان يكون من المعاندين الكافرين المستخفين به وبأمره ونهيه « والضالين » اعتصام من ان يكون من الذين ضلوا عن سبيله من غير معرفة وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » .

وفي احتجاج الطبرسي وروينا بالاسناد المقدم ذكرها عن ابي الحسن العسكري (عليه السلام) ان ابا الحسن الرضا (عليه السلام) قال : ان من تجاوز بامير المؤمنين (عليه السلام) العبودية فهو من المغضوب عليهم ومن الضالين .

ومنهم الذين يحتاجون في الله بعد كمال الحجة واتضح المهجة :
« والذين يحتاجون في الله من بعدما استجيب له حاجتهم داحضة عند ربهم
وعليهم غضب ولهم عذاب شديد » (٤٢ : ١٦) .

والمكذبون بآيات الله : « قال قد وقع عليكم رجز من ربكم
وغضب أتعادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباءكم . . » (٧ : ١٧١) .
والطاغين في رزق الله : « كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطفوا فيه فيحل
عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى » (٢٠ : ٨١) هذا ،
فباحري الطغات على الله !

والمولئين أدبارهم في الجهاد : « ومن يؤلم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال
أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (٨ :
١٦) .

والقاتلين المؤمنين متعمدين : لإيمانهم : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً
فجزاءه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً »
(٤ : ١٣)

وهكذا نرى أن المغضوب عليهم - على مختلف دركاتهم - هم الذين
شرحوا بالكفر صدراً ، أم طغوا في رزق الله أم على الله ، أم كذبوا بآيات
الله ، أم حاجوا في الله من أية طائفة كانوا ، ملحدين أو مشركين أم كتابيين ،
هوداً أو نصارى أم مسلمين ، مهما اختلفت دركات الغضب عليهم كما
المغضوب عليهم جزاءً وفاقاً .

ولكيلا . يغتر غير اليهود بالأماني الكاذبة ، يأتي الأمان العام لمن آمن
وعمل صالحاً من الذين هادوا كسواهم ، بعد ضرب الذلة عليهم والمسكنة
والغضب من الله معللاً بما علل . . . وضربت عليهم الذلة والمسكنة
وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين

بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . إن الذين آمنوا والذين هادوا والنجاري والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢ : ٦٢) .

وكما نرى في أخرى « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

إذ تأتي تلوها دون فصل آية : الأمان لأهل الإيمان : « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين » (٣ : ١١٥) .

أجل إنهم ليسوا سواء لأنهم يهود أم أهل كتاب غير مسلمين لكي يغضب عليهم اجمعين ، فانما الغضب مربوط برباط التخلف عن شرعة الله . ولأن اليهود هم أكثر الطوائف طغياناً وتكديباً بآيات الله ، لذلك ترى آيات الغضب تتلاحق عليهم أكثر من سواهم كأنهم هم المغضوب عليهم لا سواهم .

وأما « الضالين » فهم عوان بين المغضوب عليهم . والمهدين ، ناكبين عن الصراط المستقيم ، فهم - على أية حال - من الضالين ، قاصرين أو مقصرين ، عن الصورة الإنسانية وعن التوحيد والآخر : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون » (٢٣ : ٧٤) عن صراط العبودية التي هي الصورة الإنسانية الكاملة ، التي يجمعها صراط توحيد الإسلام وإسلام التوحيد والإعتصام بالله على ضوء قرآن محمد ومحمد القرآن .

وبصيفة مختصرة مختصرة كل من ضل عن الصراط المستقيم
فهو من الضالين: من مستضعف قاصر لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً إلا
المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون
سبيلاً . فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ، (٤ : ٩٩) .

ومن مستضعف مقصر « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا
فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة
فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » (٤ : ٩٧) .

ومن مستكبر معاند للحق وهو من رؤوس الضلالة ضالاً مضلاً ناكباً
منكبا عن الصراط وهو من المغضوب عليهم « وأما إن كان من المكذبين
الضالين . فنزل من حميم وتصلية جحيم » (٥٦ : ٩٤) .

ومختلف دركات الضلال موزعة بين فرق النصارى لحد لا مثيل لهم في
سائر الطوائف ، ولذلك يفسر بهم « الضالين » في الحديث كأضل الضالين .
و « الضالين » يهيم على المغضوب عليهم حيث تشملهم وسواهم ،
وقد يشمل سائر السبل الملتوية وإن كانت موصلة إلى الله .

ولكن الصراط المستقيم هو أسلم السبل إلى الله مهما كان درجات ،
فكل درجة أدنى ضلالاً بالنسبة للأعلى حال أنها سبيل إلى الله : « ووجدك
ضالاً فهدي » .

ولكنها الضلال قصوراً أو تقصيراً هو المقصود من « الضالين » حيث
الضال الذي يتحرى الصراط ، وهو في سبيله إلى الصراط ، ضلاله ضلال
قدسي كما الشك المقدس وهو في سبيله إلى اليقين ، والإسلام في سبيله إلى
الإيمان ، فانه ليس نفاقاً ولا إيماناً ، بل هو إسلام إلى إيمان : « قالت الأعراب

آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم»
(٤٩ : ١٤).

وأما الضال الذي يرى نفسه على هدى بقصور أو تقصير، فهو في الحق ضال لا يرجى هداه.

فلأن الداعي في صلاته - في الأكثرية الساحقة - ليس على صراط مستقيم ، فهو ضال عنه ، ولكنه سالك إليه متحرّ عنه ، فلا يُسمى ضالاً قسماً للمغضوب عليهم ، مهما كان ضالاً بقياسه بمن هو على صراط مستقيم .

فالسالكون إذا أربعة : ١- مؤمن ليس على صراط مستقيم وهو في سبيله ، ٢ - من هو على صراط مستقيم . ٣ - المغضوب عليهم غير المؤمنين ولا المتحرين عن إيمان بل معاندين له ومتعنتين عليه . ٤ - الضالين الذين ضلوا الصراط والسبيل إلى الصراط ، فهم عن الصراط لناكبون .
فالأولان هما من المصلين المهتدين ، والآخران من الناكبين عالمين أو جاهلين .

فالؤمنون الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، هم في سبل السلام آمنون ، سالكون إلى الصراط المستقيم : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » (٧ : ٨٢) مهما اختلج لهم شرك خفي أم ظلم عملي ، ف « ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » .

عود على بدء في السبع المثاني

لقد شملت البسملة على ثلاثة من أسماء الله هي أهمها كلها ، وشملت السبع المثاني - ككل - على خمسة هي أصول أسماء الدالة على المبدء والمعاد

سورة الفاتحة آية - ٧ ١٣٩

وما بين المبدء والمعاد، فلو كان لله إسم افضل من هذه لذكرها في ام القرآن .

ثم هي على ترتيب الأهمية : « الله - الرحمن - الرحيم - رب العالمين - مالك يوم الدين » .

فقارئ الحمد قارئ للقرآن العظيم وكما يروى عن الإمام الرضا (عليه السلام) .

فإن قال : فلم أمروا بالقراءة في الصلاة ؟ قيل : لئلا يكون القرآن مهجوراً مضيعاً مدروساً فلا يضمحل ولا يُجهل -

فإن قال : فلم بدىء بالحمد في كل قراءة دون سائر السور ؟ قيل : لأنه ليس شيء من القرآن والكلام جُمع فيه من جوامع الخير والحكمة ما جُمع في سورة الحمد .

وذلك ان قوله : « الحمد لله » إنما هو أداء لما أوجب الله تعالى على خلقه من الشكر، وشكر لما وفق عبده للخير -

« رب العالمين » تمجيد له وتحميد وإقرار بأنه هو الخالق المالك لا غيره -

« الرحمن الرحيم » إستعطاف وذكر لآلائه ونعمائه على جميع خلقه -

« مالك يوم الدين » إقرار بالبعث والحساب والمجازات، وإيجاب له ملك الآخرة كما أوجب الله له ملك الدنيا -

« إياك نعبد » رغبة وتقرب إلى الله عز وجل وإخلاص بالعمل له دون غيره -

« وإياك نستعين » إستزادة من توفيقه وعبادته وإستدامة لما أنعم عليه

ونصره -

« إهدنا الصراط المستقيم » إسترشاد به واعتصام بحبله واستزادة في المعرفة بربه ويعظمته وبكبريائه -.

« صراط الذين انعمت عليهم » تأكيد في القول والرغبة، وذكر لما قد تقدم من نعمة على أوليائه، ورغبة في مثل تلك النعم -.

« غير المفضوب عليهم » استعاذة من أن يكون من المعاندين الكافرين المستخفين به وبأمره ونهيه -

« ولا الضالين » إعتصام من أن يكون من الضالين الذين ضلوا عن سبيله من غير معرفة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا -

فقد اجتمع فيه من جوامع الخير والحكمة في الآخرة والدنيا ما لا يجمعه شيء من الأشياء (١) .

ثم إلى حديث سلسلة الذهب القدسي حول تفسير السبع المثاني يرويه الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) عن أبيه علي بن محمد (عليه السلام) عن محمد بن علي (عليه السلام) عن علي بن موسى (عليه السلام) عن موسى بن جعفر (عليه السلام) عن جعفر بن محمد (عليه السلام) عن محمد بن علي (عليه السلام) عن علي بن الحسين (عليه السلام) عن الحسين بن علي (عليه السلام) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : قال الله عز وجل : قَسَمْتُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي فَنُصِفْتُهَا لِي وَنُصِفْتُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، إِذَا قَالَ الْعَبْدُ « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » قَالَ

(١) عيون اخبار الرضا (عليه السلام) وعلل الشرايع بإسناده عن الفضل بن شاذان عن الرضا (عليه السلام)

الله جل جلاله : بدء عبدي باسمي وحق علي أن أتم له أموره وأبارك له في أحواله - فإذا قال : « الحمد لله رب العالمين » قال الله جل جلاله : حمدني عبدي وعلم أن النعم التي له من عندي وأن البلايا التي دفعت عنه فبطولي ، أشهدكم أني أضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا ، فإذا قال : « الرحمن الرحيم » قال الله جل جلاله : شهد لي عبدي أني الرحمن الرحيم ، أشهدكم لأوفرن من نعمتي حظه ولأجزلن من عطائي نصيبه ، فإذا قال : « مالك يوم الدين » قال الله جل جلاله : أشهدكم كما اعترف أني أنا مالك يوم الدين لأسهلن يوم الحساب حسابه ولأتجاوزن عن سيئاته فإذا قال : « إياك نعبد » قال الله عز وجل : صدق عبدي، إياي يعبد، أشهدكم لاثبته على عبادته ثوابا يغبطه كل من خالفه في عبادته لي، فإذا قال : « وإياك نستعين » قال الله عز وجل : بي استعان عبدي والتجأ إلي أشهدكم لأعينته في شدائده ولأخذن بيده يوم نوائبه، فإذا قال : « إهدنا الصراط المستقيم » ... قال الله عز وجل : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل، فقد استجبت لعبدي وأعطيته ما أمل، وآمنت به مما منه وجل ^(١) .

إذا فالسبع المثاني صورة مجملة وضاعة عن سيرة الله وسيرة العبد تجاه الله ، تجمع من جوامع القرآن العظيم محكمات ، مما يتوجب على العباد معرفيا وعمليا وجاه رب العالمين ، لماعة لمأحة إلى مثلث الأصول الدينية: المبدء، والمعاد، وما بين المبدء والمعاد من نبوات وتشريعات.

(١) رواه شيخ الطائفة الطوسي في اماليه والشيخ الاجل الصدوق في عيونهم عن محمد بن القاسم المفسر الاستر آبادي قال : حدثنا يوسف بن محمد بن زياد وعلي بن محمد بن سيار عن ابويهما عن الامام الحسن العسكري (عليه السلام) عن ...

وفي قرآن بين ما نقوله نحن المسلمين في صلواتنا وما يقوله المسيحيون نرى قرآناً بين النور والنار، بين أدب بارع وسوء هارع .

ففي إنجيل متى الفصل ٦ الآية ٩ - ١٣ فصلوا أنتم هكذا :
ونحن نصلي هكذا :

↓	↓
أبانا الذي في السماوات	بسم الله الرحمن الرحيم ^(١)
ليتقدس اسمك ^(٢)	الحمد لله رب العالمين ^(٣)
ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك	الرحمن الرحيم ^(٣)
كما في السماء كذلك على الأرض ^(١٠)	مالك يوم الدين ^(٤)
خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ^(١١)	إياك نعبد وإياك نستعين ^(٥)
واغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن	إهدنا الصراط المستقيم ^(٦)
أيضاً للمذنبين إلينا ^(١٢)	صراط الذين أنعمت
ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا	عليهم-
من الشرير لأن لك الملك	غير المغضوب عليهم
والقوة والمجد إلى الأبد آمين ^(١٣)	ولا الضالين ^(٧) .

فهل الله تعالى « أباهم » ؟ وأصل النص المتواتر في الانجيل « الأب » :
الخالق حسب اليوناني !

ثم أهو فقط « في السماوات » والأرض خلق منه ؟ غلطتان في آية منها
واحدة !

ثم من الموعود في « لتكن مشيئتك . . » وهل هذه المشيئة حتى الآن ما
أتت الأرض ، فماذا يقول المسيح (عليه السلام) إذا في الأرض ، أليس
ليحقق مشيئة الله في شرعته لأهل الأرض ؟ ثم من هذا الذي ينزل مشيئة
الله إلى الأرض ! غلطات تلوي بعض ، ظلمات بعضها فوق بعض !!!

والصلاة حسب الإنجيل لا يؤتى بها إلا لله تعالى (مت ٤ : ١٠ - مقابل تث ٦ : ١٣ و ١٠ : ٢٠) ففي الأول « لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » وهذه من الآيات الإنجيلية النادرة في فرض السجود ، ولكن « تث » لا تذكر إلفرض الصلاة .

والأوقات المقررة حسبت الكتاب المقدس للصلاة ثلاثة ، ففي « مز ٥٥ : ١٦ - ١٧ و دا ٦ : ١٠ » « أما أنا فإلى الله أصرخ والرب يخلصني مساءً وصباحاً وظهراً أشكو وأنوح ، فبسمع صوتي - وفي « دا » فلما علم دانيال .. فجثا على ركبتيه ثلاث مرات في اليوم وصلى وحمد قدام إلهه كما كان يفعل قبل ذلك .



مسأل فقهية حول الحمد .

وهل تجوز ترجمة الحمد في الصلاة ؟ أقوال (١) أقواها عدم الجواز إلا لمن لا يتمكن من قرائتها عربية ولا الاقتداء بمن يقرأها ولا متابعتها في قراءتها ، فما لا يدرك كله لا يترك كله ، فان ترجمة الحمد غير الحمد وقد أمرنا بقراءة الحمد في الصلاة وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) صلوا كما رأيتموني أصلي ، ولو جازت الترجمة لقرأها أحياناً تدليلاً على الجواز (٢) .

وهل تجب القراءة على المقتدي ؟ الحق عدم وجوبها حيث الإمام

(١) قال الشافعي انها لا تجوز اطلاقاً وقال ابو حنيفة تجوز اطلاقاً وقال ابو يوسف ومحمد بما قلناه .

(٢) وهو اجماع تحقق عندنا ومصرح به في كلام جماعة حد الاستفاضة كالناصرية والخلاف والذكرى .

يتحملها عنه حسب متواتر الحديث ، مهما جازت في الإخفاتية ، وفي الجهرية إذا لم يسمع صوت الإمام بل هي أحوط ، وإذا سمع حرمت لوجوب الإستماع كما قال الله « وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » (٧ : ٢٠٤) ومن أصدق مصاديقه قراءة الحمد والسورة في الصلاة .

وهل تجوز قراءة الحمد والسورة التي بعدها في الصلاة من المصحف ؟
الظاهر هو الجواز لا سيما لمن لا يحفظها أو يلحن فيها ، والمتعارضتان في الجواز وعدمه متساقطتان لولا ترجيح رواية الجواز ، فالأصل هو الجواز (١) .
وهل يجوز التأمين بعد « ولا الضالين » أم لا يجوز ، وعلى الحرمة هل تبطل به الصلاة أم لا تبطل ؟ أقوال (٢) : أقواها البطلان .

(١) جامع احاديث الشيعة ج ٥ ص ١٨٧ بإسناده عن الحسن بن زياد الصيقل قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) ما تقول في الرجل يصلي وهو ينظر في المصحف يقرأ فيه يضع السراج قريباً منه فقال لا بأس بذلك ، وتعارضها رواية قرب الأستاد بإسناده عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر قال سألت عن الرجل والمرأة يضع المصحف أمامه ينظر فيه ويقرأ ويصلي ؟ قال : لا يعتد بتلك الصلاة .

(٢) في الخلاف ١ : ١٠٤ قول أمين يقطع الصلاة سواء كان ذلك سرّاً أو جهرّاً في آخر الحمد أو قبلها للإمام والمأموم وعلى كل حال - وقال أبو حامد الاسفراييني إن سبق الإمام المأمومين بقراءة الحمد لم يجز أن يقولوا آمين فإن قالوا ذلك استأنفوا قراءة الحمد وبه قال بعض أصحاب الشافعي ، وقال الطبري وغيره من أصحاب الشافعي لا يبطل ذلك قراءة الحمد ويبني على قرائته -

فأما قوله عقيب الحمد فقال الشافعي وأصحابه يستحب للإمام إذا فرغ من فاتحة الكتاب أن يقول آمين ويجهريه واليه ذهب عطاء وبه قال أحمد وإسحاق وأبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة وأبو بكر بن المنذر وداود - وقال أبو حنيفة وسفيان : يقول الإمام ويخفيه ، وعن مالك روايتان أحدهما مثل أبي حنيفة والثانية لا يقول آمين أصلاً - =

ففيما يرويه إخواننا عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) متظافراً
الأمر به فرضاً أو ندباً ^(١) وفيما يرويه أصحابنا عن عترته الطاهرة (عليهم
السلام) النهي عنه ^(٢) إلا شاذاً ، وقضية التعارض هنا هي تقديم رواية

وأما المأموم فإن الشافعي قال في الجديد يُسمع نفسه وقال في القديم يجهر به
واختلف أصحابه فمنهم من قال المسألة على قولين ومنهم من قال إذا كانت الصفوف
قليلة متقاربة يسمعون قول الامام يستحب الاخفاء وإذا كانت الصفوف كثيرة ويخفى
على كثير منهم قول الامام يستحب لهم الجهر ليسمعوا من خلفه وقال احمد واسحاق وابو
ثور وعطا يستحب لهم الجهر وقال ابو حنيفة وسفيان الثوري لا يستحب لهم الجهر
بذلك .

^١ دليلنا اجماع الفرقة فانهم لا يختلفون في ان ذلك يبطل الصلاة وايضاً فلا خلاف انه
إذا لم يقل ذلك ان صلاته صحيحة ماضية وروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)
انه قال : ان هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الأدميين وقول آمين من كلام
الأدميين .

(١) في الدر المنثور ١ : ١٧ - اخرج قراءة آمين عن رسول الله (صلى الله عليه
وآله وسلم) عن جماعة عن : ابي ميسرة ووائل بن حجر الحضرمي وعلي (عليه
السلام) وابي موسى الاشعري وابي هريرة وعائشة وابن عباس ومعاذ بن جبل وانس
عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كلمة واحدة قراءة آمين او الامر بها .
(٢) في جامع احاديث الشيعة ٥ : ١١٢ باب عدم جواز التامين عن محمد الحلبي
قال : سألت ابا عبد الله (عليه السلام) اقول اذا فرغت من فاتحة الكتاب آمين ؟
قال : لا ومثله في حسنة جميل عنه (عليه السلام) وتعارضها صحيحته سألت ابا عبد الله
(عليه السلام) عن قول الناس في الصلاة جماعة حتى تقرأ فاتحة الكتاب آمين ؟ قال :
ما أحسنها وأخفض الصوت بها وعن معاوية بن وهب قال قلت لابي عبد الله (عليه
السلام) اقول آمين اذا قال الامام غير المفضوب عليهم ولا الضالين ؟ قال : هم اليهود
والنصارى ولم يجب في هذا والجعفریات باسناده عن علي (عليه السلام) قال رسول الله
(صلى الله عليه وآله وسلم) لا تزال امتي على شريعة من دينها حسنة جميلة ما لم
يتخطوا القبلة باقدامهم وما لم يصرخوا ينصرفوا قياماً كفعل اهل الكتاب وما لم تكن لهم =

أهل البيت (عليهم السلام) فانهم أحد الثقلين فالأقوى - اذا - عدم الجواز والظاهر البطلان .

ولا عبرة بعدد الروايات عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اذا كان يخالف نقلها أحد من أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فضلاً عن إجماعهم ، فان عصمة النقل لهم تفوق كل راوية ودراية كما في حديث الثقلين المتواتر .

ثم الروايات المتواترة من طريق الفريقين الأمرة بقراءة الحمد في الركعتين تساند القول ان آمين ليس فيها فانها حسب تواتر القرآن خالية

= ضجة يأمون ورواه الدهاليم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه (عليهم السلام) انه قال لا تزال أمتي بخير وعلى شريعة وذكر مثله ، وروى الريان عن الرضا (عليه السلام) عن أبي محمد العسكري (عليه السلام) في حديث طويل انه عد الاتصال التي تخص الله تعالى بها الأئمة (عليهم السلام) وشيعتهم ثم ذكر ان العامة خالفهم فيها - الى ان قال - : والاختلاف في السورتين خلافاً علي الجهر . وآمين بعد ولا الضالين عوضاً عن الفنون . الخبر ، وفي الدعائم وروينا عنهم (عليهم السلام) انهم قالوا يبتدء بعد بسم الله الرحمن الرحيم في كل ركعة بفاتحة الكتاب . . . وكرهوا (حرموا) ان يقال بعد فراغ فاتحة الكتاب آمين كما تقول العامة ، وقال جعفر بن محمد (عليه السلام) انما كانت النصارى تفوهاً وفي المستدرک ابو القاسم علي بن احمد الكوفي في كتاب الاستغاثة في بدع الثلاثة في سياق مطاعن الثاني ، أجمع أهل النقل عن الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) انهم باجمعهم قالوا : من قال آمين فقد افسد صلاته وعليه الاعادة لانها عندهم كلمة سرية معناه بالعربية افعل كسبيل من يدعو بدعاء فيقول في آخره اللهم افعل ثم استن انصاره بروايات متخرصة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقول ذلك بأعلى صوته وانكر أهل البيت هذه الرواية وفي روايات عدة « وعمل من خلفه ان يقولوا الحمد لله رب العالمين » رواه جميل عن أبي عبد الله (عليه السلام) وفضيل .

عنها ، إذا فهي كلام خارج عن فرض الصلاة وندبها ، فتبطل به الصلاة
 أم - ولاقل تقدير يحرم .

والقول أن دعاء الهداية في قلب السبع المثاني وهي قلب الصلاة ،
 إنها خير دعاء ، والتأمين بعد الدعاء من السنة فهو هنا أحرى ، وقد
 أمرنا بالدعاء في الصلاة وهو من الدعاء بعد الدعاء ، إذا فهو - لاقل
 تقدير - جائز أن لم يكن ندباً .

إنه مردود إلى قائلة لكونه اجتهاداً ضد النص ، ولا نقبل حديثاً يروى
 عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين يكذبه عترته المعصومون
 (عليهم السلام) .

وهذه ضابطة سارية المفعول أن الروايتين المتعارضتين المرويتين عن
 الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تُعرضان على كتاب الله ، ثم على سنة
 رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والعشرة هم حملة السنة حين تثبت
 عنهم له (صلى الله عليه وآله وسلم) رواية ، سواء أسندوها إلى رسول الله
 (صلى الله عليه وآله وسلم) أم لم يسندوها ، فانهم - على أية حال - ليسوا
 إلا حملة السنة عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يزيدون عليها
 ولا ينقصون عنها ، كما الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الله .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



سورة البقرة



مرکز تحقیقات کتاب ویر علوم اسلامی

﴿ سورة البقرة - مدنية - وآياتها مائتان وست وثمانون ﴾

اسماء السور القرآنية التي هي ايضاً بتسمية الرسول وحياً ، كترتيب السور والآيات الذي يساور التنزيل في الوحي ، مما يؤيد وحي التأليف ، فالقرآن المفصل وحيان ، وحي التنزيل ووحى التأليف ، ولو أن مات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن قرآن التنزيل مبعثرة الآيات دون تأليف ، فكيف إذا هذه التسميات ، هل هي تسميات مسبقة عن السور المسميات التي ألفها أناس بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ وما هي إلا فوضى جزاف ، يستحيل معها انضباط هذه الأسماء دون خلاف واختلاف على مر العصور !

فكما أن وحي التنزيل في محكم القرآن ومفصله من الله كذلك وحي الجمع والتأليف كما تدل عليه آية الجمع^(١).

ولقد روى تسمية هذه السورة بـ « البقرة » جم غفير عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٢) مما يؤكد أنها كغيرها ألفها الرسول (صلى

(١) هي قوله تعالى : لا تحرك به لسانه لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . . راجع ج ٢٩ ص ٢٨٠ ففيها بحث موضوعي حول جمع القرآن .

(٢) الدر المنثور ١ : ١٨ - أخرجه جماعة عن الحفاظ وأرباب السنن عن أبي امامة الباهلي، نواس بن سمعان وبريدة وابن عباس وأبو ذر الهروي ومحمد بن نصر وعبد الواحد بن أعين وابن مسعود وأبي هريرة وأبي الدرداء وعبد الله بن مفضل وأبي مسعود وسهل بن سهل الساعدي والحسن ومقل بن ياسر والسيد بن حضير والصلصال بن الدهميس وعروة وعائشة كل عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنها سورة البقرة وروى انس وأبو سعيد الخدري وربيعه الحرشي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ان لا تقولوا سورة البقرة وآل عمران بل السورة التي يذكر فيها البقرة . ومن طريق ائمة اهل =

الله عليه وآله وسلم) دون المؤلفين الزاعمين تأليف القرآن :

ومن لطيف الترتيب تقدّم فاتحة الكتاب كبراعة استهلال للكتاب، ثم سورة البقرة وهي أول ما نزلت في المدينة، تلمح لموقع الدولة الإسلامية فيها، كأنها بداية الإسلام، كما وأن تأريخ الإسلام يبتدئ بأول العهد المدني، وكأنما العهد المكي لم يكن من عهود الإسلام، رغم أنه جذورها الأولية، مهما كان غماؤها في المدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 اَلَمْ يَجْعَلْ لَكَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ
 هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

= البيت رواها ابو بصير عن الصادق (عليه السلام) وعن علي بن الحسين (عليه السلام) عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ومعاني الاخبار الى سفيان الثوري عن الصادق (عليه السلام).

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٤﴾
 وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ
 مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٥﴾
 أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦﴾
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى
 أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٨﴾

﴿ آلم ﴾

وترى ماذا تعني أمثال هذه الحروف المقطعة المتصدرة بها البعض من
 سور القرآن ؟

فهل هي أسماء لها ؟ وليست إلا في (٢٨) سورة، وهي أقل من ربعها
 فلماذا لم تسم بها ثلاثة أرباعها ؟، ثم للمصدرة بها أسماء غيرها إلا قليلاً
 منها^(١) (١١) ثم الأسماء لا بد وان تُعرب عن مسمياتها بما تحمل من معاني

(١) وهي خمس : طه - يس - ص - ق - ن ، ثم الباقية ال : ٢٣ لها أسماء غيرها .

ولا معاني معروفة لهذه الحروف إلا عند أهلها !

٢ - ام هي تنبيهات أن آياتها البالغة ذروة معارج الإعجاز هي مركبة عنها ؟ إذا فلماذا لم تتصدر بها أوائلها نزولاً كالحمد والعلق والمزمل والمدثر ؟ وهي أخرى بالتنبيه لها ؟ ولماذا لم تستغرق المكية الـ (٨٦) إلا في ٢٥ منها دون الـ (٦١) الأخرى ، ونراها في ثلاث من المدنيات الـ (٢٨) دون (٢٥) الأخرى منها ، فمجموع المصدرة بها بين (١١٤) سووة ليست إلا (٢٨) !^(١)

ثم وهذه لعبة إذ توضح الواضح عند أي سامع خا ، وهي لا تستحق أن تكون آيات كسائر الآيات ثابتة في صدورها ! .

ثم وهذه الحروف لا تستغرق حروف الهجاء الـ (٢٨) وإنما هي نصفها^(٢) وقد تكررت مرات وهرات^(٣) فليست هي إذاً - فقط - هذه الإشارة المنبهة .

٣ - أو أنها فصول بين السور ؟ وقد تحققت بالبسملات ! اللهم إلا

(٢) وهي ا - ل - م - ر - ه - ي - ع - ص - ط - س - ح - ق - ن - ك - ولم تذكر ١٤ - الأخرى : ب - ت - ث - ج - خ - د - ذ - ز - ش - ض - ظ - غ - ف - و .
(١) فالملكية الـ ٢٥ هي : ١ - الاعراف - المص - ٢ - يونس : آلر : ٣ - هود : آلر - ٤ - يوسف : آلر - ٥ - ابراهيم : آلر - ٦ - الحجر : آلر - ٧ - العنكبوت : آلم - ٨ - مريم : كهيعص - ٩ - طه - ١٠ - الشعراء : طسم - ١١ - القصص : ١٢ - النمل : طس : ١٣ - الروم : آلم - ١٤ - لقمان : آلم - ١٥ - السجدة : آلم - ١٦ - يس - ١٧ - ص - ١٨ - المؤمن : حم - ١٩ - فصلت : حم - ٢٠ - الدخان : حم - ٢١ - الزخرف : حم - ٢٢ - الاحقاف : حم - ٢٣ - الجاثية : حم - ٢٤ - ق - ٢٥ - ن - .
والمدنية الـ ٣ هي : البقرة : آلم - آل عمران : آلم - الرعد : آلر فالمجموع ٢٨ .

(٣) وقد كررت آلم خمس مرات - وآلر : ٥ - وحم : ٦ - وطسم : ٢ - ثم في التسع الباقية مرة مرة ك : آلر والمص وكهيعص وطه ويس وص وق ون وطس !

البراءة وهي يتيمة عنها، وهي متحققة بأسماها إلا قليلاً منها ! ثم ولا يجوز الفصل بما هو أجنبي عن القرآن ! .

٤ - أو أنها للإسكات ؟ فلتصدّر المكية ولا سيما أولياتها بها ، وكذلك مهام الأيات وإن في أوساط السور دون اختصاص بأوائلها ، وأن الإسكات لا يناسب حروفاً لا يفهمونها ! .

٥ - أو هي مجمل معاني السور المتصدرة بها ؟ فلماذا حرمت عنها أربعة أخماسها ؟ ولماذا كررت في عديد منها وحرمت عنها أكثرها !

٦ - أو هي المعاني النازلة ليلة القدر ؟ فكذلك الأمر ، ولماذا تحرم عنها سورة الحمد التي هي صورة باهرة عنها .

٧ - أو أنها تعني ما يعنيه حساب الأعداد ؟ ولا حجة فيها إلا خيالات إسرائيلية وكما زيفت بروايات إسلاميات (١) .

مركز تحقيق كتاب تيسر علوم إسلامي

(١) في معاني الاخبار للصدوق باسناده الى محمد بن قيس قال : سمعت ابا جعفر (عليه السلام) يحدث ان حياً وابا ياسر ابني اخطب ونفراً من يهود اهل نجران أتوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا : أليس فيما تذكر فيما أنزل الله عليك «الم» قال : بلى - قالوا أذاك بها جبرئيل من عند الله ؟ قال : نعم - قالوا : لقد بعث انبياء قبلك وما نعلم نبياً منهم اخبر ما مدة ملكه وما اجل امته غيرك ! قال : فاقبل حي بن اخطب على اصحابه فقال لهم : الالف واحد واللام ثلاثون والميم اربعون فهذه احدى وسبعون سنة ، فعجب أن يدخل في دين مدة ملكه واجل امته احدى وسبعون سنة ؟ قال : ثم اقبل على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال له يا محمد ! هل مع هذا غيره ؟ قال : نعم - قال : فهات - قال : «المصر» قال : هذه اثقل واطول : الالف واحد واللام ثلاثون والميم اربعون والصاد تسعون فهذه مائة واثني وستون سنة ! ثم قال لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : فهل مع هذا غيره ؟ قال : نعم - قال : هاته ، قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : «آلر» قال : هذه اثقل

٨ - أو هي إسم الله الأعظم مقطّعة في القرآن ؟ ولا أعظم من « الله » الأعظم الظاهر، ولا من « هو » : الأعظم الباطن ! وأن المركب منها سلسلة حروف لا تؤلف اسماً عربياً ! ثم ولا حجة تثبتها !

٩ - أو هي أقسام أقسم الله بها ؟ فلمن يُقسم وهم لا يفهمونها ، ولو عني بها خصوص الرسول بما يعرف من هذه الرموز فهو لا يحتاج الى أقسام إذ يصدّق وحي ربه دونما إقسام .

١٠ - ثم ولا يحتمل ألا تحمل أية معاني او فوائد فإنه لغو وكلام الله كله معاني وفوائد !

١١ - من المؤكد أن لها معاني لم توضع هي لها في أية لغة فلا يعرفها أصحاب اللغات بأسرها ، فانما هي رموز خاصة بين الله ورسوله^(١) اختص

= واطول : الالف واحد واللام ثلاثون والراء مائتان ! ثم قال لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : فهل مع هذا غيره ؟ قال : نعم ، قال : هاته ، قال (صلى الله عليه وآله وسلم) « آلمر » قال هذه اثنان واطول : الالف واحد واللام ثلاثون والميم اربعون والراء مائتان ! ثم قال : هل مع هذا غيره ؟ قال : نعم ، قالوا : قد التبس علينا امرئ فما ندري ما اعطيت ثم قاموا عنه ، ثم قال ابو ياسر لحي اخيه : ما يدريك لعل محمداً قد جمع له هذا كله واكثر منه ، قال : فذكر ابو جعفر (عليه السلام) ان هذه الآيات أنزلت فيهم « منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات » .
اقول : ما احسن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ترتيباً لذكر هذه الحروف مترتباً متصاعداً حسب الأعداد ، ولكي يختاروا في أمره ويندحروا عما هم يزعمون انها بحساب الأعداد في حساب اجل الامة الاسلامية رجماً مضاعفاً بالغيب ! .

(١) في تفسير الفخر الرازي ٢ : ٣ روي في الخبر : للعلماء سر وللخلفاء سر وللأنبياء سر وللملائكة سر والله من بعد ذلك كله سر ، فلو اطلع الجاهل على سر العلماء لأبادوهم ولو اطلع العلماء على سر الخلفاء لئبادوهم ولو اطلع الخلفاء على سر الانبياء لخالفوهم ولو اطلع الانبياء على سر الملائكة لاتهموهم ولو اطلع الملائكة على سر الله تعالى لتاهوا حائرين وبادوا باثرين .

الله بها رسوله بعد عموم سائر القرآن لسائر المكلفين ، فهي إذاً صفوة القرآن. كما عن الامام علي (عليه السلام) : « إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي » و « إنها مفاتيح كنوز القرآن » وإن كانت لها هامشياً بعض الفوائد المذكورة في العشرة السالفة .

فليس لغير صاحب السرّ التنقيب عن معانيها ، او التخرّس بالغيّب فيها، اللهم إلا ما ثبت منها عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، او الائمة من آل الرسول (عليهم السلام) او ما يُعرف بالتأمل أحياناً في محالها بقرائنها، كالبعض مما عني منها أن يعرفها تأثقاً وتعمقاً أهلوها ، غير المتطاولين فيها ما لم يعرفوها ،

وقد تحمل هذه الرموز أنباء غيبية في مثلث الزمان : ماضياً وحالاً واستقبالاً، مما يهتم الرسول والامة الإسلامية ، أو حقائق علمية معرفية مما تختص بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهليه المعصومين، وقد يبرزون منها ما نستأهلها دون جميعها، فإن منها ما لا يتحمّله غيرهم وهم في ذلك درجات :

ومما يؤكد أنها تعني معاني سرية أن كلاً منها آية فذة في سورتها^(١) او آيتين^(٢) إلا قلة قليلة منها هي ضمن آيتها^(٣) .

= اقول : الخلفاء هنا خلفاء الانبياء المنصوصون ، ثم وكما للملائكة سر خاص قد لا يعرفه الانبياء كذلك لهم سر لا تعرفه الملائكة، ولا سيما محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث لا يعرف أسرازه المحمدية الخاصة غير الله إذ لا يتحملونها ! . وفيه روي انه (عليه السلام) قال : « ان من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه الا العلماء بالله فاذا نطقوا به أنكره اهل الغرّة بالله » .

(١) كما في ٢٤ منها

(٢) كما في حم عسق

(٣) كما في سب منها : يوسف - الحجر - النمل - ص - ق - ن .

وكيف تكون آية او بعض آية لا تعني أي معنى ، إن هي إلا قولة فارغة هراء وكتاب الله تعالى منها براء .

وقد نتبنا من بعضها أن هذه الحروف التلغرافية الرمزية تعم النبيين أجمع وإن لم تذكر في كتاباتهم السماوية : « حَم ١ - عسق ٢ - كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » فالمشار إليه بـ « كذلك » البعيد البعيد في محند الوحي ليس إلا حَم عسق : كذلك : الرمز المستسر « يوحى إليك وإلى الذين من قبلك » وحيًا خاصًا لا يعدو أصحاب الرسالات إلى المرسل إليهم !

وقد يكون بينها وبين السور المتصدرة بها ارتباطات ، وإلا لماذا اختصت هي بها دون سواها ، ولماذا لم تجتمع في سورة فذة بحياتها ، اللهم إلا أن تحمل بعض ما مضى من وجوه سلفت من إسكات وتنبيهات أم ماذا ؟ عما لا نتأكدها إلا أن يؤكد لها أهلها^(١) ولتطلب في محالها بطيات سورها . ومهما يكن من شيء فلا تعني أهمية خاصة للمتصدرة بها إذ خلت عنها مهامها كالحمد والإخلاص ، اللهم إلا أن تكون هذه بآياتها تكفي معونة رموزها فإن الحمد - مثلاً - وهي السبع المثاني : سورة هي صورة محكمة عن القرآن كله .

وقد تعني الأخبار القائلة أنها أسماء الله مقطعة في القرآن^(٢) العلامات

(١) كما في بعض احاديثنا مثل ما رواه الصدوق باسناده عن الإمام الحسن بن علي العسكري في حديث طويل قال فيه : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه » أي : يا محمد ! هذا الكتاب الذي انزلته إليك هو الحروف المقطعة التي منها الف ولام وميم وهو بلغتك وحروف هجاءكم فأتوا بمثله ان كنتم صادقين (البرهان ج ١ : ٥٤ ح ٩) .

(٢) الدر المنثور ١ : ٢٢ عن ابن مسعود قال : ألم حروف اشتقت من حروف هجاء =

الرمزية الخاصة بالله التي يختص بها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهي تعني ما تعنيه الأخرى أنها رموز بين الله ورسوله ، أم ماذا .

فمهما يكن من شيء فإنها من أفضل القرآن ، ولها معاني « من قرء حرفاً منها فله حسنة »^(١) والحرف لفظياً كلمة جانبية ، ومعنوياً معنى جانبي ، فانه طرف الكلام ، فان قرأت : الف - او - لام - او ميم ، قاصداً التي في « آلم » أم ماذا ، فقد قرأت حرفاً لها حسنتها ، كما إذا قصدتها حرفاً من غيرها في سائر القرآن كما يروى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٢) مما يدل على أن لمفردات حروف الكلمات في الآيات معاني كما لجمالياتها ، فهي إذاً تنحو منحى رموز القرآن وللبحث عنها مجالات أخرى علنا نأتي عليها .

ثم وهي تعتبر آيات^(٣) ، إذا فحرفوها كلمات دالات على ما تعني

اسماء الله ، ومثله عن ابن عباس وعامر والسدي وقتادة ، ولا تجده مسنداً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا عن أئمة أهل بيته (عليهم السلام) فلا حجة فيه .

(١) الدر المنثور ١ : ٢٢ - اخرج البخاري تاريخه والترمذي وصححه وابن الضريس ومحمد بن نصر وابن الانباري في المصاحف والحاكم وصححه وابن مردويه وابو ذر الهروي في فضائله والبيهقي في شعب الايمان عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من قرء حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا تقول : آلم حرف ، ولكن الف حرف ولام حرف وميم حرف .

(٢) الدر المنثور ١ : ٢٢ - اخرج محمد بن نصر والبيهقي في شعب الايمان والسنجري عن عوف بن مالك قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من قرء حرفاً من القرآن كتب الله به حسنة . لا أقول بسم الله ولكن باء وسين وميم ، ولا أقول : آلم ولكن الالف واللام والميم .

(٣) ولسوف نعرف على ضوء تأملات أكثر ان لحروف القرآن وكلماتها وآياتها وسورها =

كبرقيات رمزية بين الله وأهل الله الخصوص كالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهليه (عليهم السلام) وإن كانت حرفاً واحداً كـ : ن - ق - ص فضلاً عن كثراتها .^(١)

وليس لنا أن نتمسك في معانيها إلا بُعِثَ وثيقة من كتاب الله أو سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الثابتة الثلاثية ، دون ما يرونها أرباب السنن في روايات آحاد لا تغني في تفسير آيات مفصلات فضلاً عن تلکم المحكمات وهي مفاتيح كنوز القرآن وصفوة القرآن !

وكون هذه رموزاً كسائر التأويل في القرآن لا يناحر الأوامر المؤكدة للتدبر في القرآن ، حيث التدبر خاص بالممكن تفهمه ، دون سواء الخاص بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كبعض التأويل لآيات مفصلات ، وكعامة التأويل لسائر الحروف المقطعة التي لا دلالة فيها وضعياً حتى تتحمل التدبر والتأويل ، فمن القرآن ما له تأويل وتنزيل ، مما يتحمل تأويلاً على ضوء التنزيل ، كسائر القرآن ، ومنه ما له تأويل ولا تنزيل كالحروف المقطعة ، والآيات الأمرة بالتدبر تعني الميسرة : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » (٥٤ : ١٦) والعربية : الثلاثية : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (١٢ : ٢) « وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا » (٤٦ : ١٢) ولا عربية دلالة ولا انذاراً بهذه الحروف فإنها ليست عربية ولا أعجمية ولا أية لغة موضوعة ، إنما هي حروف كأسرها ، مفردة أو مجموعة تتألف منها كافة اللغات ، مهما اختلفت في

= واسماءها - بترتيباتها وتركيباتها ومحالها الخاصة ، لكل ذلك إشارات كامنة يمكن استنباطها واستبطانها لحد ما .

(١) كما نرى في كُتُب القرآن وتؤيده روايات .

شكلياتها ، فانها متشابهة في مخارجها الصوتية على سواء .

فمهما كان التدبر في سائر القرآن راجحاً او واجباً ، فهو في هذه الحروف غير ممكنة اذ لا مجال فيها ، اللهم إلا ما ثبت في تأويلها عن أهلها ، ام تخرساً بالغيب او تخرساً : « قتل الخراصون . الذين هم في غمرة ساهون » (٥١ : ١٠) : « إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخربصون » (٦ : ١١٦) !

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾^(٢)

وترى لماذا « ذلك » إشارة البعيد ، وهذا الكتاب بين أيدينا قريب قريب ؟ ثم وما هو « الكتاب » ؟ وكيف « لا ريب فيه » وفيه مرتابون كثير ؟ وكيف هو فقط « هدى للمتقين » ؟ فما بال غير المتقين يعذبون وليس القرآن لهم هدى ؟ !

ذلك لأن « ذلك » إشارة تلميحاً إلى علو المحتد ، وبعد المنزلة لربانية الكتاب ككل : معنوياً ولفظياً ، على كونه قريباً منا كتابة وسماعاً وتلفظاً ، ثم وقريباً إن تدبرنا فيه معنوياً حسب الإمكانيات والقابليات . فهو إذاً غريب عنا ، قريب منا ، جماع الغربة القربة ، التي تستحق « ذلك » مرة أخرى .

و « الكتاب » عله أم الكتاب لدى الله : « وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حلیم » (٤٣ : ٤) فهذا الذي تفصيله بين يديك « لا ريب فيه » .

أو والذي أنزل على الرسول ليلة القدر : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » نزولاً محكماً : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (٤١ : ٣) وهذا تفصيله « لا ريب فيه » :

أو الذي أجمل في أم الكتاب « سورة الحمد » هو ذلك الكتاب لا ريب فيه .

أو الذي بشر به النبيون من قبل كما نجد في كتاباتهم ، فـ « ذلك » هو « الكتاب » المعهود ذكره عنهم من ذي قبل « لا ريب فيه » .

أم هو كل « الكتاب » ففيه كل ما أنزل من كتاب وزيادة ، فهو هو كل ما كتبه الله وأوحاه إلى أنبياءه طوال الزمان الرسالي « لا ريب فيه » ... فـ « الكتاب » خبر لـ « ذلك » في هذه الخمس ، و « لا ريب فيه » هدى ... خبران بعد خبر^(١) .

أو « ذلك الكتاب لا ريب فيه » : الكتاب الخماسي المعنى لا ريب فيه ! فـ « ذلك الكتاب » مشاراً ومشاراً إليه مبتدئ : و « لا ريب فيه » خبره ، أو وصفه و « هدى للمتقين » خبره^(٢) .

فالمعنى على الترتيب : « ذلك » أم الكتاب - ٢ - المنزل ليلة القدر - ٣ - النازل جملاً في سورة الحمد ٤ - الذي بشر به من قبل - ٥ - كل الكتاب : « لا ريب في شيء من ذلك » « لا ريب فيه هدى للمتقين » يهديهم دون ريب كما أنه لا ريب فيه .

٦ - « ذلك الكتاب لا ريب فيه » - ٧ - « ذلك الكتاب » دون ريب « هدى للمتقين » ! ...

فسباعية الوجوه تعني سباعية المعنى دون تناحر واختلاف ، والقرآن حمّال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه ، وهذه كلها حسنة يساعدها أدب

(١) هذه الوجوه تشترك في كون « ذلك » مبتدأ و « الكتاب » خبره ثم « لا ريب فيه هدى للمتقين » خبر ان بعد خبر أم وصفان .

(٢) هذا على كون « ذلك الكتاب » مبتدأ كله . فـ « لا ريب فيه » إما خبر ، و « هدى للمتقين » وصفه أو خبره الثاني ، أم حال و « هدى للمتقين » خبره ، وكل هذه صحيحة تتحملها الفاظ الآية .

اللفظ وبراءة المعنى .

وترى لماذا لم يفتح الكتاب بـ « ذلك الكتاب » وإنما بفاتحة الكتاب ،
فهل إنه خارج عن الكتاب ؟ .

الجواب : أنها السبع المثاني . عدلاً للكتاب ، فهي هي كتاب ، والقرآن
العظيم كتاب ، وأين كتاب من كتاب ؟ من إحكام في فاتحة الكتاب ،
وتفصيل في سائر الكتاب ، ولتكن الحمد مشاراً إليها في « ذلك الكتاب »
ضمن كل مشارٍ إليه بـ « ذلك » .

ثم ترى « ذلك الكتاب » كيف يشير إلى كل الكتاب ولما يكمل تفصيله
مهما كمل محكمه ، وليس محكمه - فقط - النازل على الرسول ليلة القدر -
ليس هو هدى للمتقين ، إنما للرسول والرسول فقط ، ثم وتفصيله هدى ؟
أقول : « ذلك » نزلت حين نزلت ، تعني الكتاب المفصل ما نزل منه
وقتها وما لم ينزل ، فانه كله في علم الله ، وهو كله هدى للمتقين بطبعه ،
في دوره ووقته ، ثم تعني الكتاب الحاضر كله بعد تنزيله كله وتأليفه كما هو
الآن ، كما تعنيه « ذلك » و « القرآن » وسواهما من أسماء تعني القرآن
كله ، في القرآن كله .

أو أنها تعني بالفعل ما نزل قبلها من المكيات ، عناية الواقع الماضي
والحاضر ، ومن ثم تعني ما سوف ينزل إلى آخر العهد المدني عناية المستقبل
الأكيد الذي هو بمنزلة الحاضر .

وكما القرآن والكتاب كله قرآن وكتاب ، كذلك بعضه ، وحتى سورة
قصيرة منه كالكوثر ، المتحدى بها الناكرون ، فلا غرو أن يكون « ذلك »
إضافة إلى ذلك - تعني البعض الحاضر منه ، فانه نورٌ وهدى بأبعاضه كما
يهدي بمجموعة ! ، كما وأن من « ذلك » سورة الحمد النازلة قبلها بأعوام ،

والنازلة قبل القرآن المفصل كله .

وللقرآن أسماء تعني مواصفاته بكيانه المتين - فانه : كتاب - قرآن - فرقان - مبین - بیان - تبيان - برهان - عظيم - عزيز - كريم - صراط مستقيم - حكم - ذكر - موعظة - نور - روح - مبارك - نعمة - بصائر - رحمة - حق - فصل - هاد - شفاء - مهيمن - تنزيل - هدى - قيم - بشير - نذير - حديث - فصل - نجوم - حبل - مثاني .

فالقرآن كله يحمل هذه المواصفات وسواها كلها جملة وتفصيلاً^(١).

﴿ لا ريب فيه ﴾ لا في كونه تفصيل ام الكتاب وما أنزل ليلة القدر ، فانه : « تفصيل الكتاب لا ريب فيه » (١٠ : ٣٧) :

ولا في كونه كل كتاب فانه « تفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (١٢ : ١١١) .

ولا في أنه الحمد تفصيلاً كما أن الحمد هو الكتاب اجمالاً .

ولا في أنه المبشر من قبل حيث التصديق واقع بينه وما بين يديه من كتاب : « ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب » (١٢ : ١١١) ومثالاً عليه ما في كتاب اشعيا النبي (عليه السلام) .

ولا في أنه كله وحي السماء حيث يشهد بآياته وبياناته : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (٤ : ٨٢) « تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » (٣٢ : ٢) كذلك ويشهد به من أوتوا الكتاب : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون

(١) هذه الاسماء وسواها تجدها في آياتها حسب مناسباتها .

به : (١٢ : ١٢١) « ان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم » (٢ : ١٤٤) :

ولا في كونه « هدى للمتقين » كما هو لامح في الناهين غير المتعصبين .
فلم يقل : لا شك فيه ، حيث الشاكون فيه كثير ، وإنما « لا ريب فيه »
حيث الريب هو شك مسنود إلى حجة : « ان تتوهم بالشيء أمراً فيكشف عما تتوهمه^(١) فالشك منه مريب ومنه غير مريب : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه .. وإنهم لفي شك منه مريب » (١١ : ١١٠) « قالوا يا صالح .. وإنما لفي شك مما تدعونا إليه مريب » (١١ : ٦٢) مهما كانوا كاذبين في ريبتهم : « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي .. فما تزيدونني غير تخسير » (٦٣) .

فقد تكون الريبة في الدعوة أو في كتاب الدعوة ، ولا ريبة في كتب الله ودعائه ، وقد تكون في المدعويين المرسل إليهم وهم الذين : « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب عظيم بما كانوا يكذبون » (٢ : ١٠) .

والقرآن لا ينفي الريبة عن قلوبهم : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » « وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون » (٩ : ٤٥) « لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم » (٩ : ١١) « كذلك يفضل الله من هو مسرف مرتاب » (٤٠ : ٣٤) وإنما ينفي الريبة عن نفسه متحدياً كل مفتر مرتاب « لا ريب فيه » « تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » (٣٢ : ٢) « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله .. » (٢ : ٢٣) .

(١) مفردات القرآن للراغب الاصبهاني .

فليات من يرتاب فيه بسلطان مين . ولا نراه منذ بزوغه حجة إلا
داحضة تبوء بالفشل والفضيحة على المفتريين ، فمن اين يكون فيه ريب
ودلالة الصدق واليقين كامنة في مطلعته ، ظاهرة في عجزهم عن الإتيان
بمثله « ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ! »

« هدى للمتقين » (٢).

القرآن هدى للناس اجمعين دلالة وبياناً : « هدى للناس وبينات من
الهدى والفرقان » وهدى للمتقين موعظة وتبياناً : « هذا بيان للناس وهدى
وموعظة للمتقين » (٣ : ١٣٣) : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »
« ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً »
« فاعلم ان يسرناه بلسانك لتبشربه المتقين وتنذر به قوماً لداً » (١٩ : ٩٧)
« وانه لتذكرة للمتقين » (٦٩ : ٤٨).

وكما التقوى - وهي قبول الوقاية إذا وقى درجات ، كذلك الهدى
التي هي على ضوءها درجات ، فمن لا يتقى ، فيعاند الهدى تعتاً ورفضاً
لا تحصل له أية هدى بالقرآن ، بل ولا يزيده إلا خساراً ، ومن يتقى فهو
يقيه كما يتقى ، درجات بدرجات ، وكما تزيد هداه تقوى فهما تتعاملان :
« والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » (٤٧ : ١٧) .

فمن تقوى هي تقوى فطرية وفكرية ، إذا وقى صاحبها عما يناحرهما
ويزيدهما وضاعة وقوة يقبلها ، والقرآن يحمل بيناته هذه الوقاية فهو إذا
هدى للمتقين ، فان الهدى حقيقته وطبيعته ، كيانه وماهيته ، ولكن لمن ؟
« للمتقين » الذين يفتحون مغاليق قلوبهم ويواجهونه بفطرتهم التي فطرهم
الله عليها ، متحذرين استهواء الأهواء والضلالات ، ومتحررين الهدى ،
فعندئذ يفتح القرآن عن هداه ، يسكبها في قلب ترك هواه إلى هداه .

فاذا اهتدى المتقي هكذا هُداة الأولى ، ثم اتبع رضوان الله على ضوء القرآن، يهديه ثانية سبيل السلام : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم » (٥ : ١١٦) .

واستقبال أفعال المتقين : « يؤمنون .. يقيمون .. ينفقون . يوقنون » يلوح إلى عامة مراتب التقوى ، ابتداءً من تقوى الفطرة قبل الإيمان بالقرآن وصالح الأعمال ، وانتهاءً إلى الهدى الفعلية إيماناً بالقرآن وعملاً صالحاً للإيمان ، ثم هناك مزيد للتقوى بعد هذا الإيمان وبينهما متوسطات .

فلو مضت هنا أفعال التقوى كـ « آمنوا .. أقاموا .. أنفقوا .. ايقنوا » لكانت مواصفات للتقوى الحاصلة بعد الإيمان ، فليست التقوى صفة لقوم خصوص آمنوا ثم اتقوا، وإن صدقت لهم أكثر ممن سواهم .

فيا لاستمرارية أفعال التقوى من دلالة تعم درجات التقوى قبل الإيمان جاهزاً له ، وبعد الإيمان متدرجاً إلى درجاته : « يؤمنون .. يقيمون .. » أن حالتهم قبول الإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولما يؤمنوا ويقيموا، إذ لم يحسن حينه حيث لم تأت داعيته .

إذا فالقرآن « هدى للمتقين » ولما يتقوا عقائدياً وعملياً ، لما اتقوا فطرياً وفكرياً ، ومن ثم هدى للمتقين بكافة درجاتهم حتى القمة الرسالية لخاتم المرسلين .

كما الهداية المستدعاة في قلب الصلاة نعم هذه الدرجات .

ثم التقوى - كما تلوح من آياتها - هي على درجاتها نعم التقوى الفردية في صلة العبد بالله ، والتقوى الجماعية في صلته بعباد الله ، في كافة

حقولها : العلمية - الفكرية - العقائدية - العملية - السياسية - الاقتصادية - الحربية أم ماذا من مجالاتها وجلواتها ، وهي على شتاتها ترتبط بحبل واحد هو تقوى الله ، فإن دين الله يضم كافة الحقول الحيوية تنظراً وتنظراً ، سبكاً لها بسبائكته المكيئة المتينة ، ما لا قبل لها لأي نظام بشري أم ماذا ؟

فالقائد السياسي في دولة الإسلام بحاجة إلى تقوى سياسية بعدما سواها وأكثر منها ، كما قائد الجيش يجب أن يكون الأتقى في الدفاع عن بيضة الإسلام ، ووزير الثقافة أتقى ثقافياً ، أم من ذا من المتقين في النظام الإسلامي السامي ، حيث لا تختص التقوى بصلات العبادات الخاصة كالصوم والصلاة ، بل وكافة الصلات والحركات والسكنات للمسلم تشملها حقيقة التقوى ، التي هي الوقاية وقبولها عما لا يُحمد أولاه أو عقباه في أية مجالة من مجالات أو حالة من حالات - كما تعم وقاية الغيب والشهادة ، وقاية كل حق وعن كل باطل ، معنوياً ومادياً ، فردياً وجماعياً أم ماذا .

فالمُتقي من شُرط الحق يدافع ويدود عنه ما لا يحق قدر المستطاع ، فإن استطاعها وطبقها دون تقصير أو قصور فهي التقوى المطلقة ولا تحصل إلا في دولة الحق خارجاً عن صراعات الباطل وقليل ما هي .

وان استطاعها على قصور في مختلف الصراعات ، تاركاً للأدنى لتطبيق الأفضل الأعلى ، حيث لا يسطع الجمع بينهما في مصطدمات الحياة ، فهي - إذاً - التقية ، فليست التقية هي الخوف والترك ، وإنما هي تقوى جانبية حفظاً للأهم في ترك المهم ، مما يجعل قيام الحسين (عليه السلام) تقية كما قعود الحسن تقية ، ويجعل قيامات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في العهد المدني ، وقيامات علي (عليه السلام) في خلافته تقية ، كما قعود الرسول في العهد المكي وقعود الامام زمن الخلفاء تقية ، حيث يترك المهم

وقاية وإقامة للأهم في دين الله ، قياماً كان أو قعوداً .

فالمؤمن بالله من شَرَطَ الله مهها اختلفت الظروف والإمكانات ،
فاختلفت صور التقوى في مختلف الميادين .

والتقوى بصيغة مجملة نابعة من الغيب ، غيب الفطرة والعقل والقلب ،
نابعة إلى غيب الحقائق : غيب الله - غيب الآخرة - غيب الوحي ، فالصلاة
الناجمة عن الايمان بهذه الغيوب ، ثم الإنفاق في سبيل الله ، وهي الخمس
المذكورة هنا من صفات المتقين، ثلاث هي الغيب، واثنان هما الشهادة الناجمة
عن مثلث الغيب .

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ^(٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ ﴾ ^(٤)

فالغيب الأول هو مطلق الغيب الذي يجب الإيمان به ، وهو يشمل
غيب الألوهية الذي لزامه غيب الآخرة ، اللذان لزامهما غيب الوحي : ما
أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله ، ومثلث الغيب هذا لزامه عبادة الله :
الصلاة ، ورعاية عيال الله : الإنفاق !

ثم الإيمان بالملائكة من فروع الإيمان بغيب الوحي ، والوفاء بالعهد
والصبر في البأساء والضراء وحين البأس ، والإتيان بالصدق والتصديق به
فهي كلها من نتائج الإيمان بمثلث الغيب، كما الإيمان بضلعي الوحي والآخرة
مربوط بقاعدة الإيمان بغيب الألوهية !

وهذه جماع أوصاف المتقين هنا وفي سائر القرآن ، التي تجمعها الخمس
هنا ، كما يجمع الخمس ايضاً مطلق الغيب .

فالإيمان بالغيب كلما كان أعمق وأعرق يضرب إلى إيمان الشهود أوفق

واليق ، لحدّ يجعل حياة المؤمن حياة التقوى إذ يصبح من شرط الحق الدائدين عنه ، المضحّين في سبيله بالنفس والنفيس .

ولأن الإيمان بغيب الألوهية واليوم الآخر هما الأصل لسائر الغيوب ، حتى وغيب الوحي ، تراهما كحجرى الأساس للتقوى ، فهنا يتوسطها سائر الغيب والشهادة ، وقد تترك الأوساط : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون » (٢١ : ٤٩) .

ولأن إقام الصلاة أقوم عماد في الشهادة للإيمان بغيب الألوهية تراه يقرن به ظرفاً لتأثير الإنذار ، وكأنه فقط من نتائجه : « .. إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فلنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » (٣٥ : ١٨) .

ولأن اتباع الذكر الذي يحمله وحي الرسالات والكتب هو من أهم التزامات الإيمان بغيب الألوهية ، تراه قريناً له لتأثير الإنذار : « .. إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب .. » (٣٦ : ١١) .

ولأن الأصل الأهم في الغيب هو غيب الألوهية لمن جاء بقلب منيب نراه مفرداً دون قرين : « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » (٥٠ : ٣٣) .

إذاً فالتقوى تنبع من الإيمان بغيب الألوهية ، ثم غيب الآخرة ، ثم غيب الوحي ، ثم تضرب بها إلى مظاهر الشهود ، في الصلاة كأهم الرباطات بالخالق ، وكالزكاة كأهمها بالخلق .

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ :

والإيمان هو أن تجعل نفسك في أمن وطمأنينة ، ولأن الحياة الدنيا وزخارفها متغيرة فانية ، فالإيمان بها زيادة في تزعزع واضطراب ، وأما غيب الألوهية واليوم الآخر والوحي ، فالإيمان بها يؤمن الإنسان ويطمئنه عن الهزاتر : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ١

.. يؤمنون بالغيب : « بما غاب عن حواسهم من الأمور التي يلزمهم الإيمان بها كالبعث والحساب والجنة والنار وتوحيد الله وسائر ما لا يعرف بالمشاهدة وإنما يُعرف بدلائل قد نصبها الله تعالى دلائل عليها . » (١) .

والإيمان بما غاب عن الإحساس الحيواني هو من مميزات الإنسان عن سائر الحيوان ، فإنه ممتاز بالعقل بعد الحس ، ما به يعقل ما يقصر عنه الحس .

إن العقل والحس يتعاملان في تصديق الغائب عن الإحساس كما يتعاملان في العلوم التجريبية أيضاً ، فلا مجرد الإحساس يكفي ، وحق للعلم بالمحسوس ، ولا مجرد العقل يكفي وحق لتصديق الغائب عن الإحساس إلا قليلاً .

فحصر الإدراكات بوسائل الحس فقط تفريط ، كما أن حصرها بالعقل فقط إفراط ، ولذلك نرى الآيات تجمع بين العقل والحس في تعامل دائم في الإيمان بالغيب ، مستدلة بالآيات الأفاقية الحسية ، والأنفسية غير الحسية : « سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » (٤١ : ٥٣) .

(١) البرهان ١ : ٥٦ عن تفسير الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) .

إن السوفسطائيين الناكرين لوجود العلم - سواء عن طريق العقل او
الحس - ينكرون وحق أنفسهم ، وترى أليس إنكارهم أنفسهم علماً فكيف
أنكروه ؟ أو أنه جهل - إذاً - فخلافه وهو إدراكهم أنفسهم علم ! .

كذلك الحسيون أنكروا أيّ سناد إلى العقل ، ثم وهم يستندون في
نكرانهم إلى دليل العقل !

ثم العقليون يعتمدون فقط إلى العقلیات ، ومن المستحيل إلا قليلاً أن
تنتج العقلیات الصرفة - دون أيّ سناد إلى الحس - ما يصدّقه الإنسان !

ولكننا الإلهيون المعتدلون هم الأمة الوسطى ، إذ يجمعون بين العقل
والحس ، مهما كان العقل إمام الحس والحس أمامه ، وكما يقول الإمام
الصادق : « العقول أئمة القلوب والقلوب أئمة الأفكار والأفكار أئمة
الحواس والحواس أئمة الأعضاء » !

فالإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان فيتخطى رتبة الحيوانية
الحسية إلى درجة الإنسانية العائشة العقل مع الحس ، نقلة بعيدة التأثير في
تصور الإنسان لحقيقة الوجود ، وتصديقه للوجود الحق ، كما هي بعيدة في
حياته الأرضية ، إذ يرى نفسه في رباط دائم بالوجود اللانهائي وراء هذا
الكون ؛ المكوّن لهذا الكون ، فينظّم حياته صالحة كما يرضاه خالق الكون .

ثم النص « يؤمنون بالغيب » لا « يدركون الغيب » او « يحيطون علماً
بالغيب » حيث الغيب منه ما لا يدرك نهائياً كغيب الذات الإلهية وصفاته
الذاتية وأفعاله ، وكغيب الوحي ، اللهم بآيات محسوسات أو معقولات تدل
عليه ، او الوحي لأصحابه الخصوص .

ومنه ما يدرك في اليوم الآخر كالיום الآخر والملائكة أم ماذا ، ولكنه لا
يدرك يوم الدنيا ، فلا سبيل إليها إلا إيماناً وتصديقاً .

وهناك جهال غابت عقولهم وغربت ، يحاولون إدراك ذات الله بما يدركون الكون المحسوس ، وهم عاجزون عن إدراك حقيقة المحسوس .
وآخرون يحاولون الحيلة العقلية او العلمية بذاته تعالى ، ولا يحيطون به علماً ، (٢٠: ١١٠) .

فإنما الممكن في هذا المجال التأكد من وجود الغيب بالإيمان به كما هو ، لا كما نعرفه أو نحيط به ، كما الكثير من الطاقات المادية ، كالذرة والقوة الجاذبية العامة ، نصدق بها بأدلتها دون أن نحسها أو ندركها ، فغيب الذات الألوهية أحق بعدم الحيلة وأحرى .

ثم الغيب هنا ثلاث مذكورة كأصوله ، وهناك غيوب غير مذكورة كفروع لها ، من غيب البرزخ وهو من فروع غيب الآخرة ، ومن غيب القائم المهدي (عليه السلام) ^(١) وهو من فروع أصل الوحي والنبوة ، ومن غيب الرجعة في دولة المهدي (عجل الله تعالى فرجه) وهو فرع من فروع الحياة البرزخية والآخرة وإلى سائر الغيب ^(٢) .

(١) البرهان ١ : ٥٤ - ابن بابويه بإسناده عن جابر بن عبد الله الانصاري في حديث يذكر فيه الأئمة الاثني عشر وفيهم القائم قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) طوى للصابرين في غيبته . طوى للمقيمين على محبتهم أولئك من وصفهم الله في كتابه فقال : «الذين يؤمنون بالغيب» أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم الغالبون ، والبرهان ١ : ٥٣ - ابن بابويه بسنده عن داود بن كثير الرقي عن أبي عبد الله في الآية قال : من آمن بقيام القائم انه حق، وعن يحيى بن أبي القاسم قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن الآية قال : والغيب فهو الحجة الغائب (عليه السلام) وشاهد ذلك قوله تعالى : ويقولون لولا انزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا اني معكم من المنتظرين .

(٢) الدر المنثور ١ : ٢٦ عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ليتني قد لقيت إخواني فقال له رجل من أصحابه أولسنا إخوانك ؟ قال : بلى أنتم أصحابي =

ثم الايمان بهذا الغيب يدفع المؤمن إلى مظاهر الايمان وعمودها الصلاة ، لا القيام إليها فقط ، أو إتيانها فقط ، وإنما إقامتها :

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ :

فإقامة الصلاة هي تقوى العبادة ، دون إتيانها أو القيام إليها فانه طغواها التي يؤق بها رثاء الناس كسالى، وإنما من شيم المنافقين : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً » (٤ : ١٤٢) « ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى » (٩ : ٥٤) .

واخواني قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني ثم قرأ « الذين يؤمنون بالغيب » . اقول واخرج ما في معناه البزاز وابو يعلى والمرهبي في فضل العلم والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واخرج الحسن بن عروة في حزه المشهور والبيهقي في الدلائل والاصبهاني في الترغيب عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واخرج الطبراني عن ابن عباس عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) واخرج الاسماعيلي في معجمه عن ابي هريرة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) واخرج ابن ابي شبة في مسنده عن عوف بن مالك عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) واخرج احمد والدارمي والبارودي وابن قانع معاً في معجم الصحابة والبخاري في تاريخه والطبراني والحاكم عن ابي جمعة الأنصاري عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) واخرج ابن ابي شبة وابن ابي عمر واحد والحاكم عن ابي عبد الرحمن الجنبي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) واخرج احمد وابن حبان عن ابي سعيد الخدري - اقول : وكل هذه الاحاديث على اختلافات سطحية لفظية تتفق في تفضيل المؤمنين الذين لم يروا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على أصحابه الذين رأوه .

واخرج جماعة عن تويلة بنت اسلم قالت : صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة فاستقبلنا مسجد ايلياء فصلينا سجدتين ثم جاء ناسن يخبرنا ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد استقبل البيت الحرام فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلوا البيت الحرام فبلغ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك فقال : « اولئك قوم آمنوا بالغيب » .

فإقام الصلاة ليست هي القيام فيها إذ ليس كلها قيام ، ولا أنه إقامة لها كلها ! إنما هي جعلها قوام الحياة وأصلاتها التي يتفرع عليها سائر الحياة ، انجهاً الى الله وحده لا شريك له ، وارتفاعاً عن عبادة العباد ، دائماً عليها مواظباً لها مراعيّاً حرمتها وواجباتها ، شرائطها واجزاءها ، أوقاتها وكل ما يتوجب فيها ، من معنوياتها وهي أخرى فإنها أصلها ، ومن مظاهرها ما يجعل المصل كلاً صلاةً لله ، وصلاتٍ بالله ، وخدمات في سبيل الله ! .

ثم ومن إقامتها إستحضار معاني ألفاظها ، وملاحح أفعالها ، ثم الإرتقاء الى معانيها تغافلاً - لا غفلة - عن ألفاظها ، ثم تغافلاً عن نفسه لحدّ لا يرى إلّا ربه بنور اليقين ، دون حجاب إلّا حجاب ذات الألوهية وهذه صلاة تخص صاحب المعراج (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم ذويه المعصومين (عليهم السلام) : وعلى ضوءها وفي هامشها المصلون الحقيقيون .

ومن ثم وبعد إقامة الصلاة لله ، يقوم في صلوات بخلق الله أن ينفق مما رزقه في سبيل الله :

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

من رزق المال ، والحال ، من ثروة علمية او عقلية ، او ثقافة ايمانية^(١) ام ماذا ؟ فان كله من رزق الله ..

ثم ومن أموال ومن أيّ الطاقات الموهوبات التي يمكن إنفاقها أو الإنفاق منها فإنها كلها رزق الله !

(١) البرهان ١ : ٥٣ - ابن بابويه بسنده عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث في الآية قال : مما علمناهم ينبتون وما علمناهم من القرآن يتلون .
اقول وهذا من باب التفسير بالمصداق الخفي من الرزق .

فإن الخلق مستخلفون فيما رزقهم الله : « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (٥٧ : ٧) دون استثناء ، وحتى إنفاق المال هنا وفي أضرارها من آيات الانفاق لا يخص خصوص الزكاة ، ف « إن في المال حقاً سوى الزكاة » . وهذا من التضامن بين عيال الله مع الصلة الصلاة لله ، أن تصبح الحياة مجال أخوة وتعاون ، لا معترك تناحر وتطاحن ، عائشين جو المحبة والحنان ، لا جبهات القتال بين أظفار وأنياب ومخالب بني الإنسان . ثم ولا يكفي الإيمان بغيب الله وإقام الصلاة والإنفاق ، حتى يربطها وسواها بما أنزل الله :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

إيماناً شاملاً خطُ الرسالات الإلهية أولاً وأخيراً ، دون تفريق بينها ، وإنما تصديق بها كلها ، مهما يجب تطبيق الأخيرة منها لا سواها .

ثم ولا يتم كل ذلك إلا بإيقان بالآخرة

﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

و « هم » هنا يختصهم بإيقان الآخرة ، فإنه ناتج عن الأربعة الأولى ، فمن يؤمن بغيب الله ووحى الله ، ويصلي لله ، وينفق في سبيل الله ، لا بد وأن يوقن بيوم الله .

فهنا إيمان باليوم الآخر يدفع الإنسان إلى أعمال الإيمان من صلاة وإنفاق وإيمان بوحى السماء .

ثم إيقان باليوم الآخر هو نتيجة أعمال الإيمان ، فالإيمان باليوم الآخر كإيمان بالوحي مطوي في الإيمان بالغيب ، وإنما يُبرز هنا أخيراً إيقاناً بعد إيمان نتيجة عمل الإيمان ، فثم إذا أيقن بالآخرة يزداد في الإيمان وعمل

الإيمان ، وهكذا يستمر دور الإيمان والصالحات تعاملًا وطيداً حتى يبلغ بصاحبه الذروة دون حد ولا نهاية .

وهنا نجد تساوقاً وتناسقاً بين هذه الخمس من مواصفات المتقين على درجاتها ، ما نجد التقوى سارية في كافة جنبات الحياة في الغيب والشهادة ، فرادى وجماعات وفي كل المجالات .

من تقوى في محراب العبادة : الصلاة « ويقيمون الصلاة » إلى تقوى في محراب الحرب والقتال : « : : والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (٢ : ١٧٧) « بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » (٣ : ١٢٥) .

وتقوى في الإقتصاد : « وما رزقناهم ينفقون » - « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين » (٥ : ٩٣) « وليلمل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً .. فليؤد الذي أوثمن أمانته وليتق الله ربه » (٢ : ٢٨٣) « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا .. » (٢ : ٢٧٨) .

وتقوى سياسية : « وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم .. » (٢ : ٢٠٦) « يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين » (٣٣ : ١) .

وعلى الجملة تقوى فردية وتقوى جماعية : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا .. » (٦ : ٦) :

وتقوى في الصبر والمصابرة والمرابطة : الروابط السياسية وسواها بين

المؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله » (٣ : ٢٠٠) « فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » (٨ : ١) .

وهكذا نرى التقوى بِطَيَّات آياتها تشمل كافة مجالات الحياة من عقائدية وإيمانية وعلمية - عبادية وسياسية واقتصادية وحربية - وفردية وجماعية أما هيه ؟

ومن أفضل التقوى : « أن تدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس »^(١) و « أن تحب الله بقلبك كله وتعمل بكدحك وقوتك ما استطعت وترحم ابن جنسك : ولد آدم كلهم ، وما لا تحب أن يؤتى إليك فلا تأته إلى أحد فأنت تقى الله حقاً »^(٢) .

﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٣) :

أولئك المتقون على هدى من ربهم ، « إلى هدى » فإنهم مسيطرون على الهدى ، مجتازون طرق الردى « وأولئك هم المفلحون » : إذ أفلحوا بمحراث التقوى كل شائكة في حرث الدنيا ، فأصبحت الأولى هي الأخرى « والآخرة خير وأبقى » .

فالإفلاح هو الشق ، والمتقون يشقون أمواج البحور المتلاطمة الهائجة المائجة بسفن التقوى ، وفي سائر القرآن مواصفات أخرى للمفلحين توازي

(١) الدر المنثور ١ : ٢٤ - اخرج جماعة عن عطية السعدي قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا يبلغ العبد المؤمن ان يكون من المتقين حتى يدع ...
(٢) المصدر عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال : بلغنا أن رجلاً جاء الى عيسى (عليه السلام) فقال : يا معلم الخير كيف اكون تقياً لله كما ينبغي له ؟ قال : ببسر من الامر :

خطيته فاولئك اصحاب الله هم فيها خالدون : كفر محيط بهم حيث لا يقي لهم نوافذ بها يبصرون ف « سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون » .

ليس النص « الكافرون » حتى يشملهم أجمعين ، بل « الذين كفروا » كفر حدث وجاء الرسالة الإسلامية ، بعد كفر سبق : « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً » : الذين جحدوا بعد البينة ، وأنكروا بعد المعرفة . ولا انه كلما حدث من كفر بعد كفر ، فالبعض « من الذين كفروا » يتردون رجعاً من الزمن ثم يؤمنون ، أم يتوبون عما كفروا فيهدون .

وانما يعني أحسن دركات الكفر والظلمان ممن « جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » (٢٧ : ١٤) « وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » (٣٢ : ٢١) فريق خصوص من الكافرين الذين بلغوا في كفرهم وجحودهم ما لا يؤمل فيه إيمان ، مهما بقيت في قلوبهم نوافذ لرؤية الحق ، ولكنهم يجحدون ، فيجازيهم الله اذ يسد هذه البقية : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » .

فهؤلاء الأوغاد المناكيد من صناديد قريش وأضرابهم ، الكفار الألداء جمعوا بين دركات الكفر : الخمس - في خماسية قاعدتها كفر الجحود على علم - « ... » وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم « ثم كفر النعم : « فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (١٦ : ١١٢) وكفر العمل : « ومن كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يهدون » (٣٠ : ٤٤) ولخذ الإيمان بالكفر لا الكفر فقط : « ذلك بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرک به تؤمنوا » (٤٠ : ١٢)^(١).

(١) البرهان ١ : ٥٧ - الكليني باسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله (عليه =

ولأن بنود الإيمان التقوى سبقت في مواصفات المتقين كإيمان مطلق للتقوى فليكن الكفر هنا وجاهه كفراً مطلقاً ، في قلوب خاوية عن أية تقوى وأي إيمان ، هاوية كل دركات الطغوى دون إيمان ، ناكرة لمثلث الغيب ، عامدة ، تاركة لأعمال الإيمان ، كافرة بأنعم الله ، مؤمنة بالكفر وكأنه . الإيمان !

وترى هؤلاء الكافرون أبايمانهم أن يؤمنوا ؟ فبايمانهم إذاً إبطال علم الله : أنهم « لا يؤمنون » ! أم لا يتمكنون ؟ فلا موقع للتنديد بهم أنهم لا يؤمنون ! ولا يصح تكليفهم بالإيمان إذ لا يتمكنون !

الجواب أن النص « لا يؤمنون » لا « لن يؤمنوا » حيث يخبر عن واقع اللاإيمان ، لا استحالة الإيمان ، وحتى لو استحالة منهم الإيمان فانما هي استحالة بالإختيار فلاتنا في الإختيار .

وهنا الإخبار عن واقع اللاإيمان لأنهم لا يؤمنون باختيارهم ، فلو كانوا يختارون الإيمان لكان الإخبار عن الإيمان ، فليس علم الله إلا كاشفاً عن واقع المستقبل ، دون أن يسببه ، حيث العلم بوقوع حادث أم لا وقوعه ، لا يسبب وقوعه أم لا وقوعه ، وإنما يكشف ، إذا فالواقع هو السبب لهذا الكشف لا أن الكشف يسببه !

وقد يخطأ الكاشف إذ لا يحيط علماً بما يحصل ، فيبطل العلم به إذا حصل ، وحاشا الله أن يخطأ فإنه بكل شيء محيط ، فلا يمكن إبطال علمه .

« السلام » قال قلت له اخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عز وجل ؟ قال الكفر في كتاب الله على خمسة اوجه ، فمنها كفر الجحود والجحود على وجهين (عن معرفة وعن جهالة) والكفر تبرك ما امر الله وكفر البرائة وكفر النعم »

وعدم الإمكانية هذه ليست لاستحالة الفعل واللا فعل المخبر عنه ذاتياً ، حتى يسقط التكليف ويبطل التائب : « لماذا لا يؤمنون » ؟ وإنما لاستحالته بالإختيار ، أنهم رغم اختيارهم في الكفر والايان سوف لا يختارون الإيمان .

وهذه من الملاحم الغيبية القرآنية ان ينسب الله بما في قلوبهم وعن مستقبل أحوالهم ، فرغم حرصهم بابطال القرآن وإبطال علم الله ، لم يقدموا حتى على ظاهر الايمان ، فثبت علم الله ، وصدق كتاب الله ، وخسر هنالك المبطلون^(١).

وتم إذا ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فلا يتمكنون أن يؤمنوا ، هنا يسلب عنهم اختيار الايمان بما قدمت ايديهم وان الله ليس بظلام للعبيد ، وطالما لا يصح تكليفهم بالايمان ولكنهم معذبون باللا ايمان حيث الإمتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار ، والتنديد هنا بالإمتناع الإختيار ، كما العذاب ، ولا يمكنهم إبطال علم الله وإن حاولوا !

إذا فإين ابطال علم الله أو إمكانيته ، وإين استحالة الايمان التي تبطل التكليف وتبطل التنديد بترك الايمان ؟ ١ .

ثم النص « سواء عليهم » لا « سواء عليك » فالرسول ليس له

(١) الدر المنثور ١ : ٢٩ - اخرج ابن ابي حاتم عن عبد الله ابن عمر قال : قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، انا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ فنكاد نياس فقال ألا أخبركم عن اهل الجنة واهل النار ؟ قالوا : بلى يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ،

قال : « ألم ، ذلك الكتاب - الى - المفلحون » هؤلاء اهل الجنة ، قالوا : انا نرجو ان نكون هؤلاء ثم قال : « ان الذين كفروا - الى - عظيم » هؤلاء اهل النار قلنا لسنأهم يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! قال : اجل .

السكون عن واجب الإنذار ، سواء أكان عليهم سواء فلا يؤمنون ، أم لا سواء فهم يؤمنون ، فليُنذر على أية حال كما المرسلون : «عذراً أو نُذراً» ففهما هو سواء يكون الإنذار حجة وعذراً ، وفي سواء برهاناً ونُذراً .

فقد يكون المنذر قاصراً عن الإنذار دون المنذرين فلا حجة عليهم ، أو ان المنذرين قاصرون فكذلك الأمر ، أو أنهم مقصرون رغم كمال الإنذار فلا يؤمنون فهنا الحجة البالغة عذراً ، أو أنهم يؤمنون نتيجة الإنذار فهنا الحجة نُذراً ، وهكذا يكون دور الرسالات الإلهية في كمال الإنذار بين مثلث المنذرين وإن كانوا : «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون»!

فالإنذار هو الجناح الأعم من جناحي الرسالات حيث التبشير خاص بالمتقين : «تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوماً ما أنذر آباءهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . . . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة واجر كريم » (٣٦ : ١١) فواجب الإنذار على النبي يعم وإن بالنسبة لمن هو سواء عليهم ، وتأثيره خاص بمن اتبع الذكر . . . كأنه الإنذار لا سواء ، حيث هو المؤثر لا سواء .

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٧)

هنا الغشاوة على أبصارهم و الختم على قلوبهم ، فماذا إذاً على سمعهم ؟ أهو ختم عطفاً على قلوبهم ، أم غشاوة معطوفاً لأبصارهم فالواو هناك عطف وهنا استئناف ؟

بما أن غشاوة خصوص السمع غير مألوفة في سائر القرآن ، وغير معروفة كذلك في غير القرآن ، ثم نرى السمع مقرونة بالقلوب ختماً ،

والأبصار تنفرد بالغشاوة : لمكان « على » المكررة هنا ثم وفي غيره : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة » (٤٥ : ٢٣) وأن ظاهر الواو العطف إلا بقرينة تعطفها على غيره كاستئناف، إذا يرجع اختصاص الغشاوة بالأبصار ، مهما يجمع الطبع أحياناً بين الثلاث : « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم » (١٦ : ١٠٨) فطبع الأبصار لا يستتبع غشاوة السمع ، مهما شملت الغشاوة عامة الإنسان : « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » (٣٦ : ٩) كما قد تُفرد القلوب بالختم أخذاً بالسمع والأبصار : « قل أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم » (٦ : ٤٦) .

أو أن السمع هنا مغشوة كما الأبصار تلميحاً من تكرار « على » فلولا غشوة السمع هنا كالأبصار لم تكن « على » كما في « طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم » (١٦ : ٨) .

أو أنها معاً معنيان : أن ختم الله على سمعهم وعلى سمعهم غشاوة ، فلأنهم غشوا سمعهم وأبصارهم ختم الله على قلوبهم مما يزيد ختم السمع والأبصار : ف « إنهم عن السمع لمعزولون » (٢٦ : ١٢) « الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً » (١٨ : ١٠١) لذلك « ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » (٧ : ١٠٠) ، كما وإن قلوبهم مغمومة مُرانة بما كانوا يعملون : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (٨٣ : ١٤) .

ولماذا تُفرد « السمع » دوماً مع جمع القلوب أو الأبصار ، دون الأسماع ؟ علّه لأن السمع في أصله مصدر لا يجمع وله معنى الجمع في جمعه والمفرد في مفرده : أو إذا لم يكن مصدراً فهو قوة في الأذن وليس هو الأذن حتى يجمع كالآذان ، فلكل منا سمع في أذنين وليس بصر في عينين، حيث البصر

هو العين بعينها ، ام ماذا^(١) .

هنا الغشاوة على أبصارهم : أبصار القلوب والعقول والأفكار وأبصار العيون ايضاً - رغم انها - علها - أبصر من غيرها ، إذ لم ينتفعوا بالنظر ولم يعتبروا بالعبر ، فهم كالحوابط الغواشي في مشيتهم ، يخطئون الصراط المستقيم !

وانها كلها من فعلهم أنفسهم إذ جحدوا بالحق وآياته بعدما عرفوها ، فلم تنسب الى الله ، وبذلك استحقوا ان يختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، فحتى لو شاءوا ان يبصروا لم يتمكنوا ، فنسب الختم عليها إلى نفسه ، وفي الحق إنهم هم الذين ختموا على قلوبهم وعلى سمعهم إذ غشوا على أبصارهم ، فممنه فعل لهم ومنه جزاء : « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » وعلى الواو في « وعلى أبصارهم » حالة تعني : أن الله ختم حال الغشاوة من فعلهم على أبصارهم ، فظرف هذا الختم إنما هو غشاوة الأبصار ، سابقاً على ختم السمع والقلوب .

كما علها في « على سمعهم » ايضاً حالة تعني ما تعنيه في « أبصارهم » أن « ختم الله على قلوبهم » حال أنهم « على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » من فعلهم - وإنما الاصل هو القلب يقلبه الله كما يتقلب صاحبه ان خيراً فخير وإن شراً فشر ، فلأنهم عموا عن أصل السبيل وصموا عن دعاء الدليل « ختم الله .. » جزاءً وفاقاً .

فليس الطبع والختم على قلوب او سمع - بداية ودون سبب - من الله ، « بل طبع الله عليها بكفرهم » (٤ : ١٥٥) « كذلك نطبع على

(١) راجع ج ٢٩ ص ٤٩ تفسير الآية « وجعل لكم السمع والابصار والافئدة »

قلوب المعتدين » (١٠ : ٧٤) « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » (٤٠ : ٣٥) .

فلائهم كفروا بنعمة القلوب والسمع الإنساني ، تناسياً عما يتوجب عليهم فيها ، وتعمداً وتعنداً لصلاحها ، جازاهم الله في الأولى بطبعها وضم في الآخرة عذاب عظيم .

وهكذا يفعل الله بمن يبدل نعمة الله كفوفاً أن يذهب بها ويجعلها نقمة ، ويقلبها عليهم دماراً وبوراً : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١٣ : ١١) .

ثم القلوب هنا وفي سائر القرآن هي قلوب الأرواح لا الأبدان كما السمع والأبصار حيثما تقرنان بالقلوب هما كذلك للأرواح - فكثير من هؤلاء الكفار المختوم على قلوبهم ، المغشوة سمعهم وأبصارهم ، لهم قلوب وسمع وأبصار لأبدانهم قوية ، وأقوى من المؤمنين ، وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ، وقد نأتي على قول فصل حول القلوب والأفئدة والسمع والأبصار والصدور والأرواح والعقول والأفكار بطيأت آياتها الأنسب وهي ثمان كأبواب الجنة الثمان ، ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار .

فأولئك الكفار ، لاستهتارهم بالمنذرين والإنذار ، لحد تساوى عليهم الإنذار واللا إنذار ، مطبوع على قلوبهم هنا ، وموعودون في الأخرى عذاب النار ، عذاباً على عذاب « ولهم عذاب عظيم » ! .

وَمِنَ النَّاسِ

مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ؕ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ؕ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١٢﴾
إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ ؕ آمِنُوا كَمَا ؕ آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ؕ آمَنَ
السُّفَهَاءُ ؕ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾
وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ؕ آمَنُوا قَالُوا ؕ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ
قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٥﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ
بِهِمْ وَيَمُدَّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ بُحْرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ ﴿١٧﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا

أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ
لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكَرٌ عَمَىٰ قَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾
أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ
مُخِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ
كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

هنا - بعد هذه الآيات وقبل تفسيرها - نقدم تفسيراً للنفاق عن الإمام
أمير المؤمنين علي (عليه السلام) «النفاق على أربع دعائم : على الهوى
والهوىنا^(١) والحفيظة والطمع، فالهوى على أربع شعب : على البغي والعدوان
والشهوة والطغيان ، فمن بغى كثرت غوائله وعيالاته^(٢)، ومن اعتدى لم

(١) الهوىنا تصغير الهوى مونث الاهوان ، أي التهاون في امر الدين .

(٢) علات جمع العلة .

تؤمن بوائقه ولم يسلم قلبه ، ومن لم يعزل نفسه عن الشهوات خاض في الخبيثات ، ومن طغى ضل على غير يقين ولا حجة له -

وشعب الهوينا : الهية والغرة والمماطلة والأمل ، وذلك لأن الهية ترد على دين الحق ، وتفطر المماطلة في العمل حتى يقدم الأجل ، ولولا الأمل علم الإنسان حسب ما هو فيه ، ولو علم حسب ما هو فيه مات من الهول والوجل -

وشعب الحفيظة : الكبر والفخر والحمية والعصبية ، فمن استكبر أدبر ، ومن فخر فجر ، ومن حمى أصر ، ومن أخذته العصبية جار ، فبش الأمر أمر بين الاستكبار والإدبار ، وفجور وجور -

وشعب الطمع اربع : الفرح والمرح واللجاجة والتكاثر ، فالفرح مكروه عند الله عز وجل ، والمرح خيلاء ، واللجاجة بلاء لمن اضطرت له الى حبال الآثام ، والتكاثر هو وشغل ، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير ، فذلك النفاق ودعائمه وشعبه (١) .

.. وفي الحق إن دور المنافقين هو أخطر الأدوار ضد الرسالات الإلهية ولا سيما الرسالة الإسلامية ، وأخطر من الكافرين ايضاً ، ترى عرض حالهم في سورة تخصهم « المنافقون » وفي عامة القرآن نلمس خاص الاهتمام بعرض قضاياهم ورزاياهم كثيراً وكما هنا ، فبعد آيات اربع تستعرض حال المتقين ، وآيتين تحسان الكافرين ، نجد ثلاثة عشر تخص المنافقين ، وكما تتحدث عنهم ثلاثة عشر سورة في مآت الآيات مصرحة بهم

(١) - نور الثقلين ١ : ٣٤ عن كتاب الخصال للصدوق عن الاصمغ بن نباتة عنه (عليه السلام)

أحياناً^(١) وملمحة. أخرى تفضحهم في عرض حالهم ومآلهم ، وثالثة تدخلهم في الدرك الأسفل من النار : (٤ : ١٤٥) .

نخطينا شفافية الصورة الأولى إلى عتامة الظلام الثانية ، فإذا الثالثة ليست كالأولى ولا كالثانية ، فإنها صورة صليقة ملتوية خادعة خائنة لا تقف لحيد لكي نعرفها ، ألا وهي الصورة المنافقة ، لا ذات شجاعة وانطلاقة في الضمير لتواجه الحق بصريح الإيمان وخالصه ، ولا ذات جرأة لتواجهه بالنكران ، ثعلبة تماكر بغية البقاء على كيانها ، عميلة في عملياتها للكلاب والذئاب ، مظهرة اخلاصها للأسد في الغاب. جاسوسة لهذه عن تلك ، لا صورة لها ثابتة تُعرف اللهم إلا بحركات ومخادعات ، وادعاءات - مع ذلك - أنهم أذكىاء ذهابة ، عقلاء مصلحون ، مترفعون على البسطاء أم ماذا ! ولكن الله يواصفهم بواقعهم المكر الخداع ، الخلاء الخواء عن كل حقيقة إلا ادعاء ! وهم يعيشون بنفاقهم ثلوث : ١ - مشاركة المؤمنين فيما يمن الله عليهم دُنْيَاً ، ٢ - اتقاء ما يحكم به على الكافر كذلك ٣ - التجسس عن احوالهم الى شياطينهم ، إلا ان ثلوثهم هالك مفضوح بما يفضحهم الله وينبه الرسول والمؤمنين !

وهنا استعراض لأبواب سبعة من جحيم المنافقين يغلقها الله على المؤمنين :

(١) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٨) .

باب أول : تأس في الحق هم نسناس « يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم » (٤٨ : ١١) « يقول آمنا بالله » : وهو حالة تصديق في القلب

(١) كما في سبعة وثلاثين آية ، راجع تفسير سورة المنافقين ج ٢٨ : ٣٥٥ ..

« وما هم بمؤمنين » : حال أن قلوبهم خاوية عن الإيمان ، كافرة بمبادئ الإيمان ، فقد يوافق القلب اللسان في دعوى الإيمان فهو إيمان ، وقد ينافقه فهو الكفر النفاق ، وآخر لا ينافقه إذ لا يعانده ولا يوافقه إذ لم يعرفه فلما لم يدخل الإيمان فيه وهو يترويه ، فهذا إسلام بلا إيمان : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » (٤٩ : ١٤) فهي عائشة حالة الإنتظار حتى تؤمن كما النص فيه « ولما » دون استهتار المنافق ولعبته حيث فيه « وما هم بمؤمنين » : ليسوا بمن يؤمن ولا يتروى الإيمان ، فأولاء هم المندد بهم دون هؤلاء ، إلا تجهيلاً تخطيطاً في التعبير « آمنا » بل « قولوا أسلمنا ولما ... » !

وهذه حالات أربع حاضرة في مواجهات الإيمان : كفراً ونفاقاً أو اسلاماً متروياً أو إيماناً ، ومهما سمي المنافق مسلماً فإن إسلامه استسلام لا اسلام^(١).

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾^(٢).

باب ثان وهي الخداع : إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يُبدية على خلاف ما يخفيه ، والمخادعة خداع بين طرفين ، ابتداءً من طرف وانتهاءً الى آخر ، كفاحاً ضد الخداع : « ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » (٤ : ١٤٢) وابن خداع من خداع ، خداع أول كُله عجز ومكر وكذب ونفاق كما المخادعين الله ، وخداع ثان لا تحمل إلا اسمه فإنها عن قدرة وصدق

(١) ان للسان والقلب والأركان احوال :

فقد يقر اللسان بالحق وقد ينكر او يسكت ، ثم قد يوافقه القلب في الاقرار او ينافقه او يتردد متروياً الحجة للكفر او الإيمان ، ثم قد يوافقها العمل او ينافقها ..

جزاء الوفاق ، كما الله : حيث يأمر بجري أحكام الإسلام عليهم هنا، وفي الآخرة لهم عذاب اليم ، ويكشف أسرارهم للنبي والمؤمنين حيث يخادعون ثم يوم القيامة يُريهم جناته كأنهم واردوها ثم يُنأون عنها مُهانين كما « يفتح لهم باب جهنم فيظنون أنهم يخرجون منها فيزدحمون للخروج فإذا انتهوا إلى الباب ردتهم الملائكة حتى يرجعوا »^(١) : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها » (٢٢ : ٢٢) .

فجزاء الخداع خداعٌ مثله فإنه حق ، إلا في باطله ، وفي عجزه فإنه قدرة ، وفي كذبه فإنه صدق ، وإنما التموية والإخفاء في الخداع الجزاء إيلام كما آلموا المؤمنين جزاءً وفاقاً^(٢) .

إنهم كما يزعمون « يخادعون الله والذين آمنوا وفي الحق » ما

(١) الدر المنثور ١ : ٣٠ - أخرجه أحمد بن منيع عن رجل من الصحابة أن قائلًا من المسلمين قال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! ما النجاة غدًا ؟ قال : لا تخادع الله - قال : وكيف نخادع الله ؟ قال : ان تعمل بما أمرك الله به تريد به غيره ، فاتقوا الرياء فإنه الشرك بالله فإن المرأى ينادى به يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة أسماء : يا كافر ! يا فاجر ! يا خاسر ! يا غادر ! ضل عملك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم عند الله خالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا خادع وقرأ آيات من القرآن : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً » الآية و « ان المنافقين يخادعون الله ، الآية ، وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن جعفر بن محمد (عليه السلام) عن أبيه مثله .

(٢) نور الثقلين ١ : ٣٥ عن العيون عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) في حديث : ان الله تعالى لا يسخر ولا يستهزئ ولا يمكر ولا يخادع ولكنه يجازيهم جزاء السخرية وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر والخديعة تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً . وفي مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) : واعلم انك لا تقدر على إخفاء شيء من باطنك عليه تعالى فتصير مخدوعاً بنفسك - قال الله تعالى : يخادعون الله . . .

يُخَدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ» إذ لن تؤثر خداعهم في الله ، ولا تؤثر في المؤمنين بالله ، اللَّهُمَّ إِلَّا قَلِيلًا يرجع بضرر كثير عليهم أنفسهم ، فهم بخداعهم مفضوحون يوم الدنيا بما يفضحهم الله، ويفضحون أنفسهم حيث يُعرفون في لحن القول : « ولتعرفنهم في لحن القول » (٤٧ : ٣٠) - فما أضمر أحدُ أمراً إلا وقد يظهر في صفحات وجهه وقلبت لسانه - ثم « هم يوم القيامة من المفضوحين ».

« و » لكنهم « ما يشعرون » أن خداعهم راجعة اليهم فلو شعروا ما خادعوا .

ثم النفاق وخداعه دركات صاعدة الى الكفر النفاق ونازلة الى السمعة والرثاء، كما جزاءه دركات حسب الدرجات طبقاً عن طبق .
ولماذا « وما يخدعون » دون « وما يخادعون » نقياً لما حاولوا طبقاً عن طبق ؟

علّه لان الواقع من فعلهم لم يكن مخادعة ، حيث الله لا يخادع ، والمؤمنون لا يُخدعون بما يفضح الله المخادعين ، فلا تبقى في ميدان الخداع إلا أنفسهم « وما يشعرون » والخادع لا يخادع نفسه لوحده ، وإنما يخدعها، ويا ويله إذا كانت مخادعتهم تبوء بالخدعة لأنفسهم و « ما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » !.

وترى إذا « ما يشعرون » فكيف التنديد بهم والعذاب ، والشعور مدار التكليف فالثواب والعقاب ؟

الجواب : أن النص لا ينفي عنهم الشعور ، وإنما إعماله وأعماله بسوء الاختيار ، وحتى إذا فقدوا الشعور لأنهم أبطلوه إذ لم يستعملوه، وبقي التنديد والعذاب على مبدئ اللا شعور المختار ، فالإمتناع بالاختيار لا ينافي

فأولئك الحماقى الأغفال يظنونهم رابحين بهذا التفاق الإغفال « وما يشعرون » أنهم خاسرون ، لا في العقبى فحسب ، ففي الدنيا ايضاً حيث يوردون انفسهم بالكفر المضمّر موارد التهلكة بما يفضحهم الله ويفضحون انفسهم ، إذ تظهر مظاهر من كفرهم من صفحات الوجوه وفتات الألسن .

ومن مخادعتهم لله قولهم « آمنا بالله وما هم بمؤمنين » ومن مخادعتهم للمؤمنين : « إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ».

﴿^(٣) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَّادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾^(١٠):

باب ثالث من ابواب جحيم المنافقين : « مرض القلوب » : قلوب الأرواح لا الأجساد ، فالقلب بيده ازمة العقول والأفكار والصدور والحواس والاعضاء ، الزعامة العليا في مملكة الكون الإنساني ، فاذا مرض مرض الإنسان في كيانه الإنساني ككل ، فالمرض في القلوب حقيقة ، وفي الجسد مجاز أم حقيقة ثانوية .

ولان المرض - الذي لا يحاول شفاؤه - يزداد دوماً ، إن في الجسم او في الروح سواء ، سنة دائبة في الكائنات كلها ، أن تنفرج زاويته في كل خطوة فتزداد من حيث لا يشعرون او يشعرون .

فمرض الجسم يُشعر فيُدرك فيُتدارك مغبّة الحفاظ عليه ، ومرض الروح قد لا يُدرك وكثيراً ما هو ، فلا يُتدارك فيزداد ، ثم القلب ومكاسب السوء يتعاملان في زيادته : « كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

فهناك مرضان اثنان كلاهما في القلوب : ١ - « في قلوبهم مرض »
 ٢ - « فزادهم الله مرضاً » ومن ثم « لهم عذاب اليم بما كانوا
 يكذبون » :

وطالما المرض الأول أجمل عن فاعله ، ففاعل الثاني « الله » فهل
 « لهم عذاب اليم » بالمرض الاول ، ام وبالثاني ايضاً ، او « بما كانوا
 يكذبون » هنا وهناك حصيلة المرض ، ونفاقاً في دعوى الإيمان ؟

المرض الاول هو مرض الكفر والعناد للحق بما كانوا يكسبون ، والثاني
 هو ازدياد الاول منذ بزوغ الرسالة الإسلامية تداوماً فيه ونتاجاً عنه كما
 توحىه الفاء : فزادهم .. فرغم انهم كانوا يأملون لهم زعامات في
 الجزيرة ، ويعملون لإزالة عقباتها وتعبيد طريقها ، إذ فاجأتهم الدعوة
 الإسلامية ، فاخرجت شطأها فأزراها فاستوت على سوقها يعجب الزارع
 ليخبط بهم الكفار ، منذ العهد المدني بعدما أصيبت بجوارف الإصابات في
 العهد المكي .

إن ذلك الإزدهار والتقدم في الدعوة زاد في مرضهم ، فهذه الزيادة
 هي منهم إذ انفرجت زاويته لما انفجرت الدعوة ، حسداً من عند
 انفسهم .

وهي من عند الله إذ بعث صاحب هذه الدعوة ، ولم يكن من الله إلا
 كل خير ورحمة ، ولكنهم لمرضهم بدّلوه الى كل شر ونقمة : « وننزل من
 القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » مرضاً الى
 مرض ورجساً الى رجس : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم
 زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في
 قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم وماتوا وهم كافرون » (٩ :
 ١٢٥) فان دعاء الكافر المعاند لا يزيد إلا فراراً : « إني دعوت قومي ليلاً

ونهاراً ، فلم يزددهم دعائي إلا فراراً ، وهكذا تكون دعوات الرسالات الإلهية قد تزيد في إيمان لمن يؤمن ، وكثيراً ما تزيد طغياناً وكفراً لمن لا يؤمن : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفراً » (٥) : (٦٤) :

ف : « في قلوبهم مرض » أول عاشوه قبل الدعوة « فزادهم الله مرضاً » عند الدعوة حيث كذبوها « ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » كما « في قلوبهم مرض » - « بما كانوا يكذبون » - « فزادهم الله مرضاً » - « بما كانوا يكذبون » (١) :

فثالث المرض الأول وما زادهم الله وعذاب اليم - كل ذلك : « بما كانوا يكذبون » : بالدعوة والداعية ، وفي دعوى الإيمان .

ولماذا « مرضاً » دون « المرض » طالما الثاني استمرار بزيادة في الأول ؟ .. علّه لان الثاني مزدوج : من نوع الأول ، زيادة في الكفر ، ومن سواه : حسداً منهم في مواجهة الدعوة ، وطبعاً على قلوبهم لما كذبوا الداعية - « فزادهم الله مرضاً » على مرض « بما كانوا يكذبون » .

وعذابهم الأليم يوم الدنيا ويوم الدين ، فهنا أن زادهم الله مرضاً وفضحهم بنفاقهم ، ثم يوم القيامة هم من المفضوحين .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ (١٢) :

باب رابع من ابواب جحيم المنافقين : دعوى الإصلاح في إفسادهم !

(١) ف « بما كانوا يكذبون » يعلل ثالث المرضين والعذاب الأليم .

« وإذا قيل : قِيلَ إلهي بلسان النبي او المؤمنين المصلحين الذين يحق لهم نهي المفسدين - قِيلَ لهؤلاء المنافقين : « لا تفسدوا في الأرض » وقوله فارغة جوفاء منهم : « إنما نحن مصلحون » ثم فضيحة لهم عالمية في إذاعة قرآنية : « ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » !

وهكذا يكون دوماً دور المنافقين في كل عصر ومصر أنهم يحسبون أنفسهم من المصلحين، وغيرهم مفسدين، حيث الموازين مختلفة عندهم ، فإنها تتأرجح مع أهوائهم الذاتية ، بعيدة عن الواقع والميزان الرباني ، او الإنساني .

إنهم يحسبون المكر والخداع شطارة ولباقة ، سياسة يتلذذونها الى ما يهون ، فان الغاية عندهم تبرر الوسيلة ، ولأن الأصل من الحياة عندهم حيوانيتها وشهواتها ، والوصول الى بغيتهم ومصالحهم الشخصية ، او الجماعية التي تبوء إليها ، يحسبونها إصلاحها وفلاحها ، لذلك يعدّون فسادهم صلاحاً وإفسادهم إصلاحاً : « إنما نحن مصلحون » : لا شغل لنا إلا الإصلاح ، وهم صادقون في إصلاح حيونة الحياة لهم ، وكاذبون في إنسانيتها وقيمتها وقوامها .

إنهم يتبجحون بثرواتهم ونزواتهم ، طنطناتهم وعربداتهم ، زهواتهم وزهزاتهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً « ألا أنهم هم المفسدون » فقط - كأن لا مفسد سواهم ، إذ يوافقون دوماً ولا يوافقون ، « ولكن لا يشعرون » أنهم هم المفسدون ، حيث رأوا الإصلاح فساداً ، والفساد صلاحاً : « ولكنه أخلد إلى الأرض هواه وكان امره فرطاً » .

إنهم لا شغل لهم إلا الإفساد : في الحرث والنسل ، في الثقافة والعقيدة ، في الإقتصاد والسياسة ، وفي كافة الحقول الحيوية ، محتلين ساحاتها ، طاردين أصحابها ، متدخلين في كل رطب ويابس وهم يحسبون

أنهم يحسنون صنعا : أنهم هم المصلحون ومن سواهم مفسدون ! : وحتى النبيين : « وقال الملأ من قوم فرعون أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهلك » (٧ : ١٢٧) رغم أنهم هم : « .. المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون » (٢٦ : ١٥٢) وقد يوجهون نفاقهم العامر بمسيرة الكافرين حفاظاً على المؤمنين : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً » (٤ : ٦٢) .

فهم يعتبرون صدقهم عن رسول الله إحساناً إليه وتوفيقاً بينه وبين الكافرين ، اقتساماً للبلد نصفين ، وجعلاً للحكم شطرين ، رعاية للقييلين ! :

« ولكن لا يشعرون » وليسوا بتلك البلادة حتى يفقدوا مطلق الشعور وإنما يشعرون من الحياة حيوانيتها فيحتالون ويمكرون بكل شطارة وشعور لبغيتها وهم أنفسهم لا يشعرون عمق الحياة وقيمتها وواقعيتها ، ومهما لم يشعروا فيما يجب على الإنسان شعوره فكأنهم لا يشعرون ! إذ لا يستعملون الشعور حقه الإنساني وإنما إدراكه الحيواني !

ثم الإفساد منه شخصي كالمعاصي التي لا تتجاوز العاصي ، ومنه جماعي كالتي تتعداها إلى غير العاصي ، ومنها حكومي تشمل من يعيش في ظل الحكم ، ثم منها مادي تشمل الناحية الاقتصادية ، ومنها عقيدي تفسد العقائد ومنها .. وأفسدها كلها ما يشمل الإفسادين بقوة الحكم : « قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » (٢٧ : ٣٤) « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى في الأرض

ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد (٢ : ٢٠٦) .

هنا نُهوا عن منكر الفساد، ومن ثم يُؤمرون بمعروف الإيمان : حيث النهي عن المنكر يتقدم على الأمر بالمعروف ، إذ ما دام الناصر مكباً على المنكر لا يتأتى منه المعروف ، فإذا ترك المنكر أو نهى فهناك المجال لفعل المعروف والأمر به ، حيث التزكية تتقدم التحلية في كافة المجالات ، مادية ومعنوية ! :

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ، وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ » (١٣) .

باب خامس من ابواب جحيم المنافقين «تسفيه المؤمنين» وأنهم هم العقلاء الناهبون من دون المؤمنين !

«وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس» لا كما استسلم النسناس - و القائل هو الرسول ومن معه - «قالوا» في جفوة وغرور واستعجاب وهزء وزور : «أنؤمن كما آمن السفهاء» فإن هذا الإيمان خاص بفقراء الناس وأراذلهم دون الأغنياء العلية ذوي المقام - «فجاء الجواب الحاسم : «ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون» .

والسفه هو خفة العقل وبلادته . حيث السفه يفسد ويحسبه مصلحاً ، ويضيع ويراه حافظاً ، لجهله بموارد الإصلاح وموازينه ، وخفة عقله ، مهما كان مثقفاً في مختلف العلوم الزمنية - ف «رب عالم قتله جهله» !

فهم يعتبرون الإيمان الصادق سفهاً . والنفاق عقلاً ، إذ يمكن العشرة مع المؤمن والكافر فيربح الجوين ، ويؤمن الخطرين ، وهذه هي الحياة العاقلة عند هؤلاء المجاهيل ، وحياة الإيمان عندهم سفية ! تخص المجاهيل .

٢٠٠.....الجزء الأول

وهكذا يكون دوماً دور غير المؤمنين : منافقين وكافرين ، أن الإيمان سفه ورجعية سوداء وتأخر عن الحياة في زعمهم ، والكفر والنفاق سياسة حيوية وشطارة ، وأن موافقة السر والعلن . تفسد الحياة ، ومنافقتها تصلحها ، حيث اختلف لديهم موازين الحياة الصالحة ، إذا أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهوائهم فكان أمرهم قُرطاً ! :

ولماذا هنا « الناس » لا « المؤمنون » وهم ناس خصوص دون سائر الناس ، وقد ذكر « الناس » في القرآن أكثر بكثير من المؤمنين والمتقين . وحق المسلمين : الذين هم اعم من المؤمنين - فانه (٢٤١) مرة وهي كلها خطابات عامة ؟

علّه لأن المطلوب منهم فعلاً أقل درجات الإيمان التي تخرجهم - لاقول تقدير - عن كفر النفاق ، وأن هذا الإيمان لا يكلفهم إلا أن يكونوا من سواد الناس ، ولهم مالمسائر الناس من عقل وإدراك ، فإذا لم يؤمنوا كما الناس فهم أولاء إذا نسناهم ، فاقدين بما للناس من عقل ، « ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » علّم الناس ، حيث الإيمان هكذا لا يتطلب براعة في العلم والعقل ، وإنما يكفيه كونك على مشارف العقل دون أشرافه !

وترى أن الإيمان الصادق القرين بكافة البراهين سفه ، ثم الكفر والنفاق اللذان ترفضهما البراهين عقل ؟ ما هذه إلا دعاية غوغائية ضد المؤمنين ، لكي لا يرغب في الإيمان من يحبون العقل المتين !

ولماذا هنا « لا يعلمون » وهناك وهناك « لا يشعرون » ؟

علّه لأن الوقوف على حق المؤمنين وعقلهم ، وباطل المنافقين وسفهم بحاجة إلى علم زيادة على شعورهم فاقدوه ، ولكن التمييز بين الصلاح

والفساد ، وبين ربح الخداع وضرره يكفيه الشعور ، فهم هناك وهناك
« لا يشعرون » وهم هنا « لا يعلمون » مدعين كل علم وشعور ! ناسيين
إلى هداة العقول أنهم سفهاء : « قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك
في سفاهة قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين » (٧ :
٦٧) فلأنه يحمل رسالة الله ، وهم حاملون رسالة الشيطان ، يرونهم
عقلاء ، ثم العقلاء هم سفهاء ! كلمات فقدت معانيها ، كما هم فقدوا
عقولهم إلى أحلامهم ، ومشاعرهم إلى أهوائهم ! « ألا إنهم هم السفهاء
ولكن لا يعلمون » فلا سفيه مقصراً إلا إياهم ، ولا عاقل حقيقاً إلا هو
مؤمن ، فان الايمان من حصائل العقل ، حيث « هم » هنا دليل الحصر ،
أن السفاهة المقصورة محصورة فيهم .

فمضى عِلْمُ السفيه أنه سفيه ، وهو بحاجة إلى عقل راجح وعلم رامح ؟
ولكنه مقصّر دون سفيه إذ قصر في عقله فلم يستعمله لما يحق حتى خفّ
عقله ، والله « يمدّهم في طغيانهم يعمهون » .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (١٤) الله يَمْدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿ (١٥) .

باب سادس من ابواب جحيم المنافقين : « آمنا .. إنما نحن
مستهزئون » .

فهولاء الأوغاد المناكيد ليسوا ليقفوا عند حد الكذب والخداع والسفاهة
بالإدعاء الجوفاء ، بل ويتترسون بالتأمر في الظلام خفية ، خيفة من
المؤمنين ، ومغبة جلب الكافرين ، ثعالب مكارين لا أسد يسفرون عن
وجوههم في الميادين ، وهكذا يكون دوماً دور الساسة الشياطين ! .

لأنهم في لقاءاتهم ذبوا وجوه ، ففي لقاءهم المؤمنين « قالوا آمنا » ليخدعهم ، وليس إلا لقاء عابراً دون خلوة واطمئنان « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا » معتذرين إليهم « إنا معكم إنما نحن مستهزءون » ليست لقاءنا المؤمنين إلا استهزاءً وتجسساً دون تحسس لهم ، إلا عليهم ولكم .

فشياطينهم : رؤوس الضلالة ، هم الأصلاء ضد المؤمنين ، وهؤلاء الجواسيس وسائطهم ، فهم يخلون بهم دوماً - إلا في لقاءات عابرة مع المؤمنين - فيشاورونهم كيف يلاقون المؤمنين ، وكيف يضللونهم وكيف ؟ .

وهؤلاء الشياطين - على الأكثر - كانوا ولا يزالون هم اليهود ، الذين يجدون في المنافقين أداة لتمزيق الصف الإسلامي وتفتيته ، وتوهين العقيدة الإسلامية وتبكيته ، طالما أصول المنافقين كذلك منهم فـ « شياطينهم » يعم كبراءهم المنافقين ورؤوس الكفر والضلالة مشركين وكتابين : شياطين أصول ، وشياطين أذنان يعملان بصدور عنهم ويردون إليهم ؟

و « خلوا إلى » دون « خلوا بهم » تلمح أنهم مراجعهم وملاجئهم ، حيث الخلوة لقاء منفرد ، والخلو إليه اطمئنان والتجاء ، فانهم يشمزون وحتى من مجرد لقاء المؤمنين وإن كان استهزاءً ، فيخلون إلى الشياطين ، حاملين معهم أسرار المؤمنين .

ثم وقولهم في خلوتهم إليهم : « إنا معكم » تثبيت لكفرهم السابق ، رداً للمحنة اللقاء إلى الإيمان و « إنما نحن مستهزءون » نفى صريح لإيمانهم ، أن ليس إلا استهزاءً بالمؤمنين ، تأكيداً لهذه المعية الكافرة ، وتوطيداً لعلاقة العمالة المنافقة .

والاستهزاء البادي هو من الجهل : « قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » (٢ : ٦٧) حيث العالم يرشد ما أثر ، ويترك ما لم

يؤثر ، وأما أن يستهزاء فهذا جهل وسوء خلق .

وأما جزاء الإستهزاء باستهزاء فهو جزاء وفاق ، يوافق العلم والعدل ، لذلك فـ « الله يستهزاء بهم » يوم الدنيا ويوم الدين ، فهنا يجري عليهم أحكام الإسلام وهناك هم في الدرك الأسفل من النار ، وما إلى ذلك من تمويه يستحقونه بما كانوا يموهون « ويمدهم في طغيانهم يعمهون » فـ « جزاء سيئة سيئة مثلها » (٤٢ : ٤٠)

وهكذا يكون دوماً دور الناكرين للرسالات الإلهية، المعاندين ، أن يجابهوها باستهزاء واستخفاف دونما حجة يواجهون بها حج الرسالات : « وإذا راوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا » (٢٥ : ٤١) .

و « الله يستهزاء بهم » هنا بما يهزء ويسخر منهم عذاب الاولى : « فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون » (٦ : ١٠) ، وأخرى في الأخرى : « وبدا لهم سيئات ما كسبوا وفاق بهم ما كانوا به يستهزءون » (٣٩ : ٤٨) وكما سخرت امواج الطوفان بقوم نوح الذين كانوا منه يسخرون : « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون .. حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور .. » (١١ : ٤٠) .

والقول : ان « الله يستهزاء بهم » دعاء من الله على المنافقين، هُراء جارف خارف ، فمن ذا الذي يدعو الله عليهم ، ويرجو منه أن يستهزاء بهم ؟ فإنما الله يُدعى ولا يدعو، إذ لا إله يُدعى إلا هو ! .. فإنما هو إخبار من الله انه يستهزاء بهم في الأولى والأخرى .

ومن استهزاءه بهم في الأولى : « ويمدهم في طغيانهم يعمهون » : مدأ

في حياتهم وزهواتهم ، زعاماتهم وثرواتهم ، فيحسبونهم أنهم كرماء يستحقون هذه التكريمات ، فيمدون بها في طغيانهم يعمهون ، كما « وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون » (٧ : ٢٠٢) : « أيجسبون أنما نمدُّهم به من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون » (٢٣ : ٥٦) وهكذا يستدرجهم من حيث لا يعلمون : « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملِ لهم إن كيدي متين » (٧ : ١٨٣) .

فهم أولاء في طغيانهم يعمهون بين مدين : إلهي حيث يمهلهم ويمدِّهم بأموال وبنين، وشيطاني حيث إخوانهم في كفرهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون . وهذان المذَّان من مُخَلَّفَات إصرارهم على الكفر بالله وهُزءهم برسالات الله ! « وما الله يريد ظُلماً بالعباد » !

ثم وفرق بين المَدِّ والإمداد ، أن المَدَّ زيادة في الشيء من نفسه والإمداد زيادته من غيره ، والله يمدُّهم : يزيدهم في طغيانهم بما طغوا وبغوا ، أن يتركهم دون إمداد للخير حيث عاندوا الحق وأصرروا على الباطل فد « يمدُّهم في طغيانهم يعمهون » بمعنى : « ويلذرهم في طغيانهم يعمهون » (٧ : ١٨٦) فمجرد تركهم في طغيانهم ومدِّهم بأموال وبنين يزيدهم طغياناً وعَمَهاً :

إنه يمد لهم كأنه يخليهم والإمداد في عَمَّهم والجماح في غيِّهم ، إيجاباً للحجة ، وانتظاراً للمراجعة بعد وضوح المحجة ، تشبيهاً بمن أرخى الطول للفرس ، ليتنفس خناقها ، ويتسع مجالها .

وترى وماذا « يعمهون » ؟ إنه عذاب فوق العذاب ، وتباب في الحياة أيَّ تاب ؟ فهو التردد والتحير في الضلالة دون أن يعرف الحجة ، ولا أين يتوجه في مهجَّة ، والعَمَّ في البصيرة كالعمى في البصر ، فمن عمهت

بصيرته عميت سيرته ، وشملته حيرته ، يعيش مختاراً ، يتخبط في مشيته ويمشي مكباً على وجهه .

وما أروع استهزاء الله وأروعه بهؤلاء الهزالي الناهين ، حيث يدعهم يتخبطون على غير هدى ، في طريق ضلت غايته ، وفي النهاية تلتقفهم اليد الجبارة ، اخذ عزيز مقتدر ، حيث توائبوا في فخهم بذات أيديهم كالفران الغافلة عن القبض المكين !

٧- ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١٦).

باب سابع من ابواب جحيم المنافقين هو الدرك الأسفل حيث تتشعب عنه الأبواب الستة السابقة «إشترء الضلالة بالهدى» !
وترى متى كانوا على « الهدى » حتى يشتروا « الضلالة » بها ، والتجارة بحاجة الى رأس مال هو هنا الهدى وهم فاقدوها ؟ !

اقول : إن رموس أموالهم هنا في معترك تجارة الضلالة والهدى ، هي العقول والفطر ، حيث الفطرة كما فطرها الله منطلقة الى الهدى ، إلى الدين حنيفاً : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣٠ : ٣٠) .

كما والعقول من شؤونها الأولية ان تعقل أحكام الفطر ، المبنية من اعماقها بما فطر الله ، ولكن «إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى» !

ثم الهدايات الإلهية التي تترى لهم وتتوارد ، مؤيدة مكملة للفطر والعقول ، هي الزاوية الثالثة من مثلث الهدى التي يملكونها، ولكن هم رغم الهداية المثلثة باعوها واشتروا الضلالة « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » : كيف يتاجرون اذ استبدلوا الأركس الأدنى بما أمكنهم من الغالية

الأعلى ! فـ « أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة » (٢ : ٨٦) وقد كانوا يملكون الحياة الآخرة بما ملّكوا من أسبابها - « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار » (٢ : ١٧٥) و « إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرروا الله شيئاً ولهم عذاب اليم » (٣ : ١٧٧) !

فـ « أولئك » المنافقون هم « الذين اشترووا الضلالة » : الدنيا والعذاب بشهواتها ولهواتها « بالهدى » : هدى العقول والفطر وهدى الأنبياء ، فالمغفرة والأخرى « فما ربحت تجارتهم » فقد خسرت ، حيث التجارة بين ربح وخسران ، وهم خسروا عقولهم وفطرهم وخسروا أنبياءهم فـ : « خسروا انفسهم فهم لا يؤمنون » (٦ : ١٢) حيث خفت موازينهم في إنسانيتهم : « ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا انفسهم في جهنم خالدون » (٢٣ : ١٠٣) « ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » (٥٨ : ١٩) ! « وما كانوا مهتدين » : ما هي التجارة الرابعة ، فلم يكونوا ليهدوا منذ كانوا حيث انحرفوا عنها مبصرين ، وانحرفوا في ضلالهم عمهين ! ولكنهم استبدلوا الغي بالرشاد ، والكفر بالإيمان فخسرت صفقتهم ولم تربح تجارتهم .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ بِمَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ نُورَهُمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصِرُونَ ^(١٧) صُمُّ بَكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ^(١٨) :

هذا والمثل الذي يتلوه لا بد وأن يمثل حالات المنافقين المسرودة من ذي قبل ، جامعة لأصل النفاق .

فكما الذي يستوقد ناراً ليستفيد من نورها ويضر بنارها ، ترى لو ذهب

نورها وبقيت نارها بحرّها ، فلا يُبصر وقد يحرق هو بما أوقد :

كذلك المنافقون ، فنفاقهم نار موقدة ليستضيئوا بنور الإسلام ويحرقوا المؤمنين بنار النفاق « فلما أضاءت ما حوله » حيث استفادوا قليلاً ، فعمر الدنيا قليل بجانب الآخرة ولو عَمَرُوا كلها ، كيف وهم لا يُعمرون منها إلا قليلاً « ذهب الله بنورهم » حيث يفضحهم هنا فلا نور به يستضيئون كما يذهب به يوم يقوم الأشهاد ، إذ لم يبق من نور إسلامهم ولا ظاهراً مدعى « وتركهم في ظلمات لا يبصرون » فلم يبق هنا وهناك إلا نار مظلمة بلا نور ، فنار الجحيم لا نور فيها ، وكذلك نار الفضيحة هنا !

ويا له من مثلٍ يمثّل حقيقة حالهم هنا ومآلهم هناك ، إن النفاق نار مظلمة تحرقهم في ظلماتها يوم الدنيا ويوم الدين ، وهم ليسوا ليستفيدوا من نورها. إلا ظاهراً ضئيلاً مؤقتاً يوم الدنيا ، ثم لا يطول إلا قليلاً وقد « ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون » :

« صمّ بكم عمّ فهم لا يرجعون » : « صمّ » وهم يسمعون إذ عطّلوا آذانهم الإنسانية عن سماع الحق « بكم » وهم ينطقون إذ عطّلوا ألسنتهم عن كلام الحق « عمّى » وهم يبصرون إذ غطّوا أعينهم عن مشاهدة الحق « فهم لا يرجعون » إلى الحق : « لهم قلوب لا يفقهون بها وهم أعين لا يبصرون بها وهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون » (٧ : ١٧٩) .

ومن لطيف الأمر في تمثيلات القرآن أنها كلها حقائق بعيدة عن التخيلات والأوهام، لحدّ نراها نفحم في ممثلاتها كما هنا :

يبتدئ المثل بـ « الذي استوقد ناراً . » وهو فرد ، ثم ينتهي عند الاستنتاج إلى الممثل نفسه وهو جمع : « ذهب الله بنورهم وتركهم في

ظلمات لا يبصرون ، وليس المثل بالذي يقرب الممثل عن بعده إلا إذا كان واقعاً ملموساً كما هنا ، دون الأمثال البعيدة عن الواقع التي تبعد ممثلاتها أكثر وأكثر .

هذا المثل الأول يمثل جماع حال المنافقين انفسهم واما الثاني :

﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ^(١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(٢٠) .

فـ « او » هنا للتقسيم حيث هذا القسم يختلف عن الأول تمثيلاً ، فانه مثلهم أنفسهم فيما يفعلون ، وهذا مثلهم وجاء صيب الدعوة السماوية الإسلامية ، مثل يبدء بهذه الدعوة الصارمة : « او كصيب .. » وينتهي إلى : كيف يعاملونها ويتأثرون بها ! ويتطلعون اليها !

و « صيب من السماء » هو غزير المطر حيث يُصَبُّ من السماء في ثورة الأمطار ، طوفانية المصدر ، بحرية المورد ، حاوية - رغم حياتها المائية - مثلث الإرهاب : « ظلمات ورعد وبرق » : ظلمات السحاب والغيوم المتراكبة التي تحول دون ضوء الشمس نهراً ، ودون أنوار نجوم السماء وقمرها ليلاً ، ويواكبها « رعد وبرق » رعدٌ هو صوت قوي تحدث عن اصطكاك السحاب ، وبرق : هو نور يذهب بالأبصار نتيجة اصطكاك ، والصواعق هي نوازل الرعد والبرق : قصف رعد ينقض منها شعلة من نار لطيفة لا تمر بشيء إلا أنت عليه وهي مع قوتها سريعة الخمود !

وهكذا تمثل الرسالة القرآنية أنها « صيب من السماء » مطرٌ غزير تسقي أراضي القلوب لتحيتها ، نازلة من سماء الوحي الأخير ، سائرة على

كافة الأنوار ، فانها نور الأنوار ، وشمس مضيئة لا قبل لها ، وهذه من ظلماتها ، وأخرى أنها تظلم على القلوب الخاوية الظلمة الخاسرة : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » . ومنها القلوب المقلوبة المنافقة ! وثالثة أنها تصاحبها ظلمات العرقلات ممن يقفون لها بالمرصاد ، ورابعة أنها هطلت ونزلت في أجواء مظلمة من أضغاث أحلام وخرافات أوهام !

ومن ثم رعدوا هو صوتها الجلي العالي ، الواصل إلى آذان من لهم آذان ، الصارخ فيها صرخة الحق النافذة في الأنفس : « وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً » (٤ : ٦٣) فهذه آذان الناس ، وأما النسناس : فـ « يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين » : حيث « يحسبون كل صيحة عليهم » : فيجعلون أصابعهم في آذانهم من صيحة الحق وصرخته حذر الموت ، وهي التي تحييهم ، وهذه الحيلة الإلهية حيلة عذاب بعلم محيط وقدرة محيطة ، فرغم نفاقهم العارم ، ليس الله بغافل عما يعملون : « بل الذين كفروا في تكذيب . والله من ورائهم محيط » (٨٥ : ٢٠) فهنا الله يحيط بهم حيلة عذاب عن علم وقدرة ، وللمؤمنين حيلة رحمة عن علم وقدرة : « ألا إنه بكل شيء محيط » (٤١ : ٥٤) مهما اختلفت الحيلة نقمة ورحمة ، فإنها من مصدر علم وقدرة !

ومن ثم برقها : نورها الشامل كالشمس في رابعة النهار ، النافذ إلى الأعماق ، حيث نور البرق تختلف عن سائر النور ، ولأن أبصارهم كليلية وأنفسهم علييلة « يكاد البرق يخطف أبصارهم » هذا البرق المنير ، الهادي لكل بصير في الظلمات ، يكاد يخطف أبصارهم : يأخذها بسرعة حسداً منهم وخوفاً « كلما أضاء لهم » : أضياءً في ظل إسلامهم الظاهر ، وإفاداً من

مُيزاته في حال أو مال أو منال « مشوافيه » متفعين كأنهم من المسلمين
« وإذا أظلم عليهم » ببلايا أو رزايا للمسلمين ، في حروب دامية فنقص
من الأموال والأنفس والثمرات - « قاموا » : وقفوا عن كل حراك ، وتنحوا
عن العراق فراراً دون قرار ، زحفاً عن معتركات الحروب .

فالإسلام مطر غزير دائم ، إلا أن فيه ظلمات العقبات في حروب
ومعاركات سجال : غالبين أحياناً فبرق ، ومغلوبين أخرى . فظلمات كما فيه
نور الخيرات وكلها خيرات !

هؤلاء المنافقون هكذا يعاملون مطر الإسلام الغزير بظلماته ورعده
وبرقه ، فبرقه لهم خاطف الأبصار . ورعد الصاعقة منه صامة الأسماع ،
أترى هذه أبصار وأسماع الإنسان !

وإذ لا يتفعون بها « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله
على كل شيء قدير »^(١) ولكنه يبقئها لدوامه الحجة عليهم .
وإنه مشهد عجيب رهيب ، حافل بالحركة الثورة ، مشيج باضطراب ،
فيه أضواء وأصداء ، وفيه ظلمات وعياء .

فهناك ظلمات طامة عامة كانت شاملة للعالم أجمع قبل بزوغ
الإسلام ، وفي هذه الظلمات المتراكمة هطلت غزيرة أمطار وحي القرآن
« كصيب من السماء » لتسقي أراضي القلوب الواعية ، فمن خلال هذه
الظلمات أرعد القرآن وأبرق ، فتجاوبا في صاعقة نورانية روحانية ، وتفتح
الأذان الصاغية ، وتتصدع بها القلوب الواعية وتتصدى لها ، وهي القلوب
المؤمنة .

(١) راجع الجزء : ٢٩ ص ٥ - ١٠ كلام في القدرة .

ولكننا المنافقين « يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت... يكاد البرق يخطف أبصارهم » إذ لا يريدون إبصاره ولا يحبون قراره فـ « كلما أضاء لهم » إضاءة خاصة للمتاجرين بالدين ، المتظاهرين بالإسلام مغبة الإنتفاع « مشوا فيه » مستفيدين ، كما في حالات الصلح أو الحرب الإسلامية الغالبة ، وفي سائر الميزات الإسلامية - « وأما » إذا أظلم عليهم « في حرب مغلوبة ، أو فضيحة لهم بما يعرفهم الله « قاموا » وقفة عن كل حراك اللهم إلا ضد الدعوة !

فهذا الصيِّب البرق الصاعقة للمؤمنين به ضوء دائب ، ونور واصل ، في الصلح والحرب ، غالبين ومغلوبين ، في الأفراح والأتراح ، ولكنه بالنسبة للمنافقين ضوء أحيائي وظلمة أخرى ، حسب مختلف الحالات « كلما أضاء لهم .. وإذا اظلم عليهم » !

حيث الإضاءة ، والإظلام هي فقط بالنسبة لهم ، فانه للمؤمنين إضاءة على طول الخط وفي كافة الأحوال .

مشهد حسي واقعي يمثل حالة نفسه عن المنافقين كأنها محسوسة ، تجسماً لأحوال هذه النفوس البئسة في كافة حالاتها وتصرفاتها ومواجهاتها للصيِّب الهاطل القرآني ، الراعد البارق الصاعق ! : « يكاد البرق يخطف أبصارهم » : من قوة إيماضه وشدة التماعه : « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » .

هنا يتم استعراض الصور الثلاث : المتقين - الكافرين - المنافقين - ومن ثمَّ خطاب عام للناس اجمعين لكي يصبحوا من المتقين .

بَنَاءُهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
 وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
 الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
 فَأَنْجَرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا
 وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
 فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا
 النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾
 وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا
 الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ
 مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي
 أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ
 مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا
 وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ
 مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
 وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ
 نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ
 ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
 جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ۚ وَهُوَ
 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

تبتدء هذه الآيات بدعوة الناس لعبودية الله ، مبرهنة لها بمثلث
 الأصول الدينية : التوحيد - النبوة - المعاد ، فلولا الاعتناق بها فلا مجال
 لعبادة الله ، إلا تقليدياً دون برهان كما في بداية الإسلام والإستسلام ،
 ولكننا الله يريد منا هنا الإيمان المكين مزوداً ببراهين :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ
 تَتَّقُونَ ﴾ (٢١) :

« يا ايها الناس » ولماذا « الناس » وهي اعم شمولاً من « من يقول

آمناء . . وما هم بمؤمنين » و « كما آمن الناس » والى « النار التي وقودها الناس » حيث تشمل مثلث المؤمنين والمنافقين والكافرين ؟ :

اقول : لان دعوة القرآن شاملة للناس اجمعين إلا القُصْر والمجانين مهما اختص واقع التأثير بالمتقين كما مضى في آية المتقين ، فان رسل الله يبلغون رسالات الله « عذراً أو نذراً » .

فالناس في القرآن (٢٤١) مرة وهي اكثر بكثير من المسلمين والمؤمنين والمتقين وحتى من بني آدم ، حيث الأخير أعم من الناس إذ يشمل القُصْر والمجانين ، والأول تختص بمن يتقبل الدعوة وإن كان إقراراً باللسان .

و « يا ايها » نداء تنبيه ، استجاشة للضمير الإنساني إلفاتاً إلى ما يصلح الناس حيطة على كونهم ناساً خارجين عن نسناس .

ثم ونداء البعيد هنا « يا » لبعدهم عن حضرة الربوبية قبل أن يعبدوه !

مركز تحقيق كتاب توحيد علوم إسلامي

« الناس » هنا وفي سواها لا يخص الموجودين زمن الخطاب ، فان دعوة القرآن لا تختصهم ، حيث القرآن دعوة خالدة فلتشمل كل من يصح دعوته ، فما استجد من قرون مستقبلة والى يوم الدين مشمولة لهذه الدعوة ، مهما لم تشملهم زمن النزول حيث لم يكونوا ، كما لم تشمل القُصْر والمجانين إذ لم يؤهلوا لها .

فخطابات القرآن هي حقيقية ، فما وجدت لها مخاطبين شملتهم ، وليست فعلية زمنية ، بل على نحو القضايا الحقيقية الشاملة مواردها في أوقاتها .

وهل الكفار مأمورون بالعبادة وهم ملحدون في الله أو مشركون ، وعبادة الله فرع الإعتراف بالله وتوحيده ؟

اقول : نعم - إذ لهم أن يصدقوا به فيعبده ، إذأ فهم يؤخذون بالفروع كما الأصول : « وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون » (٤١ : ٧) حيث الويل لهم يشمل فرع الزكاة بين أصلي التوحيد والمعاد ، لا سيما وهنا الأمر بالعبادة قرين التوجيه الى مثلث الأصول .^(١) « الذي خلق لكم الأرض فراشاً ... »^(٢) وان كنتم في ريب مما نزلنا .. كيف تكفرون بالله .. اللهم إلا القصر المستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم .. » خارجين عن الويل المحتوم الى رجاء العفو .

« اعبدوا ربكم » : اعبدوه لانه ربكم - لا فحسب بل ولأنه « الذي خلقكم » : الرب الخالق لكم - لا فحسب أنتم بل « والذين من قبلكم » فهو خالق كل شيء ورب كل شيء - فاعبدوه « لعلكم تتقون » كما « خلقكم .. لعلكم تتقون »^(١) :

« اعبدوا ربكم الذي خلقكم .. لعلكم تتقون » حيث العبادة والتقوى غاية الخلق : « ما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » فلانه رب خالق فاعبدوه : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه » (٦ : ١٠٢) واتقوه : « واتقوا الذي خلقكم والجبلة الاولين » (٢٦ : ١٨٤) ، ولكننا التقوى لا تحصل إلا بعبادته كما امر : « اعبدوا ربكم .. لعلكم تتقون » كما « خلقكم .. لعلكم تتقون »^(٢) : فقد خلقكم ورباكم انتم

(١) ف « لعلكم تتقون » لا تخص الترجي بحصول التقوى من العبادة ، بل ومن الخلق ، اعبدوا ... لعلكم تتقون - خلقكم لعلكم تتقون ، واللفظ يحتملها فهما معاً مقصودان وكما تدل عليه الآيات المسرودة في المتن .

(٢) تفسير البرهان ١ : ٦٦ - القمي قال علي بن الحسين (عليه السلام) في قوله تعالى : يا ايها الناس ... « يعني سائر المكلفين من ولد آدم - اعبدوا ربكم - اطيعوا ربكم من »

والذين من قبلكم لتعبدهم فتتقوه ! حيث تختلفان سبباً ومسبباً ! كما « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »^(١).

ولأن مطلق العبادة لا تنتج التقوى وإنما العبادة المطلقة الخالصة هي التي تنتجها، فلا تترتب التقوى على مطلق العبادة، لذلك : « اعبدوا ربكم .. لعلكم تتقون » فرجاء اتقاء المحاذير في حظيرة العبودية واقعة على أية حال ، وواقع الإلتقاء في حق العبودية لحضرة الربوبية لا محالة كائن .

فلأن العبادة المعنية هنا من الناس ليست هي المطلقة الخاصة بالمتقين ، لذلك لا مجال لها إلا رجاء التقوى ، وحتى بالنسبة لحق العبادة المنتجة لحق التقوى ، هنا كذلك مجال لتقوى أعلى ، فقد تكون الرجاء لأصل التقوى كما للبدائين في عبادة الله ، وأخرى هي لدرجاتها صاعدة الى أعلى فأعلى كما للمتوسطين والرعييل الأعلى .

فكما العبادة درجات كذلك التقوى الناتجة عنها درجات : طبقاً عن

= حيث امركم ان تعتقدوا أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ولا شبه له ولا مثل له ، عدل لا يبور ، جواد لا يبخل ، حلیم لا يعجل ، حكيم لا يعجل ، وان محمداً عبده ورسوله ... ثم قال : اعبدوا الذي خلقكم من نطفة من ماء مهين ، فجعله في قرار مكين الى قدر معلوم ... والذين من قبلكم من سائر اصناف الناس « لعلكم تتقون » قال (عليه السلام) : لها وجهان :

احدهما : وخلق الذين من قبلكم لعلكم كلکم تتقون - اي لتتقوا كما قال الله : وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون -

والوجه الآخر : اعبدوا الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون - اي : اعبدوا لعلكم تتقون النار ، ولعل من الله واجب لأنه اكرم من ان يعني عبده الى منفعة ويطعمه في فضله ثم يخيبه ، أقول : يعني رجاءه في موقعه بلا خيبة لا ان التقوى حاصلة بالعبادة على اية حال .

(١) نجد التقوى في كثير من الآيات جعلت نتيجة التقوى رجاء ام واقعاً .

طبق في مختلف الإطارات ، كلما ازدادت العبادة زادت التقوى ، وكلما زادت التقوى ازدادت العبادة .

وأساس التقوى هو الوقاية عن نسيان ذكر الله الذي هو أسّ البليات كلها : « فإن قال قائل فلم يعبدوه ؟ - وهو ليس بحاجة أن يعبدوه - » قيل : لثلاث يكونوا ناسين لذكره ولا تاركين لأدبه ، ولا لاهين عن أمره ونهيه ، إذا كان فيه صلاحهم وقوامهم ، فلو تركوا بغير تعبد ل طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ^(١) و « ليست العبادة كثرة الصلاة والصوم ، إنما العبادة التفكير في أمر الله عز وجل » ^(٢) و « إيمان التفكير في الله وقدرته » ^(٣) ف « لا عبادة إلا بتفقه » ^(٤) .

لذلك نرى الآية تُبرهن لزوم العبادة بسناد الخلق مبدئياً والتقوى نهائياً ، ومن ثم الآيات الأفاقية بعد الأنفسية :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢٢) .

واجهت الخطاب هنا المشركون ، المقرون بالله ، المشركون في عبادة الله ، يذكّرهم بما يفرض عليهم توحيد العبادة لله إذ « جعل لكم الأرض فراشاً و... » فهل من شركاءكم من يفعل من ذلكم من شيء « فلا تجعلوا لله

(١) نور الثقلين ١ : ٣٩ عن عيون اخبار الرضا (عليه السلام) فيما ذكره الفضل بن شاذان من العلل عن الرضا (عليه السلام) .

(٢) نور الثقلين ١ : ٤٠ عن اصول الكافي عن الإمام الرضا (عليه السلام) .

(٣) المصدر عن الإمام الصادق (عليه السلام) .

(٤) المصدر عن الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) .

أنداداً» في العبادة «وانتم تعلمون» أن لا أنداد له في الألوهية ، كما وتُناظرها آياتها الأخرى : «أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تُنبِتوا شجرها ءِإِلَهُ مع الله بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً ءِإِلَهُ مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ءِإِلَهُ مع الله قليلاً ما تذكرون . أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ءِإِلَهُ مع الله تعالى الله عما يشركون . أمن يبدئ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ، ءِإِلَهُ مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (٢٧ : ٦٤) .

فالأرض الفراش في امتهادها، والسما البناء بارتفاعها، النازل منها الماء ، المخرج من الأرض ثمرات ، هذه وتلك التي هي من نعم الله وحده تفرض أن تكون العبادة أيضاً لله وحده دون أنداد : أمثال ونظراء في العبادة ، فإنه ضلال مبین : «تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين» .

و «.. جعل لكم الأرض فراشاً : «والأرض فرشناها فنعم الماهدون» (٥١ : ٤٨) تلمحان إلى أنها ما كانت فراشاً حين خلقت ، وإنما فرشت مهداً ومهاداً لساكينها ، راحة الحياة دون تصعب وشماس ، فكما الأنعام فراش : «ومن الأنعام حمولة وفرشاً» (٦ : ١٤٢) كذلك الأرض على حركاتها جعلها الله ذلاً بعد شماس ، وحمولة فرش بعد ارتكاس ، «ملائمة لطباعكم ، موافقة لأجسامكم»^(١) .

(١) نور الثقلين ٩ : ٤١ عن عيون الاخبار ، ابن بابويه بسنده عن الحسن بن علي =

كما وان « لكم » تصريحية : أن فراش الأرض هو لصالح حياتكم عليها ، وترى أن « كم » هم نحن الأنسال من آدم الأخير ، المخلوق أخيراً بعد ملايين السنين من فراش الأرض ، أم والأنسال السابقة من أناسي سابقين ، الذين خلقوا منذ فراش الأرض ، كما تدل عليه آيات الخلافة وأقوات الأرض؟^(١).

عَلَّه الأول ، لا اختصاصاً بنا ، وإنما تكريماً لنا على من سبقنا ، أم هو الثاني جمعاً بين المكلفين ، وان كانوا حال الخطاب منقرضين ، ولكننا الماضين متى يشملهم مستقبل الخطاب ؟ اللهم إلا إذا خوطبوا من قبل كما هنا وأنى لنا بآياته !

ويا لفراش الأرض من نعمة عظيمة لا ندركها لأننا ساكنوها منذ كنا ، حيث يتطلب موافقات عدة بين عناصر عدة تُعدُّ الأرض بها فراشاً لنا ، فلو فقد أو قل أو زاد عنصر واحد من هذه العناصر في ترابها أو ماءها أو هوائها لاستحالت أو صعبت الحياة عليها ، سبحانه الخلاق العظيم ! ..

كذلك السماء حيث جعلها الله بناءً ولم تكن بناءً ، فنور الأرض وأمطارها وكثيرة أخرى من بركاتها هي من بناء السماء : « وبيننا فوقكم سيعاً شداداً .. وجعلنا سراجاً وهاجاً . وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً .

= العسكري (عليه السلام) مسللاً عن آبائه الكرام عن علي بن الحسين (عليه السلام) في الآية : ... ولم يجعلها شديدة الحما والحرارة فتحرقكم ولا شديدة البرد فتجمدكم ولا شديدة طيب الريح فتصدع هاماتكم ولا شديدة التشن فتعطبكم ، ولا شديدة اللين كالماء فتفرقكم ولا شديدة الصلابة فتمتنع عليكم في دوركم وأبنتيكم وقبور موتاكم ولكنه عز وجل جعل فيها من المتانة ما تنتفعون به لدوركم وقبوركم وكثير من منافعكم فلذلك جعل الأرض فراشاً لكم

(١) يأتي البحث عن آيات الخلافة هنا وآيات الأموات في فصلت .

لنخرج به حياً ونباتاً . وجنات ألفافاً» (٧٨ : ١٦) «أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . . والجبال أرساها . متاعاً لكم ولأنعامكم » (٧٩ : ٣١) ^(١) . ثم ومن آثار بناء السماء :

« وأنزل لكم من السماء ماءً » ف « أنزل » هنا دون « ينزل » توحى بالتزول الدفعي الأول ، حيث الأرض كانت كرة عطشانة محترقة ، لا ماء فيها ولا كلاء ، فأنزل الله عليها من ماء السماء « فأخرج لكم به من الثمرات رزقاً لكم » : « وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً . لنخرج به حياً ونباتاً وجنات ألفافاً » (٧٨ : ١٦) .

فأرضنا الشמוש العطشى كانت تتطلب لمهادها لنا ماءً : « وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون » (٢٣ : ١٨) ولو أن مياه الأرض أو بعضها كانت من نفسها لم يكن هنا موقع للتهديد بذهاب مياه السماء ، فإنما حياة الأرض منوطة بمياه السماء : « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحى به الأرض بعد موتها » (٢ : ١٦٤) ^(٢) « فسيحان من أمسكها بعد مَوَّجان مياهها ، وأجدها بعد رطوبة أكنافها ، فجعلها لخلق مهاداً ، وبسطها لهم فراشاً فوق بحر لجي راكد لا يجري ، وقائم لا يسري ، تكرر كره الرياح العواصف ، وتمخضه الغمام الذوارف ، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى » ^(٣) .

(١) راجع الجزء الثلاثين الى تفسير هذه الآيات في بناء السماء ص ٢٥ - ٢٨ و ص ٨٦ - ٨٨ وكما نبحت عنها مفصلاً في الآيات من « فصلت » عن خلق الدخان السماوي وجعلها سبعا .

(٢) راجع العنوان ص ٢٩ - ٣٢ حول مياه المعصرات .

(٣) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) .

« فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » أن هذه النعم هي من إله واحد دون أنداد ! : أمثال ونظائر أو أضداد .

وكما التوحيد له درجات، كذلك اتخاذ الشركاء الأنداد دركات : فالند قد يُعبد من دون الله ، أو يُعبد مع الله ، أم لا هذا ولا ذاك وإنما يخضع له كما يخضع لله ، ركزاً أم سجوداً أم ماذا ؟ واستغاثة واستعانة به من دون الله ، أو مع الله ، أو بعد الله أم ماذا ؟ أو اعتقاد تأثير له من دون الله أو مع الله أو بعد الله أم ماذا ؟ فحتى الرثاء شرك بالله ، فجعل الأنداد لله محرم أو كفر أو شرك أو إلحاد بالله ، صاعدة إلى اتخاذها آلهة من دون الله ، ونازلة إلى الرثاء وبينهما متوسطات ! : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » حيث الشرك كدبيب النمل ! ففي الحديث أن رجلاً قال لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما شاء الله وشئت قال : أ جعلتني لله نداً ؟ ! وقد قالت اليهود له (صلى الله عليه وآله وسلم) دينك خير دين لولا أن امتك مشركون ! قال : وكيف ؟ قالوا : حيث يقولون : لو شاء وشاء محمد ، فغضب فقال لهم : لا تقولوا هكذا ، قولوا : لو شاء الله فشاء محمد « تفريعاً لمشيئته (صلى الله عليه وآله وسلم) على مشيئة الله ، لا قرناً لها إياها !

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٣ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ٢٤ ﴾ .

.. تحد بالقرآن - أنه وحي السماء - الناس اجمعين في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، جزماً بعدم إمكان الإتيان بمثل القرآن ولا بسورة من مثله : القرآن : « ولن تفعلوا » ! .

وتحدُّ بمن أنزل عليه « من مثله » : عبدنا ، تحديان يتمازجان ، فيضربان في أعماق تاريخ الرسالات وكتابات الأرض والسماء : « فأتوا بسورة من مثله » : مثل القرآن من كتب الوحي في أنها وحي مهما اختلفت مراتبها - وكذلك فيمن أنزل عليه : رجالات الوحي « فأتوا بسورة من مثله » : مثل عبدنا الذي لم يدرس فاصبح مدرساً للعالمين ، او وحي مثله في البشرية وان كان عالماً نحريراً!

فقرآن محمد ومحمد القرآن معجزتان متلازمتان فائقتان سائر المعجزات لسائر رجالات الوحي ، خالدتان ما طلعت الشمس وغربت ! .

﴿ التحدي بالقرآن ﴾ :

نجد آيات التحدي بالقرآن في مثلث التحديات :

١ - بالقرآن كله : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (١٧ : ٨٨) وهذا أشمل التحديات حيث يشمل الجنة والناس أجمعين متظاهرين متظافرين آياً كانوا وآيان ، والقرآن كما هو صادق على كله كذلك على آية منه وبينهما عوان ! .

٢ - بعشر سور مثله : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وان لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون » (١١ : ١٤) .

٣ - بسورة من مثله - كما هنا - وهو أقوى التحديات من حيث القرآن ومن أنزل عليه ، فالقرآن : « بسورة من مثله » ، وإن كانت كالكوثر - لا فقط بعشر او به كله - ومن أنزل عليه وإن كان من كان إذا كان

مثله : (١) أمياً لم تسبق له أية دراسة أو كتابة أو قراءة : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطلون » (٢٩ : ٤٨) « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدرككم به فقد لبثت فيكم عُمُراً من قبله أفلا تعقلون » (١٠ : ١٦) وان تقولوا : « إنما يعلمه بشر » : « ولقد نعلم

(١) الضمير الغائب في « مثله » يرجع الى « عبدنا » كما هو راجع الى « ما نزلنا » وهما معاً مقصودان حيث تتحملها الآية لفظاً ومعنى .

وكما في تفسير البرهان نقلاً عن تفسير الإمام العسكري عن الإمام الباقر (عليه السلام) : في الآية قوله : « فأتوا » : يا معشر قريش واليهود ! يا معشر النواصب المتحليين بالإسلام الذين هم منه برآء ! ويا معشر العرب الفصحاء البلغاء ذوي الألسن « بسورة من مثله » من مثل محمد مثل رجل منكم لا يقرأ ولا يكتب ولم يدرس كتاباً ولا اختلف الى عالم ولا تعلم من احد وانتم تعرفونه في اسفاره وحضوره - بقي كذلك اربعين سنة ثم اوتي جوامع العلم حتى علم الأولين والآخرين - فان كنتم في ريب في هذه الآيات فاتوا من مثل هذا الرجل بمثل هذا الكلام ليتبين انه كاذب كما تزعمون ، لأن كل ما كان من عند غير الله فسيوجد له نظير في سائر خلق الله ، وان كنتم معاشر قراء الكتب من اليهود والنصارى في شك مما جاءكم به محمد (صل الله عليه وآله وسلم) من شرائعه . . فاتوا بسورة من مثله - يعني : من مثل القرآن من التوراة والانجيل والزبور وصحف ابراهيم . . فانكم لا تجدون في سائر كتب الله تعالى سورة كسورة من هذا القرآن .

وفيه عن الإمام علي بن الحسين مثله وزيادة هي : « فاتوا بسورة من مثله » من مثل محمد - اي : لم يختلف الى أصحاب كتب قط ولا تلمذ لاحد ولا تعلم منه وهو من قد عرفتموه في حضره وسفره ولا يفارقكم قط إلى بلد ، ليس معه جماعة منكم يراعون احواله ، ويعرفون اخباره ، جاءكم بهذا الكتاب المشتمل على هذه العجائب ، فان كان متقولاً كما تزعمون وانتم الفصحاء والبلغاء والشعراء والادباء الذين لا نظير لكم في سائر الاديان ومن سائر الامم ، فان كان كاذباً فاللغة لغتكم وجنس جنسكم وطبعه طبعكم وسيتفق لجماعتكم او لبعضكم معارضته كلامه هذا بافضل منه ومثله ، لأن ما كان من قبل البشر لا عن الله فلا يجوز ألا يكون في البشر من يمكن من مثله فاتوا بذلك لتعرفوه وسائر النظائر اليكم في احوالكم انه مبطل كاذب على الله تعالى

أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين» (١٦: ١٠٣) فحيث لم يجدوا عربياً يفترون أنه علمه ، قالوا: علمه سلمان الفارسي ، خبلاً في فريتهم وخبطاً عشوائياً في مريتهم، فجاء الجواب الحاسم : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » ! فاذ لم يات به عربي ولم يعلمه فكيف بأعجمي جاءه في العهد المدني، وقد نزل من القرآن شطر عظيم في العهد المكي ! .

٤ - ثم وحتى بآية فإنها قرآن ويشمله التحدي الاول وان لم ترد في خصوصها آية ، حيث الآية في القرآن تعني الآية الإلهية : الدالة على كونها إلهية المصدر والصياغة، بنفسها ، وكما الآيات تعبير عن المعجزات فالقرآن آية إلهية بمجموعه - بعشر سور - بسورة - بكل آية آية : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين » (٢ : ٢٥٢) .
ومهما كانت هذه الآيات درجات بالنسبة للمستدلين بها .

ولكنها كلها مصبوغة بصيغة واحدة ، مشبعة بصيغة واحدة فصاحة وبلاغة وحتى في موسيقى التعبير فضلاً عن محتوياتها .

فالقرآن آية إلهية جملة وتفصيلاً - بآية او سورة او عشر سور أم كله ، مهما اختلفت القابليات في الحصول على هذه او تلك بمختلف العقول في مختلف الحقول ! .

ومن ثم فحتى لو درس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في المدارس كلها ، واكتسب العلوم كلها لا يقدر ان يأتي بمثل هذا القرآن ولو بسورة من مثله او آية ! كيف ولم تسبق له سابقة دراسة او تلاوة ثم أتى بالقرآن العظيم الذي يعجز دون سورة منه العالمون ، ولقد كان المجال أمامهم مفتوحاً ، واهتمامهم الشديد بمعارضة القرآن وإبطال حجته مفسوحاً ، وحتى الآن لم يأتوا ولن يأتوا ولا بسورة من مثله ، أفلا يدل كل ذلك على تحليق

القرآن على أجواء الفصاحة والبلاغة تعبيراً، وعلى أجواء العقول في كافة الحقول، وعلى أجواء مختلف العلوم معبراً عنه ، طوال أربعة عشر قرناً ، وحيداً في ميادين السباق ، بل لاسباق اذ لا رفاق !

أفلا يدل كل ذلك انه نازل بعلم الله ؟ « فان لم يستجيبوا فاعلموا انما انزل بعلم الله » (١١ : ١٤) .

﴿ من مثله ﴾ في دراسة موسعة :

« من » فيما يُعنى من الضمير « عبدنا » ابتدائية نشوية : « فاتوا بسورة من مثل عبدنا الأمي ثم قايسوا بها سورة من القرآن ، لتعرفوا البون الشاسع بينهما ، فليكن نازلاً بعلم الله ، وحتى اذا استويا ، إذ لا مساواة ولا مساومات بين وحي الارض ووحى السماء ! .

او « من مثل عبدنا » في كونه عبداً وان كان من عباقرة العلم - وهو أمي ! - فاتوا بسورة من أي جن او انسان او نبي او آيا كان ، ثم قايسوا بها سورة من القرآن الذي جاء به هذا الأمي ، لتعرفوا - كذلك - البون بيننا^(١) فليكن نازلاً بعلم الله .

وفما يعني من ضميره « ما ا نزلنا على عبدنا » فـ « من » تتحمل الجنسية كما تتحمل النشوية الإبتدائية : « فاتوا بسورة من مثل القرآن : من كتابات الوحي ايأ كان ، سورة مأخوذة منها وهي مثل القرآن في الوحي ، او سورة هي جنس القرآن كذلك : « قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منها أتبعه إن كنتم صادقين » (٢٨ : ٤٩) : أهدى من التوراة والقرآن اللذين تنكرونها ، فاذا لم يأتوا بكتاب الهى هو أهدى من هذين -

(١) هنا يجمع بين المماثلة في الامية ، والمماثلة في كونه عبداً ، وحتى نبياً حيث تحملها الآية .

كانها غير إلهيين - ! دل ذلك بيقين أنها من وحي الله ، فوحي الأرض أياً كان هو أدنى من وحي السماء دنو الأرض من السماء وأدنى : « فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم .. » (٥٠).

فهل أتى أحد من أهل الكتاب بسورة من أي كتاب يقايسها بسورة من القرآن ، والمجال فاسح ؟ كلاً حيث الحاصل من هذا القياس - على أبعد تقدير - مماثلتها سورة من القرآن ، او رجاحة القرآن كما هو حق التقدير ، وكيف بالامكان مماثلة كلام العبد كلام الله او رجحانه عليه ؟ فليكن نازلاً بعلم الله .

تري ومن الذي يشهد هكذا ؟ إنه كلام الله نفسه ! بل وكافة الشهداء من دون الله : « وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » : أنه ليس من كلام الله ! ليشهدوا في كافة مجالات القياس بقرآن محمد او محمد القرآن ، أنها نازلان من عند الله : شاهداً هو كتاب الله ، ومشهوداً له هو رسول الله ، اذا فهما معاً معجزة بارعة آلهية ما لها من فواق ! .

فهنا يصل التحدي الى الغاية ان يُطلب من ناكري وحي القرآن ان يدعوا شهداءهم - كلهم - من دون الله ، ان يأتوا بسورة من مثل القرآن ، او بسورة من مثل محمد كسورة من القرآن ، ان يأتوا ويشهدوا لكم ، ولكن « لم تفعلوا ولن تفعلوا » لا تأتون بمثله ومحال ان تأتوا ، ولئن أُتيتم فإنكم وشهداءكم سوف تشهدون أن القرآن نازل بعلم الله ، إذ لا مماثلة بين ما اتاه وتأتون به ! .

فكما « الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه .. » (٤ : ١٦٦) كذلك الشهداء من دون الله عليهم أن يشهدوا عند القياس ، او - ولأقل تقدير - أن يسكتوا عن الشهادة ضد وحي القرآن ، إذ ليس لهم أي برهان إلا

عجزهم عن الإتيان بمثله ! .

« فان لم تفعلوا » كما لم يفعلوا « ولن تفعلوا » كما يستحيل أن يفعلوا في مثلث الزمان ، ومن اي فاعل او محاول كان « فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة » : الناس النسناس الذين هم كذلك حجارة ، إذ غربت عقولهم وتخبطت أحلامهم فصعدوا على نكران القرآن ، وحجته باهرة كالشمس في رابعة النهار !

فكيف بالإمكان أن يدّعي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو أعقل العقلاء حقاً وعندهم - أن « لن تفعلوا » وهو ليس على يقين من وحي القرآن ؟ أليفسح نفسه ويهدم أساس دعوته لأحيان عاجله ام آجله لو اتوا بمثله او فوقه ! ولكنه يعلن في هذه الإذاعة القرآنية « ولن تفعلوا » : محال أن تفعلوا - لا فقط سوف لا تفعلون - حيث « لن » لمحة او صراحة لاستحالة مدخولها عقلياً ام واقعياً ، ومن اللائح أن الإتيان بمثل القرآن محال فيهما حتى وإن كان من سائر كتابات السماء ! علوم ربي

وعند العجز « فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » فحيث تجعلون أنفسكم هنا وقوداً لنار الجحود والنكران لتحرقوا به وحي القرآن ، فهناك سوف تصبحون مع الحجارة وقوداً للنار التي اضرمتوها من ذي قبل ف « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون » (٢١ : ٩١)

فكل من له دراية وذوق بأساليب الكلام ، وتصورات البشر عن الكون ، وكل ما للبشر من مناهج ونظريات ، لا يخالجه شك أن ما جاء به القرآن في هذه المجالات يختلف تماماً عما للإنسان ونظراءه ، كما يختلف الله عن مخلوقاته ، فكلام الله إله الكلام كما علمه إله العلم فإنه نازل بعلم الله !

فالقُرآن بذاته « لا ريب فيه هدى للمتقين » ولكن : إذ لم تكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر!

« وان كنتم في ريب » : شك كأنه مسنود الى دليل، ولا يملك أي دليل ، بل الأدلة الذاتية من القرآن نفسه تؤكد أنه نازل بعلم الله .. « فاتوا بسورة من مثله .. » ولكي تثبتوا أنه اختلاق خلقي وليس من الخالق في شيء « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا » إذ لا مثيل له وحتى لسورة منه من كتابات السماء ، ولا مثيل لمن انزل إليه أن يأتي بمثله ، « فاتقوا النار .. ! »

و « ما نزلنا على عبدنا » تلمح ان العبودية هي الظرف الصالح لنزول الوحي ، لا سواها من طرق بشرية، وما أجمله تعبيراً « عبدنا » في مثلث المعنى من « عبد » - « نا » وحروفه الثلاثة عند اهل المعرفة « فالعين علمه بالله تعالى والباء بونه عما سوى الله، والدال دنوه من الله بلا كيف ولا حجاب »^(١).

« فاتوا » إن كنتم كتابيين فمن كتب السماء ، وان كنتم مشركين ناكرين لها « فاتوا بسورة » كسورة منه « من مثل عبدنا » في أميته ام وفي بشريته ، او كونه خلقاً اياً كان « ان كنتم صادقين » : في ريبكم : فإنه شك مسنود إلى دليل وليس لكم أي دليل !

هنا يتحدى « بسورة من مثله » واخرى « بسورة مثله » ام يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » (١٠ : ٣٨) ومماثلة سورة من غير القرآن، لسورة من القرآن مماثلة للقرآن كله ، والتحدي قائم في مثلث : سورة - عشر سور - القرآن

(١) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (عليه السلام) .

كله ، أدناه سورة او آية ، واعلاه كله ، وبينهما متوسطات ذكر منها عشر سور .

وترى ما هي « سورة » ليقف التحدي عندها ، ام ماذا ؟

اقول : انها لغوياً فعلة من « سور » : سور المدينة وحائطها ، الذي يفصلها عن غيرها ، فالسورة من القرآن آيات محدودة مفصولة عن محدودات أخرى ، وبماذا ؟ طبعاً بالبسملات في بداياتها كآية منها - إلا البرائة - وفي نهاياتها كآية مما يليها كالسور كلها ، وانما تعرف البرائة سورة في نهايتها كسائر السور ، وفي بدايتها بما تواتر ان « برائة من الله . . » اولى آياتها ، فالبسملة بصورة عامة - إلا التي في النمل - سورٌ بدء ختم للسور كلها ، إضافة الى المعروف المتواتر القاطع من بداياتها ونهاياتها .

وقد تدل « سورة » و « عشر سور » واضرابها^(١) ان القرآن كما هو الآن رتب سوراً زمن الوحي ، مهما نزل في قسم منه سوراً وفي آخر آيات ، فلو لم يكن مرتباً حينذاك سوراً لم يشمل التحدي القرآن كله .

او أنه يلوح الى ترتيب سابق للعهد المكي ، وترتيب يلحقه في العهد المدني ، فيما لم تنزل سوراً ، ومهما يكن من شيء فلا ريب ان جمع القرآن وترتيبه لم يكن إلا بالوحي كما ان تنزيله بالوحي : « ان علينا جمعه وقرآنه » (٧٥ : ١٧)^(٢) دون تدخل لأحد في تأليفه سوراً وآيات إلا كما أمر الرسول وأئتمر فألفه كما أمر .

(١) مجموع ما ذكر فيه « سورة » في القرآن تسعة مواضع : هنا و ٩ : ٦٤ و ٨٦ و ١٢٤ و ١٢٧ - ١٠ : ٣٨ - ٢٤ : ١ - ٤٧ : ٢٠ - ١١ : ١٣ - وعامة الدلالة فيها أن القرآن أنزل سوراً ، الا طوائف من آياته .

(٢) راجع الى تفسير الآية في سورة القيامة ج ٢٩ : ٢٨٠ - ٢٨٤ .

فسورة من القرآن وإن كانت أقله كالكوثر ، تتحدى الجن والإنس في الدهر كله ، لا ردحاً من الزمن وجماعة خاصة ، فالتحدي يعم الزمن وأهله : « ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » أن يأتوا بمثله بشرياً أم إلهياً ، فإن الله لم يكلم أنبياءه في سائر كتابات الوحي كما كالم محمدأ في القرآن ، رمزاً لخلوده ، وهيمنة له على وحي الأرض والسماء كله ، وسبقه له في كافة ميادين السباق ، بل ولا سباق معه فيها إذ لا رفاق ! .

فإنه ليس عبارات يحاولون محاكاتها ، بل هو كسائر ما يبدعه الله من آيات معجزات - وأعلى منها كلها - يعجز المخلوق من صياغته وصنعه ، فهو أمر من الله كما الروح من أمره ، لا يدرك الخلق سره مهما ادركوا من معناه .

انه آية إلهية يدل بنفسه على نفسه دون شهود آخرين : « لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزل بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً » (٤ : ١٦٦) فلا تعني شهادة الله بما أنزل إلا شهادة كلام الله أنه منه دون سواء حيث : « أنزله بعلمه » : فمعالم علم الله فيه باهرة : علماً في كافة الحقول أدناها صياغة الالفاظ فصاحة وبلاغة ، وأعلاها العلوم الإلهية التي لن تدرك إلا بالوحي وبينها متوسطات .

فالبشر الذي يعرف كلام البشر بوسمته ووصمته ، يعرف الوسمة الإلهية دون أية وصمة في القرآن ، لحد لا يستطيع وحيدها في الكلام ان يعبر عنه إلا انه « يؤثر » : يبقى مدى الدهر دون معارضة ، وان افترى عليه : « أنه سحر » تناقضاً فاضحاً واضحاً^(١) .

(١) راجع تفسير الآية ج ٢٩ ص ٢٤٦ - ٢٥٠

القرآن يتحدى في كافة الحقول :

١ - فصاحة العبارة وبلاغة التعبير وهي أبسط تحدياته وأسهل معجزاته مع القمة العليا في صياغته ونظامه وتركيبه وانسجامه ، أما لو صرفت الأنظار من مبانيه إلى أسرارهِ ومعانيهِ ، فهناك تنقطع الإشارات وتُحيا العبر وتموت العبارات ، حيث تُحار دونها العقول والنفوس ، وتخضع الرقاب وتُطأطأ الرؤوس ، فانها هبة الملكوت ، وهيبة الجبروت ، هناك الفزة والهزة ، والعظمة والعزة ، والنفائس والبزة ..

لقد كانت بلدة القرآن أملك البلاد لأساطين الفصحاء البلغاء ، وزمنه أبهج الأزمنة بمهرة الكلام ، وقد شق عليهم ظهور القمة المتفوقة في الفصاحة والبلاغة غاية الشقرة حتى تخاوصوا بحماليق الخنق إليه ، واعترفوا بعجزهم في أولى خطوة وأقصرها اعجازاً وهي قشرها فضلاً عن لبها فعاد لبيدهم بنكرانه بليداً ، ولبيدهم بإيمانه لبيداً ، وشيبتهم وليداً ، وقائمهم حصيذاً ، وعالمهم أبا جهل ، وسهيلهم على السهل ، وعتبتهم أعتاهم ، ويوليههم أخذهم وأخزاهم ، وعبد شمسهم آفل ، ونابتهم خامل ، وحي أخطبهم ميتاً ، وهشامهم مخزوماً ، ومخزومهم مهشوماً ، وسراهم أسارى ، وكبارهم من الصغار صغاراً ، قد سمو جباههم بنار العار والعار ورسوموا على محاسنهم وسم السوء بالذل والصغار ، وجعلت كلماته في اعناقهم اغلالاً فظلوا لها خاضعين ، وطاشت ألبابهم فقالوا : ان هذا الا سحرٌ مبین^(١) .

تحداهم القرآن فيما يعرفون من جانب اللفظ دون جناب المعنى ، به

(١) قسم من هذه العبارات ملتقطات من كتاب الدين والإسلام للإمام محمد حسين آل كاشف الغطاء .

كله فعجزوا ، ثم بعشر سور فعجزوا ، ثم بسورة فكذلك الأمر ، فضلاً عما تحداهم في سائر الحقول ، ولكنهم التجأوا الى مفاوضة الحقوف عن معارضة الحروف ، وعقلوا الألسنة والعقول ، ورضوا بكلم الجراج عن الكليم الفصاح^(١).

فمعجزة القرآن في سائر الحقول يفوقها تفوق المعنى على اللفظ، والعقول على الأجسام، فما اللفظ إلا أداة للتعبير ، وهو فيها ايضاً بالغ قمة الاعجاز فضلاً عما سواها .

كما وأن معجزة الفصاحة والبلاغة قد تخص أهلها، وفي خصوص العربية، والقرآن يتحدى العالمين دون خصوص العرب العرباء الفصحاء البلغاء ، فالتحدي شامل كافة الحقول المتسابقة ألفاظاً ومعاني وحقائق .

فرغم ما تجدد في كلام غير الله - أياً كان - : القمم والسفوح - التوافق والتعثر - القوة والضعف - التحليق والهبوط - الرفقة والثقل - الإشراق والإنطفاء، وأمثالها من سمات الاختلاف والتغير والنقصان والملل والكلل ، لا تجدد شيئاً من ذلك في القرآن ، وفيه من صريح الحق ، والبعد عن الكذب والخيال، ما يناحر مظاهر الفصاحة والبلاغة المرسومة !

فالفصاحة ركنها في وصف خيالات بعيدة عن الواقع تجاوب الآمال الشاسعة، والقرآن كله حق وبيان الواقع ! ومع ذلك فانه في أعلى قمم الفصاحة !

ومن عواملها الكذب ، فاي شاعر تركه الى الصدق نزل شعره كما نزل

(١) . . . نفس المصدر السابق .

سورة البقرة ثمانية - ٢٣ - ٢٤ ٢٣٣

شعر لبید بن ربیعۃ وحسان بن ثابت لما أسلما ، والقرآن كله صدق !
وفصاحة الكلام - ولا سيما الطويل المتجول في مختلف الحقول - لا تتفق
إلا في بعض دون بعض ، والقرآن كله في قمة الفصاحة !
ومن طبيعة الكلام مهما كان فصيحاً أنه يبلى على التكرار والترداد ،
والقرآن لا يُبلى على ترداده ، بل يزهر ويبرأ أكثر وأكثر .
ومنها وحتى في الأشعار مختصة ببعض المجالات دون أخرى ، والقرآن
زاهر في كافة المجالات !

ومن نضارة الكلام وطراوته أن ينحو منحى الزهوات والشهوات
والوعود الفارغة ، والقرآن مقتصر على إيجاب عبادات ، وتحريم حرمت
والحث على ترك مشتهيات ، وأسر أهواء ، وسلب حريات ، وهو مع ذلك في
أرفع قمم الفصاحة والنضارة .

فالتعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية وحتى في موسيقاه ، إنه
طريق عاقم غير مسلوک ، حتى ولأنبياء الله ، فكيف بسائر الناس مهما بلغوا
مبالغ الأدب في التعبير ، فهي طريقة خاصة بالقرآن نفسه ، لا تضاهيها
وحتى سائر كتابات السَّاء ، فإن الله ما أراد في سائر كلامه ما اراده في
القرآن من صيغة معجزة خالدة ، ولكي تتم حجته فيه ، ويطمّ ربوبية
العبارة والتعبير على مرّ الدهور .

فمن ذا الذي يجيء على محاولة أو خيالها واحتياها لمعارضة القرآن ،
وحتى في هذه الناحية التعبيرية ، اللهم إلا من سامح عن عقله ، وغره
غروره وفضح نفسه ، كمسيلمة الكذاب حيث عارض سورة الفيل : بتقوله
الخواء الخيلاء : « الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وبيل وخرطوم
طويل » كما ويخاطب سجاح النبية : « فنولجه فيكن إيلاجاً ونخرجه منكن

اخراجاً « وثالثهما طائش من حزب الثالث معارضاً سورة الحمد : « الحمد للرحمن . رب الأكوان . الملك الديان . لك العبادة وبك المستعان . إهدنا صراط الايمان » وامثالها من تقولات وقفت لحدها دون تكرار، حيث لم تجلب إلا الفصاحة والاختجاج ! بديل الفصاحة او الاختلاج .

وإن لاسلوب القرآن ميزته الإلهية الخاصة تمتاز آياته عن غيرها في أي كلام ، وحق أفصح من نطق بالضاد النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وصنوه علي (عليه السلام) حيث يظهر ويزهو كالشمس في رابعة النهار .

«وماتصدي لمعارضته لفظياً - منذ نزوله حتى الآن - الا مأفون الرأي مايق العقل ، وإن تعجب فعجب من خطيب مصقع وفارس لا يُقمع ، لما تصدى للقرآن أفحم وتبلد، وأبكم وتلدد .

فهذا مسيلمة وسجاح واضراهم من الاولين والمتنبى والمعري وامثالهم من الآخرين ، كل بزعمه أن بآيات تضحك منها الثكلاء وتبكي حروف الهجاء .

فيا من فجرُوا اليوم من العربية جداول وأنهاراً ، وجلوا من خرايدها ثيبات وإبكاراً ، واجروا المحيط بأقرب الموارد من قاموس لغاتها ، وجاءوا بالوسيط والبسيط في مجمع البحرين من حريري مقاماتها ، تعالوا تعالوا بمن يساندكم متسابقين فاتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين .

القرآن في اقل تحدياته يتحدى بسورة وآية تشملها فيما تشمل « ان يأتوا بمثل هذا القرآن » ولكنهم قد يُتحدون بآية : « وقيل يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل

بعداً للقوم الظالمين « وليست هي عديمة النظائر او قليلتها ، حيث الآيات كلها آيات تعني انها دلالات ربانية في الفاظها ومعانيها ، فضع نظرك أني شئت من بيناته ، وسرّح فكرك في آية آية من محكماته ، تجدها شقيقة لتلك « كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » !

يا من يخلد بخلده معارضة القرآن مهما كدحت وسعيت واتعبت نفسك واعيت فقد تفحّمت يا خراشة على منيع سور ، وتهجمت يا فراشة على بركان نور ، فما أجراك يا هذه على أن تحترق ! وما أحراك إذاً أن تحترق ، وأن لك التسنّم او التسنّم لتسقي صعود تلك المزالق !^(١)

آية من القرآن ان كانت في رسالة كانت عينها ، ام في خطبة كانت وجهها وزينها ، ام في قصيدة فقلادة جيدها ، مهما كانت حافتها كلام النبي ، او حافتها كلام نبي !

وجملة من جملة ان افردتها بهرت ، وأن ضممتها في عقدها اعجزت وقهرت ، فهي على كمال إلفها بأخواتها ، وارتباطها ببلداتها ، تامة بنفسها ، قائمة بذاتها ، فهناك نصف الآية « . . قل من انزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها وتحفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا انتم ولا آباءكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » (٦ : ٩١) .

فهي برمتها كبعض اية جملة مستقلة ، ثم قل - يلعبون - مستقلة ، وبلا « يلعبون » ودون « في خوضهم » ودون « ثم ذرهم » كلها مستقلة ، استقلالات خمس في آية ! ان ضممتها الى اخواتها سطعت وان افردتها

(١) مما صنفاه وملقطات من الإمام كاشف الغطاء .

لذاتها برعت وشعّت ! متجلية ببهجة القدرة ، متحلية بخالص العزة ،
تجمع السلاسة الى الرصانة ، والسلامة الى المتانة ، ولا تحسبها آية او آيات
عدة ، فانها كلها او جلّها لو فتحت النظر واجليت البصر ، ففيها من
خمس وما زاد، الى عشر ويزيد ، فخذ عشراً من «حم . تنزيل الكتاب - ١ -
من الله - ٢ - العزيز - ٣ - الحكيم - ٤ - غافر الذنب - ٥ - وقابل التوب - ٦ -
شديد العقاب - ٧ - ذي الطول - ٨ - لا إله إلا هو - ٩ - اليه
المصير - ١٠ - ! تصلح كل واحدة عنواناً لخطبة ، ومداراً للبحث كراساً ذا
الطول بقصر ام طول !

ثم ترى القرآن في اعلى قمم الفصاحة والبلاغة لا في حقل واحد ،
رغم احوال البلغاء المختلفة غير المؤتلفة ، فامرؤ القيس بليغ اذا ركب ،
والنابغة اذا رهب ، والأعشى اذا طرب ، وزهيراً اذا رغب ! والقرآن بليغ
حيثما كان !

أيها المدعي معارضة الفصاحة القرآنية او بلاغته ، الذين عارضوا
القرآن وهم يعيشون وحيه كانوا اسعد منك في البلاغة ، واروى في العربية
زنداً واكثر مراساً واغوى أمراساً فانهم اصلها الاصيل ، ثم هم اشد على
القرآن عداوة واعمق نكاية ، إذ حادهم وتحداهم ، عاب آلتهم وسفّه
احلامهم ، ونكس اعلامهم ، وكسر اصنامهم ، وفعل بهم الافاعيل
وجاءهم بالاهويل ، وهم على ما هم لما سمعوه طاشت البابهم وتقطعت
اسبابهم ومزقوا معلقاتهم ، وافتضح من عارضه لحد انكرها وحملها على
غيره .

٢ - عدم الاختلاف فيه :

«أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً

كثيراً» (٤ : ٨٢) .

فالتدبر في مجموعة هو جعل بعضه دبر بعض بُغية إنتاج معاني جمعية وجامعة اضافة الى مفردات ، فالتدبر في القرآن حقه باستنطاق بعضه ببعض وتدليل بعضه على بعض يسفر عن كمال التلائم والوثام بين آياته البيّنات دون أي اختلاف ، لا في آياته مع بعض، ولا فيه مع الواقع، ولا متطلبات الفطرة والحياة، ولا في الفاظه فصاحة وبلاغة ووزناً، فابواب الاختلاف السبعة الجهنمية مغلقة على القرآن ! حيث التعبير فيه منقطع النظير لا يتفاوت فصاحة وبلاغة ووزناً ولا معنى، رغم تفاوت الحالات في نزوله نجوماً سوراً وآيات، في العهد المكي المغلوب المضائق ، والعهد المدني الغالب المضائق ، في الحرب وفي الصلح ، وفي متضادة الحالات، نرى آياته البيّنات في تناسق مطلق شامل كامل ، في كافة المجالات التي جالت فيها ، وكافة الحقول التي قالت كلمتها فيها .

فظاهرة عدم الاختلاف ، والبيّنات ، هي الطابع الإلهية لكلامه المجيد ، الذي لا يوجد في أي كلام من أي متكلم ، حيث الخلق أيّا كان متحول متكامل دون أي ثبات أو وقفة ، نازلاً وصاعداً أم ماذا ، فحالة التغير باستمرار، لزوم الكائنات غير الإلهية مهما كانت في قسم الكمال كأنبياء الله !

فالإختلاف المستمر الدائم من حال الى حال ، من باطل الى صحيح وإلى أصح ، من مستوى الى مستوى ، ولا سيما في رده طائل من الزمن ، هذا الاختلاف هو لزوم الكائن غير الإلهي أيّاً كان ، حيث لا يحيطون بكل شيء علماً، وهو بكل شيء محيط ، فترى من عباقرة الفكر في مختلف الحقول العلمية من يؤلفون كتباً علمية طوال زمن ، فيها اختلافات حسب الحالات والبيّنات التي يعيشونها ، والتجربيات والتفكيرات المتواصلة التي يعملونها ،

ثم وأخيراً وبعد كافة التدقيقات تجدها وفيها اختلافات او اختلاقات !
ولكننا القرآن النازل طوال ثلاث وعشرين سنة في تضاد الحالات وتناقضاتها
لا نجد فيه أي اختلاف « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً
كثيراً » لا قليلاً ، حيث القلة القليلة من العلم ينتج الإختلاف الكثير ،
وليس في القرآن أي اختلاف ، من كثير ولا قليل .

لا اختلافاً في فصاحة العبارة وبلاغة التعبير ، فان آية منسقة على نسق
واحد لا اختلاف فيه ولا اختلال ، ولا فيها يحمله من معاني في مختلف
الحقول ، مما تراه واضحاً عندما تتدبر اعمال اديب او مفكر او فنان او
سياسي او اقتصادي او اخلاقي او اجتماعي او عسكري او أيّاً كان .

ولكننا القرآن مع ما يحمل من منهج التنظيم للنشاط الإنساني فرادى
ومجتمعات ، بشقّ الملابس التي تطراً في الحياة ، ومنهج التقويم للإدراك
البشري ، ومنهج التنسيق بين الإنسان جملة وتفصيلاً في جميع أجياله
ومستوياته واحواله ، وبين هذا الكون الذي يعيش فيه ، ثم بين دنياه
وأخراه وثم وثم ... نجد فيها كلها ثلاثاً ووثاماً تاماً دون أي اختلاف .

فما من مذهب بشري او نظرية إلّا وهو يحمل الطابع المتفاوت ، جزئية
النظرية والرؤية ، والتاثر الوقي بالمشاكل الوقتية ، وعدم الحيلة بالتناقضات
التي تؤدي الى الإصطدام بين مكوناتها ، والى مثاليّ المثات من التضادات
الناشئة من طبيعة الكائن المحدود غير الإلهي « فما أونيم من العلم إلّا
قليلاً » .

إن القرآن منهج حياة، متوفرة فيه نوااميس البشرية في كافة أحوالها
وأطوارها ، يعالج النفس المفردة، والأفراد المتشابكة ، والمجتمعات الشائكة
المتعاركة ، كل ذلك بالقوانين الملائمة للفترة ، والواقع ، ومتطلبات الحياة

الراقية ، يعالجها كلها علاجاً عاجلاً وآجلاً ، متناسق الخطوات في كافة الجهات ، في الوقت الواحد ، فلا يغيب عن حسابه احتمالة من الاحتمالات ، ولا حالة من الحالات الكثيرة المتشابهة ، لأن مشرع هذه القوانين هو خالق الفطر والكائنات .

وأما النظم غير الإلهية فهي على قصورها الذاتي ، متأثرة بملاسات الحياة ، وقاصرة عن الحيلة بجميع الاحتمالات ، فقد تعالج مشكلة فردية وتخترق مشكلة اجتماعية أم فردية أخرى .

ومهما ادعى المدعون ان في القرآن تناقضات واختلافات فهي تظهر بعد التدبر في آياته أنها ملائمت متوافقات ، ولحد الآن ما ثبت اي اختلاف او غلطة لفظية فضلاً عما سواها ، رغم ما يوجد في المهددين آلاف الاغلاط والمناقضات ، مما تؤكد ان التوراة والانجيل الحاليين تأثرا بكثير من الخرافات والأساطير^(١) .

فمن المستحيل عقلياً وواقعياً كون القرآن من عند غير الله ، وطابع الربانية ظاهر في مظاهر عدم الاختلاف فيه : آياته مع بعض لفظياً ومعنوياً ، ومع الواقع الكوني والتطلب الفطري والعقلي والفكري ، ومع الحاجيات الحيوية التي يعيشها الإنسان أيًا كان !

لذلك ترى جملاته تستمت بآيات : « تلك آيت الله نتلوها عليك بالحق »

(١) يقول المسيحي الفاضل « يا ركز » ان في الكتب المقدسة ثلاثون الف غلط ، والقسيس « ميل » و « كريستاج » يهيانه الى نيف ومائة الف غلط ، و « شولز » ان اغلاطها لا تحصى ، وفي دائرة المعارف البريطانية والفرنسية انها زهاء مليون غلط وكما يعترف بهذه الاغلاط والاختلافات في الكتب المقدسة كثيرون مثل : اكهارن - كيسر - هيس - ديوت - ويز - فرش (راجع كتابنا : المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية) .

(٢ : ٢٥٢) : تدليلاً أنها كلها تحمل سمات إلهية ، وبصمات ربوبية ، مكتوبة بقلم الوحي الأعلى ، خارجة عن وصمات غير الله : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

﴿ ٣ - بعلم الغيب ومطلق العلم : ﴾

نجد بيطيات كثير من آياته البينات تحديات بعلم الغيب ، ومطلق العلم ، الذين لا يحصلان بالوسائل غير الإلهية ، اللهم إلا بالوحي .

إنه يتحدى بالعلم جملة : « ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » (٦ : ٥٩) « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » (١٦ : ٨٩) « ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم » .

وكما يتحدى بالعلم تفصيلاً ، ونموذجاً واحداً من تحدي التفصيل : « ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير » (٤٢ : ٢٩) حيث تذكرنا بملاحم علمية غيبية ثلاث :

١ - إن في السماوات دواباً كما في الأرض : « وما بث فيهما من دابة » ولم يصل العلم - الغازي للفضاء - حتى الآن الى التأكد من وجود جو للحياة او نباتات في بعض الكرات ، فضلاً عن دواب هناك كما في الأرض ! .

٢ - « وهو على جمعهم » مما تبرهن به « هم » وهي لذوي العقول ، ان من دواب السماوات ذوي العقول كما للأرض ، مهما لم نعرف اسمائهم وسماتهم ، كيف ونحن نجهل وجود أية حياة في الكرات .

٣ - ان عقلاء الأرض والسماوات - وعُل سائر دوابها ايضاً - سوف يجتمعان ، حيث الجمع هنا : « وهو على جمعهم اذا يشاء قدير » لا يعني يوم الجمع وان شمله ، فانه الجمع بعد البث ، فكما الله بثهما فيها بعد خلقهما ، كذلك هو جامعهما « اذا يشاء » : في مستقبل نجهله ! - .

وهل المواكب العلمية الغازية للفضاء وصلت حتى الآن الى زاوية من هذا المثلث الغيب البارع الذي تحمله آية واحدة من القرآن ؟ ! .

وسوف تمر عليك المثلثات المثآت من هذه الآيات العلمية ، وقتية او زمنية ام ماذا ، بطيات آياتها ، التي تحمل فيما تحمل : وحيتها - ونبوة نبیها - وصدق أنباءها واقعيأ ، كما وسائر الآيات تحمل الأولین دوماً ، كما وتحمل الثالثة لمن أمعن .

وانا كطالب صغير من طلاب علوم القرآن أتحدى جميع العالمين بما يتحداهم القرآن ان يأتوا بحديث مثله ، وإن في سورة او آية كاملة الدلالة ، او ان يأتوا منه ما يعارض العقل والفطرة او قانوناً علمياً ثابتاً او اياً من الثابتات آفاقية او أنفسية .. ارضية او سماوية ..

وأنا على يقين أنهم « لن يفعلوا » كما « لم يفعلوا » « ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » تظاهراً في اي حقل من حقوله لفظية ومعنوية ، ولو كان لبأن ممن يجذون السير في معارضته ، ويتواكبون في مخالفته .

لذلك تجد القرآن . يعتبر نفسه المعجزة الوحيدة الخالدة الكافية ، محلقاً على كافة صنوف المعجزات في كافة النبوات ، فانها كانت كلها وقتية عابرة ، والقرآن زمنية شاملة تبقى ما بقي الدهر ، زاهرة مشرقة في رحاب تقدم العقل والعلم اكثر واكثر ، وعلى حدّ تعبير تلميذ الامام علي امير المؤمنين (عليه لسلام) ابن عباس : « إن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن » !

ويا لها من معجزة تمشي مع الزمن إماماً أمام العقل والعلم يقودهما الى اعماق الغيب ليهدي أتباعه للتي هي أقوم !

فطلما طالبوا هذا النبي ان يأتي بما أوتي رسل الله ، رغم ذلك تجده دوماً

يوجههم بالقرآن لأنه أدل وافضل مما اوتوا، وفيه الكفاية حجة للعقل والعلم دون الحس والبصر فقط ، كما في الآيات المحسوسة من ذي قبل ، التي تعودوا بها طوال الرسالات ، ثم فوجئوا بآية وحيدة منقطعة النظير هي القرآن : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون » (٢٩ : ٥٢) : فشهادة الله في كتابه النازل ويتلى عليهم كافية ، وأكفى من شهادته في الآيات الحسية العابرة التي تُحدُّ بحدود رسالاتها ، ولكن هذه الرسالة الأخيرة لا حدَّ لها حتى يكتفى فيها بآيات محدودة .

تري لو ان محمداً اوتي ما اوتي رسل الله من آيات وقتية مع رسالته الخالدة ، فكيف كان بالإمكان أن يؤمن به العالمون بعد موته وانقضاء معجزاته ، وكما لا يمكن عقلياً الإيمان بالرسالات الماضية ، لا على ضوء كتاباتها إذ معجزة فيها ، ولا معجزاتها التي ماتت بموت أنبياءها ، وغبرت بما قُبروا ، اللهم إلا بما يشهد القرآن المعجز بذاته ، بآياته وبيناته .

فعلى المرسل إليهم أن يطالبوا رسولهم بآية تدل ، لا كما يهون فـ « لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض » ولكنها المبطلون كانوا ولا يزالون يطالبون صاحب هذه الرسالة بمثل ما أوتي رسل الله من قبل : « وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله أعلم حيث يجعل رسالته . . » (٦ : ١٢٤) « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون . قل فاتوا بكتاب من عند الله هو

أهدى منها أتبعه إن كنتم صادقين» (٢٨ : ٤٩) .

فالآيات الدالة على النبوات ، منها آيات قد تكذب بتهمة السحر لأنها بصرية ، ولكنها القرآن آية بصرية : « هذا بصائر للناس » وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً» (١٧ : ٥٩) (١) آيات تخويفية وقتية قد يكذب بها ، لذلك بدلناها بآية عقلية علمية زمنية لا تقبل التكذيب إلا من سامح عن عقله أو علمه .

فهل بالامكان تكذيب آية القرآن ومعجزته وهي تعيش الطول التاريخي والعرض الجغرافي دون فناء وبلاء ، فاقنا تزداد على تقدم العلم نوراً وبهوراً !

لذلك لا ترى لصاحب هذه الرسالة آيات معجزات كمثل التي لرسول الله ، اللهم إلا هامشية عابرة لم تؤصل ، ولذلك لم نسجل في آية القرآن إلا شذر كشق القمر والمعراج ، ولهما ما لهما من ميزات على سائر الآيات

(١) يذكر من الاسباب في عدم نزول آيات تخويفية عينية في الآيات التالية : السورة ٦ : ٤ - ٢٥ - ٣٥ - ٣٧ - ١٠٩ - ١٢٤ و ٧ : ١٣٢ - ١٤٦ - ٢٠٣ و ١٠ : ٢٠ - ٩٧ - ١٠١ و ١٣ : ٧ - ٢٧ - ٣٨ و ١٦ : ١٠١ و ٢٠ : ١٣٣ و ٢١ : ٥ و ٢٦ : ١٥٤ و ٢٩ : ٥٠ و ٣٠ : ٥٨ و ٣٦ : ٤٦ و ٣٧ : ١٤ و ٤٠ : ٧٨ و ٤٣ : ٤٨ و ٥٤ : ٢ . ومنها ما تذكر سبباً آخر في عدم نزول هذه الآيات وهو فوضى اتباع الناس فيها يهوونه من آيات ثم يكذبونها .

ثم وآيات تثبت نزول آيات النبوة على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هي ٣٠ : ٥٨ و ٦ : ١٢٤ و ٣٦ : ٤٦ و ٣٧ : ١٤ و ٥٤ : ٢ .

وحاصل جمع الآيات حول آيات النبوة المحمدية انها تركز على آية القرآن الخالدة كاصل ثم تذكر بصورة عامة او خاصة آيات هامشية لهذه الرسالة ، وتنفي أصالة الآيات الحسية الوقتية لها ولا سيما التي كذب بها الأولون ، والتي يهوونها ولا يصدقون .

البصرية كما تفصلها في طيات آياتها .

وإذا كانت سائر الآيات تدل على نبوات أصحابها وما يدعون من وحي السماء ، شهادات منفصلة عن تلكم النبوات ، فأية القرآن شهادة ذاتية على وحيها ونبوة نبيها دون انفصال ، إذا فهي أدل وأقوى من سائر الآيات ، دلالة ذاتية وخلوداً صارباً في اعماق الزمن .

فلم يكن المرسل اليهم في سائر النبوات يطالبون أصحابها بتلكم الآيات إلاّ تدليلاً لاثبات نبواتهم ، دلالة النظير على نظيره ، حيث الوحي آية غير ملموسة ، فلتدل عليه آية نظيرة لها في كونها فعل الله مهما كانت - ولا بد - ملموسة .

ولكنها القرآن آية هذه النبوة ، وهي نفس الوحي النبوة ، آية تُقرء وتُسمع وتُفهم ، تدل بنفسها على آية الوحي النبوة ، وعلى صدق مدعيها ، كما تتوسط بين النبوة والرسالة حجة تثبتها : « يس . والقرآن الحكيم . انك لمن المرسلين » حيث يستدل بحكمة القرآن في صيغة القسم - التي كلها في القرآن برهان - يستدل بها لإثبات دعوى سابقة : « يس : يا سامعاً للوحي ! وهو النبوة - وأخرى لاحقة : « انك لمن المرسلين » : الرسالة التي هي بعد النبوة النبوة^(١) .

إذا فالقول : إن المعجزات انما هي للعموم الذين عقولهم في عيونهم ، دون الخواص المميزين الحق عن الباطل ، إنه هراء - حيث المعجزات انما تثبت النبوات ، لا الأحكام الرسالية التي يأتي بها رسل الله ،

(١) حيث النبوة وهي خبر الوحي تتقدم على الرسالة ، ولكنها النبوة وهي رفعة الرسالة هي بعد الرسالة كما نبحت عنها في آياتها ، ونبحث عن الوحي والنبوة والرسالة مفصلة في مناسباتها .

اذ لا صلة بينها وبين تلكم الأحكام ، وانما هي آيات النبوات : « ورسولاً الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربي أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » (٣ : ٤٩) .

فتراها تعتبر هذه الآيات المعجزات آية واحدة لوحدة الدلالة والاتجاه ، واخيراً إن هذه الآية هي آية الرسالة ، وليست أصيلة كالقرآن ، وانما هي وسيلة لاثبات نبوة المسيح ، فما يقول - إذاً - عن الله حق لا مربة فيه ، دون أن تثبت أحكاماً مسيحية ، إذ لا صلة بينهما .

ثم آية القرآن القاطعة الخالدة ، الذاتية ، لا تكتفي بنفسها في اثبات ما يحملها من أحكام عقلية ام ماذا - اللهم إلا كونها وحياً - فتراها إذ تستعرض مواضع أحكامية أم سواها ، هي بحاجة الى براهين ، تراها مصحوبة ببراهين ترى كما تناسلها وتشبهها بما لا فوق لها ، وكما تراها في طيات آياتها هنا في « الفرقان » !

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

انه ليس الكافرون كلهم وقود النار وان كانوا كلهم بها يضرمون وفيها يتقدون ، حيث الوقود الصلاء هو الذي تنقد به النار : « قوا انفسكم واهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد » (٦٦ : ٦) وهؤلاء الناس كفار خصوص كالمكذبين بالله ورسالاته لا كل من يستحقون النار : « ان الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار . كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا . . » (٣ : ١١) كما وتشهد آيات صلي الجحيم : « فأندرتكم ناراً تلظى . لا يصلها إلا الأشقى . الذي كذب وتولى » (٩٢ : ١٥) إذاً

فَصَلَّيْهَا مَخْصُوصً بِالْأَشْقَى، طَالَمَا الشَّقِيُّ يَدْخُلُهَا، وَلَوْ كَانَ صَلِّيْهَا - فَقَطْ -
دَخُولُهَا لَعَمَّ الشَّقِيُّ وَالْأَشْقَى دُونَ اخْتِصَاصٍ بِالْأَشْقَى !

فَالصَّلَاةُ هِيَ الْإِيقَادُ كَمَا الْإِصْطِلَاءُ اسْتِيقَادٌ : « أَوْ آتِيَكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسَ
لِعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » (٢٧ : ٧) وَكَمَا الصَّلَاةُ هِيَ الْوَقُودُ .

وَتَرَى مَا هِيَ الْحِجَارَةُ الْقَرِينَةُ لِلنَّاسِ الْوَقُودُ الصَّلَاةُ ؟ عَلَّهَا الْأَصْنَامُ
الْأَحْجَارُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ
جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » وَلَكِنَّمَا الْأَصْنَامُ لَا تَخْتَصُ بِالصَّنُوعَةِ مِنَ الْأَحْجَارِ ،
فَعَلَّهَا هِيَ وَحِجَارَةٌ أُخْرَى تَصْلَحُ لِلصَّلَاةِ كَأَقْوَى الْوَقُودِ وَأَبْقَاهَا مِثْلُ
« حِجْرَةِ الْكَبْرِيتِ » (١)

وَتَرَى إِذَا كَانَ النَّاسُ مِنْ وَقُودِ النَّارِ وَهُمْ بَعْدُ لَمْ يَدْخُلُوهَا ، فَكَيْفَ إِذَا
« أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » ؟ عَلَّ الْوَقُودِ الْحِجَارَةَ - غَيْرَ أَصْنَامِهَا - يَكْفِي الْآنَ
لِإِعْدَادِ النَّارِ ، أَمْ إِنْ الْإِعْدَادُ حَالَةٌ تَرْقُبُ لَا فَعْلِيَّةَ لَهُ ، فَاتَمَّا يَضْرِمُ النَّارَ
بِمَخْتَلَفِ وَقُودِهَا يَوْمَ يَدْخُلُونَهَا

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِأَنَّ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا

(١) تفسير البرهان ١ : ٦٩ عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) عن جده علي بن
الحسين (عليه السلام) في حديث طويل حول تفسير هذه الآيات « وَقُودُهَا وَحَطْبُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ حِجَارَةُ الْكَبْرِيتِ أَشَدُّ الْأَشْيَاءِ حَرًّا ... » .

وفي الدر المنثور ١ : ٣٦ - أخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن مردويه والبيهقي في الشعب
عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أَوْقَدْتُ النَّارَ أَلْفَ سَنَةٍ
حَتَّى احْمَرَّتْ ثُمَّ أَوْقَدْتُ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ثُمَّ أَوْقَدْتُ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ
فَفِي سَوْدَاءٍ مَظْلَمَةٍ، وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ أَنَسٍ عَنْهُ (صلى الله عليه وآله وسلم) مِثْلُهُ بِإِضَافَةٍ « لَا
يُطْفَأُ لَهَا » .

بِهِ مَتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ .

بشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وترى أليس عمل الصالحات من الإيمان او لزامه فكيف يقابله ؟ علّه لان الإيمان في الاكثر ينحو منحى القلب ولا يستحق دخول الجنات إلا من أضاف عمل الإيمان الى عقيدة الإيمان .

ثم الجنات هي البساتين الملتفة الأشجار كسقف أخضر « تجري من تحتها الأنهار » لا تحت الأرض، وإنما تحت جنات الأشجار التي تجر ما تحتها من أرض^(١)، فالجنات هي مَظَلَّات شجرية، نوحى بجمعيتها أنها مقسمة بين اهليها ، لكل جنة فلكل جنات .

وترى ما « هذا الذي رزقنا من قبل » ؟ هل هي الأرزاق الدنيوية التي رزقوها قبل الجنة ففيها يؤتون أشباهها ؟ ولافضل لما في الدنيا حتى تكون أشباهها في الجنة فضلاً لهم فيها ! و « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » لم يُرزقوا من الدنيا إلا قليلاً ، إذ اغتصبها أكثرها أهل الدنيا ، فهل يُرزقون في الجنة - فقط - أشباه هذه القلة القليلة !

ام هي من التي رزقوها في الجنة قبل هذا الرزق ؟ و « كلّمّا » تشمل مع سائر المرات المرة الاولى وليس قبلها جنة او رزقها ! .

علّ « من قبل » هي الأرزاق التي رزقوها في جنة البرزخ ، ام هي

(١) الدر المنثور ١ : ٣٦ - اخرج جماعة عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : انهار الجنة تفجر من تحت جبال مسك .
وفيه عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلكم تظنون أن انهار الجنة اخدود في الارض لا والله انها لسائحة على وجه الارض حافتاه خيام اللؤلؤ وطينها المسك الأذفر .

الأعمال التي رزقوها يوم الدنيا فيؤتون في الأخرى ثمراتها « ووجدوا ما عملوا حاضراً » « وأتوا به متشابهاً » تشابه الأعمال وثمراتها، وفيها مزيد بفضل الله .

أم إنها ما رزقوا من قبل في الدنيا مهما حرموا عنها فيها، فالخارمون هنا محرومون هناك، والمؤمنون المحرومون مرزوقون هناك : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (٧ : ٣٢) بعدما كانت خالصة يوم الدنيا ، وهم في الأكثر كانوا محرومين عنها ، فلما وجدوا هناك من كل الثمرات فرحوا قائلين : « هذا الذي رزقنا من قبل » وأخبرناه هناك .

وهم من هذا المثلث من الرزق السابق ، يجدون له متشابهاً : للذي رزقوه من قبل من حيث الشاكلة لرزق الدنيا ، وفي مرتبة أعلى عن جنة البرزخ، جزاءً وفاقاً لما عملوها من صالحات وهناك مزيد .

فرزق الجنة والدنيا لا يتشابهان إلا في الإسم وفي أصل المنظر ، وأما في نضرتة وطعومتة فـ « لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وعلّ « في طعام العرس مثقال من ربح الجنة »^(١).

والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يصف الجنة ببعض شروطها وأشراتها : « من خالف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه »^(٢). هذا ، كما ويجدون متشابهاً مع بعض ، فثمار الجنة متشابهة اللذة

(١) الدر المنثور : ١ : ٣٨ - أخرجه الديلمي عن عمر قال سمعت رسول الله (صلى

الله عليه وآله وسلم) يقول : ...

(٢) الدر المنثور : ١ : ٣٧ أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن أبي هريرة =

والطراوة والنضارة ، مهما اختلفت الواناً وطعوماً ، فهذا الاختلاف وذلك التشابه مرغوبان ، حيث اختلاف الأكل دوماً والتشابه أحياناً وعدمه أخرى في الألوان والأشكال ، كل ذلك رحمة ونعماء هي وكما هنا : وهو الذي انشا جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً اكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر . . . » (٦ : ١٤١) .

إن في هذا التشابه الظاهري والتنوع الواقعي بين اثمار الجنة والدنيا مفاجأة لطيفة من ناحية ، واستئناس بالمألوف من أخرى ، كدعابة دائبة تكشف في كل مرة عن جديد وجديد ، رزقوا اشباهها في اشباحها يوم الدنيا وهم كانوا - على الاكثر - محرومين منها^(١) .

قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . وفيه واخرج جماعة عن اسامة بن زيد قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : الاهل مشمر للجنة فان الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلأل وزينة تزهر وقصر مشيد ونهر مطرد وثمره نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ومقام في ابد في فاكهة دار سليمة وفاكهة خضرة وخيرة ونعمه في محلة عالية بهية . قالوا : نعم يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ! قال قولوا : انشاء الله قال القوم : إن شاء الله .

وفيه عن ابي هريرة قال قلنا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! حدثنا عن الجنة ما بناؤها ، قال : لبنة من ذهب ولبنة من فضة وحصاءها اللؤلؤ والياقوت وملاطها المسك وترابها الزعفران من يدخلها ينعم لا يياس ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه .

وفيه عن ابي سعيد الخدري عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لَشَبْرٌ في الجنة خير من الدنيا وما فيها .

وفيه عن سعد بن ابي وقاص عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ولو ان رجلاً من اهل الجنة اطلع فبدا أساوره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم .

(١) تفسير البرهان ١ : ٦٩ - الامام الحسن العسكري عن جده علي بن الحسين (عليه السلام) في حديث طويل حول هذه الآيات : « بشرهم ان لهم جنات : بساتين - =

وكما يجدون فيها يُرزقون تشابهاً لما رزقوا من صالحات هي ثمرات الايمان يوم الدنيا ، فالיום يُرزقونها جزاءً وفاقاً ، مما تزيدهم رضى سابعة أنها مما قدمت أيديهم جزاءً ومزيداً من فضل الله تعالى .

وحيث إن لأهل الجنة من كل الثمرات : « ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم » (٤٧ : ١٥) ولأن « فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين » فـ « أتوا به متشابهاً » لا يعني ما تحده الحياة الدنيا من ثمرات ، بل هم في مثلث الثمرات غير المحدودات ولا المحددات ، بمختلف الالوان والشهيات والطعومات .

« ولهم فيها ازواج مطهرة » للإسباغ غريزة الجنس بكل نزاهة وطهارة ، بجانب ما لهم من ثمرات في جنات ، وتري أن هناك للرجال ازواجاً وليس للنساء ؟ اقول . « هم » في « لهم » هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات رجالاً ونساءً ، فلكل ازواج دون اختصاص بالرجال ، مهما لا تجد آية تصرح بما للنساء من أزواج كما للرجال هناك ازواج من الحور العين ومن ازواجهن المؤمنات : « وينقلب الى أهله مسروراً » (٨٤ : ٩) فإن ذلك

= تجري من تحتها الانهار : من تحت اشجارها ومساكنها « كلما رزقوا منها » من تلك الجنان من ثمرة من ثمارها رزقاً : طعاماً يؤتون به « قالوا هذا الذي رزقنا من قبل » في الدنيا فأسماه كاسماء ما في الدنيا من تفاح وسفرجل ورمان وكذا وكذا وان كان ما هناك مخالفاً لما في الدنيا فانه في غاية الطيب ، وانه لا يستحيل الى ما يستحيل اليه ثمار الدنيا من عذرة وسائر المكروهات ومن صفراء وسوداء ودم ، بل ما يتولد من ماكولهم إلا العرق الذي يجري من اعراضهم اطيب من رائحة المسك واتوا بذلك الرزق من الثمار من تلك البساتين متشابهاً بعضه بعضاً بانها خيار لارذل فيها وبان كل صنف منها في غاية الطيب واللذة ، ليس كثمار الدنيا التي بعضها في وبعضها متجاوز لحد النضج والادراك لحد الفساد من حموضة ومرارة وسائر ضرروب الكاره ، ومتشابهاً ايضاً متفقات الالوان مختلفات الطعوم » .

لا يعني حرمانهن لا سيما اذا متن باكرات وانما استحياء عن ذكرى شهوة النساء وإحياء لعفافهن ، وكما لا تجد هن ذكراً باسمائهن في القرآن ، اللهم إلا مريم (عليها السلام) ذوداً عنها ما مسوا من كرامتها .

ولأن « فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين » نتأكد أن هناك للنساء المؤمنات ما للرجال المؤمنين من مشتريات ، وشهوة الجنس تحتل القمة فلتكن هن كما لهم سواء .

إنهن سوف يتزوجن هناك برجال كما يشتهين ، برجالهن ان كانوا من اهل الجنة، او بسواهم إن متن باكرات ، ومن أجل واطرى من الحور العين ، فلهن منازل عند أزواجهن فوقهن^(١) وإن كن اقل عدداً^(٢) .

وحق إذا يُعنى من « لهم » الرجال فقط فـ « أزواج مطهرة » تشمل النساء المؤمنات ابكاراً وثيبات كما تشمل الحور العين .

و « مطهرة » تعني الطهارة بكل زواياها النسائية : مطهرات من الزنا ومن النظر الى غير رجالهن ؛ « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم

(١) في من « يحضره الفقيه قال الصادق (عليه السلام) : الخيرات الحسان من نساء اهل الدنيا ومن اجل من الحور العين، وفي روضة الكافي عنه (عليه السلام) قال : من صالحت المؤمنات العارقات ، اقول راجع آيات قاصرات الطرف والخيرات الحسان ومقصورات في الخيام من سورة « الرحمن » ج ٢٧ ص ٥١ . . .

(٢) الدر المنثور ١ : ٣٩ - اخرج ابن السكن وابن عساكر عن حاطب بن ابي بلتعة سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : يزوج المؤمن في الجنة ثنتين وسبعين زوجة من نساء الآخرة وثلثين من نساء الدنيا .

وفيه عن ابي هريرة قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : هل نصل الى نساءنا في الجنة فقال : ان الرجل ليصل في اليوم الى مائة عذراء . اقول هذا الاختلاف حسب اختلاف الدرجات والشهيات .

ولا جان ، (٥٥ : ٥٦) ومن آية مكروهة مرغوبة عنه فيهن مثل مختلف الدماء ، حيضاً أم سواه^(١) كذلك ونكاحهن « دحماً دحماً لا مني ولا منية »^(٢) فلا يصحب أية قذارة أو صعوبة أو خلافات أو حسادات : « مطهرات من انواع الأقدار والمكاه ، مطهرات من الحيض والنفاس ، لا لأجاء ولا خراجات ولا دخالات ولا ختالات ولا متغائرات ولا لأزواجهن فركات ولا صحابات ولا غيابات ولا فحاشات ومن كل العيوب والمكاه بريات »^(٣).

« وهم فيها خالدون » : في هذه الجنات والثمرات والازواج المطهرة وفي كل ما يشتهون : « وهم فيها اشتبهت انفسهم خالدون » (٢١ : ١٠٢)^(٤).

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ وَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾^(٥).

(١) الدر المنثور ١ : ٣٨ - اخرج الحاكم وابن مردويه وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية قال : من الحيض والغائط والنخامة والبزاق - اقول هذا هو من باب الجري والتطبيق تفسيراً ببعض المصاديق .

(٢) الدر المنثور ١ : ٤٠ عن أبي امامة الباهلي ان رجلاً سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : هل تتناكح اهل الجنة ؟ فقال : دحماً ...

وفيه ايضاً انه سأل (صلى الله عليه وآله وسلم) نفس السئوال فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : نعم بفرج لا يمل وذكر لا ينثني وشهوة لا تنقطع دحماً دحماً .

(٣) تفسير البرهان ١ : ٦٩ عن الامام علي بن الحسين (عليه السلام) .

(٤) بحثنا عن موقع الخلود في الجنة والنار وحدوده في الجزء الثلاثين عند البعض من آياته ك « لابئين فيها احقاباً » ص ٤٠ - ٥٠ فراجع وكذلك في الاسرى وغيرها .

قد توحى الآية نفسها أن الله تعالى ضرب مثلاً قبلها ببعوضة أو ما فوقها فقال الذين كفروا ما قالوه، كما علم الذين آمنوا ما علموه ، فكيف لم يذكر المثل قبلها وإنما جاء الجواب ؟ .

اقول : هذه الآية مع ما تحمل من مثل البعوضة ، فيها الإجابة عما ربما قيل عن الأمثال السالفة^(١) أو يقال ، بأن ضرب المثل بصغير أو كبير إنما هو لإثبات حق « والله لا يستحي من الحق » (٣٣ : ٥٣) والكون بصغيره وكبيره لله ومن خلق الله ، وله أن يمثل بما يشاء ، حيث العبرة في المثل ليست في الحجم والكم ، وإنما في الكيف والتدليل كأدوات للتنوير .

والبعوضة حشرة مضرّة من فصيلة البعوضيات ورتبة ذوات الجناحين ، تعيش صغارها في المستنقعات ، وتنقل بلدغتها شتى الجرثومات ، فإذا الله يضرب بها مثلاً لمعجزة الحياة فلا استحياء في مثلها ، حيث الحياة في القيلة بأعضائها كالحيّة في البعوضة فما فوقها في الصغر، بل وللبعوضة ما للقيلة وزيادة عضوين آخرين^(٢) .

(١) حيث سبق المثل هنا بالذي استوقد ناراً أو كصيب من السماء، كما سبق في العهد المكي ادن منه كالعنكبوت والذباب ، فاتخذ جماعة من المشركين واهل الكتاب والمنافقين من هذه الامثال منفذاً للتشكيك في صدق الوحي بحجة ان فيها سخريه منهم لا تصدر عن الله ، فهنا الاجابة عن كل ذلك بصيغة مختصرة : « ان الله لا يستحي . . . » .

(٢) البرهان ١ : ٧٢ نقلاً عن ابي علي الطبرسي قال وروى عن الصادق (عليه السلام) انه قال : إنما ضرب الله المثل بالبعوضة لأن البعوضة على صغر حجمها خلق الله فيها جميع ما خلق في القمل مع كبره وزيادة عضوين آخرين فأراد الله ان ينبه بذلك المؤمنين على لطف خلقه وعجيب صنعه . . . اقول : ومن عجائب البعوضة انه يضرب بخرطوميه على الفيل والجاموس كما يضرب الرجل اصبعه في الخبيص من فورة السم الذي عبىء على رأس خرطوميه !

ثم ضرب المثل بالصغار ينبه كبار المتعنتين أنهم صغار صغار بجانب الله حتى في خلق بعوضة ، حتى وأهنتهم التي أهنتهم : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » (٢٢ : ٧٣) .

وهكذا تكون دوماً حال الأمثال التي يضر بها الله ، مواتية لما يهدفه من أهداف : « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » (١٤ : ٢٥)

ثم الحالة المؤمنة وجاء هذه الأمثال ، فيما إذا كانت مربية كبعوضة فما فوقها في الصغر - هي : العلم أنه الحق من ربهم فإيمانهم بالله يدفعهم في مزال الأقدام أن يتلقوا كل ما يصدر من الله بكل قبول وتصديق ، فمهما جهلوا حكمته ومغزاه ، فالله حكيم عليم . طالما المقالة الكافرة سؤال استكبار واستنكار ، سؤال المقطوع الصلة عن الله المحجوب عن نور الله ومن لا يرجو الله وقاراً : « ماذا أراد الله بهذا مثلاً » كأنه باطل من ربهم « يضل به كثيراً » : مثلاً يضل فكيف يضرها الله : اعتراضاً على كلام الله ، غافلين أو متجاهلين أنه « ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين » !^(١)

وقد تكون « ويهدي به كثيراً » من اوسط الفاسقين ، بعد « ويضل به كثيراً » ولا تكون من كبرائهم الافسقين اذ لا يرون في هذا المثل وجهة حق وهدى .

فجواب الآخرين - فقط - : « وما يضل به إلا الفاسقين » وللأولين

(١) هنا الوجهان مقبولان حيث تتحملها الآية لفظاً ومعنى ان « يهدي به كثيراً » اما من كلامهم تنمة الاعتراض او من كلام الله نقضاً للاعتراض ، وكما « ما يضل الله به الا الفاسقين » حل نهائي لسؤالهم .

زيادة « ويهدي به كثيراً » .. والفسق هو الخروج عما يحق من كُن ووقاية -
كما يقال : فسقت التمرة : إذا خرجت عن قشرها ، فالفاسقون هم -
الخارجون عن قشر العبودية .

وترى الفاسقون كل الفاسقين هم المضللون بأمثال هذه الأمثال وكثير
هم مؤمنون فاسقون .. وقليل هم الذين لا يفسقون ؟

اقول : انهم فاسقون خصوصاً كما عرفهم الله بفسق مطلق لا مطلق

الفسق : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ
أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . (٢٧)

وفي أخرى بالكفر ومرض القلب الشامل للمشركين واهل الكتاب
والمنافقين : « ويقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا
مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء .. » (٧٤ : ٣١) وهو

مثال الزبانية التسعة عشر . مركز تحقيق كتاب توتير علوم إسلامي
إن ثالث الفساد هذا هو المجال لذلك الضلال : نقضا لعهد الله -
قطعاً لوصل الله ، وإفساداً في أرض الله ، ويا له من ثالث منحوس ! يجعل
من كل هدى ضلالة ، ومن كل نور ظلمة .

ومثلث الفساد هذا يقطع بزواياها كل صلة بالله وبعباد الله : نقضاً
لعهد الله بعد ميثاقه ، من عهد توحيد العبودية فطرياً وعقلياً ، ومن ثم
رسالياً ورسولياً ، وثم عملياً ، التي تجمعها صيغة واحدة : « عبادة
الشیطان » : « ألم اعهد اليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو
مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم » : عهد ثنائي سلباً وإيجاباً هو اصل
العهود !

انهم ينقضون عهد الله - أي عهد - من بعد ميثاقه بوثق العقل
والفطرة ووثاق النبوات ، فالفاسقون : الخارجون عن حدود العبودية هم

حياتهم نقض لمواثيق الله - بكل زواياها الثلاث وحواياها ، ونقض عهد الله من اعظم الفسق : « وما وجدنا لآكثرهم من عهد إن وجدنا أكثرهم لفاسقين » (٧ : ١٠٢) . فانهم لا لب لهم إنسانياً و « إنما يتذكر اولوا الالباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل .. » (١٣ : ٢١) .

﴿ ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ﴾ فقد امر الله بصلات كثيرة : عقيدية وعملية ، فردية وجماعية اماميه ، فاذا قطعت هذه الصلات ونقض عهد الله عمّت فوضى الفساد في الأرض ، فإن إصلاحها على ضوء الحفاظ على عهد الله ، وايصال ما امر الله في جناحي الرباطين : بينك وبين الله وبين عباد الله ، .. ونرى آية النقض والقطع تربط بينهما هنا وفي أخرى (١٣ : ٢١) مما يدل ان كل نقض لعهد من عهود الله يسبب قطعاً لما وصل الله وأمر به ان يوصل ، فشريعة الله شريعة وصل المفاصل التي تفصل الانسانية عن صالح الحياة ، ابتداءً بوصل الحياة البيئية ، الى وصل الأرحام ، الى المجتمع الإسلامي الكبير والى كافة المجتمعات ، وصلاً عقيدياً - اخلاقياً - مادياً - سياسياً - اقتصادياً وعسكرياً أم ماذا، وكما تامر به آية المراقبة : « يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله .. » (٢٠٠ : ٣) .

ثم وقطع عهد الله ، وفصل وصل الله بسبب كل فساد في ارض الله :

﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

إذ خسروا رأس مال الإهتمام في متاجر الضلالة والهدى ، فالمثل الإلهي الذي من شأنه شفاء ورحمة لا يزيدهم إلا خساراً .

ولان الفسوق دركات فالضلالة الناتجة عنه ايضاً دركات طبقاً عن طبق ، فالفسوق المروق عن مطلق الطاعة ضلال مطلق مطبق ، والفسوق عن الطاعة المطلقة وهو مطلق الضلال غير مطبق ، فالحياد عن منهج الله ومحادة حكم الله والجِدَاد عن حدود الله هو الفساد الشامل للنفوس والأحوال ، التي تُردي في الأحوال، ومن ثم فحق لهم أن يضلهم الله بما يطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » .

ثم و « مثلاً ما »^(١) يشمل كافة الأمثال القرآنية ، ومثلاً منها : « البعوضة » وهي اضعف ما يُعرف عامياً من خلق الله « فما فوقها » في الضعف والחסاسة ، الذي يعرفه البعض بعيون مجردة او مسلحة^(٢) ولكن الله إذ يواجه الناس اجمعين يضرب أمثالاً يُعرف الناس اجمعون : مثلاً بعوضة - ذباباً - عنكبوتا - نحلاً : وهي على صغرها وخستها حجماً ، عظيمة في خصتها خلقة وخاصتها مثلاً : فلماذا الله يستحي أن يضرب مثلاً ما : بعوضة فما فوقها ؟ وما الأمثال في القرآن إلا مظاهر نعيشها ، تدليلاً على حقائق نجهلها .

ويا لمثل البعوضة فما فوقها من ملابس هامة فيزيولوجياً وحيوياً

(١) « ما » هنا ليست زائدة . وانما تعني الاجمال الشامل لكل مثل ، كما يقال : شيئاً ما - امرأ ما - رجلاً ما - شخصاً ما ، ف « ما » تؤكد التنكير الاجمال فيما قبله وتعمه .. ف « بعوضة » منصوب على البدلية من « مثلاً ما » دون حاجة الى تكلفات اخرى تأبي عنها كلام الله ! .

(٢) لان المقام هنا الاجابة عما يُسئل عن صغر المثل « فما فوقها » هنا تعني : ما فوقها في الصغر والحدة ، حيث الفوقية تختلف مواردها وكما يقال : فلان فوق فلان في الفقر - في اللؤم - في الفسق او في الصغر، حيث الفوقية فيها هو الشدة في كل منها ... ومع ذلك كله « فما فوقها » في الآية تتحمل الفوقين : ان يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها في الصغر كالنملة وما فوقها ، او في الكبر كالنحلة وما فوقها .

ودلالة على ما يُرام منها هدى ورحمة للمؤمنين وتذكراً للكافرين « وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين! »

فلا ضلال في المثال ، ولا من الله الذي يضربه لتقريب الحق ، وإنما في « الفاسقين » حيث يدلون نعمة الله كفوفاً ، فليس من الله دفع إلى ضلال ، اللهم إلا تركاً لمن يهرع إلى ضلال ، ثم ختماً على قلبه فيزيد ضلالاً على ضلال ، ومن يضل الله فلا هادي له « إن في تركه فلا موفق إلا الله ، أو في ختمه فلا رادّ لأمر الله .

﴿ كلام حول الضلال والهدى ﴾ :

نرى عشرات من آيات الله البينات تنسب الإضلال إلى الله كما تنسب إليه الهدى : « فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء » (٣٥ : ٨) ولكنها المشية الإلهية ، الحكيمة العادلة ، لا تتعلق بإضلال المهتدين ، ولا الخائرين المتحررين عن الهدى ، فلا نجد آية تحمل من إضلال الله من شيء إلا بالنسبة للزائغين : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » الظالمين : « ويضل الله الظالمين » (١٤ : ٢٧) والفاسقين : « وما يضل به إلا الفاسقين » والكافرين : « كذلك يضل الله الكافرين » (٤٠ : ٧٤) أو كل مسرف مرتاب : « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » (٤٠ : ٣٤) : إضلال بما زلوا وضلوا من قبل ، لا بمعنى الدفع إلى الضلال قبل بيان الهدى ، وإنما تركاً لهم يفعلون ما يريدون بعد الإيأس من هدايتهم : « فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون » (١٠ : ١١١) تعبيراً عن تركه لهم بإضلالهم إذ لم يحملهم على الهدى تسييراً : « من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون » (٧ : ١٨٦) « وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون » (٩ : ٤٥) .

ثم وبما يمدهم في أعمار وأموال وبنين : « الله يستهزئ بهم ويمدهم في

طغيانهم يعمهون» (٢ : ١٥) «والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملئ لهم إن كيدي متين» (٧ : ١٨٣) .

ثم واخيراً أن يطبع على قلوبهم جزاء في الأولى بما كانوا يعملون : «بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً» (٤ : ١٥٥) «كذلك نطبع على قلوب المعتدين» (١٠ : ٧٤) «كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين» (٧ : ١٠١) «كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار» (٤٠ : ٣٥) .

«ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون» (٦٣ : ٣) «افرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه» (٤٥ : ٢٣) .

وهكذا نرى أن الإضلال من الله لا يعني الدفع الى الضلال ، ولا سيما للمهتدين والحائرين ، وإنما ترك وإهمال وإهمال للضالين فيزدادوا ضلالاً على ضلال «وأن الله ليس بظلام للعبيد» .

ثم الإفعال كما تأتي لنقل الفعل من لازم الى متعد ، كذلك تأتي لمجرد الوجدان^(١) ف «اضل الله» قد تعني : وجده الله ضالاً ، ثم ولم يهده فاستمر على ضلاله !

كما ونسب الإضلال الى نفسه بما هدى فلم يهتدوا وزادوا ضلالاً : «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون» فدعاء الحق تزيد المبطل ضلالاً بما يدفعه لتكذيبه وحرا به : «فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً» .

(١) كما يقال : سألناكم فما ابخلناكم : فما وجدناكم بخلاء - اتيت ارض فلان فأعمرتها : وجدتها عامرة .

فلا نجد في القرآن بأسره إضلالاً ظالماً إلهياً مسيراً للضلال ! فالناس في مجال الهداية الإلهية على ضروب :

١ - منهم من يقبل الهدى إذ يعرفها فيصدقها ، فيزيده الله هدى على هدى : « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » (١٩ : ٧٦) .

٢ - ومنهم المستضعف الحائر الذي لا يجد حيلة ولا يهتدي سبيلاً ، فاولئك قد يهديهم الله او قد يعاملهم في الآخرة بالحسنى إذ كانوا قاصرين : « إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً » (٤ : ٩٩) .

٣ - ومنهم من يعرف الحق ويعانده فهل على الله أن يجبره على الهدى ؟ : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم اجمعين » (١٦ : ٩) « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » (٣٢ : ١٣) كلاً ! إنه الاختيار في كل من الضلالة والهدى ، ثم لكل زيادة جزاء وفقاً .

فآيات الاختيار في قبول الضلالة والهدى هي رأس الزاوية في مثلث الهدى ، تثبت التخيير وتنفي التسيير ، وتكملة البحث تترى في طيات آيات الضلالة والهدى .

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٨) .

سؤال استنكار وتقبيح بمن يكفرون بالله ، وهذه التنقلات المقصودة من موت الى حياة ثم موت وثم حياة تدل على فاعل عليم حكيم ، فكل تطور بحاجة الى مطور ، فاذا كان مقصوداً حكيماً فليكن المطور قاصداً حكيماً ، وهكذا تطورات الموت والحياة منذ البدء حتى الختام .

بعد إذ كانوا لكل منها ناكرين : « إن هي إلّا موتتنا الأولى وما نحن بمُنشَرِّين » (٣٥: ٤٤) إذ حصروا الموت بما عن الحياة الدنيا كما حصروا الحياة بها ، فلا حياة بعدها وكما لا موت بعد الموت الأولى ! واعتراف أهل النار وهم في النار، بما أنكروه يوم الدنيا ، دونما ردّ عليهم ، إنه مصدّق كواقع ، حيث المتناقضان لا يجتمعان والقرآن بيان دون اجمال أو تقرير لضلال !

والترتيب الواقعي بين الإمامتين والإحيائين ؛ أحياء عن الموت الأول ، ثم إماتة عنها ، ثم إماتة عن حياة تعيش هذه الإمامة ، فأحياء الى الحياة الأخرى ، فلولا الحياة البرزخية لم تكن هناك إماتة ثانية .

مقالة الحياة البرزخية هي موت عن الحياة الدنيا - وليست موتاً مطلقاً - بل هي حياةٌ ما - تقبل الإمامة ثم الإحياء للحياة الأخرى .

ثم وعله لا ! حيث الحياة البرزخية لا تحتاج الى إحياء ، فإنها حاصلة في الحياة الدنيا وفي الموت عنها ، وهي بقاء الروح في البدن المثالي البرزخي ، فلا تعني الإمامة عن الحياة الدنيا إلّا انفصال الروح ببندنه المثالي عن هذا البدن نهائياً ، فتبقى ما تبقى من أصل الحياة برزخياً دونما حاجة الى إحياء .

لذلك لا تجد مصارحة قرآنية بإحياء برزخي ، وإنما الحياة والحياة فقط دونما إحياء !

ثم إنّ الرجوع الى الله بعد الإحياء الثاني لا يخص الحياة الأخرى بعد الموت ، حتى يخص هذا الإحياء بما بين الأولى والأخرى ، بل هو يعمها وما بعدها من رجوع الحساب فالثواب والعقاب : كما « الله يبدء الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون » (٣٠: ١١) « والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون »

(٦ : ٣٦) فهل الإعادة والبعث هما في البرزخ ؟ ! وليس فيه إلا استمرار الحياة الدنيا . مهما نجد آيات أخرى هنا تعني من الرجوع الى الله الحياة الأخرى ، ولكنه بعد هاتين ليس إلا ما يعم الحياة الأخرى والانتقال الى حياة الحساب ، ولا حجة في آيتنا : « كيف تكفرون . . ثم إليه ترجعون » أنه الإحياء للأخرى ، واستعمال العام وقصد الخاص دون دليل ، خارج عن مذهب الفصاحة فضلاً عن القرآن البالغ اعلى القمم فيها .

ومن ثم فـ « ثم » قبل : يحييكم - الدالة على تراخي الإحياء عن الإماتة تدلنا دلالة رابعة أنها الحياة الاخرية النائية عن الموت كثيراً ، لا الحياة البرزخية التي لا تنفصل عن الموت .

فعلى ضوء هذه الدلالة المربعة ، ننقل من : « نعم او لا ، الى التأكد من عدم دلالة الآية على حياة برزخية ، فهل إذا تدل على نفيها ؟ لمكان : « ثم يميتكم ثم يحييكم » ولا إحياء إلا عن الموت ، فليس هناك قبل الحياة إلا الموت ؟

في الحق إنه لا دلالة على نفيها كما لا تدل على إثباتها ، حيث الحياة البرزخية موت بالنسبة للحياة الأخرى - كما الحياة الدنيا موت بالنسبة لها - فكما يصح الإحياء عن الموت المطلق الذي لا حياة فيه - وهنا نفي للبرزخ - كذلك يصح عن الموت النسبي : - البرزخي - وهو أحيى من الحياة الدنيا - وهنا إثبات للبرزخ - :

فعلى ضوء الآية الأخرى : « أمّتنا وأحييتنا » حيث تثبت الحياة البرزخية ، نفسر آيتنا هكذا : « وكنتم أمواتاً » أجنّة في بطون أمهاتكم قبل إنشاء الخلق الآخر « فأحياكم » بالحياة الدنيا « ثم يميتكم » عن الحياة الدنيا فصلاً للروح ببدنه المثالي عن هذا البدن « ثم يحييكم »

الحياة أخرى هي أرقى ، إحياء عن الحياة البرزخية التي هي موت وجاه
الأخرى ، أو إحياء بعد الإمامة عن الحياة البرزخية - وهو الحق وأخرى -
وكما تدل الآية الأخرى : « امتنا اثنتين » حيث الإمامة الأولى إمامة عن
الحياة الدنيا ، فلتكن الثانية إمامة عن حياة أخرى الى الحياة الأخرى ،
فلولا أن هناك حياة وسطى : بين الدنيا والاخرى ، لم يكن للإمامة عنها
معنى ! .

فالفرق بين الآيتين أن آيتنا لا تحمل إلا إمامة واحدة ، وموتاً قبل الحياة
الدنيا ، وفي الأخرى إمامتان ، وحاصل جمعها أن كلاً من الموت والحياة
ثلاث : موت قبل الحياة الاولى دون إمامة وهو الموت المطلق ، وموت
بالإمامة عن الحياة الاولى ، وموت بالإمامة عن الحياة البرزخية .

ثم : حياة بعد الموت الأول ، وحياة بعد الإمامة عنها ، وحياة بعد
الإمامة عن الثانية : الحياة الاولى ثم الوسطى ثم الأخرى ، وآيتنا هنا لا
تتكفل إلا ببيان الحياة الأخرى ، إذ تواجه الناكرين لها ، لا البرزخية التي
هي على هامشها ، تثبت بعدما تثبت هي الأخرى .

فقيلة الناكرين للحياة البرزخية أن آيتنا تنكرها كما الآية الأخرى -
وهي مثلها - لا تثبتها ، حيث تشملان الموتين والحياتين ، إنها قولة فارغة
هراء ، حيث البون بين بينهما ، وأنها موت وإمامة دون الأخرى :
إمامتين ، دلالة قاطعة هنا عليها ، وسكوت هناك عنها !

فالقرآن يثبت الحياة البرزخية في قرابة عشرين آية نبحث عنها في
طياتها ، دون تصريح أو تلويح بإحياء فيها فانها استمرارية للحياة الاولى بعد
انفصال البدن عنها ، طالما يصرح في مئات الآيات بالإحيائين دنيئاً
وأخرى ، وتصريح آية وحيدة بإمامتين : تلويحة كتصريحه أن في البرزخ
حياة ، وإلا فالإمامة الثانية عماذا ؟ !

سورة البقرة آية - ٢٨ ٢٦٥

هذا ولأن الإمامة الثانية لا تزجج الصالحين لا يأتون في الاخرى
بذكرها إلا تلميحاً : « أفما نحن بميتين إلا موتتنا الاولى وما نحن بمعدين »
(٣٧ : ٥٩) استثناء منقطع يعني أن لا موت في الآخرة ، اللهم إلا الموت
الاولى في الاولى ، فلولا الموت الثانية لم تكن لصيغة الاولى من معنى .

واما الكفار فتهمهم الموت الثانية وأكثر من الأولى ، فانها تنقلهم الى
دار البوار ، جهنم يصلونها فبئس القرار ، ولذلك يصرحون بها دون
المؤمنين ، وفي تصريحه يوم الدين حجة عليهم ، وحجة للمؤمنين يوم الدنيا
تدليلاً على حياة برزخية بين الحياتين .

ثم هذا الخطاب العام : « كيف تكفرون » يعني الحالة العامة السائرة
لسائر الناس ، لا الذين لهم حياة ثانية وإمارة اخرى في الحياة الدنيا :
« كالذي مرّ على قرية . . فأماته الله مائة عام ثم بعثه » والذين خرجوا من
ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » « فاخذتكم
الصاعقة وانتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم » « فقلنا اضربوه ببعضها
كذلك يحيى الله الموتى احياء آت وإمارات أخرى لبعض الناس ، تدليلاً
حسباً على أن وعد الله حق !

وترى كيف تحتج آيتنا على منكري المبدء والوحي بنكران المعاد ؟ لانها
تحمل دليل التطور بعدما ثبت المبدء والوحي بما مضى ، قرن الدليل الحسي
الى العقلي ، إذاً فـ « كيف تكفرون بالله؟ » ! .

ثم الموت هنا « وكنتم امواتاً » من باب العدم والمملكة لا عدم المملكة ،
فكما يصدق على من مات عن حياة ، كذلك الموت البدائي الذي تلحقه
حياة ، فلا يقال لما لا يقبل الحياة ميت ، وإنما لما يقبلها كما هنا ، او ما
يستقبلها كما في الموت بعد الحياة ، و « امواتاً » هنا تعني الموت الثاني حيث
الاول تخصّ لفظة الإمامة دون « كنتم امواتاً » .

ثم الرجوع الى الله له درجات يتدرجها الراجعون ، ابتداءً من الموت في حياة برزخية فيها ثواب وعقاب مؤقت نُظرة الأخرى ، ثم الحياة الأخرى ، ثم الى موقف الحساب الختامي فالجزاء ، فنحن إذاً في مثلث الرجوع الى الله ، وكما آياته تشملها أحياناً : « وهو يحيى ويميت وإليه ترجعون » (١٠ : ٥٦) وبعضُ منها بعضاً كما آيتنا و : « الله يبدئ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون » (٣٠ : ١١) « والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون » (٦ : ٣٦) حيث تدل على قاعدة مثلث الرجوع : موقف الحساب ، ومن ثم لا نجد تصريحاً في الرجوع الثاني فحسب اللهم إلا لمحات : « قد علم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا » (٢٤ : ٦٤) حيث الإنباء بما عملوا بعد الرجوع الى الله هو رجوع الحساب بعد رجوع الحياة « أنذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد » (٥٠ : ٣) وعلها صريحة في الثاني .

وترى ان الرجوع الثالث بعيد عن الثاني ولذلك يعطف عليه بتفريع البعيد « ثم إليه ترجعون » ؟ .

اقول : نعم : « ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون » (٦ : ٦٠) وطبعاً هو بعد زماني بالنسبة لنا ، واما الله فلا : « إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون » (٥ : ١٠٥) فلا مناصرة بين « فـ و ثم » لاختلاف المقامين ، ثم لا نجد « ثم » إلا في ثنتين بين إحدى عشر آية^(١) مما يؤكد القرب إلهياً ، مهما كان بعيداً عندنا .

(١) العشرة الأخرى هي : ٣ : ٥٥ - ٥ : ٤٨ - ٥ : ١٠٥ - ٦ : ١٦٤ - ١٠ :

٢٣ - ٢٩ : ٨ - ٣١ : ١٥ - ٣٩ : ٧ - ٦ : ١٠٨ - ٣١ : ٢٣ .

ثم الثانية المذكورة فيها « ثم » « متاع في الدنيا ثم اليها مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد » (١٠ : ٧٠) .

وهكذا نرى في آية قصيرة واحدة تُفتح سِجِلَّة الحياة كلها ثم تُزوى وتُطوى ، معروضة في ومضة لقبضة الباري جلّ وعلا ، ينشرها من همدة الموت قبل آية حياة ، ثم يقبضها بهدمة الموت بعد حياة ، ثم يُحييها مرة أخرى في الأخرى ، ثم إليه ترجعون . . في استعراض سريع يرسم أدوار الموت والحياة ، مذكّرة للمغفلين الناكرين لقاعدة الحياة !

ثم ينتقل بنا الى جوّ أوسع من هذه الحياة ، في نعم وامضة رغم عابضة الحياة :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢٩).

هنا يرتفع بنا ربُّنا من حمة هذه الأرض وحياتها المغمورة المحصورة في معمرتها ، إلى السماء والسموات ، وليرفعنا عن هذه المحدودة فنجنح بأفكارنا ومحاولاتنا وتصرفاتنا الى عُلَيَّات الكون ، ولنعرف أنه تعالى وتقدس خلقنا لأمر عظيم ، أعظم من خدمة الأرض المتعة وسمواتها ، فانها كلها مخلوقة لنا ، مستعبداً لها لصالحنا دون أن نعبد الآلة ونعشوا عن ذكر خالق الآلة وغايتها ، رغم دعايات انصار المادة ، المنغمسين في نزواتها المنظمسين عن غاياتها ، المحقّرين دور الإنسان فيها ، فكرامة الإنسان وسيادته واستعلاءه على الكون لغاية معرفة الله ، والحياة مع الله ، وطاعة الله ، هي القيم القمة من وراء هذه الآيات .

« هو الذي خلق » وهل من خالق إلا الله « خلق لكم » : الناس كل الناس - « لكم » كأصل ولسائر الخلق وحتى الجان كفرع .

وتراه « لكم » - فقط - تعنى هذا النسل الأخير؟ كما « وأنزل لكم من السماء ماء » (٢٧ : ٦) « والأرض وضعها للأنام » (٥٥ : ١٠) « الذي

جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً» (٢ : ٢٢) «الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر» (٦ : ٩٧) «الذي جعل لكم الليل سكناً لتسكنوا فيه والنهار مبصراً» (١٠ : ٦٧) «الذي جعل لكم الأرض مهذاً وسلك لكم فيها سبلاً» (٢٠ : ٥٣) «الذي جعل لكم الانعام لتركبوا منها ومنها تاكلون» (٤٠ : ٧٩) «الذي جعل لكم الأرض ذلولاً» (٦٧ : ١٥) «جعل لكم الأرض بساطاً» (٧١ : ١٩) .

فهل إن خلق الأرض وما فيها ، وجعلها مهذاً وفراشاً ومهاداً وذلولاً وبساطاً ، وجعل النجوم وإنزال ماء السماء ، وجعل الليل والنهار وما اليها من حياة أرضية ومستفيدة من السماء ، هي كلها فقط « للناس » ؟ هذا النسل الأخير ؟

فكيف إذا يُهمل سائر من يستفيدون من الأرض ويفيدون ، ومنذ أن تهيأت الأرض للسكنى ؟ أفيناء وأثاث للناس هذا الناس ، يُخلق قبل خلقه بملايين السنين ؟

لا يمنع الخطاب أن يستغرق كل الناس طوال الحياة الأرضية الصالحة لحياة الناس ، إجماعاً بأن « الناس » ليس فقط هذا النسل الحاضر البادئ من آدم وزوجه ، مهما اختلفت أنساله منذ صلوح الأرض لسكنى الناس ، في عقليائنا وسائر درجاتها كما يلوح لنا من آية الإستخلاف .

وبما أن « الناس » بين مختلف الخليقة الأرضية هم الأساس القمة في الخلق ، لذلك يختص بهم الخطاب تشريعاً ، وعلى هامشه الجن وسائر الخلق المستفيدين من الحياة الأرضية .

وكما قد يختص بنا الخطاب تشريعاً لنا على سائر الناس ، حيث يواكبنا نحن، إذ نزل القرآن في دورنا ، وبينها الخطاب لهذا النسل الأخير منذ آدم

حتى القيامة الكبرى .

« خلق لكم » : كل أنسال الناس - النسل الأخير - الناس زمن الخطاب حتى القيامة - فان هذا الخطاب - وكثير مثله - يوجه على غرار القضايا الحقيقية ، الشاملة للناس أياً كانوا وأيان .

« خلق لكم ما في الارض جميعاً » ، خلق لكم جميعاً - ما في الأرض جميعاً ، فهو في ازدواجية الجمع ، فكما الأرض بما فيها جميعاً خلق لكم ، كذلك هي لكم جميعاً .

وما هما قاعدتان فقهيّتان من أعمها وأهمها في التشريع الإسلامي : أصالة الإباحة في جميع الأشياء ، وأصالة الإشتراك فيها .

فـ « ما في الارض » يشملها وما في ظهرها وبطنها وما في جوفها ، جمعاً لما في الأرض الى الأرض ، حيث « في » تعني الطرف ، فطرف الأرض بمطروفيها : بكل حواياها وزواياها ، بكل أبعادها ، صدق الأرض وما فيها - إنها جميعاً خلقت لنا جميعاً .

وبما ان « لكم » تفيد الإنتفاع ، فهنا الغاية من خلق الأرض وما فيها أن ننتفع بها كما نشاء بما نشاء وحيث نشاء وأنى ، حتى ياتينا من الله حظر في : كيف ننتفع ومتى وأنى ومأ؟ وهي أصالة الإباحة في كافة التصرفات والإنتفاعات ، ولكنها تلميحة كتصريحة أن هذه التصرفات محدودة بحدود الحفاظ على المنافع الفردية والجماعية ، الفردية التي لا تضر بالمجتمع ، والجماعية التي تحافظ على منافع الأفراد : أصالة الفرد والمجتمع ، ولكنها المجتمع هو الأول والأولى إذا تناحرا ، لمكان « لكم » !

فحرية التصرف فيما في الأرض هي مباحة مسموحة ما لم تناحر حرية الآخرين .

ثم وأصالة الإشتراك : « لكم جميعاً » فخلق الله ليس لناس خصوص او اشخاص خصوص، وإنما « لكم جميعاً » أن تنتفعوا مما في الأرض جميعاً .
فكما الله إله الناس جميعاً دون اختصاص بناس دون ناس كذلك، رزقه هو لهم جميعاً دون اختصاص ، إلا أن يختصوا بما يقدمون من أفكار وأعمال ، فلهم ما لهم بما قدموا دونما إشتراك ، ولهم ما للجميع ما لم يقدموا دونما اختصاص .

إذا فالأرض بماءها وهواءها وكلاءها ومعادنها وغاباتها ، بما فيها وما عليها وما اليها ، هي جميعاً للناس جميعاً ، لا يحق لأحد أن يختص بنفسه منها شيئاً إلا ما عمل وكدح : « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقه » .

والإقتصاد الإسلامي اختصاصي في وجهات الأعمال بحصائلها ، واشترائي في خلق الله كخلق الله ، رفضاً ليمينية الاختصاص الظالم في كل شيء ، ويسارية الإشتراك الغاشم في كل شيء ، وإنما : اختصاص عادل واشتراك عادل ، دون الكلمات والعبارات والدعايات البراقة ، الجوفاء الخواء من الحقيقة ، وإنما هو الحق كله والحقيقة كلها .

ولأن جميع ما في الأرض مخلوق لنا فلنا أن ننتفع منها باستخدام العلم والعمل ، كدحاً في سبيل الانتفاع مما هبانا الله ، ولنعبد الله عل منه وإحسانه ، ولماذا يسبقنا من لا يعرفون الله أو يكذبونه ، ثم نحن المسلمين نعيش على هوامشهم ونحسب أننا نحسن صنعاً ..

وفي الحقل الفقهي لا نفهم من « لكم » هنا كما في غيرها إلا حلية الانتفاع مما في الأرض، دون ملكية لعين الأرض والأرضيات ، فإنها ليست من سعي الإنسان ولا يملك الإنسان - ايا كان - إلا ما سعى : « وأن ليس

للإنسان إلا ما سعى ... ضابطة عامة تعم النشآت الثلاث : الأولى والوسطى والآخرى^(١).

ولأن الأرض « لكم جميعاً » تستفاد ضابطة أخرى ان استثمارها ليس فوضى تستغله أكلة الأرض حيث يُحرم الآخرون وهم شركائهم فيها ! وإنما كل حسب حاجته وسعيه، ونصوص التحجير والإحياء والتعمير^(٢) لا تعني - وليست وجاء نصوص الآيات لتعني - أنها من اسباب ملكية رقبة الأرض، وفيها دلالات تُناحرها تدليلاً على ما تدل عليه آياتها، فـ « من احاط حائطاً على أرض فهي له »^(٣) و « من احبى مواتاً فهي له »^(٤) و « بما قوم أحيوا شيئاً من الأرض - او عمروها - وعمروها فهم أحق بها وهي لهم »^(٥) هذه لا تدل على أكثر مما تدل عليه آيتنا « خلق لكم » مع الأولوية الحاصلة بالإحياء والتعمير دون ملكية رقبته، فإنها ليست من سعي عمارها حتى يملكوها ، فإنما يملكون ما سموا لها « وله ما أكل منها فان تركها أو أخربها فاخذها رجل من المسلمين من بعده فعمرها وأحيها فهو أحق بها من الذي تركها ... »^(٦).

(١) فـ « ان ليس للإنسان إلا ما سعى » تشمل الكل ومنها الأولى - و « ان سعيه سوف يرى » تخص البرزخ ، و « ثم يجزاء الجزاء الأولي » تخص الآخرى .
(٢ و ٣) هو النبوي العامي : كما في (ج ٥ مفتاح الكرامة ص ٢٤)
(٤) صحيحه عبد الرحمن بن أبي عبد الله عن الصادق (عليه السلام) (وسائل الشيعة

(٥) صحيحة محمد بن مسلم عن الباقر (عليه السلام) ففيها (او) وفي آخر (و)
(٦) صحيحة أبي خالد الكابلي عن الباقر (عليه السلام) : « وجدنا في كتاب علي ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، انا واهل بيتي الذين أورثنا الأرض ونحن المتقون والأرض كلها لنا فمن احبى أرضاً من المسلمين فليعمرها وليؤد خراجها الى الامام من اهل بيتي وله ... فليؤد خراجها الى الامام من اهل بيتي وله ما =

فاشترائية الأرض لها مرحلتان ، أولى وهي قبل ان يسعى لها تحجيراً
او احياءً وتعميراً ، فليست اذاً أولى لأحد ، وثانية هي بعد هذه الثلاثة او
واحدة منها ، حيث الاولوية تخرجها عن اشترائية الإنتفاع ، فانه لمن
استثمرها على حده ، ولا تخرجها عن اشترائية العين .

فان تركها مستثمرها دون عذر او حاجة كان لمن يحتاجها باستثمارها
دون مشاكسة فيها ، كما لو استثمر اكثر مما يحق لم يحق له إلا قدره ، وهو
في الزائد عامل في الأرض ليس له إلا اجرة المثل .

فحذار حذار على اكلة الارض ، فليس كما يزعمون أنهم يملكون مدً
اعينهم من ارض الله كما تمدهم اموالهم واعوانهم ، وانما لكل نصيبه حسب
المكانة والمكان والحاجة المراجعة فيها حاجات الآخرين ، بالتحجير والإحياء
والتعمير ، فلو حَجَّر دون إحياء ، او احيى دون تعمير مغبةً استغلالها في
غلائها زالت عنه هذه الاولوية المسموحة ، وانتقلت الى من يستغلها لحاجته
او حاجيات الآخرين . مركز تحقيق كاتيب نور علوم إسلامي

وهاتان الضابطتان تسمحان لكل انسان ان يستفيد من ارض الله التي
خلق لهم جميعاً ، كلٌ كما سعى وقدر الحاجة ، دون اجحاف بحقوق
الآخرين ، فلا تبقى أرض صالحة معطلة ، ولا عاطل عن استثمارها ولا
عامل - فقط - لمن يستثمرها ، قضية العدل والنصفة وإعطاء كل ذي حق
حقه ، حيث تقسم الاولويات بين الساعين قدر الحاجيات ، ثم هم في

= اكل منها حتى يظهر القائم . . . وهنا احاديث اخرى تدلنا على انتقال الاولوية الى من
يعمرها بعد الذي يهملها كصحيحة معاوية بن وهب عن الصادق (عليه السلام) :
« ايما رجل اى خربة باثرة فاستخرجها وكري انهارها وعمرها فان عليه فيها الصدقة فان
كانت ارض الرجل قبله فغاب عنها وتركها فأخربها ثم جاء بعد يطلبها فان ارض الله
ولن عمرها » . افلا يدل خروجها بخرابها عن ملكه على انه لم يملكها حين احيائها ؟!

الزائد كعمال لأنفسهم وسواهم على سواء .

ومن حصائل هذا البحث أن الأرض - أية أرض - لا تُملك وإنما تُملك منافعها المحللة لمن أحيائها ، دون رقبتها إذ ليست مما سعاد محيها ، والقاعدة الخاصة القرآنية : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » تحصر الملك فيما يحصل بالسعي ، وتحصر عما سواه ، وليست الأرض سعيّاً لأحد إلا الله ، اللهم إلا منافعها لمن يحييها .

فان قلت : الأموال الموروثة او المهداة والتي تُنفق في حلها هذه ايضاً ليست مما سعى لها من يرثونها او يُهدى ويُنفق لهم .

قلنا : اجل ، ولكن كونها لساعاتها يسمح لهم ان يورثوها وينفقوها لمن يشاءون فيملكها غير ساعاتها بما ملكوها اياهم ، قضية الملكية المطلقة لهم ، فالمال - اي مال - إنما يُملك بالسعي او التملك ، وليست الأرض من سعي محيها ، ولا يملكها أحد - حتى يملكها من يشاء - إلا الله ولم يملكها لناس خصوص وإنما « لكم جميعاً » .

« خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى الى السماء . . . »

وترى أن خلق هذه الأرض بما فيها مقدم على خلق السماء ؟ اقول : نعم واقول : لا !

نعم : إنها خلقت قبل تسبيح السماء ، فقبل نجومها ومصابيحها ومنها الشمس !

ولا : فانها خلقت مع دخان السماء او بعده ام قبله : لا ندري . حيث انفجرت المادة الأم « الماء » فأزبدت زبداً خلقت منه الأرض وزملاءها : الست الاخرى ، وثار منها دخان هو المادة السماوية الأولى .

فهنا الإشارة : « ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات »
كتصريحه أن خلق الارض بما فيها هو قبل تسبيح السماء ، وكانت السماء
وقتئذ سماء ، أمع الارض ام قبلها ؟ هنا لا ندري، وتجد التفصيل الأصيل في
« فصلت » كما فصلناه على ضوء الآيات الثلاث^(١).

فـ « ما في الارض جميعاً » هنا هي رواسيها وبركاتها وأقواتها ثم من
بعد ذلك سوى السماء سبعاً وهي دخان لم تسو بعد سماء ولا سماوات
فللسماء مراحل ثلاث : ١ - الدخان - ٢ - السماء مبنية واحدة ٣ -
السماوات السبع .

واللائع من آية البقرة والآيات من فصلت أن الارض خلقت برواسيها
وأقواتها قبل خلق السماء سبعاً ، وإذ كانت دخاناً : « ثم استوى الى السماء
وهي دخان .. فقضاهن سبع سماوات ».

وآيات النازعات تؤخر إخراج ماء الأرض ومرعاها وإرساء جبالها -
بدحرها - تؤخرها عن بناء السماء ، ولأن خلق الأرض ببركاتها وأقواتها كان
قبل تسبيح السماء ، فلا يعني بناء السماء في النازعات - قطعاً - تسبيحها ،
فإنما تطوير غازها الى سماء واحدة هو أقل تقدير لبنائها : « أنتم اشد خلقاً
ام السماء بناها . رفع سمكها فسواها . واغطش ليلها واخرج ضحاها .
والارض بعد ذلك دحاها . اخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال ارساها .
متاعاً لكم ولأنعامكم » (٧٩ : ٣٣) .

بناها من أصلها الثاني « الدخان » المنبثق من المادة الأم « ماء »^(٢)

(١) « قل انكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له انداداً ذلك رب
العالمين ... » .

(٢) يأتي تفصيل البحث عن « ماء » المادة الام في آيتها في سورة هود .

وترى أن هذا البناء الأول للسماء هو قبل تكملة الأرض أم بعدها ؟
آيات « فصلت » تقدمها على هذا البناء ، وآيات النازعات تؤخرها عنها ،
فهل هنا تنازع بين فريقين الآيات ؟

اقول : هنا تكملة للأرض في أدوارها الأربعة بخلق رواسيها وبركاتها
وتقدير أوقاتها هي كلها قبل بناء السماء سماءً إذ هي دخان كما في آيات
« فصلت » .

وهناك تكملة أخرى- بإرساء جبالها وإخراج ماءها ومرعاها- هي بعد بناء
السماء كما في النازعات ، إذاً فلا تناحر بين الآيات .

وحاصل الترتيب التكويني ، ١ - خلق الأرض ببركاتها وأوقاتها كامنة
فيها والجبال غير راسية في متونها ٢ - بناء السماء برفع سمكها بإغطاش ليلها
وإخراج ضحاها ٣ - دحو الأرض فإخراج ماءها المكنون ومرعاها ،
وإرساء جبالها المجعلولة عليها فيها ٤ - تسوية السماء سبعاً بعد هذا البناء
وذلك الخلق، وقد توحى بفصل بناء السماء بين تكملتي الأرض : « فقال لها
وللأرض أثتيا طوعاً أو كرها » أن تأتي الأرض للتكملة الثانية والسماء
لبناءها ، ثم تسبيح السماء بعد هذا البناء وتلكما التكملتين .

او قد تكون بناء السماء هي هي دخان السماء ، فقبلها او معها خلق
الأرض ببركاتها وأوقاتها والجبال من فوقها ، وبعدها دحو الأرض بليها
وضحاها بإخراج ماءها ومرعاها والجبال - من فوقها - أرساها في متنها .

إذاً فلإتيان السماء لتسبيعها وإتيان الأرض للتكملة الثانية اما هي ؟^(١)

وترى ماذا تعني « ثم استوى الى السماء » ؟ اقول : معاني الاستواء تختلف
حسب اختلاف مواردها ، متعددة باداة وسواها ، فمنها الاعتدال والتمام :
« ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً » (٢٨ : ١٤) والإستقامة :

(١) تفصيل البحث الى الآيات في فصلت .

« فاستوى على سوقه » (٤٨ : ٢٩) والإحاطة : « الرحمن على العرش استوى » (٢٠ : ٥) والإستقرار : « فإذا استويت أنت ومن معك » (٢٣ : ٢٨) « لتستووا على ظهوره » (٤٣ : ١٣) والتماثل : « هل يستوي هو ومن يامر بالعدل » (٢٦ : ٧٦) وإتمام التدبير على سواء فيما عدت إلى كما هنا : « ثم استوى إلى السماء » : أتمّ تديّره إلى تسوية السماء سبعاً دونما تكلف رغم أنها سماء .

ومعنى المساواة مضمّنة فيها في كافة أحوالها ، فالإستواء إلى السماء هو إتمام تدبيره إلى السماء ، على سواء في ذلك بين الأرض والسماء فانما هما وجه خلقه وتدبيره سواسية سواء ، دون عيب ولا لغوب .

ولماذا « فسواهن » ؟ والسماء واحدة لا يرجع إليها ضمير جمع ! وجمع السماء وهي السبع لا تسوى سبعاً ، اللهم إلا تحصيلاً للحاصل ! .

أقول : السماء واحدة قبل تسبيحها ، ولكنها لمشارفتها إلى سبعمها اعتبرت كأنها سبع « فسواهن » السماء المشارفة لسبعمها « سبع سماوات » وهو بكل شيء عليم ، ولذلك فهو على كل شيء محيط وبكل شيء قدير .

وطالما تنادى آيات من الذكر الحكيم - المستعرضة لخلق الكون - أن السماوات سبع ، فقوله القائلين أنها بليارات حسب عديد الكرات ، أو أنها الأجواء السبعة للمنظومة الشمسية ، إنها قولة خاوية هراء ، فإن السماوات المقرّطين هناك والمقرّطين هنا كلّها مطويات كنقاط في السماء الأولى من السبع حسب القرآن وقد فصلت في « فصلت »^(١) كما وإن توجيه خلق ما في الأرض بتقديره دون إيجاده رغم المصارحة من

(١) نفصل البحث حول السماوات في الآيات من فصلت ومآثر آياتها ، كل حسب دلائلها .

متظافر الآيات ، وزعم أن ايجاده مؤخر عن السبع السماوات ، في اتفاق مزعوم ، إن ذلك مما يضرب به عرض الجدار^(١) فالقرآن بنفسه وجيه لا يقبل التوجيه ، وإنما علينا توجيه أفكارنا الى مغازي آي الذكر الحكيم ! .



(١) في تفسير الألوسي نقل الامام الواحدي عن مقاتل واختار المحققون ولم يختلفوا ان جميع ما في الارض مما ترى مؤخر عن خلق السماوات السبع بل اتفقوا عليه ، اذاً يجعل الخلق في الآية بمعنى التقدير لا اليجاد ، او بمعناه ويقدر الارادة يعني اراد خلق ما في الارض جميعاً ، وكذلك الخلق والجعل في آيات فصلت !

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ
 فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا
 وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ
 قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا
 ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا
 إِلَّا بِمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَتَّخِذُ
 أَنْبِيَائُهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ
 إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ
 تَكْتُمُونَ ﴿٣٨﴾

آيات اربع تبين موقف هذا الإنسان - السامي - بعد سائر أنسائه في الأرض ، أن جعله الله خليفة في الأرض ، بعدما خلق له ما في الأرض كأنه هو فقط إنسان الأرض ، وبعد أن اعطاه المعرفة التي يعالج بها خلافة الأرض ، ليلا يخلد إلى الأرض ويتبع هواه ويفرط عن هُدايه ، بل يتابع صراطه الإنساني الى الله ، فيحقق في نفسه خلافة الله ، فلنعيش رديحاً مع هذه الخلافة السامية ، بعين البصيرة وانشرح الصدر ، في ومضات الإستشراق ، مطلقين على ساحته الأعلى ، متطلعين إلى المشية العليا ، حيث الجعل رباني فليكن الخليفة ربانياً ، مثلاً أعلى للرب آية لربوبيته ، لا مثلاً ينويه سبحانه سبحانه !

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾

آية يتيمة منقطعة النظير في تصريح الخلافة الأرضية لهذا الإنسان ، مهما تلمح لها وتلمع آيات أخرى في إشارات .. يحق لنا أن نجد السير بهذه اليتيمة بكل إمعان وإتقان ، في كل لفظة أو لمحة ، ولكي نحصل منها على معرفة منقطعة النظير .

« وإذ » ترى ما هو المعطوف عليه هنا ؟ لا نجد هنا معطوفاً عليه مذكوراً يناسبه ، فليكن سرّاً بين الله ورسوله غير مذكور لنا ، حيث الخطاب هنا له (صلى الله عليه وآله وسلم) ذاتياً لا لنا .. فـ « اذكر » و « اذكر » إذ قال ربك ..

« إذ قال ربك للملائكة » ولماذا « ربك » لا « رب العالمين » ؟ علّه لأن له الحظ الأعظم من هذه الخلافة ، فهو الخليفة الأعظم والإمام الأقدم ، ابن لآدم الأول صورةً وابوه سيرة وسريرة ! :

وإني وإن كنتُ ابن آدم صورةً فلي فيه معنى شاهدٌ بأبوتي، كما وأعظم الأسماء التي علمها الله آدم هو الحقيقة المحمدية كما تأتي .

« ... قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » : « وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين » (٣٨ : ٧١) « ... من صلصال من حمأ مسنون » (١٥ : ٢٨) فـ « بشراً من طين من صلصال من حمأ مسنون » هو الخليفة في الأرض مهما اختلف هذا الخلق عن ذلك الجعل حيث خلق بشراً من طين ثم جعل إنساناً خليفة .

ثم ترى وماذا تعني الخليفة عامة وماذا هنا ؟ إنها من الخلف : أن يأتي كائن خلف آخر ينوبه في كونه أو كيانه أو صفاته وأفعاله ، وكأنه هو بعده ، مهما اختلفا في درجات ، فلا بد إذاً من مشاركة بينهما تهمه الخلافة ، وتاء الخليفة للمبالغة ، أنه يتابع ما للمستخلف عنه بجذ بالغ وعزم فارغ ، أو يزيد عنه كما هنا ، أو ينقص أو يساوي كما في غيرها ، على اشتراك ذلك المثلث من الخلفاء في المجانسة مع المستخلف عنه كوناً وكياناً قضية الخلافة في حقها وحقها .

فهل إن هذا الإنسان - إذا - خليفة الله ؟ أن يخلف الله في ألوهيته في أرضه ، كأنه غائب عن الأرض ، فالإنسان له خليفة ونائب في الأرض ؟

« وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله » فلماذا الخلافة في الأرض ؟ وله الحكم في الأرض كما في السماء ، وليس الرسل إلا مبلغين عن الله ، لا خلفاء أو وكلاء أو نواب . عن الله ! فلماذا الخلافة في الأرض ؟

ولو أنها الخلافة الإلهية في الأرض لكانت الملائكة المخاطبون هنا أخرى أن ينهموها ، فلماذا السؤال أو الاعتراض : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ؟ فهل إن خليفة الله في فهم ملائكة الله يفسدون ويسفكون ؟ ! وهم أنوار عارفون ، لا يهتمون الرب فيما يخفى ، فكيف فيما يجلو ! فـ « ما علم الملائكة بقولهم أتجعل فيها .. لولا أنهم قد كانوا

رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء»^(١) فالخليفة هنا إنسان يخلف انساناً مضى أم من ذا ، لا أنه يخلف الله وسبحان الله ان يخلفه انسان أم من ذا .

لا نجد تصريحاً ولا إشارة قرآنية على خلافة الله هذه، اللهم إلا ان يجعل الله انساناً خليفة عن سالفه ، فقد يُسمى خليفة الله ولا تعني أنه يخلف الله ومعاذ الله ، وانما الذي نصبه الله نائباً يخلف مثله في منصبه ، نبوة أو إمامة أم ماذا : « يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض » (٣٨ : ٢٦) « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض » (٦ : ٢٦) « أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض » (٢٧ : ٦٢) فهنا خلافة خاصة كما لداود وأضرابه ، وهناك عامة كما للناس أجمعين عن ناس قبلهم ، او بعضهم عن بعض .

فمن المستحيل خلافة الله نفسه لأي من العالمين وحتى الحقيقة المحمدية فـ « ما انا إلا رسول » و « ليس لك من امر شيء » فهو هو لا يخلف الله في أي من شؤون الالهية والربوبية حتى ولا في بلاغ الأحكام ، وانما هو رسول ، لا خليفة ولا نائب ولا وكيل ؛ « وما ارسلناك عليهم وكيلاً » (١٧ : ٥٤) « وكفى بربك وكيلاً » (٤ : ١٧١) « أرايت من اتخذ إلهه هواه أفانت تكون عليه وكيلاً » (٢٥ : ٤٣)

فاذا لا يكون أفضل المرسلين وأول العابدين وكيلاً لرب العالمين فهل هو بعد خليفة عنه ، وهي أسمى المنازل وقمة المراحل ؟ أو هل يكون آدم بذريته كلهم خلفاء الله ؟ وليس أصفياً هم وكلاءه !
أم إنه خليفة الملائكة حتى يستجيش مشاعرهم وضمائرهم لحد الإستفهام كأنه اعتراض : « أتجعل ... ؟ »

(١) تفسير البرهان ١ : ٧٤ - العياشي عن هشام بن سالم قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) ...

وهم عارفون أنفسهم انهم معصومون ويخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » (١٦ : ٥٠) فلا يستخلف عنهم ربهم إلا كما مشاهم أو أطوع منهم وارقي ! فلماذا يسألون « أنجعل .. » أو قد كان يكفيهم « ونحن نسبح بحمدك .. » دون تقصير ، فلماذا الإستخلاف ! .

كما وأن الملائكة لم يكونوا ولن - من سكنة الأرض حتى يخلفهم خليفة في الأرض : « قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً » (١٧ : ٩٥) « ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ، وإنه لعلم للساعة فلا تترن بها » (٤٣ : ٦١) فجعل الملائكة في الأرض مستحيل حتى تقوم الساعة ، فكيف يخلفهم إنسان الأرض وفيهم يخلفهم ؟ أفيما هم يؤمرون في السماء ، عزلاً لهم عن مقاماتهم فهم عُزل ؟ أم فيما يرسلون به إلى الأرض ؟ أم ماذا ؟ ! سبحانه الله هذا بهتان عظيم !

أو هم خليفة الجن ، المفسدين في الأرض ومسفكين ؟ وهم قد خلقوا قبلهم ! : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم » (١٥ : ٢٧) ؟ .

ولكنهم بعد لم ينقضوا ، أو لم يُعبدوا عن الأرض حتى يخلفهم فيها إنسان الأرض ، ثم ولا نعرف خلافة للإنسان عنهم فيما لهم من حياة الأرض ، فكيف يكون الإنسان إذا خليفة عنهم في الأرض ؟ !

أو هم بنو الإنسان ، حيث يخلف بعضهم البعض : « وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض » (٦ : ١٦٥) « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح » (٧ : ٦٩) « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد » (١٧ : ٧٤)

وآية الخلافة : « إني جاعل .. » تعني خلافة آدم الأول ومن ثم بنيه ، فليكن هو الخليفة الأصل ثم فروع الفروع ، وإن « خليفة » تعني - على

أكثر تقدير - هذا النسل أجمع : بأصله وفرعه ، وعلى أقل تقدير : آدم وزوجه ، فلا بد هناك على أية حال من مستخلف عنه قبل هذا النسل .

أم هم خليفة من سلفهم وانقرض من نسل او أنسال ترايبية عاقلة مكلفة أفسدت في الأرض وسفكت الدماء ، فأهلكهم الله بأن قامت قيامتها وانقرضوا ، فأبدلهم الله بهذا الإنسان وجعله خليفة عنهم ؟ ..

وهكذا يبدو من آيتها هذه وسائر آياتها ورواياتها ..

ف « ما علم الملائكة بقولهم : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » لولا أنهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء »^(١) .

فهذه السابقة السيئة التي رأوها من سلف من الخليفة الأرضية هي التي استجاشتهم حتى سألوا ، معترضين على الخليفة الأرضية : أتجعل .. تكراراً لما سلف من إفساد وسفك ، وما هي الحكمة إلا مزيد الصلاح والعبادة « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » وهم لا يسبحون ولا يقدسونك !

فلم يكن يقنعهم « إني أعلم ما لا تعلمون » لو أنهم خليفة الله ، إذ كانوا هم كذلك يعلمون أنه لا يعصى الله فلم يكونوا ليسألوا حائرين .

ولا - لو أنهم خليفتهم أنفسهم ، إذ هم يعلمون من أنفسهم ما يعلمون من نزاهة وطهارة ، فكيف كانوا إذا يسألون ؟ .

فإنما يقنعهم « إني أعلم ما لا تعلمون » ما ينبههم من غيب هذه الخليفة ، خلاف ظهوره الذي مضى مثله ، من إفساد وسفك ، فلم يقل « إنهم لا يفسدون ولا يفسكون » حيث هما معروفان متداولان في تاريخ

(١) تفسير البرهان ١ : ٧٤ - العياشي عن هشام بن سالم قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) ..

الإنسان ، وإنما « اني أعلم ما لا تعلمون » : من ميّزات هذه الخليفة في البعض من مصاديقها وأفرادها ، من مثل عليا لا تصل أيدي ولا أفهام الملائكة إليها ، وفيها جبرٌ كامل لمن يفسدون فيها ويسفكون الدماء من أفرادها .

وكما « علم آدم الاسماء كلها . . . » ولكي يروا النموذج الاول من هذه الخليفة انه يعلمهم وهم تلاميذه ، فضلاً عن الأسماء التي علّم آدم وهم أشباح من الحقيقة المحمدية وسائر الخمسة !

فلأنهم خفيت عنهم حكمة المشيئة العليا في استخلاف هذه الخليفة ، بما عرفوا ممن سبقها من إفساد وسفك وفتك ، سألوا سؤالهم ، فأجابهم الله بما يعلم من خير أكثر من هذا الشر الجزئي !

هذه الجيوش من البراهين القرآنية نستجيشها لأثبات هذه الملحمة الغيبية التي تتفرد بها آيتنا اليتيمة هذه : « إني جاعل في الأرض خليفة » أنها خلافتها لمن سبق من أنسال أمثاله ، مع ما تساندها من روايات متظافرات مهما عارضتها أخرى مختلفات ومختلفات ، فالأصل هو كتاب الله مورداً ومآلاً ، جملة وتفصيلاً : « والذين يمسون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين » (٧ : ١٧٠) .

فقد عاش قبل هذا الإنسان نسل أو أنسال ترابية عاقلة مكلفة^(١) لا

(١) وقد تكون بعض الأجساد المكتشفة الضاربة الى عشرات الآلاف السنين قبل هذا النسل ، قد تكون من الأنسال السابقة ، دون ان تكذب تاريخ هذا النسل . ثم وهؤلاء الذين عاشوا قبل هذا النسل قد يسمون بالنسنان وهم ناس أشرار كما في تفسير نور الثقلين ١ : ٥٨ عن علل الشرايع عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في حديث الخلافة : ثم قال للملائكة انظروا الى اهل الأرض من خلقي من الجن والنسنان فلما رأوا ما يعملون فيها من المعاصي وسفك الدماء والفساد في الأرض بغير الحق عظم ذلك عليهم - الى ان قال - : قال اني جاعل في الأرض خليفة فقالت الملائكة

نعرفها ، عرفتھا الملائكة من ذي قبل فضاقت بها ذرعاً ففرحت بانقراضها ، فرحة العبد لمولاه إذ يجده يُعبد ولا يُعصى ، ثم تضايقت من جعل خليفة لها ، دون ان تحسب حساباً لخلفيات سؤالها فجعلهم الله : «إني اعلم ما لا تعلمون» أن قد تكون هذه الخليفة أعلى منكم في عبادة ربها ، مهما كان فيها ببعض أنسائها فساد وسفك للدماء .

وترى أن سؤالها هذا يتنافى وعصمتهم ، أن اعترضوا على الله لماذا الخليفة ؟ واغتروا بما عرضوا من تسبيحهم وتقديسهم ؟ وقد كذبوا كما قال الله : «أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين» وهم كما يعرفنا الله : «بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعلمون» (٢١ : ٢٦) فكيف سبقوه بقوله السؤال دون نظرة الإيضاح من الله و«يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون» (١٦ : ٥٠) فكيف لم يخافوه إذ سألوه ، وكيف فعلوا ما فعلوه ولم يؤمروا ؟ .

إن السؤال ليس نصاً ولا ظاهراً في الاعتراض ، فإنما سألوا استيضاحاً اذ جهلوا كيف «جاعل في الأرض خليفة» ؟ ثم وذكر النعمة والرحمة ليس اغتراراً بل والتحديث بها مكرمة «وأما بنعمة ربك فحدث» وكان ذكرها تامة السؤال : إن كان جعل الخليفة للعبادة فنحن لها ، وإن كان غير ذلك فبين لنا .

ثم «إن كنتم صادقين» وإن كان تلميحاً بالكذب ، ولكنه كذب جاهل

سبحانك انجعل فيها

وفيه (٥٩) عن كتاب التوحيد للصدوق عن أبي جعفر (عليه السلام) حديث طويل يقول في آخره : لعلك ترى أن الله انما خلق هذا العالم الواحد ؟ او ترى ان الله لم يخلق بشراً غيركم ؟ بلى والله لقد خلق الف الف عالم والف الف آدم انت في آخر تلك العوالم واولئك الادميين .

لا كذب متعمد ، فانهم سألوا جاهلين كأن فيهم الكفاية فلماذا هذه الخليفة ؟ فقد كذبوا قاصرين لا مقصرين ، وهكذا كذب يشمل العالمين أجمعين : ان يجهلوا كثيراً عما يعلمه رب العالمين ، فمنهم من يبرزه بسؤال وسواه كهؤلاء الملائكة ، ومنهم من لا يسأل كالرعيل الأعلى من النبيين .

ثم ومن نقد الملائكة الخليفة الأرضية: «يفسد فيها ويسفك الدماء» ومقابلتهم لهذا النقد بما لهم: «ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» نعرف أن الشر كله يختصر في الإفساد والسفك ، والخير كله في التسبيح بالحمد والتقديس لله ، فليكن صحيحاً مصداقاً عند الله إلا في الآخرين ، أن المعرفة هي القمة في الخير ، التي تنتج تسبيحاً بالحمد وتقديساً أعلى وأحرى .

فالإفساد في الأرض يشمل كل فساد فردي يفسد فاعله ، وجماعي يفسد مجتمعه ، نفسياً أم مادياً ، ومن أظهره جمعاً بينها سفك الدماء فانه جماع الإفساد .

مركز تحقيق كتاب توحيد العلوم الإسلامي

ولماذا تسبيح بالحمد وليس التسبيح وليس الحمد والتسبيح والحمد ؟ أقول : لأن تسبيحه فقط دون حمد نفي بلا إثبات ، والنفي ذريعة الإثبات ، والحمد دون تسبيح إثبات ناقص لأنه إثبات بحدود المعرفيات ووصف له تعالى محدود «وسبحان الله عما يصفون» وكذلك التسبيح والحمد دون رباط ، حيث التسبيح ينفي والحمد لا يثبت ما يليق بساحته .

فأما التسبيح بحمده ، فإن نحمده مسبحين منزهين لساحة قدسه عن إثباتياتنا المحدودة ، وإنما : عالم = ليس يجهل . قادر = ليس يعجز . موجود = ليس بمعدوم . . . وهكذا في كافة صفاته الثبوتية ، ألا نصفه في حدود أفكارنا بما نعرفه ونأنسه من صفات وإثباتات ، وإنما نسبحه بحمده : ننزهه في حمدنا إياه عما هو إلزام حمدنا من حدود وتخيلات ، فانما إثباتاتنا

تنحو منحى نقي كل ما عندنا وفي عالمنا وحدود تصوراتنا وادراكاتنا عن
ساحة قدسه ، فالصفات الثبوتية تؤول الى السلبية من نوع آخر ، فهو
إذا «خارج عن الحدين حد الإبطال وحد التشبيه » لا منفي إطلاقاً ، ولا
مثبت له شبيه ، فما أجمله وأحلاه «التسبيح بالحمد » !

ثم «ونقدس لك » تعني ما تعنيه «ونسبح بحمدك » وزيادة : أننا نعيش
تقديساً لذاتك وصفاتك وتصرفاتك ، وفي أنفسنا تعبداً لك وخشوعاً ، وفي
أفعالنا اتباعاً لك وبُخوعاً .

ولكن ترى هل تكفي حياة التسبيح بحمد الله والتقديس لله لحد ثابت
ومقام معلوم : «وما منا إلا وله مقام معلوم » لسان قال لهم يكشف عن
حالهم الثابت إذ تدوم دولما تقدم .

ثم وهل تكفي هذه دون معرفة لائقه بجناب قدسه ؟ وفي هذه الخليفة
الأرضية من هم فوقهم في هذه وتلك رغم أنهم سماويون ؟

إذا فالجواب : «إني أعلم ما لا تعلمون » هو على إجماله كل الجواب ،
عن سؤال الإفساد والسفك ، ورعونة التسبيح بالحمد والتقديس ، بما علم
آدم الاسماء كلها ، وبما أنبأهم آدم الاسماء كلها :

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ
هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ
أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْیْ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴿ (٣٣)

وها نحن مع الملائكة ننظر بعين البصيرة، ونسمع بأذن صاغية، ونعي
بقلوب واعية في ومضات الاستشراف، ما هذا السر الإلهي الذي اختصه
الله بهذه الخليفة الأرضية، التي تخضع لديها رسل السماء الملائكية ، وهو

بذلك يسلّمها مقاليد الخلافة الأخيرة السامية ، وكرسي التعليم للملائكة؟! إنه كله في «وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم ...» فانظر ماذا ترى!

فهل الاسماء هنا هي - فقط - أسماء الأشخاص والأشياء؟ و«هم» و«هؤلاء» لا تعنيان إلا ذوات عقلاء! «ثم عرضهم ... بأسماء هؤلاء»! ومن ثمّ وما قيمة علم هذه الأسماء وكثيرون يعلمون كثيراً من الأسماء وليسوا بأفضل ممن لا يعلمونها ، ولو أن الملائكة علّمتها كما علّم آدم لكانت مثل آدم كما أنبأهم بها بما أمر الله .

فليس علم هذه الأسماء مما يتفاضل فيه ، ولا أنه جناح من جناحي العلم بالله وتقوى الله، وهذه الأسماء إنما يحتاج إليها في تفاهم مسمياتها، والملائكة يتلقونها دون وسائط ، ولا يحتاجونها كما يحتاجها الإنسان في الحاجيات الجماعية الأرضية!

أو انها المسميات ، حيث الإسم من الوسم^(١) : العلامة - الدلالة ، ودلالات الأسماء اللفظية على المدلولات هي من أضعف الدلالات ، فأعلى منها دلالات الذوات والأفعال والصفات على مدلولاتها فيما بينها ، ثم

(١) هذا احد وجهي الاسم اصلاً وقيل اصله سمو من السمو : العلو، لان تصغيره سُمي، فلو كان من وسم : العلامة، لكان تصغيره وُسيم ، والعلامة انسب له معنى، والعلو لفظاً ، وعلّهما معنيان أحياناً وأحدهما أخرى ، او يقال ان الاسم السمو يناسبه معنوياً كما اللفظي فانه يعرف به ذات الشيء، فبه يُرفع المسمى عن حضيض المجهول ، ولكل وجه ، والأوجه ان السماء من السمو : العلو والرفعة ، والإسم من وسم : العلامة ، او ومن السمو ايضاً .

ثم الاسم قد يكون مأخوذاً من « شيا » آرامية وعبرية ، وهي تستقل عن مادة السماء : الرفعة ، وذكرها في مادة السمو غفلة عن تحقيق اصل الكلمة .

دلالات الكائنات كل الكائنات على مكوّنها بدرجاتها ، ثم دلالات الرّعيّل الأعلى من رجالات الله : بذواتهم وصفاتهم وتصرفاتهم وإرشاداتهم على الله ثم الذروة العليا منهم وهي الحقيقة المحمدية العظمى فإنها الآية الكبرى وأعظم اسمائه الحسنى بين الممكنات ، بجانب ما لله من سائر الأسماء الحسنى ، أيّاماً تدعوا فله الأسماء الحسنى « (١٧ : ١١٠) » والله الأسماء الحسنى فادعوه بها « (٧ : ١٧) .

فأحرى بهم هؤلاء أن تعنيهم الاسماء التي علّمها آدم كلها : أنهم أنبياء الله ورسله .

ولكنما التعلّم لا يناسب الذوات وإنما هو التعريف ، ثم ويبقى السؤال كيف يفضّل آدم على الملائكة لأن الله علّمه دونهم ثم كلّفه أن ينبئهم بها ؟

في الحق إن الأسماء هنا مجمع الإسمين ألفاظاً وذوات ، ولأن بداية المعرفة كانت بالنسبة للالفاظ صحّ التعليم ، مهما انتهت الى معرفة الذوات ، وقد تبين هنا لهذه الخليفة فضيلتان اثنتان :

الأولى لآدم حيث علّم الأسماء ألفاظاً وذوات ثم لم ينبئ الملائكة بالذوات وإنما « بأسماء هؤلاء » وإن كانت تكشف أشباحاً من هؤلاء الذوات ، ولكنه قليل بجانب ما عرّفه آدم من الذوات ، تدليلاً على أن الملائكة ليست بالتي تتمكن أن تعرف او تعرف حقائق هذه الذوات ، بياناً لكيانهم بما خلق الله : أنه محدود بما حدّد الله ، دون هذه الخليفة التي منها آدم ، فليس علمه محدوداً لحدّ فهم : « ما منا إلّا وله مقام معلوم » والخليفة : « وقل رب زدني علماً »

والثانية أن هؤلاء الذوات هي الأصيلة في هذه الخلافة ، مهما كانت لأشباههم في الصورة الإنسانية تخلفات وترذّلات من إفساد وسفك دماء ، فإن هؤلاء الأشباح لا تشبه أشباهها في المعنى مهما شابهتها في الصور .

لذلك « وعلم آدم الأسماء كلها » : أسماء هؤلاء الخلفاء كلها ، وذواتهم بأشباههم كلهم ، تجيئداً وعرضاً لآدم أولاً لكي يعرف موقعه أنه يحمل في صلبه هذه الأمانات الغالية ، وللملائكة لكي يعلموا : « إني أعلم » من هذه الخليفة « ما لا تعلمون » فهناك البون الشاسع بينكم وبينه لحد لا تعرفون حقائقهم إذ لا تتمكنون ، حيث هم في الذروة العليا ، وما أنتم بها حتى تحيطوها معرفة وعلماً ، فانما أنبئتم بأسماءهم لكي تتعرفوا حسب المستطاع إلى ذواتهم . قدر ما تعلمون : « إني أعلم ما لا تعلمون » !

فالأسماء الذوات هي المعروضة هنا على ملائكة السماوات ، : « ثم عرضهم على الملائكة » دون « عرضها » حيث العرض للذوات ، ودون « عرفهم الملائكة » حيث العرض لمنظر من الأشباح ، لا حقائقها كلها . لان هؤلاء من غيب السماوات والأرض : « فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض » وهم - أو معظمهم - رجالات الله : النبيين والمرسلين : حقائق عاقلة محجوبة تحت حجاب الغيب : غيب السماوات والأرض ، كشف الله لآدم منها أسماء وذوات ، وأنبا الملائكة بأسمائهم بآدم ، ولكن ترى : إنباء الأسماء فقط دون أي كشف عن حقائقها ؟ إذا فكيف عرفت الملائكة فضلهم ، وعرفت فضل آدم بما علمهم دونهم ! .

فليكن في عرض هؤلاء الذوات على الملائكة ، وإنبائهم بأسمائهم - ليكون في هذا الإنباء وذلك العرض تعريف ما بالذوات ، يكفي لهم إقناعاً : أنهم هم الأفضلون في الفضائل كلها ، لحد لا يحيطون - وحتى - معرفة بجنابهم وعلماً بذواتهم كما يحق .

فهنا تعليم وعرض وإنباء يخص آدم بتعليم الأسماء والذوات ، وهو

فوق العرض والإنبياء، حيث خُصَّ بهما الملائكة ، فقد أنبأت بأسماءها بعدما عُرِضت عليهم ذواتها ، إلا أن هذا الإنبياء والعرض ما عُلِّمها الملائكة قدر ما عُلِّم آدم بالتعليم !

فَعَرَضَها أن عَرَفَهم شجراً من أشباحهم يستشرفونها من بُعد ولما، وقد كان العرض بحيث تُستعرض منه أسماء المعروضين لمن يؤهل ، وإلا لم يكن معنى لـ : « أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » لولا أن العرض يُنبئهم !

ثم وإنبياء أسماءها زادتهم معرفة ، ولحد الإقناع « إني أعلم ما لا تعلمون » : إنهم أعلى منكم محتداً وفي التسييح والتقديس ، دون إحاطة على هذه الحقائق النورانية التي تخطف الأبصار ، فلا تبصر منها إلا بحدود الإبصار ، فلكل من العرض فالإنبياء بالأسماء دوره في تعريف ذواتهم قدر إمكانية الملائكة ، وكما أن تعليم الأسماء عرّف آدم الذوات والأسماء قدر إمكانيته فوقهم ، لحدّ أصبح يُنبئهم بأسمائهم !

ذلك ! ولم يكن آدم وقتذاك نبياً حيث « عصى آدم ربه - بعد ذلك - فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدي » (٢٠ : ١٢٢) وهذا الإجتباه ثم الهدى هما النبوة بعد إذ تاب عما عصى .

فـ « إني أعلم ما لا تعلمون » في بداية الجواب، كان له دور الإقناع دون شهود ، ولكننا العرض والإنبياء لهما دور الإقناع بشهود، حتى أتى موقع التنديد التذكير : « فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » !

فقد عجزت الملائكة من إستنباء أسماء هؤلاء بعد عرضهم عليهم ، وكان العرض بحيث ينبئ ، وعجزت أن تعرف حقائق هؤلاء الذوات المقدسة : الخلفاء، وكان الإنبياء بعد العرض مما يعرف ، وقد خص آدم

(عليه السلام) بتعليم الأسماء بالذوات دفعة واحدة ، مما يدل على رجاحة ميزانيته عليهم^(١)، وعلى أفضلية هؤلاء الخلفاء كذلك .

وبطبيعة الحال حصلت لهم أشباح من المعرفة بهذه الذوات حسب الدرجات ، ولكنها الحقيقة المحمدية لم تكن تظهر لهم ولا لأدم كما يحق ، فقد بهروا وتحيروا منها ، واستدلوا بما عرفوا مما دونها على تلكم القمة العليا^(٢) وتعبدت لهم الطريق لكي يسجدوا لأدم كما أمروا !

... « فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » في دعواكم « ونحن نسبح بحمرك ونقدس لك » « أنكم الافضلون من هذه الخليفة - وصادقين » في سؤالكم « أتجعل فيها ؟ »

فها أنتم لم تعرفوا أسماءهم بعدما عُرضوا لكم بأشباحهم فكيف تدعون ؟ .. ثم وبعد أن تعرفوا أسماءهم فتزادون بهم معرفة بعدما أنباكم آدم ، فتعرفون من هم ، فأين هم وأين أنتم ؟ !

« فلما أنباهم بأسمائهم قال ... وأعلم ما تبدون » مما تقولون « وما كنتم تكتمون » : وقد كتبه الله عنا إلا ما بينه عن إبليس .

فقد «عجزت الملائكة على قربهم من كرسي كرامته وطول ولهم إلىه

(١) في معاني الأخبار وكمال الدين وتمام النعمة وعن الصادق (عليه السلام) : ان الله عز وجل علم آدم أسماء حجبها كلها ثم عرضهم وهم ارواح على الملائكة فقال : انبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين « بأنكم احق بالخلافة في الارض

(٢) تفسير البرهان ١ : ٧٣ عن تفسير الامام الحسن العسكري (عليه السلام) في آية الاسماء قال : اسماء انبياء الله واسماء محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي وفاطمة والحسن والحسين والطيبين من آلها - ثم عرضهم :- عرض محمداً وعلياً والائمة على الملائكة، اي عرض أشباحهم وهم أنوار في الأظلة .

وتعظيم جلال عزه وقوتهم من غيب ملكوته أن يعلموا من أمره إلا ما أعلمهم وهم من ملكوت القدس بحيث هم، ومن معرفته على ما فطرهم عليه أن قالوا : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا »^(١).

فيا لهذا النسل الأخير الإنساني من مكررات جعلته خير الأنسال الترابية - لا فحسب ! فقد فضّلت على ملائكة السماء ، فلا أفضل منه في تاريخ التكوين : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » (٩٥ : ٤) فليس في الخلق أقوم منه ، اللهم إلا أن يماثله من لا نعرفه : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » (١٧ : ٧٠) فمن هذا القليل الذي يزامله في هذه القوامه الحسنی ؟ لا ندري !

ثم اللهم إلا أن لا يعرفوا كيانهم فيردون إلى أسفل سافلين ، بعد ما خلقهم الله في أحسن تقويم ،

في ذلك التعليم والإنباء والعرض عرضٌ لكيان هذه الخليفة في معرض القياس على الملائكة ، ولكي يعلموا أن هذه الخليفة الترابية البشر ، المخلوقة من تراب من حمٍ مسنون ، هي أعلى من ملائكة السماوات ! ولكي يعلم الإنسان من هو ، فليجد بالسير الى مثله العليا .

نكات مستدركات حول هذه الآيات :

١ - « اني جاعل » دون « خالق » توحى أنه جعل خليفة بعد خلقه لا بخلقه ، وعمل بداية خلافته حين نبيء بعدما « عصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » وإن كان تعليمه الأسماء وإسجاد الملائكة له قبل ذلك ، فقد كفى إثباتاً لخلافته بذريته الانبياء تعليمه الأسماء - ذاتياً - وإنباؤهم وعرضهم الأسماء حملاً لهؤلاء الخلفاء . . .

(١) نور الثقلين ١ : ٥٥ عن التوحيد للصدوق خطبة لعلي عليه السلام يقول فيها : . .

٢ - « أنبشوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » : في « من يفسد فيها ويسفك الدماء » فانه مهما حصل فهو أقل ممن مضى ، وليس معذلك ممن يعنى من « خليفة » فانها هم الأسماء التي سوف تعرض عليكم وتنبشون بأسمائها .

او « صادقين » في « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » كأنكم أنتم الأعلون في هذا المسرح .

او « صادقين » في معرفة هذه الخليفة ، أن تدفعكم للحكم عليها ولأنفسكم ، أم ماذا

٣ - « قالوا سبحانه » : ننزهك عن أن نقول بغير علم ، أو أن تجعل فيها من يفسد فيها . . أو أن نعلم قبل أن نعلم - :

٤ - « لا علم لنا إلا ما علمتنا » توحى أن علوم الملائكة إنما هي بالتعليم الإلهي وحيثاً دونها محاولة منهم أو تحصيل ، كدحاً في تعلم أو تفكير ، إلا وحي ، ومن مميزات الإنسان عدم انحصار علومه بهكذا وحي ، فله استخدام مختلف الوسائل للحصول على علوم مهما قلت أو كثرت ، ومهما اخطأ فيها لو سلك غير سبلها .

فعلم الوحي في الملائكة والناس على سواء في عدم تكلف التحصيل ، ثم للإنسان علم زائد يحصل له بتحصيل ، وهو ليس للملائكة دون وحي إلا جهلاً ، ولكنه للإنسان علم بعد علم الوحي ، مهما تورط في مجاهيل .

ف « لا علم لنا إلا ما علمتنا » اعتراف بأن بقصورهم وجاء هذه الخليفة : « إنك أنت العليم » دون سواك ، تعلم ما تفعل وتفعل ما تعلم : « الحكيم » في أفعالك كلها كما هنا وإنما نحن الخاطئون !

هنا يحسن بنا عرض نظير القصة من الأصل السرياني لكتاب ادريس

النبي (عليه السلام) في تعيين أفضل المخلوقين نقلاً عن آدم (عليه السلام) أنني رأيت خمسة أشباح نورانية مكتوبة أسمائهم على العرش في غاية العظمة والجلال والجمال والكمال والحسن والضياء والبهاء ، حيث أغرقتني أنوارهم في الحيرة ..

قلت : يا رب ! من هؤلاء ، فإذا أنا ناظر الى العرش أرى هذه الأسماء : ﴿ يا رَقْلِيْطَا = مُحَمَّد . إِيْلِيَا = عَلِي . طِيْطَه = فَاطِمَة . شُبَيْر = حَسَن . شُبَيْر = حَسِين .

﴿ إِنِّي لَهَوِيَّوُهُ أَنَا لِبَرِيْن وَارِخ لَا الشَّمَاي وَلَا أَلْ أَرْعَا وَلَا الْبَرْدِس وَلَا الْكُهِيْن وَلَا الشَّمْس وَلَا السَّمَر : ﴿

« لولاهم لما خلقتك يا آدم ولا السماء ولا الأرض ولا الجنة ولا النار ولا الشمس ولا القمر » .

﴿ هَلِيْلُوهُ لَيْتُ شَوْقِي مَبِيْ مُحَمَّدٍ إِنُوِي دَالَه : ﴿

« هللونى فانه لا إله إلا أنا ومحمد رسولى »^(١) .

(١) هذه البشارة ينقلها جديد الاسلام في كتاب انيس الاعلام ج ٢ عن النسخة السريانية من كتاب ادريس (عليه السلام) في مكتبة الآثار في لندن المطبوعة ١٨٩٥ ص ٥١٤ - ٥١٥ بالتفصيل الآتي .

فيما كان ادريس النبي ببابل في معبد ، ينقل هذه القصة بين جمهور من اصحابه : « اختلف ولد ابيكم آدم (عليه السلام) يوماً في : من هو أفضل الخليفة ؟ - فقال بعضهم : انه ابونا آدم إذ خلقه الله بيد قدرته ونفخ فيه من روحه وأمر ملائكته بتعظيمه وتكرمه وجعله معلمهم وخليفة في الأرض . وقال آخرون : الملائكة افضل من أئبنا فانهم لم يعصوا الله ولن يعصوه ، وابونا آدم عصاه فانخرجه الله وزوجه من الجنة ، مهما تاب عليه وهداه ووعد المؤمنين من ذريته الجنة .

وقال ثالثة إن اشرف الخلق هو الملك العظيم جبرئيل امين رب العالمين . =

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾
وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا
رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا
فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ
مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ
فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا
مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِعَايِنَتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

.. معركة مصيرية دائمة تنبثق بين خليفة الخير : آدم ، وبين خليفة

زادت خلافتهم فقال آدم : اسمعوا حتى أخبركم بمن هو أفضل خلق الله :
لما خلقتني الله ونفخ في من روجه جلست فرأيت : ...
وهكذا نرى في انجيل برنابا ٣٩ : ١٤ - ٢٨ ولكنه لم يأت إلا بذكر الرسول محمد
(صلى الله عليه وآله وسلم) (راجع كتابنا : رسول الاسلام في الكتب السماوية) .

الشر : ابليس ، عندما يؤمر الملائكة بالسجود لآدم ، ندرس هذه المعركة بأجواءها وأرجاءها ومخلفاتها ومعداتنا من خلال الآيات التي تستعرضها تصريحاً أو تلميحاً وقد صرح بها في مواضع سبعة^(١) هذه منها :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾^{٣٤}

« وإذ » قد تكون عطفاً على « وإذ قال ربك » ثم وعلى المحذوف في « وما كنتم تكتمون » إذ . . « وإذ قلنا » بياناً لأهم ما كانوا يكتُمون من الإستكبار عن السجود لآدم ، كما حصل لإبليس « وكان من الكافرين » ظهور العصيان إذ كان يكتُم كفره .

وترى متى قال للملائكة اسجدوا لآدم ؟ وكيف أمروا أن يسجدوا لآدم ؟ وإذ لم يكن إبليس من الملائكة : « وكان من الجن » (١٨ : ٥٠) فلا يشمل أمر الملائكة ، فكيف أبى واستكبر ، فهل عما لم يؤمر ؟ !
إنهم أمروا أن يسجدوا لآدم قبل خلقه : « وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (٣٨ : ٧٢) فموقع الأمر قبل خلقه ، وموقع السجدة بعد خلقه ، وقد تكون بعدما علم آدم الاسماء كلها لتكون السجدة أمكن وأمتن ، أو تكون قبله لتكون المحنة أتم ، ولكن فلنسكت عما سكت الله عنه .

(١) المواضع الستة الأخرى هي : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس » (١١ : ٧) « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال اسجد لئن خلقت طيناً » (١٧ : ٦١) « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى » (٢٠ : ١١٦) « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » (١٨ : ٥٠) « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (١٥ : ٢٩) و (٣٨ : ٧٢) .

وأما السجود لآدم ؟ فهل المسجود هنا آدم عبادة ؟ و « أمر ألا تعبدوا إلا إياه » (١٢ : ٤٠) فلا يمكن أن يأمر بعبادة غير الله ، فانها تسوية ضالة ظلمة بين الله وسواه : « تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين » (٢٦ : ٩٨) ثم ولا طائل تحت هذه العبادة اللهم إلا دفعاً لعبادة غير الله ، اتباعاً للملائكة الله !

او أنها تكريم لخليفة الله ، ان يسجد لآدم إكراماً له واحتراماً ؟ فهكذا الأمر ! فهل يأمر الله بهكذا تكريم لسواه ، وفيه إهانة لساحته ، وتشريك له معه في كرامته ، وتسوية له في حرمة ، ونيل من محتده ، فلم يكن الله ليسمح أو يأمر باحترام لآدم أو من فوقه ، وفيه اخترام لساحة قدسه والإحترام درجات قمته احترام العبادة فلا يحق إلا للمعبود !

كما وآيات السجود تختصه - عبادة واحتراماً - بالله ، وما « فخرنا له سجداً » من والدي يوسف له ، إلا كما سجد الملائكة لآدم ، إذ تعنيان معنى سواء ، دون أن تفسر إحداهما الأخرى ! .

فعدم جواز التسوية بين العالي والداني ، فضلاً عن الله وخلقه ، إنه من المستقلات العقلية ، والسجود هو الغاية القمة من مراحل العبادة عبادة ، ومن الحرمة احتراماً أو شكراً ، اللهم إلا اذا كان بقصد الإستهزاء فليس إذا سجوداً ، ومشرح البحث هنا هو سجود العبادة والإحترام دون اللعبة والإخترام ، وهو - لا شك - منحصر في الله ، منحصر عن سوا الله مهما كان عظيماً ، فلا عظيم بجانب الله !

أترى ان الله يأمر بما هو ضلال وظلم في نفسه ، ولكي يرغب الى عبادة غيره او احترامه كمثلته سواء .

والقرآن في عشرات الآيات يصرح باختصاص السجود بالله أيّاً كان :
« إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون »

(٧ : ٢٠٦) أترى انه تعالى يمدح الملائكة في اختصاص السجود به ثم يامرهم ان يسجدوا لآدم ، فانما الخالق هو الذي يحق أن يُسجد له دون سواه ، فلا تعني « اسجدوا لآدم » إلا ما تعنيه « وله يسجدون » بفارق ان هذه مطلق السجود لله ، وتلك هي سجود الشكر حيث « لآدم » و « لا تسجدوا للشمس والقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم اياه تعبدون » (٤١ : ٣٧) : فتوحيد العبادة لله لزامه توحيد السجدة لله ، ولانه الخالق دون سواه و « هل من خالق غير الله » « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله احداً » (٧٢ : ١٨) (١).

ثم ولم يسبق لأحد من أنبياء الله ، ولا لنبي الأنبياء محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يسمح بالسجود او الركوع له ، ومناطق السماح - لو جاز لآدم - هو فيه أقوى بما لا يحصى ! ولقد كذب كونه تحية الأنبياء (٢) إذ « ما ينبغي لبشر أن يسجد لبشر » (٣) ولا « لأحد أن يسجد لأحد من دون الله يخضع له خضوعه لله ويعظم به السجود كتعظيمه لله » (٤) لا وحق أن يُقبل

- (١) راجع لتفسير الآية الى ج ٢٩ : ١٩٣ - ١٩٤ تجد بحثاً فصلاً عن السجود
- (٢) روى احمد بن حنبل في مسنده ٤ : ٣٨١ - ان معاذاً لما قدم من اليمن سجد للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : يا معاذ ! ما هذا ؟ قال : ان اليهود تسجد لعظمائها وعلمائها ورأيت النصارى تسجد لقسوسها ويطارقونها ، قلت ما هذا ؟ قالوا : تحية الانبياء فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : كذبوا على انبيائهم .
- (٣) الجصاص ١ : ٣٥ عن عائشة وجابر بن عبد الله وانس ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ما ينبغي لبشر ان يسجد لبشر ولو صلح لبشر ان يسجد لبشر لامرت المرأة ان تسجد لزوجها من عظم حقه عليها « ورواه ابن ماجه واحمد بن حنبل في مسنده ٤ : ٣٨١ و ٦ : ٧٦ و ٥ : ٢٢٨ وروى ما في معناه ابو داود في سننه - نكاح : ٤٠ .

(٤) تفسير البرهان ١ : ٨١ عن تفسير الامام الحسن العسكري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ... ولم يكن سجودهم لآدم انما كان آدم قبله

رجل ولي من أولياء الله ، فهل -بقي شيء - بقي شيء (١) لله ، لو سويتنا بينه وبين عباده احتراماً فضلاً عن عبادة ! كما هوى رجل على قدميه (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : تنح ! دع عنك أفاعيل الأعاجم (٢) وما إلى ذلك من مواقف مشرفة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من آل الرسول ، مستنكرين الركوع أو السجود - مهما كان احتراماً دون عبادة لغير الله -، ولهم ! وهم من نعرفهم بفضلهم على آدم ومن فوقه، فكيف يختص آدم بسجود الملائكة ، ثم يحرم من هم أدنا منهم ان يسجدوا لمن فوقه ، ان هي إلا قبلة فارغة هراء ، والله منها براء !

أم كان آدم قبلة لهم في سجودهم لله ؟ والقبلة لا يسجد له ، وإنما يسجد إليه ، وهنا السجود لآدم لا إلى آدم ! ثم لا تفضيل له عليهم بالسجود إليه كقبلة ، كما الرسول يسجد إلى القبلة التي هي دونه ! والسجدة لآدم تحمل تكريماً له على الملائكة وفيهم إبليس القاتل : « ارايتك

مركز تحقيق كتابات علوم إسلامي

= لهم يسجدون نحوه لله عز وجل وكان بذلك معظماً مبعلاً ولا ينبغي لأحد . . . ولو أمرت أحداً ان يسجد هكذا لغير الله لأمرت ضعفاء شيعتنا وسائر المكلفين من شيعتنا ان يسجدوا لمن توسط في علوم وصي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . (١) في الوافي باب المعانقة والتقبيل عن أبي عبد الله (عليه السلام) قيل له اعطني يدك اقبلها فأعطاهها ثم وجهك فأعطاه ، ثم قال : ورجلك قال : هل بقي شيء ثم قال : لا يقبل وجه أحد ولا يده إلا رسول الله او من اريد به رسول الله - وفي حديث آخر : إلا رسول الله او وصي رسول الله .

(٢) في حديث لا اذكر مستنده ان أعجمياً اراد ان يسوي على قدمي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : تنح ! دع عنك أفاعيل الأعاجم .

وفي تفسير الرازي ٢ : ٢١٢ عن الثوري عن سماك بن هاني قال : دخل الجاثليق على علي بن ابي طالب فأراد ان يسجد له فقال علي (عليه السلام) : اسجد لله ولا تسجد لي .

هذا الذي كَرَّمَت علي .. (١٧ : ٦٢) ! وان كانت سجدة الشكر لنعمة لا تجعلها أفضل من الشاكر، اللهم الا اذا كان نعمة روحية من تعليم او نبوة !

أم كان السجود لله شكراً على ما أنعم عليهم بمعلم كآدم ، كما تقول : سجدت لولدي - لرزقي - لصحتي .. والمسجود هو الله لما أعطاك وحباك ! فاللَّام إذاً للغاية « اسجدوا » لله « لآدم » حيث خلقه الله لكم معلماً داعياً إليه وسراجاً منيراً كما « ورفع ابوه على العرش وخرّوا له سجداً » (١٢ : ١٠٠) : خروا سجداً لله ليوسف حيث وجدوه حياً عزيزاً ، فليس يعني السجود هنا وهناك لآدم او يوسف أنه المسجود له ، وانما مسجود لاجله المعبر عنه بـ « له » « لآدم » !

فاللام الأولى للمسجود له والثانية للمسجود لاجله^(١) تحذف الاولى حين تحذف اعتماداً على الضرورة العقلية والقرآنية وسائر كتابات السماء أن لا سجود إلا لله ، عبودية أو احتراماً أم شكراً ؟

وقد يجوز أنهم سجدوا إليه كقبلة ، سجوداً لله : « اسجدوا لآدم » : لله شكراً لما خلق آدم ، متوجهين إليه كقبلة ، حيث كونه وسيطاً بينهم وبين الله في سجودهم وسائر عباداتهم لله .

فـ « انما كان آدم قبله لهم يسجدون نحوه لله وكان بذلك معظماً مبيحاً »^(٢) ام انهم سجدوا عليه كترية يسجد عليها ؟ ولكننا الملائكة ليست لتسجد على شيء فانها ماكنة السماء لا ساكنة الارض ! وليس هنا السجدة

(١) لسان العرب ٣ : ٢٠٤ - ولاهل العربية وجه آخر وهو ان يجعل اللام في قوله : وخرّوا له سجداً - وقوله : رايتهم لي ساجدين - لام من اجل : فالمعنى : وخرّوا من اجله سجداً لله شكراً .

(٢) تفسير البرهان ١ : ٨١ عن تفسير الامام الحسن العسكري (عليه السلام) .

« على » بل السجدة لـ !

ولكن « لـ » في السجود ، دون « الى » او « على » ينحّي هذا السجود عن هاتين ، اللهم إلا معنياً ضمنياً ما صلح معنوياً كالقبلة ، دون كونه كترية يسجد عليه !

او أن لأمه للإنتفاع « اسجدوا لينتفع آدم » : اخضعوا لأمر الله في تحقيق مصالح آدم لحاجياته الحيوية نفسية ومادية . وكما نراهم هكذا يعملون ، من ملائكة الوحي والمديرات أمراً أم ماذا .

أو أنه يحمل مثلث المعنى : أن آدم كان قبلة والمسجود هو الله سجدة شكر لله ، وخضوع في صالح آدم لأمر الله ، والآية تتحملها كلها ، ما دام المسجود هو الله ، دون آدم ، ولأن « سجد » لازم فليتعد بشيء ، فلام « لله » هي للتعدي . . . اسجدوا لله واللام في غير الله لغيرها كما في سجدة الشكر « لأدم وليوسف » إذ تعنيان : اسجدوا لله لأدم او ليوسف !

ومهما يكن من شيء ففي هذا السجود لأدم مكرمة له وشكر لله أن يسجد له الله لما أنعم ، لما أنعم ، فله الشكر بما أنعم وألهم .

وهل يا ترى أن الملائكة كيف سجدوا ؟ لا شك انهم تطامنوا في غاية التذلل والخنوع ، واما كيف فلا ندري ، فلكل كائن هيئة خاصة لسجوده

(١) ومن اغرب ما نراه في هذا المسرح اختلاف الشيخين الأعظمين المفيد والطوسي في ماهية الشيء ؟ اختلاف التناقض - قال في البيان : كان ابليس من الملائكة بدلالة استثناءه من جملةهم وهو المروي عن أبي عبد الله والظاهر في تفسيرنا واخبارنا .

وقال الشيخ المفيد ابليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة وقد جاءت الأخبار بذلك متواترة عن ائمة الهدى وهو من مذهب الامامية .

أقول : ليتها استندا فيها ذهبوا اليه الى كتاب الله ، دون ان يقعوا في فخ دعوى التناقض بين متواتر الأخبار ١ - حاشي الصفحة ٣٠٣ .

كما يناسبه ، ام دون هيئة وانما حقيقة السجود كما « والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم » (١٣ : ١٥) « والنجم والشجر يسجدان » (٥٥ : ٦) ولا شك ليس يسجد كل الكائنات كما نسجد بوضع الجباه على الأرض ، ولا سيما في السجود التكويني كرهاً ان ذواتها خاضعة لإرادة الله ، مسيرة في قبضة الله دونما تمنع ، لا فحسب ، فحتى الإنسان حيث يؤمر بغاية الخضوع أحياناً دون هيئته الخاصة كما الخضوع للقرآن - التام - : « فما لهم لا يؤمنون . وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون » (٨٤ : ٢١) حيث تفرض السجود عند قراءة القرآن ككل ، وهو لا شك غير سجدة التلاوة في آياتها الخاصة ، حيث الموضوع هنا القرآن كله ، فلتكن غاية الخضوع استماعاً وإنصاتاً وتفهماً وتصديقاً وتطبيقاً ، وهي هنا السجدة كما قد تكون السجدة حالة المشي، فلا يمكن ان تكون الهيئة الخاصة في الصلاة كما أمر بنو اسرائيل حين دخول القدس : « وادخلوا الباب سجداً » (٢ : ٥٨) فغاية الخضوع حالة المشي الدخول، هي التظامن الى الأرض كما يستطاع، وهو أرفع من الركوع ، وأرفع من السجود ! .

فالسجود بكافة صنوفه في هيئات خاصة او دونها ، له معنى واحد : « غاية الخضوع » : طوعاً او كرهاً بأرجائه وأجوائه ، مهما اختلفت شاكلته وحالاته وغاياته ، اللهم إلا هتكاً وهزاً !

إذاً فلا تهمنا وتعنينا أن الملائكة كيف سجدوا ويسجدون ، وبعدها سكت الله عنها ، وانما أنهم خضعوا للغاية وتذلّلوا للنهاية بما لا يحق إلا لله ، فسبحان الله عما يصفون ! .
﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ . . » .

لا شك أن ابليس لم يكن من الملائكة كوناً في أصله وهيئته (هـ) مهما كان

٣٠٤ الجزء الأول

منهم في كيانه وظاهر عبادته ، فقد « كان من الجن ففسق عن امر به » ولو كان من الملائكة لم يفسق عن أمر ربه : « يل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » « يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » .

كما وأن الملائكة أيضاً تعترف أن الجن لا تسامحهم ولا تجانس : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت وليتنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن » (٣٤ : ٤١)

ومن ثم فإبليس له ذرية : « أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني » (١٨ : ٥٠) ولا ذرية إلا بين ذكر وأنثى ، والجن منهم نساء ومنهم رجال : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن » والملائكة لا ذكور فيهم ولا أناث : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثاً أشهدوا خلقهم » وإذ لا أناث فيهم فلا رجال ، أم - على أقل تقدير - ليست لهم ذرية فإنها بين رجال وأناث ! .

فترى إذ لم يكن إبليس من قبيل الملائكة فكيف يشمله أمر السجود الخاص بالملائكة : « وإذ قلنا للملائكة ؟ وكيف يعتبر عاصياً إذ لم يسجد ، أفعصياناً دون ذنب ؟ !

إنه أمر ولعله مرتين ، إحداها : « ما منعك أن تسجد إذ أمرتك » (١٢ : ٧) كما وهو معترف بالأمر : « فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً » (١٧ : ٦١) وإلا كان يعتذر ويعترض بعدم الأمر !

فلقد شمله أمر الملائكة - كما وعله اختصاصه امرئان - شمله حيث كان في العبادة بكيان الملائكة ، وحتى في مكان الملائكة ، فعُدَّ منهم من حيث الملائكية الروحانية ، مهما اختلف عنهم في غيرها ، عبد الله معهم كما كانوا

يعبدون، رديحاً بعيداً من الزمن نفاقاً عارماً كافراً ، حتى أظهر مكنونه إذا
أمر^(١) ف « أبى واستكبر وكان من الكافرين » (٣٩ : ٧٤) : كان اذ كان
مع الملائكة من الكافرين المنافقين .

وهنا الإستثناء متصل ، وعلى انفصالها فالوجه انه لم يكن منهم لا كوناً
ولا كياناً ، ولكنه اذ أمر شخصياً بالسجود : « ما منعك ان تسجد اذ
أمرتك » اعتبر هنا في ردف المأمورين وليس منهم في غيره ، وعلى الفائدة
هنا أتم ، اذ الإستثناء المنقطع تفيد الإستغراق : لم يبق منهم احد إلا
سجد ، فلم يعص منهم احد ، اللهم إلا إبليس كان من الجن ففسق عن
أمر ربه » (١٨ : ٥٠) : وأما هم : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون »
(١٥ . ٣٠) مما يؤكد استغراق الأمر بالسجود .

(١) نور الثقلين (١ : ٥٥) عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي
عبد الله (ع) قال : سئل عما ندب الله الخلق اليه أدخل فيه الضلال ، قال : نعم
والكافرون دخلوا فيه لأن الله تبارك وتعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فدخل في أمره
الملائكة وإبليس ، كان مع الملائكة في السماء يعبد الله وكانت الملائكة تظن انه منهم ولم
يكن منهم ، فلما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم أخرج ما كان في قلب إبليس من الحسد
فعلمت الملائكة عند ذلك ان إبليس لم يكن منهم فقبل له (ع) فكيف وقع الأمر على
إبليس وانما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم فقال : كان إبليس منهم بالولاء ولم يكن من
جنس الملائكة وذلك ان الله خلق خلقاً قبل آدم وكان إبليس منهم حاكماً في الأرض
فعتوا وافسدوا وسفكوا الدماء فبعث الله الملائكة فقتلوهم وأسروا إبليس ورفعوه الى
السماء فكان مع الملائكة يعبد الله الى أن خلق الله تبارك وتعالى آدم .
أقول : لعل الجمع بين معرفتهم لإبليس وعدمها ان الذين قاتلوه هم عرفوه دون
سواهم .

ثم أقول : وفي معناه ان إبليس لم يكن منهم ، رواه في اصول الكافي عن علي بن
إبراهيم عن أبي عبد الله (ع) . .

« فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » : وهناك تفاصيل وتعاليل من قياس إبليس لما ترك السجود لآدم ، أجمل عنها هنا وفصلت في سائر آياتها الست الأخرى ، ندرسها في طياتها ، وهي في صيغة واحدة : ردُّ على الله وردَّة عن شرعة الله بقياس فيه إبلاس : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » (٧ : ١٢) « قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون » (١٥ : ٣٣) « أأسجد لمن خلقت طيناً » (١٧ : ٦١) « فسجدوا إلا إبليس أبى » (٢١ : ١٦) « ففسق عن أمر ربه » (١٨ : ٥٠)

وهنا نجمل كما أجمل الله وما أجمله شمولاً « أبى واستكبر » : أبى ان يسجد كما أمر الله ، واستكبر على آدم وعلى الله ، على آدم حيث عدّه أدنى منه لان جنسه - كما زعم - أعلى من جنسه ، وعلى الله حيث رد حكمه بقياس ، تجهيلاً لله وترفعاً عليه كأنه أعلم منه في مناطات الأحكام ، فليس إذا كفره لأنه ما سجد ، حيث التاركون من المسلمين للسجود كثير وما هم بكافرين ، اذ يأبون دون استكبار ، وإنما لاستكباره . لرده حكم الله ومعادته لله ، وما أكفره من يحاجُّ الله ، فانه ليس فقط تكديماً لله ، بل وترفعاً وطغياناً على الله ، فهو أنحس من أي شرك أو كفر أو إلحاد ، ولذلك فهو زعيم الضالين اجمعين

إن « إبليس » كلما يذكر فهو زعيم الشياطين ، طالما الشيطان يعمه وسائر الشياطين ، وإن أخطر مواقفه واكفرها هو رده على رب العالمين ، فاختص في مواده بـ « إبليس » : إحدى عشر موضعاً من الذكر الحكيم ، طالما الشيطان يذكر في (٦٨) والشياطين في « ١٧ » زائداً على جنوده الشياطين بإسميه في (٦٢) موضعاً : ثنوي الإسم وثالثي الموقف : إبليس - شيطان - شياطين : بشخصه وحزبه

والإبلاس حزن معترض من شدة البأس ، وقطع ، وانقطاع حجة ،
وحيرة ، وقنوط ، وقطع رجاء ، وإنكسار ، وحزن ، وإيقاع في البلس :
الإلتباس

وإبليس يجمع في نفسه جميع هذه المعاني لإسمه : حزنًا على ما كُرم
عليه آدم وطُرد ، وقطعاً للجنة والناس من الوصول الى مأمولهم ، مع
انقطاع حجته أمام الله وأمام الخلق ، وحيرة فيما تورط فيه ووقع من
هوات ، وقطع رجاء لنفسه عن رحمة الله ولغيره أيضاً عن مغفرة الله ،
وانكسار في كافة الحقول الدعائية أمام عباد الله ، وحزن مما يجاهدون في
سبيل الله ، وإبلاس لهم فيما يعتنقون من شريعة الله ، وكل ذلك تجمعها
« أب واستكبر وكان من الكافرين »

إن إبليس يُبلس كما المجرمون يبلسون يوم الدنيا ويوم الدين : « حتى
إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » (٤٤ : ٦) « ويوم
تقوم الساعة يبلس المجرمون » (٣٠ : ١٢) ولكنها إبليس زعيمهم هو
الأصل في الإبلاس كما إفعيل مبالغة في مادته ، والإبلاس هنا هو الإيلاس ،
فانه آيس عن رحمة الله ويؤيس عن رحمة الله ليجلب أكثر عدد ممكن إلى
حزبه ، ألا فتبفظوا يا أولي الأبصار !

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا
وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ^(٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا
فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ
مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ^(٣٦) ﴾

قصة الجنة هذه تُذكر هنا وفي أخرى : « ويا آدم اسكن أنت وزوجك
الجنة فكلتا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين .
فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما وورى عنها من سواتها وقال ما نهاكما

ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين .
وقاسمهما أني لكما لمن الناصحين . فدلّاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت
لهما سواتهما وطفقا يخصّفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن
تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا
أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا
بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها
نجيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » (٧ : ٢٥)

وثالثة في طه : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له
عزماً . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا يا
آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك
ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنت لا تظلمنا فيها ولا تضحي . فوسوس إليه
الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها
فبدت لهما سواتهما وطفقا يخصّفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه
فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعاً بعضكم
لبعض عدو فلما ياتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى »
(٢٠ : ١٢٣) .

مواضع ثلاثة تذكر فيها قصة جنة آدم ، كما ذكرت قصة المعركة
المصيرية بين إبليس وآدم في سبعة هذه منها ، معركة تفتح للغاوين السبعة
ابواب الجحيم كما ذكرت في سبعة ، ندرس الثلاثة هنا ونترك السبعة إلى
معالها ، وفي الهامش عرض الاعتراضات السبع الابليسية^(١) .

(١) في تفسير الفخر الرازي : ٢٣٦/٢ : حكى محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في
أول كتابه المسمى بالملل والنحل عن . ماري شارح الأناجيل الأربعة، وهي مذكورة في
التوراة على شكل مناظرة بينه وبين الملائكة بعد الأمر بالسجود ، قال إبليس للملائكة :

وفي هذه القصة مسارح للبحث والتساءل ندرسها على ضوء المثلث من آياتها ، تاركين الأقاويل والروايات المتناقضة التي لا تلائمها ، كما هو دأبنا في تفسيرنا « والذين يمسكون بالكتاب واقاموا الصلاة انا لا نضيع اجر

= إني اسلم ان لي إلهاً هو خالقي وموجدي وهو خالق الخلق لكن لي على حكمة الله تعالى اسئلة سبعة :

الأولى : ما الحكمة في الخلق لا سيما إن كان عالماً بأن الكافر يستوجب عند خلقه الالام ؟ .

الثاني : ثم ما الفائدة في التكليف مع انه لا يعود منه ضرر ولا نفع وكل ما يعود الى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف ؟ .

الثالث : هب انه كلفني بمعرفته وطاعته فلماذا كلفني بالسجود لآدم .

الرابع : ثم لما عصيته في ترك السجود لآدم فلم لعني وأوجب عقابي مع انه لا فائدة له ولا لغيره فيه ولي فيه اعظم الضرر ؟ .

الخامس : ثم لما فعل ذلك فلم مكنتني من الدخول الى الجنة ووسوست لآدم ؟ .

السادس : ثم لما فعلت ذلك فلم سلطني على أولاده ومكنتني من إغوائهم وإضلالهم ؟ .

السابع : ثم لما استمهلت المدة الطويلة في ذلك فلم أمهلني ؟ ومعلوم ان العالم لو كان خالياً من الشر لكان ذلك خيراً ! . .

هكذا زين لا بليس سوء تفكيره والجواب كلمة واحدة :

« لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون » حيث المشغول تنديداً ليس إلا الجاهل او العامد

الخاطيء والظالم المفتاق ، وأما الغني الحميد والعالم الذي علمه لا يبد فلا يُسأل إلا

تفهما !

ثم الحكمة في الخلق هو اظهار لطفه ورحمته وابرار عطفه ونعمته ، فما لمن بدل نعمه الله نقمة ان يعترض على ما أتاه الله من نعمة .

ثم التكليف ليس لفائدة الى الله من دفع ضرر أو جلب نفع ، وانما العائدة الى المكلفين واستكمالاً للهدف من خلقهم قد « ما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون » وتحصيل الكمال لنا دون سعي بطالة وعطالة وهي خلاف =

المصلحين» (٧ : ١٧) فعلمنا نكون ممن يصلح ولا يفسد في أي المذكر الحكيم .

فما هي جنة آدم ؟ ولماذا أدخل فيها إذا كانت سماوية وهو خليفة أرضية ؟ وما هي الشجرة المنية ؟ وكيف النهي ؟ وكيف يجوز العصيان من الخليفة المفضلة على الملائكة وهو نبي ؟ وكيف استطاع إبليس أن يزورها وهو خارج الجنة إذ أمر بالهبوط قبله ؟ ومن هم المأمورون بالهبوط : «إهبطوا» ؟ وما هي الكلمات التي تلقاها من ربه فتأب عليه ؟ أم ماذا من أسئلة حول هذه القصة المهمة التي تستعرض بداية ظهور الإنسان وحياته .

الحكمة .

ثم التكليف بالمعرفة والطاعة لزامه الابتلاء بالأمر والنهي ، ومنه السجود لآدم اظهاراً لفضله، رغم أنه أضله، فليرغم بذلك جزاءاً عما أضل .
وليس العذاب واللعنة إلا من خلفيات العصيان أياً كان دوماً ابتغاء فائدة لله أم لغيره وإنما جزاء وفاقاً هو العصيان بنفسه في ظهور حقيقته ، ولكيلا يسوي بين المحسن والمسي ، ولينحذر كل سيء .

وفي تمكينه لدخول الجنة تمكين بلا تسيير لاقتراف المعصية ، فلو لم يمكن العاصي في عصيانه لم يفرق بين المطيع والعاصي وهذا ظلم

وتسليطه على ولد آدم ليس تسليط التسيير ، وإنما تخيير دون الزام . لا في اغواء ولا إهداء ، وحجج الله البالغة كافية لولد آدم تركاً لطاعة إبليس ، وفي ذلك التسليط ابتلاء يجعل من المدعين الايمان مخلصين وغير مخلصين ، ولتمييز الصالح عن غيره . فعند لامتحان يكرم المرء اويهان .

وفي إمهاله إملال وإدلال، وليظهر مكنون كفره كما هو ، ويظهر مدخول النيات والطويات لمن يدعون الايمان .

فلقد اغلقت ابواب جحيم إبليس السبعة بكلمة واحدة «لا يسئل عما يفعل وهم يسألون» .

١ - جنة آدم ؟

ترى إنها جنة الخلد ؟ وكما يفهم من إطلاقها دون قرينة تصرفها عن وجهها ؟

١ - وجنة الخلد هي خلد دوغما شرط الأكل من شجرة خاصة منها ، فكيف عصى آدم ربه فغوى طمعاً فيها : « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها . (٢٠ : ١٢١) وآدم أعرف بها منا إذ دخلها ، فلو كانت هي الخلد لم ينزل للحصول عليه بالأكل من شجرة الخلد وملك لا يبلى !

٢ - وأن « فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين » دوغما استثناء ، وقد نهي آدم فيها عما اشتتهت نفسه !

٣ - وأن الداخل فيها ليس بخارج عنها : « لا يمسه فيها نصب وما هم بمخرجين » (١٥ : ٤٨) وقد منّه نصب وأهبط عنها ، وهم « خالدين فيها أبداً » (٥ : ١١٩) « لهم فيها نعيم مقيم » (٩ : ٢١)

٤ - وأن الكافر محروم عنها ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمها على الكافرين (٧ : ٥٠) وإبليس كان من الكافرين !

٥ - وأن الخلد هي جنة الآخرة ، لا يدخلها أحد قبل الآخرة ، فكيف دخلها آدم وزوجه في الأولى وقبل أن تقوم القيامة !

٦ - وأنها ليست دار شريعة وتكليف وقد كُلف آدم فيها !

٧ - وأنه لا يدخلها إلا من آمن وعمل الصالحات وجاهد وصابر : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » (٣ : ١٤٢) ولا يعرف لآدم عمل يستحق به الجنة قبل دخولها ولا موقف

للمصابرة قبل معركة الشيطان ! .

٨- وانها لا تُزلف لاهله إلا عند القيامة : « وأُزلفت الجنة للمتقين غير بعيد» فكيف يدخلها آدم قبل إزلافها وقبل ابتلاء التقوى ! :

فلدخول جنة الخلد التي لها ثمانية ابواب ، ثمانية أبواب شرحناها ، ولم يدق آدم حينذاك ولا باباً واحدة فكيف دخلها ؟ !

ام كانت هي الجنة البرزخية ؟ ١ - ولا دخول فيها قبل الموت عن الحياة الدنيا وكما تشهد لها آياتها : « ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون » :

٢ - ولا يخرج الداخل فيها ما دامت السماوات والأرض : « وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ» (١١ : ١٠٨) .

٣ - ولا يدخلها الداخلون إلا بأبدان تناسبها هي البرزخ بين الآخرة والأولى ، دون الأبدان الأولى

إذاً فلتكن هي من جنان الدنيا وترى أنها من جنان الدنيا الأرضية ؟ ام السماوية ؟ والأرضية منها ترفضها آياتها : « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو» ولا هبوط إلا من اعلى الى ادنى ، ثم ولا تدل « اهبطوا مصرا » على أنها المعنى منها ، حيث القرينة الأرضية هنا حاكمة دونها ، وتفسير آية باخرى ليس أن تفسرها بما فُسرَت الثانية مع فارق قرينة فيها دونها فإنه من ضرب الآيات بعضها ببعض ، وهنا قرينة قاطعة أن الهبوط كان من جنة في السماء : « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون» حيث الأرض المستقر فيها هي كل الأرض بجناتها وجاه السماء ، وفيها حياة وموت وخروج منها، دون الجنة التي كان آدم فيها ، وأن في الأرض الشقاء أياً كانت دون هذه الجنة :

سورة البقرة آية - ٣٥-٣٦ ٣١٣

« فلا يخرجكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى » وفي الأرض بجناتها جوع وعرى وظمأ وضحى !
إذا فلتكن هي من جنات السماء ، المتوفرة فيها مواصفاتها التي ليست في جنات الأرض أبداً .

وهل خلق آدم وزوجه فيها ومن ترابها ثم أسكنها فيها استمراراً لكونها ؟ كما قد توحى له : « وقلنا يا آدم اسكن وزوجك الجنة » ؟ والسكون لا يخص الإستمرا فيهما كان ، وقد يلحق للدخول ، فلا يقال للمكُون في مكان : اسكن فيه ، فإنه لا محالة ساكن فيه ما لم يُنقل عنه ، وإنما يقال : ابق فيها ، فالسكون فيها هو الدخول ، وكما توحى له خلافته الأرضية منذ خلق : « إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها » .

إذا فهو مخلوق في الأرض ثم منقول منها إلى الجنة في السماء ، علها جنة المسيح (عليه السلام) التي رفعة الله إليها ، مما يدل أن الحياة الأرضية تختلف عن حياة الجنة الدنيوية في السماء ، فـ « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى » وبضيغة واحدة أنك فيها لا تشقى : « فلا يخرجكما من الجنة فتشقى » .

فلتكن فيها حياة بلا شقاء ، بلا جوع ولا عرى ولا ظمأ ولا ضحى ، فلتكن فيها أحياء وسعداء لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وترى كيف صعد إليها آدم وحواء ثم كيف هبطا ؟ القرآن ساكت عنها ، فلنسكت عما سكنت الله عنه .

﴿ ٢ - خليفة الأرض كيف يسكن جنة السماء ولماذا ؟ ﴾

إن آدم - دون شك - خُلِق لهذه الأرض بحياتها الشقية البلاء منذ اللحظة الأولى، ولكنه لا بد له من تجربة واستعداد ، إيقاظاً لقواه المكنونة ،

رابرازاً لسوئاته الموارات ، ومعرفةً لشیطانه الغاوي ، تدريباً له على تلقي الغواية ، وتذوق النهاية ، ونجوع الندامة ، واللجوء المكين إلى ملاذ أمين .

فنسيان العهد ، ووسوسة الشيطان في الشجرة المنهية ، والصحوة بعد السكر ، والندامة بعد المعصية ، التي بدأت لآدم وزوجه في الجنة ، إنها مثال التجربة البشرية المتكررة في الحياة الأرضية ، فليستعد آدم وزوجه لمعركة الشيطان المصيرية الدائبة على هذه الأرض وليعرف أن الشيطان لا يكاد يتخلى عنه في الجنة فكيف له في الأرض ، فليعدّ عدته وبعده لمعترك هذه الساحة بسلاح البقطة حتى لا يقع في فخّه ، ثم التوبة لو اعترضته اللمم ، تلقياً من الله عهده فلا ينسأ ، ومعرفة عدوه فلا يهواه ! وتعرفاً إلى كلماته ليتوب عليه « إنه هو التواب الرحيم » .

إن تجربة الجنة توحى بأن حياة الخليفة الأرضية هي حياة الجنة لولا الخطيئة ، وسوف تنتهي إلى الجنة إذا تداركها بالتوبة ، كما وتتدارك حياته الأرضية أيضاً بالتوبة ، وأن الطريق إلى التوبة مفتوحة في يسر وبساطة ، وحتى إذا كانت توبة وقتية فضلاً عن التوبة النصوح .

وتوحى أيضاً أن ما حلت في حياته من الطيبات أكثر بكثير مما حرمت من الخبيثات^(١) فإن له أن يستعوض الطيبات بخبيثات يهواها على ضوء الشريعة السهلة السمحاء ، فلا عليه إذ يهدف تبني حياة الجنة في الأولى والآخرة إلا أنها تنغص الحياة المربحة ، وتهدم صرح الإنسانية .

ففي معترك الحياة الأرضية تكفيك معرفة عدوك بما عرفه الله ، والإلتزام بعهد الله ، ثم التوبة إلى الله إذا اعترضتك لمم ، مثلث الحياة للخليفة الأرضية ، التي تجعلها راجعة إلى ربها راضية مرضية ! ..

(١) نستوحيه من « وكلا منها رغداً حيث شئنا ولا تقربا هذه الشجرة » .

﴿ ٣ - ما هي الشجرة المنية ؟ ﴾

لا نجد لها إسماً في آياتها الثلاث ، اللهم إلا سمات وآثاراً ، وهي هي المقصودة في كتاب الهداية دون الأسماء ، إذ لا جدوى فيها إلا تعريف المسميات ، وعلى القصد من الشجرة المنية ليس شجرة واحدة مما نعرفها ، وإنما جنس ما يتشجر تحريضاً للشهوات والتشاجرات ، فليس لها - اذن - اسم خاص ولا مسمى خاص ، وإنما كلما يؤثر ذوقه وتناوله هذه الآثار : الخروج من حياة الجنة الى حياة الشقاء والعناء ، حياة الجوع والعري والظلم ، والضحي وظهور السوءات ، وهي في صيغة اخرى : نسيان عهد الله والإعراض عن ذكر الله : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً . . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى » كما في الآيات من طه ، فضنك المعيشة وشقائها ، والهبوط من حياة الجنة الى ارض التجربة والبلاء ، كل ذلك من مخلفات ذوق هذه الشجرة ، التي تشجر الحياة فتعملها فوضى ، وتشجر عنها الحياة الظلمة المظلمة فتخلف عيشة ضنكاً ! .

هذه هي الشجرة المنية بسماتها دون أن نعرف اسمها او أسمائها حيث لا جدوى فيها إلا سماتها ، مهما تشجرت الآراء في اسمها ، بين هابطة خابطة كالتي تسربت في توراة موسى : شجرة المعرفة ! وبين ما لا طائل تحتها او لا صلة بها وآثارها ، او لا دليل لها من علم او أثارة من علم^(١) .

(١) انها بين ستة عشر قولاً : شجرة الكرم ، النخلة ، التين ، الخنطة ، السنبلة ، الكافور ، الأترج ، الحنظل ، المحبة ، الطبيعة ، الهوى . العلم بالخير والشر ، الخلد ،

وترى كيف ينهى عن تناول شجرة المعرفة بين الحسن والقبح ، وهي الشجرة الطيبة التي خلق الإنسان لها ، وأمره الله ان يعيشها متزوداً بها حياته وحياتها ، منذاً بمن لا يستظل في ظلها ، ولا يتناول من ثمراتها ؟ فكيف ينهى عنها ؟

أم كيف يعصى بتناولها قبل أن يعرف الحسن والقبح ؟ ومن القبيح عصيان الله ! فليعرف فيتعرف اليها بذوقها حتى لا يعصى ربه بعدها ! فلماذا عُدَّ من العصاة ؟ « وعصى آدم ربه فغوى » فلو كانت هي شجرة المعرفة كان تناولها من أفضل الطاعة ! ثم ولا عصيان قبل المعرفة ! حيث هي مهبط التكاليف الإلهية ، وأما المجانين او البله المستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، فليسوا هؤلاء عصاة !

ثم آدم الذي عُلِّمَ الأسماء كلها وأنبأ الملائكة بأسمائها ، هلاً كان هو من العرفاء ، ولحسد يعرف الحسن عن القبيح حتى يعصى ربه في ذوق شجرة المعرفة ! إنها لقولة فارغة هراء ، خاوية عراء، والله منها براء !

وأما شجرة الكرم والنخلة والتين والحنطة والكافور والأترج والسنبلة فليست هي بالتي تؤثر هذا الأثر الرذيل ، رغم أن التين مبارك في القرآن والسنبلة مباركة في حديث الرسول، والنخلة أم للأكلة ، والحنطة إدام لدوام الحياة، والكافور ممدوح في القرآن ، والأترج في السنة ، فما هي الصلة الطبيعية بينها وبين هذه العرقلات للحياة مادية وروحية ، اللهم إلا كونه نهي إمتحان دون أن تحمل شجرته هذه وتلك من العرقلات ، ولكنها التوبة - إذا - لا بد وان ترجع بصاحبها الى ما كان من حياة الجنة لولا أن طبيعة الشجرة المنهية تحمل عناء الحياة وشقائها ، وكما أن ذوقها عصيانياً لله

نسيان لعهد الله وإعراض عن ذكر الله .

فنفسية الشقاء هي من مخلفات العصيان ، وماذيتها من آثار هذه الشجرة ، خلاف ما وصفها الشيطان : « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ! »

ومهما يكن من شيء فلنسكت عما سكت الله ، ونفصح مستصفحاً عما ذكر الله ، وما هو في مثل الآيات إلا التي عرفناها : شجرة الإعراض عن ذكر الله ، تتبع نسيان عهد الله ، فتخلف معيشة ضنكاً : انحرافاً وانحرافاً عن معنوية الحياة ، وشقاء وجوعاً وعرياً وظماً وضحى ، التي تجمعها : « الهبوط عن الحياة العليا » : أسفل سافلين : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » : « قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما ياتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ثم الآيات تنهى آدم وزوجه ان يقربا هذه الشجرة ، مما يوحى بشدة النهي كما في سائر مواردها : « ولا تقربوا الزنا » « ولا تقربوا مال اليتيم » . . .

ولكنما المنهى عنه هو الأكل منها أو ذوقها : « فلما ذاقا الشجرة » و« فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما » وترى انه ذوقها هي ام ثمرتها ؟ إن الشجرة لا تؤكل او تذاق بسوقها وأوراقها ! وإنما أثمارها ، فهي هي التي نهى عنها ، والنهي عن قربها تأكيد للنهي عن ثمرتها ، « فالمعاصي حوى الله فمن حام حول الحمى او شك ان يدخلها » .

وهنا الأكل منها يعني ذوق ثمرتها ، دون شبع للبطن منها ، ولا أكل دون ذلك ، وإنما ذوق الأكل وأكل الذوق : أقل ما يسمى أكلاً ، « فبدت لهما سوءاتهما » ما أن بدت ياكلان ، ولذلك عبر عنه بالذوق .

وهذا الأكل الذوق خلّف دون فصل أو اختيار ظهور السوئات ، ومن ثم حياة العناء المهابطة الخابطة .

﴿ ٤ - وكيف النهي ؟ ﴾

لقد نهى الله تعالى آدم وزوجه عن أكل الشجرة وذوقها نهياً مؤكداً منذراً : « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » - « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين » - « فلا يخرجكما من الجنة فتشقى » .

فهنا يهدد في اقتصراف المحذور بالخروج عن الجنة والشقاء وأنه ظلم ، ثم ينادي في آيات أخرى انه زل عن طاعة الله بوسوسة الشيطان : « فوسوس لهما الشيطان » « فأزلهما الشيطان » « وعصى آدم ربه فغوى » !

فهناك فيما فعله آدم وزوجه : زلة وغواية وظلم وعصيان وشقاء ، وكل منها كاف في التدليل على أنها ارتكبا الحرام ، كما و « لا تقربا » تؤكد وتشدده !

فالزلة هنا هي الزوال عن الحق أو زوال الطاعة : « انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » (٣ : ١٥٥) والغواية جهل عن اعتقاد فاسد : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » (٢ : ٢٥٦) « وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون » (٧ : ٢٠٢) .

والظلم انتقاص إما بحق النفس والغير وهو أفحشه ، أو بحق الغير وهو اوسطه ، أو بحق النفس وهو ادنائه ، وليس بحق الله اذ لا ينتقص في شيء : « وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٢ : ٥٧) ، وقد ظلم آدم نفسه فانتقص حاله ومستقبله ! : « ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . ثم قد يكون الظلم بالنفس دون اقتصراف منهى عنه كما في يونس : « سبحانك اني كنت من الظالمين »

(٢١ : ٨٧) وفي موسى : « رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي » حيث لم يسبق ليونس نهي عن ذهابه عن قومه مغاضباً مستائاً أن عصوا الله ، وانما انتقص في دعوته الرسالي إذ ذهب عن قومه ولم يصابر ! . .

واظهر منه ظلم موسى نفسه فانه قتل القبطي المشرك المقاتل للاسرائيليين الموحد ، وليس هذا محرماً حتى ولو لم يقاتل المشرك فان دمه هدر ، فكيف إذا قاتل الموحد فان مطاردته تصبح واجبة ، فهذا ذنب العصيان عند المشركين : « ولهم على ذنب فاخاف ان يقتلون » (٢٦ : ١٤) وطاعة خاطئة عند الموحدين : « رب اني ظلمت نفسي » فلم يقل غيري وهو قد قتل ، وانما « نفسي » حيث أخر دعوته الرسالية نتيجة قتله القبطي ، إذ كان الأحرى أن يدفعه ولا يقتله حتى لا تتأخر دعوته ، ولكنه « فركزه موسى فقضى عليه قال إنه من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين » (٢٨ : ١٥) فركزه عمل الرحمان وقد كان مقصوداً للدفاع عن الموحد ، وقتله من عمل الشيطان ولم يكن مقصوداً حيث يؤخر الدعوة ، وطلب الغفر عن هذا الذنب الظلم لا يعني إلا ان يستر الله على البغضاء الفرعونية حتى يواصل موسى في دعوته .

ومهما يكن هنا وهناك من شيء فليس الظلم من يونس وموسى مسبوقاً بنهي ، وان كان مرجوحاً وجاء الدعوة الرسالية ، لكن ظلم آدم كان مسبوقاً بأشد النهي ، موصوفاً بالزلة والغواية والعصيان ، اذا فهو الظلم الحرام مهما كان من أدناه ، وقد هدد الظالمون العصاة بعدم الفلاح « انه لا يفلح الظالمون » (٦ : ٢١) والهلاك : « هل يهلك إلا القوم الظالمون » (٦ : ٤٧) واللعنة : « ألا لعنة الله على الظالمين » (١١ : ١٨) وبضلال مبين : « بل الظالمون في ضلال مبين » (٣١ : ١١) مهما اختلفت مراتب الهلاك والضلال واللعنة حسب اختلاف الظلمات .

فهل لك بعد ذلك كله ان توجه ظلم آدم وعصيانه وزلته وغوايته

٣٢٠ الجزء الأول

بظلم غير محرم كما في يونس وموسى ، وبينهما مثلث البون :

١ - انهما لم يسبق لهما نهي ، وقد سبق لأدم أشده بتهديدات !

٢ - انهما اعترفا بظلم توجَّهه قرينته أنه - فقط - انتقاص في الدعوة دون قصد ، ولكن آدم وزوجه « فتكونا من الظالمين » : سائر الظالمين العصاة لا « فتكونا ظالمين » حتى يتحمل ما تحمله في يونس وموسى ! .

٣ - إنَّ ظلم آدم مقرون بقرائن قاطعة أنه ظلم الزلة والغواية والعصيان ، دونها حيث القرائن تنفي عنها ظلم العصيان .

وترى هل يتحمل هكذا نهي أنه تنزيهي إرشادي ، فإن ذوق الشجرة أتبع الهبوط عن الجنة فعناء الحياة الأرضية وشقاءها ، فقد نُهي عنها إرشاداً إلى التحرر عن هذه الشقاء ، ولو لا أنه - فقط - إرشادي : لا مولوي - لأنتجت توبتهما رجوعهما إلى ما كانا فيها ولم يرجعا بعدها ؟ !

إلا أن المتصور من التوبيخ والأمر : المولوية - الإرشاد - مجموع الأمرين .

فإذ ينهي المولى مولوياً وللإرشاد إلى ما يحمله من فساد ، كان العصيان ثنائياً فالظلم اثنان ، كما في أكثرية النواهي التشريعية .

وإذ ينهي مولوياً دون إرشاد إلى محذور الفساد ، فهذا نهي ابتلائي فعصيان واحد لا اثنان ، كما في القليل من موارده .

وإذ ينهي إرشادياً لا مولوياً ، فقد يتحمل توجيه خلاف الأولى ! وقد لا يتحملة .

والأغلبية الساحقة من أوامر الله ونواهيه هي من القبيل الأول فإن الله يأمر وينهي كرب العالمين ومولى الخلق اجمعين ، بما يحمل توجيهات - عرفناها أم لا - إلى مصالح فيما يأمر ومفاسد فيما ينهي ، فليس ذكرى

التبعات في المنهيات مما يزعجها عن المولويات . كما ليس ذكر المثوبات في المأمورات . يجعلها - فقط - ارشاديات ، فكثير هذه الأوامر والنواهي القرينة بذكر المصالح والمفاسد ، دنيوية او أخروية ، ترغيباً الى الطاعات وترهيباً عن المحظورات .

وهنا الله تعالى ينهى آدم وزوجه عما ينهى مهتداً لهما أنه ظلم يتبع شقاء كما في الكثير الكثير مما يُنهى سائر الجنة والناس ، فهل هي كلها إرشادات تُحمل على ترك الأولى ، وقليل هذه الأوامر والنواهي التي لا تُحمل إرشادات ؟

بل الأصل فيها كلها ان تكون ارشادية من المولى سبحانه ، إلا ما ثبت أنه مولوي دون إرشاد ، كما امر ابراهيم ان يذبح اسماعيل (عليه السلام) ثم لا نجد امراً ارشادياً او نهياً في صيغة الغواية والظلم والعصيان أن لو ترك ، اللهم إلا في مستحبات ومكروهات تحمل ارشادات غير ملزمة وهي بحاجة الى قرائن قاطعة بتحقيق كتاب تفسير علوم القرآن

ثم التوبة عن الذنب ليس لزامها رجوع التائب الى كل ما كان قبل الذنب ، وإنما الرجوع الى الله فرجوع الله اليه ألا يأخذه بنكاله ، وقد يكون - ايضاً - رجوعاً الى سائر ما كان .

أترى ان الأكل للسم ، الذي تآثر في جسمه لحد الموت ، هل هو يرجع الى صحته الاولى ان لو تاب ؟ او ان القاتل لابنه هل يرجع هو غير قاتل ، وابنه حياً بعد ما تاب ؟ .

كذلك آدم وزوجه إذ عصيا بما هددهما الله « فلا يخرجكما من الجنة فتشقى » ارشاداً الى تبعه هذا العصيان التي هي لزامها ، مهما تاب او تابع . في العصيان ، ولكنها التوبة ترجعه إلى ما كان من نزاهة وطهارة الطاعة ، دون هذه التبعة الدنيوية للعصيان .

فالأصل في التوبة إزالة التبعات الأخروية ، وقليلة هذه التوبات التي تزيل تبعات من الدنيوية كذلك .

وأما القول أن نبيه كان في الجنة قبل تشريع أية شريعة ، حيث شرّعت بعد هبوطه الى الأرض : « فلما ياتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى » (٢٠ : ١٢٣) إذ توحى بمستقبل الهدى بعدما « اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » .

إذاً فلا يعني نبيه في الجنة نهي تشريع وحكم حتى يحرم عصيانه ؟

فهذا غريب في نوعه ! فإذا لا شريعة في هذه الجنة - وحتى بقدر نهي واحد - فكيف ينهى الله فيها ، وأقل النهي أن يحمل تنزيهاً وهو من الشريعة ، وإذا صحّ نهي تنزيه صحّ نهي تحريم على سواء فأنهما في كونهما من الشريعة شرع سواء .

ثم النص « فلما ياتينكم مني هدى » وقد هداه هنالك وجاه الشجرة سلباً وإيجاباً : « ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » سلباً لا تباع الشيطان « ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى . وأنت لا تظما فيها ولا تضحى » وترغيباً لا تباع الرحمن ، أفليست هذه الهدى تكفي آدم في الإنتهاء بنهي الله ، مهما عبّرت عنه بشرعة او غير شرعة ، وليست الشرعة إلا طريقة الهداية الى طاعة الله قلت او كثرت ، وقد انحصرت شريعته في الجنة في السماح من اكل ثمار الجنة كلها إلا هذه الشجرة ، ثم توسعت في الحياة الأرضية ، كل حسب مقتضياتها ومتطلباتها ، وكما تختلف الشرائع الأرضية هكذا : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات . . » . ومن الغريب الإصرار على هذه التاويلات المخالفة للآيات ، واجابة الامام الرضا؟ عليه السلام عن مشكلة عصيان آدم مع

سورة البقرة آية - ٣٥-٣٦ ٣٢٣
نبوته مشهورة ، أنه كان قبل النبوة ^(١) ثم لا نجد تأويلاً يجعل عصيانه
خلافاً للاولى !

٥ - كيف يجوز العصيان من الخليفة المفضلة على الملائكة وهو نبي ؟
في الحق ان آدم (عليه السلام) لم يكن نبياً حين عصى : « وعصى
آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » فاجتباؤه بما تاب عليه
وهدى كان بعدما عصى وغوى : « ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم
وآل عمران على العالمين » (٣ : ٣٣) « فلما اجتباه الله تعالى وجعله نبياً
كان معصوماً لا يذنب صغيره ولا كبيرة » ^(٢) وخطابه بوحيه قبل نبوته لا

(٢١٩) نور الثقلين : ٥٩/١ عن عيون اخبار الرضا (ع) باسناده الى علي بن محمد
الجهم قال حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا (ع) فقال له المأمون يا ابن رسول الله
(ص) اليس من قولك ان الانبياء معصومون ؟ قال : بلى ، قال : فما معنى قول الله
عز وجل : وعصى آدم ربه فغوى - الى ان قال بعد عرض قصة الجنة والشجرة : وكان
ذلك من آدم قبل النبوة ولم يكن ذلك بذنب كبير استحق به دخول النار وانما كان من
الصغائر الموهوبة التي تجوز على الانبياء وقبل نزول الوحي عليهم فلما اجتباه الله تعالى
وجعله نبياً معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة قال الله تبارك وتعالى : وعصى آدم ربه
فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وقال عز وجل : ان الله اصطفى آدم ونوحاً
وآل عمران ابراهيم وآل عمران على العالمين .

وفي الدر المنثور : ٥٤/١ عن ابي بن كعب عن النبي (ص) في حديث قال ، قال الله
تعالى يا آدم اخرج من جواردي فبعزتي لا اسكن من عصا في ولو خلقت ملء الأرض
مثلك خلقتاً ثم عصوني لاسكنهم دار العاصين قال : رأيت ان انا تبت ورجعت أتقوب
علي ؟ قال : نعم يا آدم !

واما ما في الدر المنثور انه كان نبياً حين دخل الجنة فلا يناسب الآية كما اخرج الطبراني
وابو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابي ذر قال قلت يا رسول الله (ص) ! رأيت
آدم أنبياً كان ؟ قال : نعم كان نبياً رسولاً كلمة الله قبلاً ، قال له : يا آدم اسكن انت
وزوجك الجنة .

يجعله نبياً حيث خاطب الله مريم وام موسى دون نبوة، وخاطب ابليس الكافر كما خاطب آدم الخليفة ، فليس الخطاب إذاً دليلاً على النبوة حينه .

وترى كيف شمله عهد الله : النبوة ، وهو ظالم ناقض لعهد الله : الطاعة :- « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً » وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ، (٢ : ١٢٤) أفليس العصيان الغواية ظلماً ونقضاً لعهد توحيد الطاعة ، وعهد الله : الإمامة النبوة ، لا ينال الظالمين وإن ظلموا مرة وقبل النبوة ؟ .

أجل إنه ظلم ، ولكن عهد الله في آية الإمامة هو عهد الإمامة في النبيين ، لا عهد مطلق النبوة ، وإنما النبوة المطلقة التي تقود نبوات جزئية ، حيث الرسالة والنبوة درجات : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » فالرسالة المفضلة لحد الإمامة ، وعليها ولاية العزم الخاصة بالخمس الذين دارت عليهم رحي الرسالات ، هذه الرسالة القمة هي المقصودة بعهد الله في آية الإمامة حيث لا تنال الظالمين ، لا مثل آدم الذي هو في أدنى درجات النبوة !

وترى ان آدم حين المعصية نسي الشيطان أنه عدو له ؟ وقد عرفه ربه إياه وأراه شخصه ! : « فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » كما وحوار الشيطان اياه حين أزاله تذكره أنه من هو ؟ : « وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين . وقاسمهما اني لكما من الناصحين . فدلاهما بغرور ... » ! .

= اقول : مجرد تعليم الله لا يدل على نبوة والا كانت ام موسى وام عيسى من النبيين إذ كلهما الله وكذلك الشيطان حيث خاطبه الله فهذا الحديث وامثاله مردود مزور على رسول الله (ص) لأنه مخالف لكتاب الله .

ام هل نسي الرحمن أنه ربه ؟ وإنه أحط دركات الغفلة عن الله فكيف يناسب آدم الخليفة ! ..

اونسي نبيه ؟ وقد ذكره الشيطان بنبيه : « ما نهاكما » ! ومن قبل ما استكبر ابليس عن السجود له فلا ينسى موقفه منه .

إذا فما هذا العهد الذي نسيه فدفعه الى ارتكاب الخطيئة ؟

قد يكون هو العهد العام المأخوذ على بني آدم : « ألم اعهد اليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

ولكنه يعم بني آدم دون آدم ، وآدم لم يعبد الشيطان وإنما اغتر بما غره ، وملامح العهد أنه فوق ما عهده الله الى بني آدم : « عهدنا الى آدم » لابني آدم او الإنسان .

او أنه العهد المأخوذ في الذر على توحيد الربوبية : « واذا اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى » (٧ : ١٧٢) ؟ وهذا العهد وان كان أعلى من الاول ، فقد يعم ويناسب آدم ، ولكنه ايضاً من بني آدم !

او أنه الميثاق المأخوذ على النبيين ، في درجة أعلى من توحيد الربوبية : « واذا اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . ليستل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً اليماً » (٣٣ : ٨) .

او انه عهد خاص إليه كما إليهم خاصة العهود حسب درجاتهم ؟ ولكنه لأدم كان قبل نبوته : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل . . . وعله بمناسبة المحنة الإبلية عهد يضم توحيد الربوبية وترك طاعة الشيطان » فنسي ولم نجد له عزماً : « إذ لم يثبت ويعزم على عهده ، فلم يكن النسيان مما يرفع

عنده التكليف ، وإنما التناسي الغفلة الغفوة الذي يتنافى وذكر الربوبية الموحدة ، فكل تخلف وعصيان هو من خلقيات نسيان حضرة الربوبية ولحد الإعراض عن ذكر الله : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة اعمى » .

وترى انه كان عصيانياً كبيراً ؟ إذ كان النهي مؤكداً : « ولا تقربا » حيث النهي عن القرب الى شيء يوحى بان محظورة عظيم : « فلا يخرجكما من الجنة » إجماع ثان الى تأكد النهي بنونه الثقيلة .

ثم في اتباعه لابلis وهو يعرفه بعينه وقد سبق التحذير عنه ، وكأنه صدقه ناصحاً : « وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين » ما يوحى كأن الله غشه بزعمه - في نهيه : « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين . وقاسمهما ! » .

اقول : لم يكن آدم (٤) في هذا المسرح ليتهم ربه بالعس والخداع ومعاذ الله ! ولو كان متهمه هكذا لكان أنكى من اكل الشجرة وأردى ، فلماذا لم يخصه التنديد او يعمهما ، وإنما خصه بأكل الشجرة ليس إلا ، مما يبرهن ان سبيله في ذنبه لم يكن اعظم من ذنبه : ان يتهم الله بالاغواء والخداع ، ويصدق ابليس في النصيحة ولا سمح الله ! .

وإنما غره أن « قاسمهما » وما كان يظن ان خلقاً خلقه الله يحلف كاذباً بالله وكما يروى عنه في حوار له مع جبريل (عليه السلام) (١) : « فاغتره

(١) نور الثقلين ١ : ٦١ عن تفسير علي بن ابراهيم في القصة ؛ فنزل عليه جبرئيل فقال : يا آدم ! ألم يخلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته ؟ قال : بلى - قال : وامرك ان لا تأكل من الشجرة فلم عصيته ؟ ! قال : يا جبرئيل ! ان ابليس حلف لي بالله انه لي ناصح وما ظننت ان خلقاً خلقه الله يحلف بالله كاذباً ! . وفي تفسير البرهان ١ : ٨٣ عن ابن بابويه القمي في حديث مجلس الرضا (عليه =

سورة البقرة آية - ٣٥- ٣٦ ٣٢٧

عدوه نفاسةً عليه بدار المقام ومرافقة الأبرار ، فباع اليقين بشكّه ، والعزيمة بوهنه ، واستبدل بالجزل (الفرح) وجلًا ، وبالإغترار مذمًا ، ثم بسط الله سبحانه له في توبته ولقاه كلمة رحمته ، ووعد المردّ الى جنته فأهبطه الى دار البلية وتناسل الذرية « (١) .

فقد حل بين غرورين ووقع بين محظورين : غرور بما قاسمهما وهو لا يظن ان احداً يقسم بالله كاذباً ، وغرور بما وعده دار المقام في جنة الله بمرافقة الأبرار ، ومن ثم محظور سابق من نهي الله ، وآخر في غروريه : لعل الله نسخ ما نهي وفسخ ما عهد « فباع اليقين » بنهي الله « بشكّه » في نهي الله « والعزيمة على الثبات على عهد الله » بوهنه - « فنسي » عهد الله « ولم نجد له عزماً » يعصمه من معصية الله « فأهبطه الله الى دار البلية وتناسل الذرية » ثم ولم ينتجبه كولي عزم من أنبيائه ، الذين حافظوا على عهد الله واعتزموا عصاماً دائماً وسياجاً على حرمت الله قبل اصطفتائهم برسالات الله وبعدها ، وهم سادة المرسلين الذين دارت عليهم الرحي ، وآدم في درجة من درجات الرسالات بعد ما عصى وأهبط ! .

هكذا ياتي الشيطان غروراً كلَّ إنسان او جان بغيراره ومسلكه ، فأدم الخليفة ، المعلم الأسماء ، ليس ليُستفضل بالشهوات او مربع السياجات الشيطانية ، اللهم إلا يُمنه : « ثم لا تينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم » فقد جاء آدم (عليه السلام) عن يمينه ، عن طريق دينه : ألا يمكن الحلف كاذباً بالله ، ولا سيما في وعد المقام في دار كرامة الله ! « فدلاهما بغرور » كهذا ، بدلوا يتعلق هو به ! وحب الشيء

= (السلام) والمؤمنون قال فيه : ولم يكن آدم وحوا شاهداً قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً « فدلاهما بغرور فأكلا منها ثقة بيمينه بالله . . . » .

(١) نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام) .

يعمي ويصم ، وهذه أول تجربة توقعه في فخ العصيان دوغما تعمد اوطفيان .

وعلى أكثر تقدير تذرع بعصيان ما الى البقاء في دار القرب والكرامة لورود الاحتمال أن الله نهاه عن أكل الشجرة : وعلها الخلد !- تبعيداً له عن ساحة قربه ولما يصل الى أهليته ، وقاسمه الشيطان على مقالته ، فرجح عصياناً على جدته - ودون تعمد وطفيان - على بعده الدائب لو خرج عن جنته - عن جوار الرحمة وجناب العظمة .

كعبد ينهيه مولاه عن المقام بجواره ، فيغتر بما يُغر أن يعصيه هيماناً للمقام بجواره ، فليس إذاً هو البعيد البعيد في خطئه ، مهما كان خاطئاً في تصرفه ، حيث العبودية اللائقة بجنابه تعالى هي المطلقة الشاملة عزماً وعملاً صالحاً ، لا يحول بينه وبين طاعته أي غرور وان كان في محبته .

ولقد كان ابتلاء آدم وزوجه شديداً بهكذا غرور ، لا سيما وكما يروى - ابتعدت حرس الشجرة عنها حيث اقترباها ، بعد ما كانت تحرسها قبله ، فظنا أن الله تعالى رفع حظره فأبعد حرسه !

فمستهل هذه المعركة المصيرية بين آدم وابليس يوقظ الناهين أن يحذروا الشيطان الرجيم ، حيث يحتال بمختلف الحيل في خطواته المضللة ، فليكن الإنسان كله بصرأ وبصيرة ، كي لا يقع في فخه كما وقع الأيوان الاولان ، تجربة مرة مرّت بهما ، فحذار حذار لولدهما وكما تتردد في إذاعات قرآنية : «يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة يتزع عنها لباسهما ليرييهما سواتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » (٧ : ٢٧) .

٦ - كيف استطاع إبليس أن يزلها وهو خارج الجنة إذ أمر بالهبوط قبله ؟ . في الحق إن ابليس إذ أزلها كان في الجنة بين أمرين بهبوطه : أمر

سورة البقرة آية - ٣٥-٣٦ ٣٢٩
يُخَصِّصُهُ إِذْ أَبَى عَنِ السَّجُودِ لِأَدَمَ وَاسْتَكْبَرَ : « قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ » (٧ : ١٣) .

وَمِنْ ثَمَّ أَمَرَ يَعْمَهُ وَابْنَيْنَا : « قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » (٧ : ٢٤) « فَأَخْرَجْنَاهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » .. « قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً » مِمَّا أَمَرَا - هُمَا بِأَمْرِ آخَرَ يُخَصِّصُهُمَا : « قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » . (٢٣ : ٢٠) .

فَأَمَرَ الْمَهْبُوطَ الْجَمَاعِيَّ هُنَاكَ دَلِيلٌ أَنَّ إِبْلِيسَ كَانَ بَعْدُ فِي الْجَنَّةِ ، أَنَّ عَصَى رَبِّهِ فِي أَمْرِهِ الْأَوَّلِ ، وَلَكِنَّمَا الثَّانِي كَانَ نَافِذاً لَمْ يَقْدِرْ وَلَمْ يَقْدِرَا أَنْ يَعْصُوهُ ، إِذَا فَالْأَوَّلُ أَمَرَ تَشْرِيعِي ، وَالثَّانِي يَعْمَهُ وَالتَّكْوِينِي أَنَّ اهْبِطَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ، مِمَّا كَانَ ذَلِكَ لِلشَّيْطَانِ دَحْرًا دَائِبًا ، وَلِأَبْنَيْنَا هَبُوطًا آتِبًا إِلَى دَارِ الْخُلْدِ الْكَرَامَةِ ! .

ثُمَّ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِي جَمَاعِيٍّ الْأَمْرُ « اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً » تَأْثِيرٌ إِلَى الْعَدَاوَةِ الدَّائِبَةِ بَيْنَ الشَّيْطَانِ وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ ، فَمَا هِيَ الْعَدَاوَةُ بَيْنَ بَعْضٍ فِي ثَنَائِي الْأَمْرِ : « اهْبِطَا .. بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » ؟

هَلْ هِيَ الْعَدَاوَةُ بَيْنَ قَبِيلِ الْأُنْثَى وَالذَّكَرَانِ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ ، أَمْ نَسْلُ الْإِنْسَانِ كَكُلِّ حَيْثُ الثَّنِيَّةِ تَخْرُجُ الشَّيْطَانُ ، وَلَا مَبَاغِضَةَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالشَّيْطَانِ حَتَّى تَعْمَهُمَا هُنَا الْمَبَاغِضَةُ ؟ .

أَمْ إِنَّهَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالشَّيْطَانِ طَالَمَا الشَّيْطَانُ غَيْرُ مَذْكُورٍ هُنَا وَلَكِنَّهُ مَذْكُورٌ هُنَاكَ ، وَلَا تَعْنِي الْمَبَاغِضَةُ الْمَجَانِسَةُ ، وَإِنَّمَا مَبَاغِضَةُ فِي هَذَا الْجَمْعِ الْعَصِيَّانِ ، أَوْ الْجَمْعِ الَّذِي يَجُوزُ عَلَيْهِ كَكُلِّ الْعَصِيَّانِ ، فَثَنَائِيَّةُ الْأَمْرِ وَجَمَاعِيَّتُهُ تَعْنِيَانِ الْعَدَاوَةَ الدَّائِبَةَ بَيْنَ قَبِيلِي الْإِنْسَانِ وَالشَّيْطَانِ

أَوْ إِنَّمَا - وَيَا حَرَى - تَعْنِيهِمَا جَمِيعاً ، فَآيَةُ الْجَمْعِ تَعْنِي عَدَاوَةَ الْجَمْعِ ، بَيْنَ

الشیطان وبينهما ، وآية التثنية تعني - فقط - ما بينهما كخليفة الأرض جميعاً ، فحياة الأرض الضيقة العناء الشقاء ، هي حياة العداء بين بني الإنسان ، كما بين الإنسان والشیطان : ازدواجية العداء التي تتوحد في إغرائات الشيطان ، فقد ياتيك بنفسه او خيله ورجله من ذوي جنسه ، وقد ياتيك بذوي جنسك : « شياطين الإنس والجن » (٦ : ١١٢) حيث ينزغون بيننا : « قل لعبادي يقولوا التي هي احسن ان الشيطان يتزغ بينهم » (١٥ : ٥٣) « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم » (٧ : ٢٠٠) .

٧ - « ما هو لباسها وسواتها الموارد قبل العصيان ؟ »

طبعاً إنه من ملابس الجنة ، ولقد ووري عنها سواتها بلباسها ثم بدت بما ذاقا الشجرة : « ينزع عنها لباسها ليربها سواتها » .

وقد توحى الآيات في اللباس الموارى للسوئات - وقد بدت بما ذاقا الشجرة - أنها ما بدت لها سواتها منذ خلقا لحد الآن ، مما يوحي أنها ألبسا من لباس الجنة منذ خلقا دون انتخاب او محاولة منها ، حيث اللباس يلبس السوء ، فقبل أن تبدو السوء لا دافع لمواراتها بلباس .

او ان كلاً كان عارفاً بسوءته هو ، دون الآخر ، فلما نزع عنها لباسها عرف كل سوء الآخر فأحسا بشهوة الجنس بما عرفا ، فلو لا المعرفة الثانية لما احسا شهوة الجنس .

إلا أن « ما وُري عنها من سواتها » توحى بلطف ان الموارد كانت عنها في انفسها وكما بالنسبة لبعض ، ان الله أوراها تحت لباس الجنة ، حتى اذا أبرز سواتها في ارواحها بما عصيا ، برزت لها سواتها في اجسامها ، ليعلم أنها بعد عائشان سوات على سوات ، فلا يليقان حياة الجنة .

فلم يكن لهما في هذا المسرح إلا العصيان والموارات الثانية للسوثات «وطفقا بنحصفان عليهما من ورق الجنة» وأما لبس لباس الجنة، وأما نزعها، فلا شيء منها كان منها، وإنما اللبس منذ البداية لموارد السوء فلا يعرفها فيسوأها لكرامة الجنة ولباس الخلافة، ثم النزع في النهاية ليعرفها فيسوأها ويعلم أنها على سوء وإلى سوء إلا أن يتبع الهدى !
﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣٧).

٨ - وما هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ومتى تلقاها ؟

إن الكلمات هي كلمات التوبة وقد تلقاها آدم بين امرين جماعين بالهبوط : « فازلها الشيطان عنها فأخرجها مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما ياتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

فقد تلقى آدم كلمات من ربه بعد العصيان وقبل الهبوط ، وتاب الله عليه كذلك قبل الهبوط ، فلم تكن التوبة بالتي تنفعه في البقاء في الجنة ، اللهم إلا غفراً عن ذنبه فلا يعذب في دار الخلد ، وأما الدنيا « فإما ياتينكم مني هدى . . » إنها دار عمل دون جزاء ، كما الآخرة دار جزاء ولا عمل .

ولأن اجتنابه بما تاب عليه وهدى كان في الجنة وقبل الهبوط « ثم اجتنابه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعاً . . » فلتكن بداية نبوته في الجنة وإن كانت رسالته باتساع نبوته بعد الهبوط عن الجنة : « قال اهبطا . . فإما ياتينكم مني هدى » فهناك له هدى واجتنابه قبل الهبوط ، عليهما النبوة دون رسالة ، وهنا هدى عامة بعد الهبوط هي الرسالة بغد

اتساع النبوة ..

إذا فترتيب القصة : أكل من الشجرة ، فتلقى كلمات التوبة ، فنبوة ، فهبوط فتوبة فرسالة ، ولكنها النبوة تنافي العصيان وقد عصى إلا أنها كانت بعد التوبة .

وترى انها كانت كلمات الاعتذار التوبة : « قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا » فتلقى كلمات التوبة ، وهذه الكلمات كان قبل الهبوط وبعد الأمر الأول بالهبوط ، أفلا يدل هذا القرآن أنها هي تلك الكلمات ؟ .

اقول : إنها كانت قبل الأمر بالهبوط « ألم أنهكما . . . قالوا ربنا ظلمنا » وتلقى الكلمات هو بعد الأمر الأول وقبل الثاني الذي بعده الهبوط ، والترتيب حسب مختلف الآيات ، العصيان - ربنا ظلمنا - الأمر بالهبوط - تلقي الكلمات - الأمر الثاني بالهبوط ، كما وتلمح « فتاب عليه » بعد « فتلقى آدم من ربه كلمات » أن آدم تاب إلى الله قبلها بقوله : « ربنا ظلمنا » فلم يتب الله عليه حتى « تلقى من ربه كلمات » أخرى « فتاب عليه . كما وتوحي « وإن لم تغفر لنا » دون « اغفر لنا » انها ما كانت لتكفي في المغفرة ، فتلقى كلمات غيرها بعدها تشفعها « فتاب عليه » .

ثم وقد لا تحتاج هذه الكلمات « ربنا » الى تلق من الله ، حيث الندامة بعد المعصية وظهور السوءة هي التي تدفع مثل آدم الخليفة أن يردد هذه الكلمات دون نظرة لتلقيها من ربه ، وقد لا تكفي - كذلك - توبة من الله عليه وإن صحت توبة منه إلى الله ، والنص « فتاب عليه » الله ، دون « تاب إليه » : آدم إلى الله ، إذاً فهذه الكلمات مشفوعة بأخرى وهي شفيعة له في قبول التوبة ، وعليها هي هي الأسماء التي علمها ، أسماء الخلفاء الذين احتج الله بهم على الملائكة في هذه الخلافة ، فليكونوا هم الرعيل الأعلى بينهم ، لا كأمثال آدم ، إذ لا تنفع شفاعته ممن هو مثله في كيانه ، إلا من

هو فوقه وفوق العالمين كمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله المعصومين (عليهم السلام) : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » (٤ : ٦٤)

والتلقي هو التلقن ، أخذاً للكلام على تفهّم لما يعنيه ، إذاً فهذا التلقي يحمل تعريفاً بأصحاب هذه الكلماتِ الأسماء ، أكثر مما حمله تعليمه بها ، ولأن « إني أعلم ما لا تعلمون » ثم « علّم آدم الأسماء كلها . . » يحمل جواباً مقنعاً للملائكة عن قولهم « أتجعل فيها من يفسد فيها » فليكن الأسماء هم هؤلاء الرعييل الأعلى أنهم هم الخلفاء ، أو أن فيهم من يكافح العصاة والعصيان ، إذاً فهم أولاء الأكارم الذين بهم يتوب الله على من يتوب ، وفيهم الكفاح عمن لا يتوب أم لا يتوب عليه الله ، ولا نعرف أجدر أو بهذه الجدازة من أهل بيت الرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) !^(١)

مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

(١) الدر المنثور ١ : ٥٨ - اخرج الطبراني في المعجم الصغير والحاكم وابو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن عساكر عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « لما اذنب آدم الذنب الذي اذنبه رفع راسه الى السماء فقال : اسألك بحق محمد الا غفرت لي فأوحى اليه ومن محمد ؟ فقال : تبارك اسمك لما خلقتني رفعت راسي الى عرشك فاذا فيه مكتوب لا اله الا الله محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فعلمت انه ليس احد اعظم قدراً عندك ممن جعلت اسمه مع اسمك فأوحى اليه يا ادم ! انه آخر النبيين من ذريتك ولولا هو ما خلقتك » . وفيه اخرج ابن البخاري عن ابن عباس قال : سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتأب عليه ؟ قال : سألت بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا ثبت علي فتأب عليه ورواه مثله في ملحقات الاحقاق ج ١٤ : ١٤٨ العلامة ابن المغازلي الشافعي في المناقب ص ٣٩ نسخة مكتبة صنعاء بيم - باسناد متصل عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . واخرج مثله =

٣٣٤ الجزء الأول

وتوبة العبد الى الله ، المقبولة ، محفوفة بتوبتين من الله عليه : توبة
اولى ليتوب : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » (٩ : ١١٩) وثانية هي قبول
توبته حيث التوبة هي علم وحال وعمل ، وكل ذلك بحاجة الى توفيق من

= العلامة النظرى في الخصائص .

وفيه ٣ : ٧٦ وعن اخرجه العلامة البيهقي في دلائل النبوة على ما في اللوامع ١ : ١٢٥
روى عن عمر بن الخطاب قال آدم اسألك بحق محمد وآله الا غفرت لي - الى قوله - :
ولولا هو ما خلقتك ، ورواه مثله ابن عساكر في مسنده على ما في اللوامع ١ : ٢١٥ .
وفيه اخرج الديلمي في مسند الفردوس بسند رواه عن علي (عليه السلام) قال : سألت
النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن قول الله : فتلقى آدم من ربه كلمات ؟
فقال - بعد ما ساق القصة - قال : فعليك هؤلاء الكلمات فان الله قابل توبتك وغافر
ذنبك قل اللهم اني اسألك بحق محمد وآل محمد سبحانه لا اله الا انت عملت سوء
وظلمت نفسي فاغفر لي انك انت الغفور الرحيم ، اللهم اني اسألك بحق محمد وآل
محمد سبحانه لا اله الا انت عملت سوء وظلمت نفسي فتاب علي انك انت التواب
الرحيم ، فهؤلاء الكلمات التي تلقى آدم ، ومن طريق اهل البيت (عليهم السلام)
اخرج الشيخ الطبرسي في الاحتجاج عن معمر بن راشد قال : سألت ابا عبد الله (عليه
السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ان آدم لما اصاب الخطيئة
كانت توبته ان قال : اللهم بحق محمد وآله محمد لما غفرت لي فغفر الله له
اقول : واخرج الصدوق مثله في معاني الاخبار باسناده الى ابي سعيد المدائني يرفعه
اليه ، واخرج في الخصال عن الفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام)
قال : سألت عن قول الله تعالى «واذا ابتلي ابراهيم ربه بكلمات» ما هذه الكلمات ؟
قال : هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه وهو انه قال : يا رب اسألك
بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تب علي فتاب الله عليه انه هو التواب
الرحيم ، وفي ملحقات الاحقاق ٣ : ٧٨ عن المولى معين الكاشفي في معارج النبوة ركن ٣
ص ٩ عن الصادق (عليه السلام) في حديث ان الكلمات التي تلقاها آدم من ربه : يا محمود ويا
علي الأعلى ويا فاطم ويا محسن ويا منك الاحسان بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن
والحسين ان تغفر لي وتقبل توبتي ورواه مثله القندوزي البلخي في ينابيع المودة ص ٩٧ .

الله ، ولا يوفق إلا من أراده وحاول له ، ثم لا يقبلها إلا إذا أتى بها على وجهها ، وتلقي الكلمات هو تعليم له كيف يتوب بتوفيق منه ، وتلقن لها علماً وحالاً وعملاً « فتاب عليه » .

فهذا التلقي يحمل إلقاء من الله تعليمياً وتوفيقاً للحال والعمل ، وتقبلاً من آدم إذ تحولت حاله وعمله « فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم » !
فالعلم اليقين بالخطأ وبمقام الرب نور . يؤجج نار الندم في القلب ، فيبعث اللسان والأعضاء الى التلافي ، وهذا المثلث هو التوبة الصالحة ، وأهمه قاعدته المتوسطة بين العلم والعمل وهي الندامة وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « الندم توبة » .

ولكي ينجو الإنسان من فخاخ الشيطان فعليه أن يكون دائم التوبة حتى يرجع في هذه المعركة الدائبة بالخسار على الشيطان وقد سأل رجلُ علياً أمير المؤمنين (عليه السلام) عن الرجل يذنب ثم يستغفر ثم يذنب ثم يستغفر فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) يستغفر أبداً حتى يكون الشيطان هو الخاسر فيقول : لا طاقة لي معه ، وقال : كلما قدرت أن تطرحه في ورطة وتتخلص منها فافعل ^(١) .

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣٨) .

٩ - ثم وما هي الهدى التي وعدها هذه الخليفة ؟ .

« قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون - ٣٨ - والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ^(٣٩) . . . قال اهبطا منها جميعاً بعضكم

(١) تفسير الفخر الرازي ٣ : ٢٢ في المسألة الثامنة .

٣٣٦ الجزء الأول
لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى .
ومن أعرض عن ذكرى فلإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة اعمى »
(٢٠ : ١٢٤) .

هذه الهدى الآتية لخليفة الأرض إلى الأرض لا ريب هي فوق هدى
العقل ، سواء أكانت هدى تهدي العقل في أخطائه أو تهديه في تكامله ،
أم تحمل أحكاماً ليس للعقل فيها حكم لا جملة ولا تفصيلاً ، وهذا المثلث
من الهدى تجمع الشرائع كلها ، فهي المقصودة للمكلفين منذ آدم إلى يوم
الدين ، إلا أن آدم ومن دونه إلى نوح لم يُبعثوا بشريعة أو شرائع من
القسم الثالث إطلاقاً فإنها لأولى العزم من الرسل ، حيث العزم لهم يعني
فيما يعني استقلال الشريعة الناسخة لما قبلها إن كانت ، والحاكمة على من
بعدها إلى ولي عزم آخر ، وليست إلا لأولى العزم من الرسل ، الخمسة
الذين دارت عليهم الرّحى^(١) .

وقد توحى « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين
وأُنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه
(٢ : ٢١٣) - توحى أن الناس ظلوا في فترة من الزمن ضلّالاً عن هكذا
شرعة إلهية تحمل كتاب وحي برسالة ، فليكن آدم رسولاً بلا كتاب
بشرعة غيرها ، كالتى تهدي العقل فقط عن أخطائه ، أمّا التى لها فروع لا
تحكمها العقل لا جملة وتفصيلاً فلا ، وعليها ليست بالتى تكملها ايضاً ،
وإنما الزاوية الأولى من مثلث الوحي الرسالة ، وهي أدنى درجات
الرسالة .

ولا شك إن أول ما أتت من هدى لخليفة الأرض كانت بواسطة آدم
صفي الله ، الذي اصطفاه واجتباها بعدما عصى وتاب عليه وهدى
«وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباها ربه فتاب عليه وهدى » ولحد الآن ما

(١) راجع ج ٢٦ ص ٧٣-٧٨ في آية «اولوا العزم» .

سورة البقرة آية - ٣٨ ٣٣٧
بُعْثَ رَسُولًا ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ هَادِيًّا ثُمَّ « قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ فَمَا يَاتِيَنَّكُمْ مِنِّي هَدًى .. » فابْتَغِثْ بِهِذَا الْهَدًى (١) .

وَمَنْ ثُمَّ ضَابِطَةٌ عَامَّةٌ لِمَنْ ضَلَّ أَوْ اهْتَدَى : « فَمَنْ تَبَعَ هِدَايَ فَلَا يَضِلُّ
وَلَا يَشْقَى » - « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » : عَائِشًا فِي مَرْبَعِ النُّورِ
وَالسُّرُورِ : لَا يَضِلُّ - وَلَا يَشْقَى : حَتَّى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، أَنْ تَصْبِحَ حَيَاتُهُ
حَيَاةَ الْجَنَّةِ ، فَلَا يَحْزَنُ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْهَا وَلَا يَخَافُ أَنْ يَشْقَى « فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا
مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » !

وَأَمَّا « مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي » : « الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » - « فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا » فِي الْأُولَى وَفِي
الْآخِرَى « وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى » إِذَا فَهُوَ يَشْقَى فِي الْحَيَاةِ كُلِّهَا .
فَلَيْسَتْ تَوْبَةُ آدَمَ بِالَّتِي تَزِيلُ عَنْهُ شِقَاءَ الْحَيَاةِ وَضَلَالَهَا وَخَوْفَهَا وَحُزْنَهَا
بَلْ وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ هَدًى اللَّهِ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا حَتَّى لَا يَخَافَ وَلَا يَحْزَنُ وَلَا
يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى .

فَقَدْ تَحَطَّى هَذِهِ الْخَلِيفَةُ الْمَعْصِيَّةُ إِلَى التَّوْبَةِ وَإِلَى الْهَدًى ، فَعَصِيَانَهُ أَهْبَطَهُ
إِلَى الْأَرْضِ الشَّقَاءِ وَالْعَنَاءِ ، وَتَوْبَتَهُ أَصْلَحَتْهُ حَيَاةً رَاضِيَةً خَالِيَةً عَنْ مَرْبَعِ
الْعَنَاءِ ، وَهَدَاهُ أَدْخَلَتْهُ إِلَى جَنَّةِ الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الدُّنْيَا ، فَتَأَلَّفَتْ حَيَاتُهُ الْأَرْضِيَّةُ
بِحَيَاةِ سَمَاوِيَّةٍ عَلَيَّةٍ إِذَا تَعَلَّقَ بِوَحْيِ السَّمَاءِ وَهِيَ أَرْضِيَّةٌ سَجِينِيَّةٌ إِذَا تَحَلَّلَ
عَنْ وَحْيِ السَّمَاءِ : « فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا » .

وَمَنْ ثُمَّ يَنْتَقِلُ الْمُهْتَدُونَ إِلَى حَيَاةِ سَمَاوِيَّةٍ خَالِصَةٍ أَسْمَى مِنَ الْأُولَى
وَأَغْنَى ، وَالضَّالُّونَ إِلَى حَيَاةِ أَرْضِيَّةٍ أُنْعَسَ وَأُنْكَى !

(١) الدر المنثور ١ : ٥١ عن أبي ذر قلت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :
من أول الأنبياء ؟ قال : آدم ، قلت : نبي كان ؟ قال : نعم مكلم ، قلت ثم من ؟
قال : نوح وبينهما عشرة آباء .

رجعة ثانية الى مثلث الآيات في القصة باستدراكات ونكات :

١ - نتأكد من تردد الأكل من الشجرة في آياتها أنها ليست شجرة العلم او الحسد او المحبة او المعرفة وامثالها ، من التي لا تؤكل وإنما تتلقى معرفة وعلماً ، مهما حملت هذه الشجرة روح الشقاء والضلال .

٢ - إخراجهما من الجنة قد ينسب الى الشيطان كما هنا « فأزلهما الشيطان عنها فاخرجهما عما كانا فيه » وفي الأعراف « كما اخرج أبويكم من الجنة » وفي طه « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » .

ثم ينسب الإهباط والأمر بالهبوط الى الله : « وقلنا اهبطوا » كما هنا « وقال اهبطوا » في الأعراف و « قال اهبطا » في طه .

والجمع ان سبب الخروج والهبوط هو إبليس بما أزلهما دون أن يهبطهما هو بنفسه ، ثم الله اهبطهما جزاءً بما كسبا أن استزلا بما أزلهما .

٣ - هنا امران جماعيان بالهبوط يتوسطهما تلقي كلمات التوبة، اترى ان آدم عصى الأمر الأول حتى تاب، ثم أمر ثانياً بالهبوط ؟ فكان عليه - إذا - أن يتوب عن عصيانه الثاني أن خالف الامر الأول ؟

هناك عصيان ثم بداية التوبة في الأعراف قبل الامر بالهبوط : « الم أنهيكما .. قالا ربنا ظلمنا انفسنا .. قال اهبطوا » ثم هنا تلقي لكلمات التوبة بين الامرين بالهبوط : « وقلنا اهبطوا .. فتلقى .. قلنا اهبطوا .. » مما يدل ان الكلمات المتلقاة هي نهاية التوبة لا بدايتها : « ربنا ظلمنا .. » .

فقد اشتغل آدم منذ الخطيئة في الجنة بالتوبة قبل الأمر الأول وبعده حتى تاب الله عليه ، وعمل الاول ما كان فورياً دون مهلة وكما في طه : « وعصى ادم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعاً .. » مما يوحي أن امرهما الخاص بالهبوط بعد ما أمر إبليس حين

أزلهما ، وبعد ما تاب عليه ربه وهدى ، وكمال التوبة كان بتلقي الكلمات بعد الأمر الأول الجماعي بالهبوط هنا ، وكأنه يقول انتما بعد قليل وتحقيق التوبة هابطان مع الشيطان ، إذاً فلا عصيان ثانياً لآدم وزوجه ، وإنما ابليس هو الذي عصى ربه لحد الآن مرتين :- مرة إذا استكبر عن السجود لآدم « قال اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها » وأخرى إذا أمر مع آدم وزوجه إذ أزلهما ، إذ كان أمره غير أمرهما ، حيث هما كانت لهما مهلة لتحقيق التوبة دونه ، أو أن التأكيد لأجل التكرار حيث ظنا أن توبتهما نسخت الأمر بالهبوط فأعاده الله تدليلاً على أن الهبوط لزام العصيان ولو بعد التوبة ، ولأنه خلق خليفة في الأرض لا في السماء ! .

ومهما يكن من شيء فالأمر الأخير بجماعية الهبوط يحمل تحقيقه تكويناً ، بجانب ما يحمل إيجابه تشريعاً ، مهما كان آدم وزوجه مطيعان والشيطان عاصياً ! .

« فازلهما الشيطان وأخرجهما مما كانا فيه » : من الجنة بما يشقى : « إن لك إلا تجوع فيها ولا تعرى . وإنك لا تظلم فيها ولا تعرى »

وقد خرجا من بعض ما فيه « ولا تعرى » وهما بعدُ فيها ، حيث نزع عنها لباسهما « وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » ولكن لم يسمح لهما ، حيث « طفقا يخصفان » دون « خصفا » كما وأن الخروج مما فيها يقتضيه ، إذ لا يخص بالخروج عنها ، وإنما « مما كانا فيه » ومنه لباس الجنة ورقاً وسواء ، فقد بقيا عريانين حتى أهبطا ، وقد تابا عريانين منكسرين ، وإنه أخرى بحالة التوبة وأجدى .

٥ - « فوسوس لها الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنها من سواتهما » توحى أن لو لا وسوسة الشيطان بذوق الشجرة لم تبدو لهما سواتهما أبداً ، إذ كان لباس الجنة لهما لزاماً ، كما ألبسهم منذ خلقا وأدخلها ، فظهور السواة كان

٣٤٠ الجزء الأول

مقصوداً للشيطان نكاية بآدم وزوجه ، أنكما تحملان سوات في ابدانكما ،
واخرى في ارواحكما حيث عصيتما ربكما فلست أنا العاصي فقط وانتما
مطيعان ! فهذا عصيان بعصيان وأي فرق بين عصيان وعصيان ؟ فطالما أنا
عصيت ربي أن لم أسجد لك ، فانت عصيت ربك فيما أنعم عليك من
الجنة ، ام ماذا من أهداف أضاليل .

فالشيطان بخيله ورجله يحاول دوماً بخطواته أن يضم الى حزبه من
عباد الرحمن لكي لا يبقى وحده مردولاً مدحوراً .

ومن ثم كان لظهور السواة هذا أثره في آدم وزوجه ، ان ياخذ
حذرهما في الحياة الأرضية ، ويتاكدا من « ان هذا عدوك ولزوجك »

فعلى الإنسان أن يلتزم لباس التقوى الذي يستر على العورات
والسوات كلها : « يا بني قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سواتكم وريشاً
ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون-يا بني آدم لا
يفتنكم الشيطان كما اخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما
سواتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء
للذين لا يؤمنون » (٧ : ٢٧) .

وما لم تظهر السوات لا يندفع أصحابها لسترها أو علاجها ، فقد كانت
بلية الجنة لآدم وزوجه درساً للأجيال كلها : كيف عليهم أن يعيشوا معركة
الحياة الأرضية ، ولكي يرجعوا الى الجنة على ضوء الصالحات في معتركات
الحياة ، حيث الجنة دون كدح وعمل ليست بالتى ترضي الضمير : « يا ايها
الإنسان إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه »

٦- لماذا « فتشقى » دون « فتشقى » في « فلا يخرجكما من الجنة
فتشقى » ؟ كما و « ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وانك لا تظمأ فيها
ولا تضحى . فوسوس إليه الشيطان » رغم انها معاً منهيان وقد حُذرا معاً

سورة البقرة آية - ٣٨ ٣٤١
عن غرور الشيطان ، واكلاً معاً منها ، فهما في هذا المسرح على سواء ولماذا
يختص آدم بالحظر عن عقبات هذا العصيان ، وهما معاً منهيان : « ولا
تقربا » ، كذلك وظالمان عند العصيان « فتكونا من الظالمين » « ربنا ظلمنا
انفسنا » فهل يا ترى إن الظلم العصيان منها يخص بخلفياته - فقط - آدم
دون زوجه و « لا تزر وازرة وزر أخرى » .

اقول : هما متشاركان في الظلم والعصيان والخروج مما كانا فيه والمهبوط
عن الجنة : « فاخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا .. » ولكننا العباء في
الحياة الأرضية وشقاءها وجوعها وعراها وظمأها وضحاها ، انها كلها
تتوارد على الذكران قبل الأنثى وأكثر ، حيث هن يعشن على هامش
أتعابهم ، فعليهم مطاردة هذه الشقاء وحمل هذه الأعباء لا لأنفسهم
فحسب ، وإنما لأزواجهم و امهاتهم وبناتهم ايضاً كما يتحملون لأنفسهم ،
بل وقد يفضلونهن عليهم حيث « جعل بينكم مودة ورحمة » (٣٠) (٢١) و
« الرجال قوامون على النساء » .
ففي الحياة الأرضية للرجال ضعفت وأضعاف ما للنساء من أعباء
وشقاء .

٧ - ولماذا « فتلقى آدم .. فتأب عليه » دون « تلقيا .. فتأب عليهما »
وهما معاً عاصيان تائبان « قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا » ؟

ذلك لأن آدم هو الاصل وهي الفرع ، طُوي عن ذكرها هنا حيث
التقى وحي وهي محرومة عنه ، وإنما تتلقى منه بعدما تلقى ، ثم هي
التائبة على هامشه ، وكما أن عبء الحياة الدنيا عليه دونها « فتشقى » !

٨ - كيف التلاءم في « فإما ياتينكم مني هدى » بين « إن » الشرطية
الدالة على الشك والترديد ، وبين « ن » التاكيد التي تؤكد مدخولها ؟

في الحق ان « إن » لا تعني بنفسها ترديداً ، وإنما شرطاً يلائمه كما

٣٤٢ الجزء الأول

بلائم التحقيق ، وهنا التحقيق مستفاد من نون التاكيد والشرط يفيد مفاده ، ف « إن » يات مني هدى وهو « ما ياتينكم » - « فمن تبع هداى ... » .

٩ - وترى كيف « من تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »
« من اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » وشقاء الحياة الدنيا شاملة لعائشها ، بل هي للمؤمن أشقى وانكى ، كما أن خوفه وحزنه فيها واقعان على ما يرى من ظلامات وتخلفات عن شريعة الله ؟ فمهما « لا يضل » ولكنه يخاف ويحزن ويشقى .

ولكننا الشقاء في الحياة الدنيا، منها مشتركة بين المؤمن والكافر ، لأنها لزام الحياة الدنيا ، ولكنها للمؤمن مجبورة بما تستقبله من راحة الحياة الأخرى، ثم وشقاء فيها تخص المتخلفين عن شرعة الله : التي تخفف كثيراً من أتعابها ، ولو طبقت تماماً لأصبحت الحياة الدنيا الشقاء رحمةً كلها كما الجنة سواء ، فالمؤمن في هاتين الشقائين برحمة وراحة نسبية في الأولى وحقيقية في الثانية: « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » وأما الكافر: « ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً . ونحشره يوم القيامة أعمى » فضنك المعيشة في الحياة الدنيا هو لزام الكافر قدر كفره ، وراحتها - رغم انها دنيا - هي لزام المؤمن قدر إيمانه ، فليس الايمان بالذي يعمر - فقط - الحياة الأخرى ، بل انه يجمع تعمير الحياة الدنيا إلى الأخرى ، كما الكفر هو ضنك فيها .

واما « لا خوف عليهم » فهو مما يستقبلهم في الاخرى فانهم آمنون فيها ، واما ما يخوفهم أهل الدنيا في نفس او مال ام ماذا ، فانها ليست بالتي تخوفهم ما داموا في مسيرهم إلى الجنة المأوى .

ثم « ولا هم يحزنون » على ما مضى ، مما قدموه في سبيل الله او فات

سورة البقرة آية - ٣٨ ٣٤٣

عنهم من زخرفات الحياة وزهراتها ، فما قدموه يقدمهم الى الحسنى فلماذا يحزنون ؟ وما فات عنهم يخفف عنهم ثقلهم فلماذا يحزنون : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . . »

واما الكافر فهو يعيش دوماً بين حزن لما فاتته وخوف عما يستقبله « فإن له معيشة ضنكاً » ! .

« بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ : ١١٢) « فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٧ : ٣٥) « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١٠ : ٦٢) « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٤٦ : ١٣) .

فاتباع هدى الله ، بإسلام الوجه لله ، وبالإصلاح وتقوى الله ، ممن قالوا ربنا الله ثم استقاموا من أولياء الله ، هؤلاء الأكارم : « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » !

على هامش القصة :

هنا آيات توراتية مختلفة ، وروايات أمثالها تسربت وترسبت في روايات إسلامية تشوه وجه القصة الى خلاف العقل والعدل ، نضربها عرض الحائط حفاظاً على كرامة الوحي وذوداً عن ساحة الربوبية والرسالة ، ومن التورات :

(تكوين ٢ : ١٦ - ١٨) و (٣ : ١ - ٢٦) : واوصى الرب إلآه آدم قائلاً : من جميع شجر الجنة تأكل واما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها شيئاً لانك يوم تأكل منها تموت موتاً -

فقال الحية (يعني ابليس) للمرأة (حواء) أحقاً قال الله : لا تأكل

من كل شجر الجنة ؟ فقال المرأة : نأكل منها إلا التي في وسط الجنة فقال الله : لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا . فقالت الحية : لن تموتا بل الله عالم انه حينذاك تنفتح اعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر . فأكلها آدم مع زوجته فانفتحت اعينهما وعلما انها عريانان . فخاطبا اوراق طين وصنعا لأنفسهما مآزر وسمعا صوت الرب إله ما شياً في الجنة فاختاباً آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط الجنة فنادى الإله اين انت ؟ فقال آدم : سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبت ، فقال : كيف علمت أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة ؟ فقال : المرأة ابتلتني ، فقال : وأنت لماذا ؟ فقالت : الحية غرتني ... فقال للحية ... وقال للمرأة : أكثر أتعاب حبلك ، بالوجع تلدين اولاداً ... وقال الرب الإله له : هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر والآن يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ويأكل ويحيى الى الأبد فأخرجه من جنة عدن ...!

مركز تحقيق كتاب توير علوم رباني

وافضيحتاه من هذه الآيات المقححات في التورات فاكثرها خرافات هُراآت، خارجة عن حدّ التصليح إلى مطلق التزييف ، حيث تجهل الرب وتعجزه وتعذّده وتمثله بعبيده وتغلب عليه كيدهم ، وكل من له أدنى معرفة بالالهيات يزيف هذه العبارات المجنونة المتناقضة ، دون حاجة الى إجابات !

ثم انظر الى الذكر الحكيم والقرآن العظيم كيف يبين على ما بين يديه من كتاب ، فيزيّف زيف ما أقحم فيها ، ويصدّق صدق ما تبقى والله من وراء القصد .

يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ
وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾
وَمَا آمَنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ
بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا
تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾
* أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَكْتَسِبُ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ
إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ
وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ
الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا
يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ
وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

« بني اسرائيل » في القرآن هم « بني اسرائيل - او اسرائيل » في التورات العبراني ، ف : « يسرا » - هو « عبد » و « ثل » أو « ثيل » هو « الله » : عبد الله ، وهو يعقوب بن اسحاق رأس السلسلة الإسرائيلية ، واين اسرائيل القرآن من اسرائيل التوراة، إذ تفسره بمن صارع الله فصّره فاخذ بركة النبوة منه حتى خلّصه ! (١) .

تُذكر « اسرائيل (٤٣) مرة في سائر القرآن في ١٨ سورة : ١١ مكيّا (٢٣) آية وفي ٧ مدنيات (٢٠) آية .

فبنوا اسرائيل هم أكثر الأقوام ذكراً وقصصاً في العهدين : المكي والمدني - رغم أن القرآن المكي لم يعش وسطاً يهودياً في مكة وإنما هو المدني .

لذلك لا نجد خطاباً لهم بين المكية ال : ٢٣ - لإمرة واحدة : « يا بني اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم .. » (٢٠ : ٨٠) ولكنها ايضاً لا تخاطب الموجودين إذ لم يكونوا في مكة ، وإنما هي حكاية حال ماضية : « ولقد اوحينا الى موسى .. (٧٧) فاتبعهم فرعون .. (٧٨) يا بني اسرائيل .. » .

ومما يلاحظ أن طريقة عرضهم في العهد المكي يختلف عن المدني ، فلا يعني العرض المتواصل إلا تثبيت القلة المؤمنة في مكة بعرض تجارب من الدعوة وموكب الايمان الواصل منذ اول الخليقة ، وتوجيه الكتلة المسلمة بما يناسب ظروفها في مكة ، اعتباراً من وسط الأمة الاسرائيلية التي هي أولى الأمتين العظيمتين الحاملتين الشرعة الأصلية لإلهية الترامية الأطراف : هما

(١) راجع كتابنا « المقارنات العلمية والعقائدية بين الكتب السماوية » .

سورة البقرة آية - ٤٠ - ٤٨ ٣٤٧
شريعة التوراة والقرآن ، ولتعتبر الأمة المسلمة عما مضت من حوادث
وكوارث وعراقيل في سبيل الدعوة والداعية .

لا نجد في العهد المكي تنديداً ببني اسرائيل إلا قضاءً تحكي عن ماضيهم :
« وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض
مرتين ... » (١٧ : ٤) ايقاظاً للمسلمين ليأخذوا عنهم حذرهم في
العهد المدني وعلى طول الخط ، ثم وفي « ٢٢ » آية اخرى ليس إلا عرض
لـ : كيف أرسل موسى بالبينات ، وواجه فرعون وملأه ، ونجى بني اسرائيل
الأذلين . وجعلهم أعزة ، وأورثهم كتاب الدعوة ، وليثبت المسلمون
ويصمدوا وهم قلة أذلة ! وجاء المشركين الكثرة الأعزة ! ويعلموا أن الله هو
ناصرهم و : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » « والله العزة
ولرسوله وللمؤمنين » ! .

ثم في العهد المدني تأخذ الآيات في تأنيبهم وتأديبهم ، مذكرة الجماعة
المسلمة بكيدهم وميدهم ، وأنهم أضل الأقبام وحتى من الذين اشركوا :
« ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين اشركوا » (٢ : ٩٦) .

فلا نجد أمة قبل الإسلام أكثر نعمة منهم ، وأخطر على المسلمين
نقمة ، فرغم أن الله فضلهم على العالمين ، ونجاهم من عدوهم فرعون ،
وابتعث فيهم نبيين ، نراهم ألد أعداء الإسلام والمسلمين ، وأشدهم
ضغائن على رسول الاسلام ، رغم ذكره (صلى الله عليه وآله وسلم)
المذكورة في التوراة ! .

هنا في نيف ومائة آية - وفي سائر القرآن أمثالها - تذكر النعم التي حباها
الله إياها ، والكفران والنكران الذي واجهوه وجاهاها .

فهنا - وبعد عرض خلافة الإنسان وقصة الشيطان ومصيرهما - يتبدء
من هذا المقطع بمواجهة بني اسرائيل ، الذين واجهوا الدعوة الإسلامية

بشراسة نكراء ، حيث قاوموها وكادوا لها بألوانها منذ بزوغها وحتى الآن ، معركة شعواء تشنها اليهود القوميون العنصريون على الرسالة الإسلامية منذ ذلك التاريخ البعيد ، ضاربة الى أعماق التاريخ في كل الأجواء والأرجاء وحتى اللحظة الحاضرة .

معركة لا تتغير جذورها عبر الأجيال مهما تغيرت شكلياً ، رغم أنهم في تشردهم عبر القرون ما وجدوا من المسلمين إلا صدوراً حنونة ، او قلة أذى منها هم آذوهم كثيراً ، فكان من المترقب أن يسبقوا غيرهم في الايمان بهذه الرسالة الجديدة ، ولكن كانوا أول كافرين به وشروا بآيات الله ثمناً قليلاً .

هنا - وبعد استنفاد كافة وسائل الدعوة معهم - يذكرهم بما من عليهم ، ويهددهم بمخلفات تمردهم دنيئ وعقبي ، ويصارع بمدى جهلهم وتجاهلهم القيم ، وتصلبهم على الفوقية العنصرية .

يبدأ بنداء حنون تذكيرهم فيها بما أنعم عليهم ، وتامرهم بالوفاء بعهد الله والرهبة من الله ، والايمان بما أنزل الله ، وتنهاهم عما حرم الله عليهم يبتدون .

فليست قصة بني اسرائيل وأضرابهم في قصصهم احاديث تتكرر طيات القرآن لغرض قصّ التاريخ ، وانما تذكيراً لأصحابها وأضرابها ، وتحذيراً أو تبشيراً للوسط الإسلامي في كافة الأجواء والأرجاء .

وما أحوج الأمة المسلمة الى درس قصص الأمم الغابرة فانها الامة الأخيرة التي تضرب الى نهاية الكون ، فعلية - إذن - أن تتملّ من هذه التوجيهات دراسات متنوعة بعيون مفتوحة لتخوض معارك الحياة مع اعدائها التقليديين ، وكيف ترد على المكائد اللثيمة التي توجه اليها بأخفى الوسائل وأمكر الطرائق .

فهذه جولة جولة مع بني اسرائيل - وهم أعرق الأمم طوال التاريخ الرسالي - نعيشها في تاريخنا المجيد ، ولكي نحيد من تخلفاتها ، ونستفيد من : كيف ابتدأت الرسالة الموسوية وواجهت عدوها الفرعوني اللدود ، فكل حال ابن ماضيه وفي الإسلام المزيد ! .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ ﴾ (٤٠)

« بني » جمع « ابن » : الولد الذكر ، إلا إذا أضيف فيعمه والأنثى كما هنا ، وفي إضافتهم الى اسرائيل إيماء بعبودية معمقة في يعقوب جدّهم ، فاسرائيل هو عبد الله ، وإيمان ثان ، لشرف هذه النسبة وكرامتها فليرجعوا إليها - وهم أخرى - فالحسنة من بيت النبوة أحسن وأجدى ، كما السيئة منها أنكى وأردى ، فليحذروا السوء وهم بنوا أنبياء ! .

وهذا الخطاب الحنون يضم ذكرى النعمة الإلهية الخاصة لهم ، ومن ثم الأمر بالوفاء بعهد الله حتى يوفي بعهدهم ، ثم « وإيائي فارهبون » .

وترى ما هي هذه النعمة القمة الذكرى ، وما هما العهدان، والرغبة التي تخلف النعمة والعهد ؟ .

توحي « نعمتي » بوحدة النعمة ، أو أنها على كثرتها من نوع واحد ، وأنها نعمة خاصة ربانية تفوق النعم المادية التي نعم المنعمين أيّا كانوا وأيّان ، فهل هي تفضيلهم على العالمين ، وهي قرينة معطوفة عليها ؟ : « اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين » (٢ : ٤٧ و ١٢٢) .

أم هي النجاة من آل فرعون : « وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون

٣٥٠ الجزء الأول

أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » (١٤ : ٦) .

وما النجاة من فرعون إلا نعمة سلبية تُعَبِّد الطريق لظهور الرسالة الإلهية التي هي النعمة القمة !

أم هي هي الرسالة المتوطدة فيهم منذ إسرائيل إلى عيسى (عليهما السلام) وهو آخر أنبياء بني إسرائيل ، طيأت قرون رسالية مشرقة تترى ، تتوسطها شريعة التورات ، مبتدئةً بجذورها من إسرائيل ، ومتكاملةً بموسى (عليه السلام) ومهيمنةً بكتابات هامشية للتورات من الرسل الإسرائيليين إلى المسيح (عليه السلام) حيث الإنجيل دعوة توراتية في شريعة الناموس ، مهما تضمنت توجيهات أخلاقية تربو على التوراة ؟ : « وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين » (٥ : ٢٢) ؟ .

لا نجد نعمة لهم أنعم من هذه النعمة القمة : الجمع بين النبوة والمُلك ، نعمة واحدة في اتجاهها ، متعددة في بنودها وحدودها ، حيث تنحو منحى تحقيق الرسالة وتطبيقها .

وترى إنها تختلف عن تفضيلهم على العالمين إذ قرنت بها وعظفت هي عليها ؟ ولا تفضيل فضيلاً إلا على ضوء فضيلة الرسالة الإلهية !

اقول : إن تفضيلهم على العالمين نعمة تعم الرسالة والملوكية ، وإنهم أوتوا ما لم يؤت أحد من العالمين ، وما سواها من نعم في سلبية النقم وإيجابية الرحمات التي عُبِّدت الطريق للرسالة الإسرائيلية .

فهذه نعم لتعددتها ، وهي نعمة لوحدة جذورها واتجاهاتها ، ولا نجد أمة منذ آدم حتى المسيح جمعت لها ما جمعت لبني إسرائيل من نعمة ، وهم

سورة البقرة آية - ٤٠ ٣٥١

المعنيون من « العالمين » : « واني فضلتكم على العالمين » : عالمي تاريخهم حاضراً وغابراً ، دون الأمة الاسلامية السامية المفضلة على العالمين في مثلث الزمان ، في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، وهذه الأمة المجيدة التي حباها الله الخلافة والرسالية الخالدة ، إذ سلبها عن بني اسرائيل .

أترى إذ أنعم الله على السابقين من بني اسرائيل ، فكيف يمتنُّ بها على الحاضرين وقد أخذت عنهم نعمة الرسالة وحولت الى نبيِّ إسماعيلي ؟

اقول : لأن نعمة الرسالة المحمدية أكثر وأوفر من الرسالة الإسرائيلية ، فهي لهم نعمة بعد نعمة ، فليقبلوا إلى هذه الرسالة شكراً لما أنعم عليهم من الرسائل السابقة ، البشارة بها ، فذكر هذه النعمة السابقة السابقة يدفعهم للتنعم باللاحقة ، لأنها نعمة تحمل البشارة بهذه النعمة !

ثم ترى ما هو عهد الله عليهم حيث يناط بعهدهم عليه ؟ عهد وجاه عهد ، ووفاء وجاه وفاء ؟

أهو العهد الاول المعقود بين فطرة الإنسان وبين الله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها ذلك الدين القيم » (٣٠ : ٣٠) أن يوحد ويعبده وحده لا شريك له ؟ عهدٌ مشدود إلى الفطرة ، لا يحجبه او يفصله إلا حجابات الانحراف والغواية العامة ؟

أم هو العهد المعقود على آدم وذريته إذ أهبطه وزوجه إلى الأرض : « فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ : ٣٨) وهما عهدان يعمان نوع الإنسان دون اختصاص ببني اسرائيل ، وهما أمّ العهود التي تؤخذ على مختلف الأمم مهما اختلفت صيغها ، حيث تنحو منحى أصلي الفطرة والشرعة : عهد ذاتي وآخر خارجي يتجاوبان في تحقيق أوامر الله . .

أو هو العهد المأخوذ على النبيين ؟ والمخاطبون هنا ليسوا النبيين، وإنما بنو إسرائيل !

أو هو العهد المأخوذ على أهل الكتاب وبنو إسرائيل هم القمة بينهم :
 « وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لَتَبَيِّنَهُ للناس ولا تكتُمونه فبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون » (٣ : ١٨٧)
 « ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن اقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزّرتهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا تكفرون عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار . . . » (٥ : ١٢) « لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » (٥ : ٧٠) « ولقد أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذاً ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بشيأ يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » (٢ : ٩٣) . . موثيق عليهم تِلَوُّ بعضٍ ، تنحو منحى تصديق النبيين ، ولا سيما النبي الإسماعيلي الذي نقموا منه وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » (٢ : ١٤٧) . . . الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » (٦ : ٢٠) .

هذا هو العهد البارز المعروف عندهم ، المأخوذ عليهم وعلى النبيين أجمعين : « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » (٣ : ٨١) « وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . ليسئل الصادقين عن

صدقهم وأعدّ للكافرين عذاباً اليماً» (٣٣ : ٨) «ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين آمنوا وكانوا يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل . . فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون» (٧ : ١٥٧) .

فهـ «أوفوا بعهدي» إيماناً بهذا الرسول النبي الأمي «أوف بعهدكم» :
لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات . . الرحمة المكتوبة للذين آمنوا :
الفلاح . . : فلاحاً في الرحمة ورحمة في الفلاح بعد تكفير السيئات .

وقد يعني هذا العهد مجموعة العهود العامة والخاصة المأخوذة عليهم كمكلفين - موحدين - أهل الكتاب - بني إسرائيل ، والقدر المسلم عهد الرسالة الإسلامية كما يبرز هو فقط بعد هذه الآية دون فصل :
«وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم . . .» ! ولا تنافيه وحدة العهد «عهدي» حيث الكل واحدة في الاتجاه، مهما اختلفت في صيغها وشكلياتها ، على أن عهد الرسالة الإسلامية هو العهود كلها ، حيث يجمعها - أكملها - كلها ، وسوف تمر عليك البشارات الكتابية بحق الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) بطيأت آياتها .

«وأوفوا بعهدي» الذي عاهدته عليكم ، فإن وفيتم «أوف بعهدكم» الذي عاهدته لكم : « . . لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات نجري من تحتها الأنهار . . فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به . . . » وذلك بعد قوله تعالى : «ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل . . .» !

وطالما الخطاب الظاهر هنا لبني إسرائيل وفي إطار خاصة ولكنه كضابطة عامة تعم كافة العهود المأخوذة على الأمم والأفراد ، المقابلة لما

أخذه الله على نفسه جزاء لهم ، فلا وفاء من الله لعهودهم إلا بعد أن يوفوا له عهوده .

فليست عهود الله ووعوده فوضى تلعب بها الأهواء والآمال ، وإنما الأعمال هي التي تحدّد حدود تحقيق الوعود في كافة المجالات ، فلئن سألنا عن قول الله «أدعوني أستجب لكم» أنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ قيل : لأنكم لا تفون بعهدكم . وأن الله يقول «أوفوا بعهدي أوف بعهدكم» والله لو وفيتم لله لو فى الله لكم» (١) .

وعهده هنا هو الإلتزام بطاعته ، دون الشيطان : «ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم» فعلى غرار وفاءنا يكون وفاءه جزاء وفاقاً ، دون فوضى يأملها الباطلون «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» !

فالله وفي يحب الأوفياء ويكون عند طلباتهم إن كانت صالحة تُصلحهم أو لا تضرهم ، ولا يحب الناقضين اللعناء مهما كانت إدعائاتهم الهاوية الخواء .

وكل وفاء تتطلب وفاءً مثلها وفي إطارها ، إن في توحيد الله ، أو تصديق أنبياءه أو أوصيائهم (٢) أو في تطبيق احكام الله ام ماذا .

(١) نور الثقلين ١ : ٧٣ . عن تفسير القمي بسنده عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال له رجل جعلت فداك ان الله يقول : ..

(٢) نور الثقلين ١ : ٧٣ عن اصول الكافي عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية «وأوفوا بعهدي» قال : بولاية امير المؤمنين (عليه السلام) «أوف بعهدكم» أوف لكم بالجنة» أقول : وهذا من باب الجري والتطبيق لا التفسير ، حيث الآية تعني أولاً بني اسرائيل ، ومن ثم عامة المكلفين في عامة التكليف ، والولاية هي على هامش النبوة فعهدها هي عهدا .

فكما «لا ينال عهدي الظالمين» مهما كان عهد الإمامة في النبئين حيث موقعها في ابتلاء ابراهيم ، ولكنها في وجهة أخرى تعم كافة العهود وكل الظالمين ، فالذين يظلمون وينتقصون عهد الله ، لم يكن لينا لهم عهودهم من الله ، قاعدة عامة تعيش حياة التكليف ككل ، وكذلك «اوفوا بعهدي

= وفيه ايضاً عنه (عليه السلام) يا خيشمة ! نحن عهد الله فمن وفى بعهدنا فقد وفى بعهد الله ومن خفرها فقد خفر ذمة الله وعهده . وفيه عن معاني الاخبار باسناده الى ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : انزل الله عز وجل «اوفوا بعهدي اوف بعهدكم» والله لقد خرج آدم من الدنيا وقد عاهد قومه على الوفاء لولده شيت فما وفى له ، ولقد خرج نوح من الدنيا وعاهد قومه على الوفاء لوحيه سام فما وفيت أمته ، ولقد خرج ابراهيم من الدنيا وعاهد قومه على الوفاء لوحيه اسماعيل فما وفيت أمته ، ولقد خرج موسى من الدنيا وعاهد قومه على الوفاء لوحيه يوشع بن نون فما وفيت أمته ، ولقد رفع عيسى بن مريم الى السماء وقد عاهد قومه على الوفاء لوحيه شمعون بن حنون الصفا فما وفيت أمته ، وإني مفارقكم عن قريب وخارج من بين أظهركم ولقد عهدت الى أمي في علي بن أبي طالب ، وإنها (الامة) لراكبة سنن من قبلها من الامم في مخالفة وصي وعصيانه ، ألا وإني مجدد عليكم عهدي في علي فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجراً عظيماً . . .» -

ايها الناس ! ان علياً إمامكم من بعدي وخليفتي عليكم وهو وصي ووزير وواخي وناصر وزوج ابنتي وابو ولدي وصاحب شفاعتي وحوضي ، من عصى علياً فقد عصاني ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن اطاع علياً فقد اطاعني ومن اطاعني فقد رذ علي فقد رذ على الله فوق عرشه ، ايها الناس ! من اختار منكم على علياً إماماً فقد اختار علياً نبياً ، ومن اختار علياً فقد اختار على الله عز وجل رباً ، ايها الناس ! ان علياً سيد الوصيين وقائد الفر المحجلين ومولى المؤمنين ، وليه وليي وولي الله وعدوه عدوي وعدوي عدو الله عز وجل ، ايها الناس ! اوفوا بعهد الله في علي يوف لكم بالجنة يوم القيامة .

أوف بعهدكم » تعم في تأويله وعموم لفظة كافة العهود ، مهما خص خطابه بني اسرائيل ، فإنما العبرة في الخطابات القرآنية عموم الألفاظ دون خصوص الموارد .

« وإياي فارهبون » : - « إنما هو إله واحد فإياي فارهبون » (١٦) :
 (٥١) فوفاءه تعالى بعهدده لهم منوطٌ بعد ما مضى بأن يرهبوه لا سواء ، كما
 وإن التوارة « في نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » (٧) :
 (١٥٤) وأن دعوته رغباً ورهباً مستجابة شريطة المصالح الواقعية :
 « فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في
 الخيرات ، ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » (٢١ : ٩٠) .
 والرغبة مخافة مع تحرز واضطراب ، وهكذا يجب أن يخاف الله من عدله
 وظلمنا ، وفضله وجهلنا ، لا من ظلمه فإن الله ليس بظلام للعبيد !
 « وإياي فارهبون » حصر الرهبة في الله ، أن يخاف الله - فقط - دون
 سواء - فـ « من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه
 الله من كل شيء » (١) .

وترى ما هو موقف الفاء والنون في : « فارهبون » ؟ .. علّ الفاء
 عاطفة لدخولها على محذوف من شكله - اذ لا شاهد لغيره - كـ « إياي
 ارهبون فارهبون » إيحاء إلى استمرارية الرهبة ، تعقيباً زمنياً ، وتكاملها
 رتيباً : أن يعيش الانسان رهبةً من الله لا سواء ، ويتخطاها إلى أقوى
 فأرقى .. وهكذا يجوز اجتماع عاطفين في جملة واحدة ، حيث الواو لعطف
 المحذوف على المذكور ، والفاء هنا لعطف المذكور على محذوف من جنسها ، وما
 أحسنه جمعاً في عطف وعطفاً في جمع !

(١) عيون اخبار الرضا عن الامام الرضا (عليه السلام) .

والنون ليس نون الجمع لمكان كسرهما والأمر، فليحذف نون الجمع جزماً، بل هي نون الوحدة، الدالة بكسرهما على ياءها : «فارهبون» .
إذاً فهنا حصرُ بتقديم المفعول : «إياي» وتأكيد ان له بتكرار المفعول «ني» والفعل : «ارهبون فارهبون» فهي أكثر من «إياك نعبد وإياك نستعين» .

وفيه إيحاء إلى ما كان البعض من الأبحار يرهبون من بعض رهبة النكسة الروحية الإسرائيلية، ومن الفراعنة رهبة الفرعنة، ومن الأثرياء رهبة الفقر، فهم كانوا في ثلوث الرهبة من غير الله، فليتركوه إلى مثلث الرهبة من الله !
فذكر نعمة الله والوفاء بعهد الله وحصر الرهبة من الله، إنها تتبني الإنسان - أياً كان - وفياً نقياً زاهداً تقياً يعيش مرضاة الله، فيؤمن بالله ولا يكفر، ولا يلبس الحق بالباطل ويقوم الصلاة ويؤتي الزكاة ويركع مع الراجعين . . . :

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (٢١)؛

أمران بتوسطهما نهيان، أمرٌ بالآيمان بما أنزل الله أولاً وبتقواه أخيراً، ونهي عن أن يكونوا أول كافر بما أنزل، وأن يشتروا بآياته ثمناً قليلاً : سياج رباعي لا قبل له، ولا سيما لمن ذكر نعمة الله، ووفى بعهد الله، ورهب الله ! فالنهيان سياجان لتحكيم الأمر الأول، والأمر الأخير سياج للثلاثة : تقوى الله في الآيمان به وترك ما نهاه .

وهل إن «ما أنزلت» يخص القرآن، فانه النازل من سماء الوحي، أم هو الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فانه أيضاً نازل برسالته :

«قد انزل الله اليكم ذكراً . رسولاً يتلوا عليكم آيات الله بينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور» (٦٥ : ١١) حيث النزول هنا وهناك ليس من السماء ، فان الله ليس ساكن السماء وماكنها ، وإنما من مقام علٍ ، فكما القرآن نازل إلى أراضي القلوب من سمو الربوبية وسماتها ، كذلك الرسول نازل برسالته ووحيه ، سواء ، حيث هما من علٍ إلى داني .

وقد تتحمل الآية كلا النازلين ، قرآن محمد ومحمد القرآن ، مهما كان القرآن الوحي أصلاً ، ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حامله فرعاً ، حيث الدليل الأصل على رسالته هو القرآن ، كما هو وحيه الأصل .

فالقرآن يصدق ما معهم من كتب الوحي وأنبياءه ، ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يصدق ما معهم من أنبياءه وكتب الوحي ، فمحمد هو القرآن كما القرآن هو محمد مهما اختلفا في مظهرين ^(١) .

هنا «ما أنزلت» وفي أخرى «ما أنزل الله» (٢ : ٩١) يعلمان الرسول والقرآن ، وأما «آمنوا بما نزلنا . . .» (٤ : ٤٧) فإنها خاصة بالقرآن لمكان التنزيل : التدرج ، ولا تدرج لأصل الرسالة ، ولكنها القرآن مُنزلٌ : لنزوله جملة واحدة ليلة القدر ، ومنزل أيضاً لنزوله متدرجاً نجوماً طوال الرسالة .

وترى ماذا يعني «مصدقاً لما معكم» ؟ ومعهم خليط من وحي الأرض والسماء ! فهل القرآن يصدقه كله : «لما معكم» ؟ ام بعضه : الذي لم يحرف بعد فـ «لبعض ما معكم» والنص «ما» لا «بعض ما» ؟!

(١) «وما علمنا الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين» هذه الآية من يس كما تأتي تجعل الرسول ذكراً وقرآناً مبيناً اذ لا مرجع لـ (هو) الا هو ولم يسبق ذكر من القرآن

هناك آيات تصرح أن اليهود والنصارى حرفوا قسماً وأقساماً من آيات الوحي : «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله فويل لهم عما كتبت أيديهم وويل لهم عما يكسبون» (٢ : ٧٩) فكيف يصدق القرآن ما يكذبه من آيات توراتية أو إنجيلية دخيلة ؟ .

إذاً فليس القصد كل ما معهم ، فهل هو - إذا - ما معهم من آيات الوحي لا سواها : «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه» (٥ : ٤٨) فالمصدق هو كتاب الله ، لا كل كتاب ولا كل ما معهم ؟ وإنما بعض ما معهم ؟ .

وليس في تصديق البعض لما معهم تحريض على الإيمان به ، فإن كل لاحق - لا محالة - يصدق البعض من سابقه ، إذ لا يمكن تكذيبه ككل وإن كان كله من وحي الأرض ! . بل ولا يستطيع أي كاذب محتمل أن يجمع أكاذيب لا صدق فيها ، فإنما يخلط كذباً بصدق ، ويظهر كلاً بمظهر الآخر بغية الإضلال : «فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيثان معاً فهناك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى» بل وحتى إذا حاولوا أن يجمعوا كذباً خالصاً لا يستطيعون ! .

فترى إذا لا يقصد من «ما معهم» لأكله لمكان التحريف ، ولا بعضه إذ لا يفيد ، فما هو المصدق إذا ؟ .

اقول : انه البشارات الموجودة في التوراة كما في آيات : «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» (٢ : ٨٩) فقد كانوا من قبل أن يأتي محمد بالقرآن يستفتحون على المشركين انه يأتي

بأقوى شريعة إلهية تقضي عليكم «فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . . . » .
 فـ «ما معكم » هنا وفي «يكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم »
 (٢ : ٩١) وفي «يا أيها الذين اوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم »
 (٤ : ٤٧) . إنها - فقط - البشارات المدعوة في كتب السماء ، ثم وفيما
 يعني الأعم منها وسائر آيات الوحي لا نجد «ما معهم » او «معكم »
 بل «ما بين يديه » (٢ : ٩٧ و ٣ : ٣) و «ما بين يديه من الكتاب »
 (٥ : ٤٨) ولا يعني بين يدي الرسول كرسول إلا ما أنزل قبله على من سبقه
 من الرسل، وقد يشير إلى ما معهم : «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما
 يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (٢ :
 ١٤٦) و (٦ : ٢٠) - الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً
 عندهم في التوراة والانجيل . . . » (٧ : ١٥٧) .

وقد جمعنا في مؤلف خاص ما معهم من بشارات بحق الرسول الأعظم
 محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ^(١) نستعرضها في مجالاتها حيث تشير
 إليها الآيات ، وهنا مجال لاستعراض مواصفات القرآن في كتب السماء ، .

فـ «ما أنزلت مصدقاً لما معكم » له وجهتان : عامة تشمل عموم
 القرآن ، وخاصة تخص بشارات للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)
 فالقرآن ونبيه مبشر بهما على سواء في كتب السماء .

فمن العامة : «ذلك - الكتاب - لا ريب فيه » : ذلك القرآن هو
 الكتاب الذي بشر به من قبل : «نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون
 من المنذرين . بلسان عربي مبين ، وإنه لفي زبر الأولين . أولم يكن لهم

(١) رسول الاسلام في الكتب المساوية وفيه ٥٩ من بشارات الوحي فراجع .

آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل « (٢٦ : ١٩٧) .

وإليكم نموذجاً من هذه التي كانت في التورات ولعبت بها ايدي
التحريف والتجديف - مواصفات للقرآن كما في الأصل العبراني من كتاب
اشعيا - ٢٨ : ٩ - ١٤ .

« إِنْ مِى يُورِ دِعَاةٍ وَإِنْ مِى يَابِينُ شِمُوعَاةٍ غِغْمُولِي مُحَالَابِ
عَتِيمِي مِشَادَايِمِ^(٩) كِي صَوْلَا صَاوُ صَوْلَا صَاوُ قَوْلَا قَاوُ قَوْلَا قَاوُ زِعِيرِ شَامِ
زِعِيرِ شَامِ^(١٠) كِي بَلْعَجِي شَافَاهُ وَيَلَا شُونِ أَجَرْتِ يَذْبُرُ إِنْ هَاعَامُ هَذِهِ^(١١) أَشِيرِ
أَمْرُ إِلَيْهِمْ زَنْتُ هَمُّوْخَاهُ هَانِيْحُوْ لَعَايِفُ وَزَنْتُ هَمَّرَجَعَاهُ وَلَا أَبْوْ
شِمُوعُ^(١٢) وَهَآيَاهُ لَا هِمَّ دَبَّرُ يَهُوَاهُ صَوْلَا صَاوُ صَوْلَا صَاوُ قَوْلَا قَاوُ قَوْلَا قَاوُ
زِعِيرِ شَامِ زِعِيرِ شَامِ لِمَعْنِ يَلْخُوْ وَخَاشَلُوْ آخُوْرُ وَيَنْشَبَارُوْ وَيَنْوَقِشُوْ
وَيَنْلِكَادُوا^(١٣) لَاخِنْ شِمْعُوْ دَبَّرُ يَهُوَاهُ أَنْشِيْ لَاصُونِ مِشَلِيْ هَاعَامُ هَذِهِ أَشِيرِ
يِيروشالام^(١٤) : » .

« لَمَنْ تُرَى يَعْلَمُ الْعِلْمَ وَلَمَنْ يَفْقَهُ فِي الْخُطَابِ أَلْمُفْطَوْمِينَ عَنِ
الْبَلَنِ لِلْمُفْصُولِينَ عَنِ الثَّوْدِي (٩) لِأَنَّهُ أَمْرٌ عَلَى أَمْرٍ ، أَمْرٌ عَلَى أَمْرٍ ، فَرَضٌ
عَلَى فَرَضٍ فَرَضٌ عَلَى فَرَضٍ هُنَا قَلِيلٌ وَهُنَاكَ قَلِيلٌ (١٠) لِأَنَّهُ بِلَهْجَةٍ لَكِنَاءٍ
وَبِلِسَانٍ غَيْرِ لِسَانِهِمْ يَكَلِّمُ هَذَا الشَّعْبَ (١١) الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ هَذِهِ هِيَ
الرَّاحَةُ فَأَرْيَحُوا الرَّاِزِحَ وَهَذِهِ هِيَ الرِّفَاقِيَّةُ فَأَبَوْا أَنْ يَسْمَعُوا (١٢) لِذَلِكَ
سَيَكُونُ كَلَامُ الرَّبِّ لَهُمْ أَمْرًا عَلَى أَمْرٍ ، أَمْرًا عَلَى أَمْرٍ ، فَرَضًا عَلَى فَرَضٍ
فَرَضًا عَلَى فَرَضٍ هُنَا قَلِيلًا وَهُنَاكَ قَلِيلًا لَكِي يَذْهَبُوا وَيَسْقُطُوا إِلَى السُّورَاءِ
فَيَحْطُمُوا وَيُصْطَادُوا فَيُؤْخَذُوا (١٣) لِذَلِكَ إَسْمَعُوا كَلَامَ الرَّبِّ يَا رِجَالِ
الْهَزَاءِ ! وَلَا الشَّعْبَ الَّذِي فِي أُورُشَلِيمَ (١٤) .

إنها بشارات لطيفة للقرآن ونبيه ، تصريحاً بلغته «بلسان غيرلسانهم»
أن نبياً غير عبراني يكلمهم بغير لغتهم ، بقرآن نازل عليه نجوماً : «أمرأ
على أمر فرضاً فرض هنا قليلاً وهناك قليلاً» قائلاً لشعب اسرائيل : «هذه
الراحة أريحوا الرازح : التعبان، وهذا هو السكون» ولكن ...

فمن يصدق - إذاً - بهذا النبي وبقرآنه ، فقد صدق بسائر كتب السماء
المبشرة بهما ، ومن يكذب فقد كذب بها أجمع ، فالمسلم مسلم وموسوي
ومسيحي حيث صدقهما في إسلامه ، والكافر بالقرآن كافر بموسى والمسيح
ومن بينهما ، الذين بشروا به !

« آمنوا بما انزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر
به ... » !

وترى النهي يخص أولية الكفرة به فلو كفروا به آخرأ او بعد آخرين
فلا نهي ؟ !

كلأ - إنه نهي عن مطلق الكفر به أولاً وآخرأ ، وذكر الأول هنا ايماء
تتديد ، أنهم رغم ما كان عليهم الإيمان به قبل الآخرين ، لأنهم كانوا
يعرفونه كما يعرفون أبناءهم : «دون الآخرين» وكانوا من قبل يستفتحون على
الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فكانوا أول كافر به - هنا
يُنهون عما كفروا بخلاف المترقب منهم ، نبياً عن واقع هو أفصح منكر
فعلوه ، كالنهي عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة : «لا تأكلوا الربا أضعافاً
مضاعفة» . إذ كانوا كذلك يفعلون ، ف : لا تكونوا أول كافر بمحمد
والقرآن ، ويأن وصفه وكتابه في كتبكم مذكورة ! .

فيا لهذا الكفر الأول من ضلال ذاتي و إضلال للآخرين ، فانهم

يستدلون بكفر الأولين فلا يؤمنون ، أن لو كان خيراً فليكونوا هم أول المؤمنين إذ كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ! وأهل البيت أدرى بما في البيت .

فقد منعوا هنا أن يكونوا قدوة في الكفر، فحجةً للنفوس الضعيفة ، رغم ما عليهم أن يكونوا أول المؤمنين ، فقدوة للآخرين .

ثم الأولية المنهية هنا تعم الزمنية والرتبية ، وقد جمعوا بينهما فكانوا أول كافر به منذ أول المواجهة من العهد المدني ، قبل أن يكفر به غيرهم من مشركين وكتابين هناك ، وكانوا كذلك أول كافر به في الله وأشدّه ، مهما كانت الأولوية الزمنية في العهد المكي للمشركين حيث لم يكن هناك كتابيون ، فهم أولاء كانوا الأولين والآخرين في الكفر المكي ، وبنو إسرائيل هم الأولون زمنياً في العهد المدني . ورتبة في المكي ايضاً وفي كل العهود، حيث لم يُعهد كفر أكفر من كفرهم وحتى الآن !

فـ «أول كافر به» عليه وزره ووزر من كفر به إلى يوم القيامة ولا يُنقص أولئك من أوزارهم ، كما أن أول من آمن به له أجره وأجر من آمن به إلى يوم القيامة ولا يُنقص أولئك من أجورهم ، وكما ثبت عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا يُنقص أولئك من أجورهم شيء ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا يُنقص أولئك من أوزارهم شيء» .

... ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (٤١)

.. إنها آيات بينات في كتابات الرسل الإسرائيليين تحمل بشارات

بالقرآن ونبيّه ، اشتروا بها ثمنًا قليلًا أن حرفوها بزيادة أو نقصان أو تحوير وتغيير ، في التوراة والإنجيل وما بينهما من كتاب ، كيلا يبقى أثر من محمد وقرآنه فيها ، مغبةً ثمنٍ قليل وكلُّ ثمنٍ بجانب آيات الله قليل ! : من أثمان مادية يأخذونها من الأثرياء المستغلين ، ومن معنوية يكتسبونها : بقاء ومزيداً على مناصبهم الروحية الإسرائيلية ، ومكانةً عند الفراعنة والقيصرية ، هؤلاء الذين يرون شريعة القرآن خطراً على كيانهم ، ومكانتهم فيما بينهم من الربانيين والأحبار- أم ماذا ! .

فهذه الأثمان كلها قليلة وجاء آيات الله ، دون أن يعني «قليلًا» هنا مقابل الكثرة ، إذ لا كثرة في أيّ الأثمان في هذه التجارة البائرة الخاسرة ، حيث تبوء خواء في الدنيا والآخرة !
هنا المثلث المباع هي آيات الله ، والثلث ما يكسبونه بتحريف آيات الله ، والثلث لا يشتري وإنما المثلث هو المباع والمشتري ، فما هو التوجيه لكون الثمن هنا هو المشتري ؟ .

علّه أن الثمن هو المرغوب فيه دائماً مهما كان نقداً أم سواه ، فالذي يُقدم ببيع ما عنده بما ليس عنده ، ليس إلا لرغبته فيما ليس عنده ، مهما كان ما عنده مرغوباً فيه أو مرغوباً عنه .

فهؤلاء المحرفون آيات البشارات كانوا راغبين عنها إذ يرون فيها انقضاء النبوة الإسرائيلية ، وهم يزعمونهم : شعب الله المختار ! فإذا يجدون ثمنًا عما لا يحبون فهم إلى هذه التجارة ينجحون ، فاشترى ثمن ببيع آيات الله يوحى بأنهم عنها إليه راغبون .

فليس الثمن والمثلث إلا بمقياس الرغبة ، حيث المرغوب فيه ثمن والمرغوب عنه أو المفضل عليه مثلث ، ففي تبادل سلعتين تعتبر كل واحدة

ثمناً ومثمناً باعتبارين ، دون فرق بين المتاع والنقد ، فقد يكون النقد ايضاً
مثمناً كما يكون ثمناً .

وهنا - إذ كانت الرغبة - كل الرغبة - فيما يعتاضون به آيات الله المرغوب
عنها ، أصبح العوض ثمناً يشتري والآيات مثمناً يُشترى .

ولأن ما رغبوا فيه قليلٌ بجانب آيات الله - أيًا كان - فالنهي يستأصل
هذه التجارة بكل أثمانها أنها قليلة ! .

وقد يكون المثلث مرغوباً عنه ولا يكون الثمن مرغوباً فيه ولكنه أفضل
من الثمن عنده ، فهنا يُشترى المثلث ولا يشتري الثمن وكما في يوسف عند
إخوته : « وشروه بثلثين بخراسان معدودة وكانوا فيه من الزاهدين »
(١٢ : ٢٠) دون واشتروا به ثمناً بخساً .

إنهم اشتروا بآيات البشارة - وهي عهد الله - ثمناً قليلاً : « ولا تشتروا
بعهد الله ثمناً قليلاً » (١٦ : ٩٥) خشية من الناس وثقافة : « ولا تشتروا
بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون » - « فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا
بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (٥ :
٤٤) خلافاً للميثاق الذي أخذ عليهم . . فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا
به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون » (٣ : ١٨٧) .

تجارة خاسرة إسرائيلية أن اشتروا بآيات البشارات ثمناً قليلاً ، رهبةً
من السلطات الزمنية ، خشية من الناس وثقافة وحفاظاً على كياناتهم أحباراً
ورهباناً ، واستدراراً لما يُدرُّ عليهم من أموال^(١) فاشتروا هذه الأثمان

(١) نور الثقلين ١ : ٧٣ مجمع البيان : روي عن أبي جعفر (عليه السلام) في هذه
الآية قال : كان حي بن اخطب وكعب بن الأشرف وآخرون من اليهود لهم مأكلة على
اليهود في كل سنة فكرهوا بطلانها بأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فحرفوا لذلك
آيات من التوراة فيها صفته وذكره ، فذلك الثمن الذي اريد في الآية .

القليلة بعهد الله وميثاقه الذي واثقهم به والنبين .

فآيات البشارات كانت تُباع حفاظاً على السلطات الإسرائيلية ، وآيات العقوبات على الأغنياء والكبراء تباع حتى يأخذوا هم رواتبهم ولا تقع العقوبات على الأغنياء ، وآيات الجزاء على الظلامات والفرعنات تباع حتى لا تُمس منكرامة الفراعنة والقيصرة .. وهكذا كانت شنشنة الإسرائيليين القديمة وحتى الآن ، وإنهم كما يصرحون يرون: «ان الغاية تبرر الوسيلة» فيزرون التحريفات بغية الغايات .

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١) :

نهيان في استفهام انكار وتنديد : عن لبس الحق بالباطل ، وعن كتمان الحق : «لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون» (٣ : ٧١) فالحق المكتوم بغير لباس اولى بالباطل لا يُلبس بالباطل ، وانما هو الحق الظاهر غير المكتوم يلبس بالباطل^(١).

فمكا ان لبس الحق الظاهر بالباطل محرم ، كذلك كتمان الحق ، فلا بد للحق ان يظهر بصورته وصيغته حتى يتبعه أهله ، وللباطل ان يظهر كذلك حتى يجتنبه مخالفوه ، فلا تخلطوا الحق بالباطل فتعمى مسائله وتشكل معارفه .

وهم في هذا المجال من التحريف والتجديف كانوا ولا يزالون يزاولون كتمان الحق إن استطاعوا او تلبسوه بالباطل وتخليطه إذا ظهر ، فقد حذفوا بشارات عن كتابات النبين ، وكتموا أخرى عن بسطائهم ، أو حرفوها

(١) فـ «وتكتموا الحق» هنا مجزوم بالعطف على «لا تلبسوا ..» فتكرر لاء النهي والمعنى : ولا تكتموا الحق ، لا ان تكون الواو حالية وتكتموا منصوباً بـ «ان» المقدرة ، حيث الحق المكتوم لا يلبس بالباطل الا بعد ظهوره او اظهاره .

بتلبيسها بالباطل ، فيما كانت ظاهرة ، أم علّها إذا ظهرت لا تدل على ما تدل ، والقرآن يفضحهم في مواضع شتى نتحدث عنها في طياتها .

و«لا تلبسوا» قد تكون من اللبس : التغطية والتعمية خلاف الإيضاح ، أو من اللبس الستر ، الذي هو ايضاً من اللبس ، فقد كانوا يلبسون الحق بالباطل : «ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم» (٦ : ١٣٧) .

تغطية للبشائر الواضحة بما يُعَمّي عليها من باطل التحوير والتغيير ، أو ما يسترها عن الدلالة بتأويل : تغيير اللفظ أو تأويل المعنى ، وهما باطلان يُلبس بهما الحق ، ولكننا الحق وهو : الثابت عند الفحص - له دولة ، طالما الباطل - وهو الزائل عند الفحص - له جولة .

تعال معنا الى بشارات العهدين : عتيق التوراة وجديد الإنجيل ، ترى عجباً من ذلك اللبس واللبس والكتمان الشامل ، تجد تجديفاتهم وتحريفاتهم ، بعد الفحص عن الآيات التي تحمل بشارات ، وقد أفردنا بحثاً عنها في : «رسول الاسلام في الكتب السماوية» وفي التالي عرض لبعض نماذجها :

عمدوا الى «محمد» في التوراة فحرفوه الى غير محمد كما في : (هوشع ٩ : ٥ - ٩) من قوله تعالى حسب النص العبراني :

﴿ كִּי הָיָה הַלְחֹוּ מִישׁוֹד מִיִּצְרִיִּם יִקְבְּצֻם מוֹף יִקְבְּרִם » محمد
لِكَسْفَام قِيمَوْش يِسرَاشِم حُوحَ بِاهَالِيهِمْ^(٦) بَائُوا يَمִי هֶפְقוּדَاه בَائُوا يִמִי
هֶשְׁלֹוּם יִדְעוּ יִסְרָאֵל אִוִּיל הָנָבִי מְשׁוּכָאג אִישׁ הָרוּחַ עַל רֵב עֲוֹנֵהָ
וּרְבָה מְסִיטָמָה^(٧) .

ها إنهم يرتحلون لأجل الخراب ، فمصر تجمعهم وموف تدفنهم

و«محمد» لفضتهم والقراص يرثهم والعوسج يستولي على أخبيتهم^٦ تأتي أيام التمييز . تأتي أيام الجزاء سيعلم اسرائيل ان النبي السفية ورجل الروح مجنون لكثرة اثمك وشدة الخلق »

ف«محمد لفضتهم» تصريحة بينة باسمه المبارك وانه سوف يأخذ من فضتهم : امواهم - جزية ، وان اسرائيل سيعلم ان هذا النبي - لكثرة اثمك وشدة الخلق - سوف يسفّه ويجنّ وهو رجل الروح القدسي الرسالي ...

ولكنهم حقاً عليه وحقاً منهم وإثماً به دخلوا في مربع من التحريف : «والقراص يرث فضتهم الشهية» -^٢ «يرث القريص نفائس فضتهم» -^٣ «الأمكنة المرغوبة لفضتهم» -^٤ «بيت الأمل لفضتهم» ! ترجمة للإسم العلم : «محمد» بوصف : الشهية - نفائس - الأمكنة المرغوبة - بيت الأمل» ترجمات متضادة مع بعض ، مضادة للأصل معنوياً وأدبياً .

فالأصل العبراني يقول : «موف تقبرم = موف تقبرهم - مُحَمَّدٌ لِكِسْفَام = مُحَمَّد لفضتهم - قيموش بيراشم = القريص يرثهم ! - حوح باهاليهم = يكون العوسج في منازلهم !

وهذه الترجمات الأربع حذفت حروفاً أو أضافت أخرى ، وقدمت كلمات وأخرت أخرى ، حتى لبست حق البشارة بباطل لا يمتُّ بصلة لبشارة .

فالترجمة الثانية جعلت «محمد» المفرد - جمعاً «محمديم» مضافاً - بحذف اللام - إلى كسفام : «محمد يم كسفام» : نفائس فضتهم ، والأصل «محمد لكسفام» وأسقطت ميم الجمع عن «بيراشيم» فأصبحت الجملة : «قيموش بيراش محمد يم كسفام» فترجمت بـ : يرث القريص نفائس فضتهم ، وهم في عَجالة التحريف نسوا أن يضيفوا ياء الجمع إلى محمد ويحذفوا اللام من

«لِكُفْهَامِ» وميم الجمع من «يراشم» فاصبحت الترجمة غلطة على غلطات !
وكذلك بقية الترجمات المفصلة بأخطاءها في كتابنا : «رسول الاسلام
في الكتب السماوية» .
فإذ قد نرى أنهم يعمدون إلى «محمد الرسول» في هذا النص ليحيّدوه إلى
غيره ، فماذا - إذاً بالنسبة لما لا يحمل اسمه الخاص ! .
فويلهم إذ يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون حقه من
باطله !

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ٤٣

هل أمروا هولاء بالصلاة والزكاة حسب شريعة التوراة ؟ وقد أمروا
قبله أن يؤمنوا بشريعة القرآن ولها صلاة وزكاة غير ما لها !
أم أمروا بهما حسب الإسلام وهم بعد لم يسلموا فلا يمكن إقام الصلاة
وإيتاء الزكاة إسلامياً قبل الإسلام ، ولو أتى بهما كأعمال وأقوال فأين إذاً
ركن النية المنوطة بقصد القرية ؟ .

في الحق إن الآية مما تدل على تكليف الكفار بالفروع كما هم مكلفون
بالأصول ، فيعذبون بتركها كترك الأصول ويُسألون : « ما سلككم في سقر .
قالوا لم نك من المصلين . . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع
الحائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين » (٧٤ : ٤٧) ،
حيث يردف ترك الصلاة والزكاة - قدماً - على الخوض والتكذيب !

وأما أنهم لا يستطيعون الإتيان بهكذا فروع مشروطة بنية القرية
والإسلام وهي مستحيلة قبل الإسلام ؟ فهذا إمتناع بالإختيار ولا ينافي
الإختيار ، حيث أمروا قبله بالإسلام ثم بفروعه ، فإن أسلموا أمكن لهم
الإتيان بهكذا فروع ، وإن لم يسلموا تركوا الواجبين بما اختاروا والكفر !

فالصلاة الصلاة ، الزكاة الزكاة ايها المسلمون ، النصارى واليهود ، ايها الانسان اياً كان : « لأن الصلاة الإقرار بالربوبية ، وهو صلاح عام ، لأن فيه خلع الأنداد والقيام بين يدي الجبار بالذل والإستكانة . والخضوع والإعتراف وطلب الإقالة من سالف الزمان ، ووضع الجبهة على الأرض كل يوم وليلة ، ويكون العبد ذاكرة لله تعالى غير ناس ، ويكون خاشعاً وجللاً متذللاً طالباً راغباً في الزيادة للدين والدنيا ، مع ما فيه من الإنزجار عن الفساد ، وصار ذلك عليه في كل يوم وليلة ، لئلا ينسى العبد مدبره وخالفه فيبسط ويطنى ، وليكون في ذكر خالفه والقيام بين يدي ربه زجراً له عن المعاصي ، وحاجزاً ومانعاً عن أنواع الفساد »^(١).

فليس الله في عز ربوبيته بحاجة الى ذل عبوديتنا ، إلا ما يرجع اليها من مصالح عقيدية - اخلاقية - فردية وجماعية ، من اقام الصلاة ، لولاها عليها لم تجب ! او اذا وجبت فلقوام القيم النفسية اما هي .

وهـ علة الزكاة من أجل قوت الفقراء وتحسين اموال الأغنياء ، لأن الله عز وجل كلف اهل الصحة القيام بشأن اهل الزمانة والبلوى كما قال الله : « لتبلمون في اموالكم وانفسكم » في اموالكم اخراج الزكاة وفي انفسكم توطين النفس على الصبر مع ما في ذلك من أداء شكر نعم الله عز وجل ، والطمع في الزيادة ، مع ما في ذلك من الزيادة والرافة والرحمة لاهل الضعف ، والعطف على اهل المسكنة ، والحث لهم على المواساة وتقوية الفقراء ، والمعرفة لهم على امر الدين ، وهو عظة لأهل الغنى وعبرة لهم ليستدلوا على فقراء الآخرة بهم ، وما لهم من الحث في ذلك على الشكر لله عز وجل

(١) نور الثقلين ١ : ٧٤ عن عيون الاخبار في العلل التي ذكرها الفضل بن شاذان عن الرضا (عليه السلام) فان قال : فلم امروا بالصلاة ؟ قيل : لأن . . .

لما خوّلهم وأعطاهم ، والدعاء والتضرع والخوف من ان يصيروا مثلهم في امور كثيرة ، في اداء الزكاة والصدقات وصلة الارحام واصطناع المعروف^(١) .

وهل الصلاة فرادى أم وفي فرض ثانٍ جماعات ؟ فرضاً على فرض ؟ .

«واركعوا مع الراكعين» توحى بفرض ثانٍ ، فالركوع لوحده فرض ، وركوعك مع الراكعين فرض على فرض ، فالركوع هنا يعني الصلاة ، والمعية تعني جماعة الصلاة ، معية الزمان والمكان والكيان والأركان ، لا فحسب معية في أصل الإتيان بها ، فانها حاصله باصل الصلاة وقد امر بها قبل أن !^(٢) .

ولماذا عبر عن الصلاة هنا بالركوع دون السجود وهو أفضل ؟ علّه لأنه أول ما يشاهد من حالة الصلاة ولا سيما في الجماعات ، ولذلك تُسمى الركعة ركعة دون «سجدة» ! وأن السجود يعم الصلاة وغيرها كعبادة مطلقة ، والركوع هيئة خاصة بالصلاة ، لذلك ترى هذه المعية في الركوع فقط دون السجود حتى فيما يذكران معاً : «يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين» (٤٣: ٣) دون «واسجدي مع الساجدين» حيث هو اعم من الصلاة وسواها ، طالما يذكران على سواء فيما لا تُعنى جماعة

(١) نور الثقلين ١ : ٧٤ عن من لا يحضره الفقيه وكتب الرضا علي بن موسى (عليه السلام) الى محمد بن سنان فيما كتب اليه من جواب مسائله ان علة الزكاة من اجل ...

(٢) ملحقات الاحقاق ج ١٤ : ٢٧٦ اخرج العلامة الخطيب خوارزم في المناقب ص ١٨٩ ط تبريز قال - سند متصل الى ابن عباس - في قوله تعالى : واركعوا مع الراكعين - نزلت في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي (عليه السلام) خاصة وهو أول من صلى وركع ثم ذكر عدة طرق اخرى عنه مثله .

٣٧٢ الجزء الأول
الصلاة : « أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » (٢ :
١٢٥) « تراهم ركعاً سجداً » (٤٨ : ٢٩) ولأن السجود أفضل من
الركوع تراه مقدماً عليه حتى في ركوع جماعة الصلاة : « ... واسجدي
واركعي مع الراكعين » (٣ : ٤٣) .

ثم ولم يختص الركوع بين أركان الصلاة بذكره إلا في هذه الآية
تدليلاً على عنايتها بالجماعة دون ذكر ركن أو أركان ، والركوع هو الخاص
بالصلاة من بين أركانها ، فتكبير الإحرام نعم هذه الصلاة وما لا ركوع
فيها ولا سجود كصلاة الأموات ، والحمد وسورة بعدها تقرئان في كافة
المجالات ، وأذكار الركوع والسجود ، وحالة التشهد والسلام ، وسبحانيات
الأخرين ، لا تخص شيء منها بالصلاة ، اللهم إلا الركوع وهو أبرز حالة
ولا سيما في الجماعات ! .

وهذه الآية مما تدل على وجوب الجماعة في الصلاة ، وسوف نوافيكم
باشباع البحث في آية صلاة الخوف إن شاء الله تعالى .

وبما أنهم أمروا بالصلاة بعد الإيمان ، يُعرف أن الصلاة هي أول
ظاهرة من مظاهر الإيمان العبادية ، فهي قمة العبادات وعمود الدين .

ثم أمروا بالزكاة بعد الصلاة تدليلاً على أنها أفضل وأوجب
العبادات المالية الجماعية ، ثم « واركعوا مع الراكعين » إجابة أن الصلاة التي
هي صلة فردية بالله ، يجب أن يؤتى في جماعات المصلين ، فأصبح هذا
الدين جماعياً في كافة الجهات وحتى في الصلاة .

وعلى المعية هنا فيما عنت ، انضمام بني اسرائيل إلى صفوف المصلين
المسلمين ، دون استقلال لهم في صلاتهم إن أسلموا ، استغلاً لقوميتهم ،
حيث الإسلام ينسي ما كان ، ويتبنى الحياة جديدة نظيفة عن كافة
الأدران ، إضافة إلى ما يتعلمون من فرائض الصلاة حين يركعون مع الراكعين .

سورة البقرة آية - ٤٤ ٣٧٣
« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » (١).

إستفهام إنكار بتقريع حار ، يوجه إلى بني اسرائيل عُجالة في هذه المواجهة المنذرة ، وإلى كل من يفعل كما يفعلون : « تأمرون الناس بالبر » وهو كل خير من قال او فعال او حال « وتنسون أنفسكم » نسيان تجاهل أم جهلاً عن تناسر « تنسون أنفسكم » في تطبيق البر الذي به تأمرون ، ولا سيما وانتم في تركه تجاهرون حال « وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » عقلاً لموازين البر والأمر به عن الكتاب ، وعقلاً في الدعوة إلى داعية الكتاب .

فقد ينهى الإنسان عما هو فاعله ، أم يأمر بما هو تاركه غافلاً قاصراً وفي جهل مركب قاهر فهو معذور ، أم علماً بفرضه فعلاً أو تركاً ولكنه معذور بين عذره أو يبين فهو معذور ، وأما أن ينسى نفسه فيها ينهى او يأمر عارفاً عاقلاً عن الكتاب وفي أمره ، ومتعمداً في تناسي الهزم واللامبالاة ، فذلك قطعاً غير معذور ، فإنه خلاف عامد للكتاب وعقل الكتاب وعقل الأمر ، كيف « وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » ؟

فهنا الآية لا تندد - فقط - بترك البر ، بل ويثقل النهي عن الأمر به وأنت تاركه (١) فهو الذي يأتي بويلات عقائدية وأخلاقية وعملية فيمن يؤمرون .

إن معترف العصيان في هذا الميدان يخيل إليه نفي العصيان ، وإلا فكيف ينهى عالم الكتاب ويأمر وهو نفسه في نسيان ! أم هو العالم يلعب بأمر الكتاب - إذاً - فلا أصل للكتاب الذي يلعب به حملته ! فهناك

(١) المصدر عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال : إنما يأمر بالمعروف وينهى عن =

شروط عدة لمن يأمر أو ينهى ^(١) وليس بذلك الفوضى !

فمن الشروط المتأصلة في جواز الأمر والنهي - الواجبين بشروطهما - أن لا ينسى الأمر الناهي نفسه فيما يأمر أو ينهى ، وهناك لأقل تقدير آيات ثلاث تدلنا بوضوح على هذا الشرط الأصيل ، هذه أولاها ، ثم ما ينقل عن العبد الصالح شعيب (عليه السلام) : « يا قوم أرايتم إن كنت على

= المنكر من كانت فيه ثلاث خصال : عامل بما يأمر به تارك لما ينهى عنه عادل فيما يأمر عادل فيما ينهى رفيق فيما يأمر رفيق فيما ينهى (١١ : ٤٠٣ ح ١٠ الوسائل) .

(١) في اصول الكافي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : قلت له عن الدعاء الى الله والجهاد في سبيل الله اهل لقوم لا يحل الا لهم ولا يقوم به إلا من كان منهم ، او هو مباح لكل من وحد الله عز وجل وأمن برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن كان كذا فله ان يدعو الى الله عز وجل والى طاعته وله ان يجاهد في سبيله ؟ فقال : ذلك لقوم لا يحل الا لهم . ولا يقوم بذلك الا من كان منهم ، قلت من اولئك ؟ قال : من قام بشرائط الله تعالى في القتال والجهاد على المجاهدين فهو مأذون له في الدعاء الى الله تعالى ومن لم يكن قائماً بشرائط الله تعالى في القتال والجهاد على المجاهدين فليس بمأذون له في الجهاد ولا الدعاء الى الله حتى يحكم في نفسه بما أخذ الله عليه من شرائط الجهاد - الى ان قال - ومن كان على خلاف ذلك فهو ظالم وليس من المظلومين وليس بمأذون له في القتال ولا بالنهي عن المنكر والامر بالمعروف لانه ليس اهلاً من ذلك ولا مأذوناً في الدعاء الى الله - الى ان قال - ولا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به ولا ينهى عن المنكر من قد أمر أن ينهى عنه ، ثم قال (عليه السلام) ثم ذكر من اذن له في الدعاء اليه بعده وبعد رسوله في كتابه فقال : ولتكن منكم امة - الآية - ثم اخبر عن هذه الأمة ومن هي وانها من ذرية ابراهيم واسماعيل من سكان الحرم ممن لم يعبدوا غير الله قط ، الذين وجبت لهم الدعوة دعوة ابراهيم واسماعيل من اهل المسجد الذين اخبر عنهم في كتابه انه اذ هب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً - الحديث -

بينه من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » (١١ : ٨٨) حيث تعد مغالفته إلى ما ينهى عنه في عداد الإفساد وكما الأولى تعده خلاف العقل .

والتعدي هنا بـ « إلى » مضمّنة نهي الميل إلى ما ينهى ، لا - فقط - نفيًا لاقتراحه ، بل واقتراحه والميل إليه !

فلا يحق أو يجوز لنا أن ينهى عن خطيئة إلا بعد ما هو ناهٍ نفسه قبله حتى عن الميل إليه ، فضلاً عن إقترافه أو إقترابه ، فإن ثالث الميل قلباً والإقتراب أو الإقتراف عملياً هو من الإفساد ، وكيف لي بذلك النهي وأنا رسول ؟ ف « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » ما بقيت لي نفس أو نفس !

ثم وثاقه تُثقل على أمره ونهاية المقت الكبير : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (٦١ : ٣)^(١)

فصحيح أن فاعل المعروف غير الأمر به ، وتارك المنكر غير الناهي عنه مع توفر شروط الأمر والنهي ، أنه محقوت عند الله ، وكذلك الذي - فقط - يترك المعروف ويفعل المنكر ، ولكنها المقت الكبير والإفساد الكبير وخلاف العقل إنما هو على من يجمع بين الأمر قولياً وتركه عملياً ، فإنه بذلك يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف بذلك الجمع المفسد المزري الضاري .

(١) راجع الفرقان (٢٨ : ٢٩٨ - ٣٠١) تجد تفصيلاً لتفسير آية المقت .

فهنا الآيات، وعلى ضوءها الروايات تأتي بحملة قارصة كبيرة على هؤلاء المفسدين اللاعبين بالدين ، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، أو يخالفون الناس الى ما ينهونهم عنه ، ويقولون ما لا يفعلون ، ف « لا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به ولا ينهى عن المنكر من قد أمر أن ينهى عنه »^(١) حيث القصد من الأمر والنهي هو الإصلاح العقلائي للمجتمع ، خلقاً لجوّ الصلاح والطمانية ليعيشوا على رغد أمن وراحة ، إضافة إلى ما فيه من نبعة فياضة للخير من الأمرين والناهين ، فكل إناء إنما يرشح بما فيه ، والمسلم الملىء من الخير يرشح به بعمله ولسانه ، والتزيه عن الشرير يرشح كذلك نهياً عنه ، واجبان : ذاتي يتبنّى إصلاح الفرد ، وجماعي يتبنّى إصلاح المجتمع ، ابتداءً من الذاتي وانتهاءً إلى الجماعي .

نرى خطباء من أمة الاسلام يأمرّون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم على حدّ ما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « تقرض شفاههم بمقاريض من نار »^(٢) ويحجّاء بأحدهم يوم القيامة فيلقى في النار فتذلق به أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار »^(٣)

(١) هذا من الحديث المفصل الماضي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قلت له عن الدعاء إلى الجهاد . .

(٢) الدر المنثور ١ : ٦٤ - أخرجه جماعة عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رايت ليلة اسري بي رجلاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت رجعت فقلت لجبريل من هؤلاء ؟ قال : خطباء من امتك كانوا يأمرّون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب افلا يعقلون » .

(٣) الدر المنثور ١ : ٦٤ - أخرجه احمد والبخاري ومسلم عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : يحجّاء برجل يوم القيامة فيلقى في النار . . . فيقولون : يا فلان ! ما لك ما اصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية » .

ف « مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه ^(١) ولما يقال لاحدهم : « يا ويله بم لقيت هذا إنما اهتدينا بك ؟ قال : كنت اخالفكم الى ما انهاكم عنه ^(٢) .

فليكف الذي لا يعمل عن أن يأمر ، أو ليعمل ثم يأمر وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من دعا الناس الى قول او عمل ولم يعمل هو به لم يزل في سخط الله حتى يكف او يعمل ما قال ودعا إليه . . . » ^(٣) فكفه عن الأمر بما ترك يكف عنه سخط الله - مهما كان هو تاركاً كسائر التاركين - كما أن عمله بما قال يكف عنه سخط الله ، حيث المعني من السخط في هذا المجال هو المقت الكبير ، فلو ترك الأمر بشيء وهو تاركه ، كف عنه المقت الكبير ، مهما بقي عليه مقت صغير .

ف « من لم ينسلخ من هواجسه ، ولم يتخلص من آفات نفسه وشهواتها ، ولم يهزم الشيطان ، ولم يدخل في كنف الله تعالى وتوحيده وأمان عصمته ، لا يصلح له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأنه إذا لم يكن بهذه الصفة فكلما أظهر أمراً يكون حجة عليه ، ولا ينتفع الناس به . . . ويقال له يا خائن ! أتطالب خلقي بما خنت به نفسك وأرغيت عنه

(١) الدر المنثور ١ : ٦٥ - أخرجه الطبراني والخطيب في الاقتضاء والاصبهاني في الترغيب بسند جيد عن جندب بن عبد الله قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . .

(٢) المصدر عن جابر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : اطلع قوم من اهل الجنة على قوم من اهل النار فقالوا : بم دخلتم النار وإنما دخلنا الجنة بتعليمكم ؟ قالوا : انا كنا نأمركم ولا نفعل .

(٣) الدر المنثور ١ : ٦٥ - أخرجه الطبراني عن أبي عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . .

عنائك ١٩ « (١) .

أجل وانه « كالذابح نفسه » (٢) كما يذبح غيره ، مهما كان يهديه إن لم يعرف نفاقه ! فهو من « أعظم الناس حسرة يوم القيامة » (٣) « وأشدّهم عذاباً » (٤) .

ومن أجهل وأمقت وأفسد وأضلّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما تترك المعروف جهاراً ، او تفعل المنكر جهاراً ، ثم تأمر بما تترك وتنهى عما تفعل ، ولماذا ؟!

ألأنك تحب الله فتطالب حق الله من خلقه ، فلماذا تخونه أنت مجاهراً مستهتراً حرّمت الله أمام خلقه ، خلافاً للعقل الذي يرشدك إلى خلافه ، إنما عملاً بما تأمر ، او تركاً للأمر ، فلماذا تأمر بما تجاهر في تركه ، أو تنهى عما تجاهر في فعله ؟ .

او إصلاحاً للناس ؟ وليس إلا إفساداً لهم وتشجيعاً للناس في الجهار بترك شريعة الناس .

(١) نور الثقلين ١ : ٧٥ عن مصباح الشريعة عن الامام الصادق (عليه السلام) .

(٢) تفسير البرهان ١ : ٩٣ - العياشي عن يعقوب بن شعيب عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : قلت له قوله : أنأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ، قال : فوضع يده على خلقه ، قال : كالذابح نفسه .

(٣) نور الثقلين ١ : ٧٥ - عن اصول الكافي باسناده الى خيثمة قال قال لي ابو جعفر (عليه السلام) ابلغ شيعتنا ان اعظم الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه الى غيره .

(٤) نور الثقلين ١ : ٧٥ عن اصول الكافي باسناده الى قتيبة الاعشى عن ابي عبد الله (عليه السلام) انه قال : إن اشد الناس عذاباً يوم القيامة من وصف عدلاً وعمل بغيره .

فما لم تامر أنت التارك ، او لم تنه أنت الفاعل ، فالناس أمثالك يظنون كما هم ، أما إذا تخالفهم الى ما تنهاهم عنه أو تامرهم به ، فأنت أنت تفسدهم أكثر مما كانوا ، وتفسد نفسك أكثر مما كنت ! .

أما نفسك فإنها حجة ظاهرة عليك : لم تقول ما لا تعمل وأنت تعلم ؟ .

وأما هم ، فقد يزدادهم جرأة في هتكهم حرمت الله ، ووهنهم في عقيدة الايمان ، إن كانت ، او فسقاً على فسق ، إذ يرون أنك مستهزء بشريعة الله ، وإلا فماذا يدفعك للأمر بما أنت تاركه ، أو النهي عما أنت فاعله ؟ . فهو - إذا - يستجر اللعنة والنكبة إلى الأمر الناهي ومن يامرهم وينهاهم - ف « لعن الله الأمرين بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به » ^(١) « فأنهوا عن المنكر وتناهوا عنه فإنما أمرتم بالنهي بعد التناهي » ^(٢) .

هذه المظاهر المناققة - ولا سيما ممن يتظاهر بخلافها - إنها الآفة التي تصيب النفوس بالشك والريبة ، لا في الدعاة وحدهم ، بل وفي الدعوات ذواتها أيضاً ، لا سيما إذا كانت الدعاة من رجال الدين ، حيث العرف الأكثرى الساذج من الناس تعتبرهم تجسيدا للدين ، فنفاقهم في أقوالهم وأفعالهم يحسب نفاقاً في الدين نفسه ، فهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم ، حيث يسمعون قولاً جميلاً ويرون معه فعلاً أو تركاً قبيحاً ، فتمتلكهم الحيرة بين هذا وذاك ، فلا يعودون يثقون بالدين بعدما فقدوا ثقتهم برجال الدين .

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ٤٢٠ ح ٩ محمد بن الحسين الرضي في نهج البلاغة عن علي (عليه السلام) .

(٢) المصدر ح ٨ عنه (عليه السلام) .

فالكلمة الرنانة الطنانة البراقة ، الخاوية عن واقع معناها ، إنها تأخذ موقعها في مسامع السامعين ، ولكنها تصل هائدة إلى قلوبهم ، مجتثة بقية الإيمان لو كانت أو تزيد في رينها وفسقها إن لم تكن .

في حين أن الكلمة التي تخرج من القلب ، المفسرة بالعمل قبل الإفصاح بها ، إنها ترجمة حية عن جمال الواقع ، فتصل إلى شغاف القلوب وضاعة فعالة ، مهما لم يكن لها طنين أو بريق : « وقل لهم في أنفسهم قولاً بليفاً » فالكلام إذا خرج من القلب دخل في القلب وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الأذان .

وما أجمله جمعاً بلاغة الكلام وفصاحته ، مع التفسير الحي له من صاحب الكلام في فعل أو حال ، واجمل منه الابتداء بالفعل ثم القول وكما يروى : « مروا الناس بالمعروف وانهم عن المنكر بغير السستكم » .

هنا القرآن يوجه بني إسرائيل حين يواجههم ويوجه الناس اجمعين الى ضرورة الموافقة بين القول والعمل وضراوة المناقفة بينهما، بخطاب تنديد وتهديد : « أأمرؤن الناس بالبر وتنسون انفسكم .. » كما هناك يواجه المؤمنين بنفس النمط « يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون » وهناك ينقل عن العبد الصالح شعيب « وما اريد أن اخالفكم الى ما انهاكم عنه » ومعها عشرات من الروايات ، التي تبرز شرط العمل كأبرز شرط للسماح بالأمر والنهي صلاحاً ذاتياً وإصلاحاً للمجتمع (١) .

(١) الدر المنثور ١ : ٦٥ - اخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر عن ابن عباس انه جاءه رجل فقال : يا بن عباس ! اني اريد ان آمر بالمعروف وانهي عن المنكر ، قال : او بلغت ذلك ؟ قال : ارجو ، قال : فان لم تخش ان تفتضح بثلاثة احرف في كتاب الله فافعل ، قال : وما هن ؟ قال : قوله عز وجل : أأمرؤن الناس بالبر وتنسون انفسكم ، أحكمت هذه الآية ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثاني ؟ قال : =

« أتأمرون بالبر وتنسون أنفسكم » : حيث كانوا قبل ظهور الإسلام يأمرون المشركين بالإيمان بمحمد الرسول الآتي وكانوا يستفتحون عليهم: « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » وثم إذ ظهر الإسلام كان البعض من أحبارهم يأمرون أقاربهم من المسلمين بالثبات على إيمانهم وهم به كافرون ، او كانوا يأمرون فقراءهم ويكتمون الحق عن أغنيائهم مخافة انقطاع رواتبهم أو عطياتهم ، وكانوا يأمرون الناس باتباع التوراة وهم يخالفونه في تكذيب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ويأمرون الناس بطاعة الله وهم يعصونه في محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) !

وهذه الشيمة الشنيعة مخالفة للكتاب « وأنتم تتلون الكتاب » ومخالفة للعقل « أفلا تعقلون » .

تخالف كتاب الله الأمر بتصديق الرسول الآتي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والناهي بصورة عامة - عن الأمر بشيء مع نسيان نفسك فيه، وتخالف العقل حيث يستقبح النفاق، ولا سيما هذا النفاق الذي يظهر في الأمر والنهي بمظهر الإصلاح الوفاق ، وإن هو إلا إفساداً : ثالث المخالفة للحق ، يحمله أنكم « تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب » !

فلو أنهم كذبوا محمداً في صيغة واحدة قبل أن ياتي ولما، لم يكن بذلك الخطير المضلل لضعفاء النفوس ، حيث تكذيبهم - وهم أهل كتاب - بعد تصديقهم ، يؤكد لمن سواهم أن محمداً لم يأت ذكره في الكتاب .

= قوله تعالى : لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون - احكمت هذه الآية ؟ قال : لا - قال : أ فالخرف الثالث ؟ قال : قول العبد الصالح شعيب وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه - احكمت هذه الآية ؟ قال : لا - قال : فابدأ بنفسك .

فـ « أفلا تعقلون » : تقريع بعقولهم المعقولة المشدودة بأهوائهم في ثلاث اللا عقل من أمرهم ، فالمقصود من الأمر والنهي إرشاد الغير إلى ما يصلحه واجتناب ما يفسده ، وإرشاد النفس والإحسان إليها أولى من الغير ، وتقديم الغير خلاف العقل ، وأن من يعظ الناس ولا يتعظ يرغب الناس إلى العصيان أكثر مما كان ، سناداً إلى أنه لو كان صادقاً وصالحاً لما تركه إلى غيره ، وهذا يناقض غرض الأمر والنهي وهو الإصلاح ، وأن على الأمر الناهي - إذ يهدف الإصلاح - أن يحاول في تأثير أكثر فيما يزاوُل ، فإذا يُقرنه بما يشجّع إلى العصيان ، كان قد جمع بين المتضادين « أفلا تعقلون » ؟

وهل يشترط في جواز الأمر والنهي كون الأمر الناهي فاعلاً لكل برٍّ مستطاع له وتاركاً لكل شرٍّ كذلك سرّاً وعلانية ، أن يكون عدلاً في واقع أفعاله وتروكه لا في ظاهر حاله فحسب ؟

قد يُظن إطلاق التنديد له في آيتنا « تأمرون » ولكنها لا تعني إلّا ما « تأمرون .. وتنسونه » وأما المعروف الذي لم تأمروا به وأنتم تاركوه فلا تشمل « تأمرون » . وكذلك التنديد في آية النهي : « وما أريد أن يخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » يخص المنع عن النهي بخصوص ما لم يتناه عنه ، وآية المقت لا تشمل نصاً غير القول المنافق للفعل ، أمراً أو نهياً

ثم لو اختص السماح بالأمر والنهي بهذا المضيق في العدالة المطلقة لم تكن في هولاء العدول الكفاية في هذه المكافحة ، لأنهم قلة والفاسقين كثرة ، وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو المكافحة الكافية ، فقد يكون « حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك وتنهاهم عما تنهى نفسك »^(١)

(١) عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : لما نزلت هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا .. » جلس رجل من المسلمين يبكي وقال : انا عجزت عن

كما النهي في « لا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به ولا ينهى عن المنكر من قد أمر أن ينهى عنه »^(١) يخص التارك لخصوص ما أمر به والناهي عن خصوص ما اقترفه ، وكما يخصه « من دعى الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل في سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال ودعى إليه » ومعها أحاديث عدة .

كما وأن مورد آية البر لا يتجاوزه ، ولا إطلاق لها تخصها بالعدالة المطلقة - ف « أتأمرزون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » في ذلك البر . . لا وفي بر لم تأمروا به ! وأقل ما هنا أن البر المأمور به هو القدر المتيقن دون سواه .

وهل التارك لمعروف خفية يأمر به ، أو الفاعل لمنكر خفية ينهى عنه ؟ قد يقال : نعم ، إذ يصلح المجتمع ولا يفسد حيث لا يعلمون كيف هو في سره ؟ مهما كان كالذابح نفسه ، فإن المتجاهر يذبح نفسه وغيره فعليه اللعن والمقت الكبير حيث يضرب ولا ينفع ، وغير المتجاهر إنما يذبح نفسه وينجي غيره ، فأمره ونهيه واجبان من الناحية الجماعية ومحرمات من الناحية الشخصية ، فإن ترك الواجب وترك الأمر به فإثم ، وإن أمر به فإثم واحد لتركه ، ومقت ما لأمره مع تركه رغم أنه واجب ، واجب أن يأمر

= نفسي كلفت أهلي ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حسبك . . . (وسائل الشيعة ج ١١ ص ٤١٧ عن الكافي) .

وفي الوسائل ص ٤٢٠ ح ١٠ - في الارشاد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قيل له : لا تأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا ننهى عن المنكر حتى ننتهي عنه كله ؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وإنهوا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه كله .

(١) الدر المنثور ١ : ٦٥ - أخرجه الطبراني عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ..

بعد ما يأتمر ، فاذا لم يأتمر سرّاً فليأمر .

او يقال : إن امر التارك ونهي المقرّف لا يجبان ولا يحزمان ، كما قد يستوحى من بعض ما مرّ من أحاديث ، ولكنها المستفاد من إطلاقاتها كتصاريح ولا سيما الآيات ، أن امره ونهيه محزمان ما دام لم يأتمر أو لم يتنه وإن كانا هنا أخف مقتاً ممن يجاهر بترك المعروف وفعل المنكر ، وهما واجبان بوجوب الإتيان والإنتهاء ،

فالإتيان بالمعروف وترك المنكر ، واجبان شخصياً ، وواجبان جماعياً ، مهما كان الأوّل على الأعيان والثاني كفائياً ، فمن يترك واجباً ويفعل منكراً فيما لم يقم بالأمر والنهي من فيه الكفاية فتركه للواجب تركان ، وفعله المنكر محظوران ، مهما كان في ظرف الكفاية تركاً أو محظوراً واحداً ،

فالتارك الأمر بما ترك هو كتارك الأمر بما ترك وأصل سبباً ، كما الفاعل لما ينهى ، فانه رغم ما أمر ونهى ، لم يأمر ولم ينه كما أمر ، وهكذا يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبباً وإيجاباً على الجماعة المؤمنة ، أن يحاولوا دوماً في إصلاح أنفسهم وإصلاح مجتمعهم ، لكي ينمو ويزدهر في كافة الأجواء والأرجاء .

ولا عجب أن يجتمع الأمر والنهي في الأمر والنهي ، حيث النهي عنها فعلي ، والأمر بهما شأني يفرض على المكلفين الإتيان والإنتهاء ثم الأمر والنهي .

وإن تعجب فعجب قول جمع من الفقهاء كيف لم يشترطوا في وجوبها الفعلي إتيان الأمر وانتفاء الناهي ، وعساكر الآيات وفي ظلالها الروايات تمنع عن فعلية الأمر إلا للمؤتمر ، وعن فعلية النهي إلا للمنتهي ؟! حيث تحت على الأمر بعد الإتيان ، وعلى النهي بعد الإنتهاء .

وسوف نأتي على قول فصل في حدود وشروط الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر في مجالاتها الأنسب طيات آياتها إنشاء الله تعالى .

« وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ^(٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ^(٤٦) »

هنا - وبعد أوامر ثمانية ونواهي أربعة متداخلة، وتنديد ببني اسرائيل - يأمرهم الله بـغية تحقيق الإلتزام والإنتهاء ، والتحليق على عوائقهما ، أن يستعينوا الله بالصبر والصلاة ، بجناحي السلب والإيجاب .

والصبر هو الصبر الإستقامة في الهزاهز ، والصمود عن نزوات الشهوات واللذائذ ، فرضاً أم سواه ، دون اختصاص بصبر الصوم ^(١) وان كان هو من أفضل الصبر ، لبعده عن الرياء ، ونفيه او حصره للشهوات ، وهو سياج شامل لسائر الصبر بسائر مجالاته وجلواته ، كصبر على المصيبة وصبر على الطاعة وصبر عن المعصية ^(٢) .

إنه الصبر الجميل المتدرع درع الله الحصين في كل بأساء وضراء وحين البأس ، كطاقة صامدة سلبية تسلب عن الإنسان كل انتكاسة إيمانية في داخله أو خارجه ، ويعبّد له الطريق لخوض المعارك الإيجابية في سبيل الله ، فإنه شاق طويل ، مليّ بالأشلاء والدماء ، بالعقبات والعقوبات ، والصبر

(١) اذ لو كان هو المعني فقط لآي بلفظه الخاص «الصوم» لا ما يشمله وغيره ، فالاحاديث المفسرة له بالصوم من باب الجري وبيان الصداق الأجل ، كما يرويه في الكافي عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية : يعني بالصبر الصوم وقال : اذا نزلت بالرجل النازلة والشدة فليصم فان الله عز وجل يقول : واستعينوا بالصبر والصلاة، ورواه مثله في الفقيه عنه (عليه السلام) .

(٢) الدر المنثور ١ : ٦٦ - اخرج ابن ابي الدنيا في كتاب الصبر وابو الشيخ في الثواب والديلمي في مسند الفردوس عن علي قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

٣٨٦ الجزء الأول

هو الزاد الذي لا بد منه لمواجهة المشاكل « وهو للمؤمن أمير جنوده » (١)
في كافة المعارك ، بل « الصبر نصف الإيمان » (٢) بل « هو من الإيمان
بمنزلة الرأس من الجسد إذا قطع الرأس نتن باقي الجسد ولا إيمان لمن لا
صبر له » (٣) و « لَصَبْرٌ أَحَدَكُمْ سَاعَةٌ فِي بَعْضِ مَوَاطِنِ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ مِنْ
عِبَادَتِهِ خَالِيًا أَرْبَعِينَ سَنَةً » (٤) .

دون الصبر التخاذل والتكاسل والمسايرة الممايرة ، صبراً على الظلم
والضيم ، صبر الهزيمة الخواء عن إستقامة الإيمان والصمود ! .

كما الصَّلَاة هي الصَّلَات ، فإنها عمود الدين وعماد اليقين ، مهما
شمعت كافة الصَّلَات الإيجابية بالله ، إلّا أن الصلاة هي القمة فيها ، وكما
كان يستعين بها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) (٥) عند الغُصّة ،

(١) الدر المنثور ١ : ٦٦ - اخرج الحكيم الترمذي في نوادر الاصول عن ابن عباس
قال : كنت ذات يوم رديف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : الا اعلمك
خصالاً ينفعك الله بهن ؟ قلت : بلى - قال : عليك بالعلم فان العلم خليل المؤمن
والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قيمه والرفق ابوه واللين اخوه والصبر امير جنوده .
(٢) الدر المنثور ١ : ٦٦ اخرج البيهقي عن ابن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله
عليه وآله وسلم) : «الصبر نصف الايمان واليقين الإيمان كله» .

(٣) الدر المنثور ١ : ٦٦ - اخرج ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان والبيهقي عن
علي (عليه السلام) قال : ..

(٤) الدر المنثور ١ : ٦٧ - اخرجه البيهقي عن عيسى ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)
فقد رجلاً فسأل عنه فجاء فقال : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)
اني اردت ان آتي هذا الجبل فاخلو فيه واتعبد فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)
... : .

وفيه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على
أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم . . .

(٥) الدر المنثور ١ : ٦٧ - اخرج احمد وابو داود وابن جرير عن حذيفة قال : كان

حيث القلب يستمد منها قوة وتمس الروح فيها صلة ، والنفس زاداً أنفس من عَرَض الحياة الدنيا وأعمال الآخرة ، فهي إذاً مدد حين تنقطع المَدَد ، وصلة ورصيد حين تنقطع الصلة وينفد الرصيد ، ومزيد ومزيد للرعيّل الأعلى كالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو الوثيق الصلة بالله ، دائب الرصيد إلى الله .

هنا يتقدم الصبر على الصلاة - على فضلها - لأنه سلب وهي إيجاب : إزالة لما لا ينبغي ثم تحصيلاً لما ينبغي ، فإنه تخلية وهي تحلية ، فهو تهيشة وهي تعبئة .

وهذان الجناحان هما لزام كل سالك سبيل الله ، دون اختصاص بمن خطبوا من بني اسرائيل وكما في سائر القرآن ، حيث يعم كافة الأشباه والنظائر ، وكما اختصت آية أخرى بالمؤمنين : « يا ايها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين » (٢ : ١٥٣) توجيهاً دائماً مستمر الإيجاء من هنا وهناك ، دون وسوب فيمن خطبوا في عَجالة النزول .

فالصبر الذي لا يستعان به ، والصلاة التي لا يستعان بها ، هما خاويان عن الصبر والصلاة ، وهما لغير الخاشعين :

« وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين »

تري ما هي الكبيرة هنا إلا على الخاشعين ؟ أهى الصلاة المستعان بها ونعماً هي ، فإنها ثقيلة شاقة إلا على الخاشعين ؟ أم الصلاة أية صلاة

= رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اذا احزنه امر فرغ الى الصلاة .
وفيه اخرج احمد والنسائي وابن حبان عن صهيب عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : كانوا - يعني الانبياء - يفرغون اذا فرغوا الى الصلاة .

فكذلك الأمر، وإن كانت أخف حملاً وثقلًا؟ أم هي الاستعانة بالصبر والصلاة مهما مختلفا حملاً في الاستعانة بهما؟ أو هي هما وما قبلهما من فعل الواجبات وترك المحرمات، مهما اختلفت هي أيضاً في حملها؟

لكل وجه على اختلاف درجاتها ومرجعاتها لفظياً أو معنوياً، والجمع أوجه، فإن الصلاة - فقط - كبيرة إلا على الخاشعين، فضلاً عن المستعان بها، والاستعانة بها، ثم والصبر، والمستعان به منه، والاستعانة به، ثم وما تقدمهما من فعل الواجبات وترك المحرمات، وإن كانت الصلاة المستعان بها، غير الكبيرة الثقلية، تكفي حملاً لحمل الصبر وما قبل الصبر « وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ».

ومن هم الخاشعون؟ « الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون »!

الخشوع من حالات القلب: « ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » (٥٧ : ١٦) والخضوع للجوارح، ويجمعهما خنوع التعظيم والعبودية لله، فمن خشع قلبه لله خضعت جوارحه لله، وقد تخضع الجوارح والقلب فارغ

فالخشوع لله يتبني الإيمان السليم أن يخضع الخاشع ب كله لله، مهما اختلفت مراتبه، فكيف يفسر بـ « الذين يظنون... » والظن في مجال المعرفة مقدوح لا ممدوح؟ « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » (١١٦ : ٦).

والحل أن الظن قد يقابل العلم كما هنا فهو ظن العقل ولا يكفي في الإيمان، بل وعلم العقل إنما يفيد إذا دخل القلب وتحول اعتقاداً راجحاً ثم اليقين.

وقد يقابل اليقين فهو ظن القلب الذي يساور العلم، وهو أحياناً أقوى من علم العقل حيث الظانون في قلوبهم كلهم مؤمنون بالله خاشعون لله رغم العالمين بعقولهم إذ قد يجحدون : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم »

وآية الخاشعين الظانين تعني ظن القلب وجاء اليقين ، لا ظن العقل وجاء العلم ، كما ويدل عليه الخشوع وهو حالة للقلب لا سواء ، وتمائلها آيات أخرى تمدح هكذا ظن : « قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » (٢ : ٢٤٩) « إني ظننت أني ملاق حسابة . فهو في عيشة راضية » (:) « وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً » (٧٢ : ١٤) أو تندد بمن لا يظن : « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم » (٨٣ : ٤)

فغير فصيح ولا صحيح أن يعبر عن العلم بالظن ^(١) والقرآن كتاب عربي مبين ، والظن هو الظن في موقفه والعلم هو العلم ، طالما كان ظن القلب علماً ومن أقواه ، كما وعلم العقل ظن في القلب أو من أضعفه ، ومن المايز بين العلم واليقين وظنهما ، ان العلم وظنه يحصلان ببرهان عقلي أو حسي دون حاجة الى مراس في صالح، واحتراس عن اي طالع ، ولكننا اليقين أو ظنه لا يحصلان بعد العلم العقلي إلا بالأعمال الصالحة وترك

(١) وهكذا تفسر الاحاديث التي تفسر الظن هنا بالعلم أو اليقين كما رواه في التوحيد عن علي (عليه السلام) في الآية : « يعني انهم يوقنون انهم يبعثون ويمشرون ويحاسبون ويمجزون بالثواب والعقاب والظن ههنا اليقين (نور الثقلين ١ : ٧٦) . فلا يعني ان لغة الظن هنا تعني اليقين ، بل ان الظن منهم يقين وكما يروي في البرهان ١ : ٩٥ - عن علي امير المؤمنين (عليه السلام) : « يقول : يوقنون انهم مبعوثون والظن منهم يقين » اذ لا يصح ان تعني لغة الظن من بعض الظن ومن بعض اليقين ، اللهم الا باختلاف موطنه كظن القلب الذي هو علم ويقين .

٣٩٠ الجزء الأول
الطالحة ، حيث اليقين هو سكون الفهم واطمئنان القلب مع ثبات الحكم ،
والعلم ثبات للحكم وقد يكون القلب جاحداً او مضطرباً، لذلك ترى أن
لليقين مراتب وليست للعلم مراتب .

وترى أليس يقين القلب من علمه وعينه وحقه أحق أن يكون تفسيراً
للخشوع من ظنه ؟ فلماذا جيء هنا بظنه ، وكأن الخاشعين الموقنين في
مثلثة الدرجات ليسوا من الخاشعين ؟!

ذلك لأن الآية تعني جموع الخاشعين بدرجاتهم ، المبتدئة
بظنه - بدرجاته - ثم يقينه بعلمه : «علم اليقين» وعينه : «عين اليقين»
وحقه : «حق اليقين» طالما اليقين في مثله ايضاً درجات فوق بعض ودون
أن تقف لحد في مجالات المعرفة والزلفي ، كما المعروف : الله - ليس له حد
محدود .

فكما أن ظن القلب ويقينه درجات فالخاشعون به أيضاً درجات ،
يجمعها أن الصلاة أم ماذا ؟ ليست عليهم كبيرة ثقيلة ، فإنهم لبخوعهم
أمام الله وخشوعهم لله ، ينجحون إلى عبادة الله وطاعته ، بل ليس لهم في
الحياة ألد من الصلاة ، وكما يروى عن أول العابدين : «وقرة عيني
الصلاة» : «يدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين» (٢١ : ٩٠) .

هؤلاء هم الخاشعون الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه
راجعون ، فما هو لقاء الرب ؟ وما هو الرجوع إلى الرب ؟ دعامتان
للخاشعين بعد الصلاة وهي عمود الدين ؟

قرينة قرن اللقاء بالرجوع تدلنا على أن ليس اللقاء هو الرجوع مطاباً
حتى يفسر برجوع الموت أو الحساب أو ما بعد الحساب ، المختصة باللقاء
منذ الموت ، بل هو لقاء الرب أيّاً كان وآيان ، في حياة الدنيا العمل ولا
حساب ، أو الأخرى الحساب ولا عمل ، ومن أسباب لقاء الرب يوم

الدنيا هو العمل الصالح التابع عن الإيمان : «فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً» (١٨ : ١١٠) «واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين» (٢ : ٢٢٣) كدحاً وسعيّاً وعناءً في إزالة الحجب وترك الهوى حتى يلقاه : «يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقه» (٨٤ : ٦) لقاء معرفياً ورضواناً من الله وهي الحياة الطيبة : «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ..» (١٨ : ١١٠) . وأما اللقاء القرب قيومياً وعلمياً فهو حاصل بين الله وما سواه دون كدح ، فإنه لزام ربوبيته ومربوبيتها ، كما وأن اللقاء المعرفة الضرورية بالموت ثم الحشر يعم الجميع ، مهما اختص لقاء الرحمة والثواب بالذين آمنوا وعملوا الصالحات .

فـ«الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم» هم العالمون بالله العارفون الله فهم ملاقوه هنا بما خشعوا ، كما يلاقونه في الأخرى لقاء مزيد المعرفة والثواب ، والرحمة والرضوان ، فخشوعهم يدفعهم هنا إلى لقاءه - ولقاءهم يدفعهم إلى تحضيرهم للقاءه منذ الموت ، وعلمهم بلقاءه بعد الموت يدفعهم إلى مزيد ومزيد من خشوعهم ولقاءهم يوم الدنيا .

«وأنهم إليه راجعون» بعد لقاء الدنيا المعرفية بالصالحات ، وبعد لقاء الحساب المؤقت في البرزخ ، ولقاء الحساب النهائي يوم القيامة ، وتكملات للقاء المعرفة والرضوان ، فمن ثم الرجوع الى الله ، إلى عالم من الراحة والأمان ، تحت ظلال الإيمان ورحمة الرب المنان .

فليست - فقط - الحياة الأخرى في القيامة الكبرى هو مجال الرجوع إلى الله ، مهما كان من درجات الرجوع : «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم يرجعون» (٢ : ٢٨) حيث يتأخر الرجوع الأصل الأخير ، عن الحياة الأخيرة بعد الحياة البرزخية .

٣٩٢ الجزء الأول

وقد يعني من الرجوع هنا منذ الموت الى ما بعد الحياة الأخرى :
رجوعان الى الله يتقدمان الآخر ، مثلث من اللقاء الرجوع والرجوع
اللقاء ، بعد لقاء الحياة الدنيا المعرفية دون رجوع : «ويوم يرجعون إليه
فينبئهم بما عملوا» (٢٤ : ٦٤)

فهنا لقاء بلا رجوع كما هنا ، ولقاء رجوع في مثلث الموت والحشر
واللقاء الرجوع الأخير بعد الحياة الحشر .

ولماذا الرجوع ولم تكن قبل في هذه الثلاث ، فانه الموت الأول ، ثم
الحياة البرزخية لأول مرة والحياة الأخرى ورجوعها كذلك ؟

الجواب : «إنا لله وإنا إليه راجعون» حيث كنا عنده دون تكليف
واختيار ، إذ كنا أجنة في بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ، وما قبله أو بعده قبل
التكليف والاختيار ، ثم نحولنا الى حال الاختيار - نعمل ما نشاء - إختباراً ،
ثم نرجع إليه منذ الموت كما كنا الى عالم الرب دون تدخل فيه لأحد «لمن
الملك اليوم لله الواحد القهار» .

فهنا صبر وصلات أخرى بالله ، خاشعين لله ، ومن ثم لقاء الله
والرجوع الى الله فـ «إنا لله وإنا إليه راجعون» .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى
الْعَالَمِينَ ۚ ﴾ (٤٧) «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةً وَلَا يُؤْخَذُ
مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» (٤٨) .

آيات ثلاث تفضل بني اسرائيل على العالمين وتحذرهم عن الجزاء يوم
الدين ، ثانيهما في السورة نفسها : «يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي
انعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين . واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن
نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعاة ولا هم ينصرون» (٢) :

(١٢٣) وثالثها في الجاثية : «ولقد اتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» (٤٥ : ١٦) .

ولأنها تحدد موقف هذا التفضيل مبدئياً انه ليس فوضى جزاف ، وإنما جعلت فيهم النبوة ونجاهم الله من آل فرعون مغبة أن يؤمنوا ، فقد فضلوا هكذا لكي يحملوا الرسالة رسلاً كما حملوها ، ثم أمة فمنهم من حملها ومنهم دون ذلك ، فلما بغوا وطغوا فلم يحملوها أمة بدلت الفضيلة رذيلة حيث بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار .

كما أن هذه الفضيلة - في موقفها - تتحدد بالعالمين زمنهم ، أو ومنذ بزوغ الرسالات حتى الرسالة الموسوية ، ومن ثم العيسوية وما بينهما ، دون أن تعدوها إلى ما بعدها : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » حيث هي تتلوي الجاثية آية بغيهم بعد تفضيلهم .

إذاً فهي فضيلة محددة وقتياً وفي إطار الإيمان ، وأما بعد الرسالة الإسلامية ، وأما بعد كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ، وأنهم كانوا أول كافر بها إذ جاءت ، إنهم بعد هذا وذاك أصبحوا من أرذل الأمم ، مهما كان المؤمنون منهم أفضل الأمم قبل الإسلام .

فإنما الإيمان وعمل الصالحات فقط هما المنجيان يوم الجزاء ، دون الإنتسابات الجوفاء والهويات والأمنيات الفارغة : الهباء ، فـ«ليس بإيمانكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءً يجزيه ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً» (٤ : ١٢٣) .

٣٩٤ الجزء الأول

فالحساب شخصي ، والتبعة فردية ، و«كل نفس بما كسبت رهينة» -
«وان ليس للانسان إلا ما سعى» ف«لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا
يقبل منها شفاعه ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون» : «إلا من اذن له
الرحمن ورضي له قولاً» (٢٠ : ١٠٩) «إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً»
(١٩ : ٨٧) «إلا من شهد بالحق وهم يعلمون» (٤٣ : ٨٦) «إلا لمن
ارتضى وهم من خشيته مشفقون» (٢١ : ٢٨) ...

مبدء اسلامي عظيم هو التبعة الفردية القائمة على المساعي وحتى في
إطارات الشفاعات ، مما يستجيش اليقظة الدائمة في الضمائر ، في حالة
عوان بين الخوف الرجاء .

وطالما الخطاب هنا لبني اسرائيل ولكنه يشمل كل نفس حيث النص :
لا تجزي نفس عن نفس ، لا إسرائيلي عن إسرائيلي !
فمربع السلب يسلب عن كل نفس أي جزاء وأية شفاعه أو عدل أو
نصرة «إلا لمن ارتضى» : الله دينه .

١ «لا تجزي نفس عن نفس شيئاً» «يا ايها الناس اتقوا ربكم
واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده
شيئاً ..» (٣١ : ٣١) .

فالجزاء هي الكفاية والغنى كما المجازاة هي المكافاة ، فالجزاء يوم
الجزاء انما هي لكل نفس عن نفسها دون سواها ، ولو كان الجازي هو
الرسول فضلاً عن سواه من والد او ما ولد ام من ذا ؟ «يوم لا يغني
مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون» (٤٤ : ٤١) لا يغني «مولى» حتى
لو كان نبياً «عن مولى» حتى زوجته وولده كما في نوح لابنه وزوجته ، وفي
لوط لزوجته : «.. فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع
الداخلين» (٦٦ : ١٠) .

وذلك خلاف ما كانت اليهود والنصارى يزعمونه أن أنبياءهم أو آباءهم الأنبياء سوف يجزون عنهم ويغنون ، أو لأنهم أبناء الله وأحبائه فلا يعذبون ؛ «وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباءه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر من خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير» (٥ : ١٨) .

كما وأن هناك هرطقات كنسية تُهرَف بما لا تُعرَف أو تتجاهل قائلة : «أن المسيح إفتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا» (رسالة بولس إلى غلاطية ص ٣) . . ان تحمل جميع لعنات شريعة الناموس بصلبه . . أنه جازى كل ملعون بلعنه صلباً وكذلك ذوقه حر النار، فأمته - إذا - أحرار ، بعيدون عن النار، رغم تصريح التورات : «ملعون من لا يقيم كلمات هذا الناموس ليعمل بها ويقول جميع الشعب آمين» (تثنية ٢٧ : ٢٦) وهكذا الإنجيل : «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات» (انجيل متى ٥ : ١٧-١٩) ومن طريف الإعجاز أن بولص ناقض شريعة الناموس وافق إسمه إثمه حيث يعني الصغير^(١) .

٢ «وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ» : كضابطة عامة ألا يقبل شفاعة للمجرمين من شافع ، أو منهم أن يستشفعوا ، حيث المرجع لضمير المؤنث في «منها» أعم من نفس شافعة أو مشفع لها : «يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة» (٢ : ٢٥٤) «فما تنفعهم شفاعة الشافعين» (٧٤ : ٤٨) .

٣ «وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ» والعدل هنا والعدل هو المثل ، أو الفدية

(١) راجع «عقائدنا» ص ١٦٥ - ١٧٠ حيث فصلنا فيه الكلام . .

المثالة^(١) فليس لأي نفس مثل تملكه حتى تؤتیه بديلاً ، ولو كان فـ « لا يؤخذ منها عدل » .

« وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » هؤلاء المحرومون من الجزاء الكفاية والعدل والشفاعة ، ليس لهم أي ناصر ولا عاذر من دون الله : «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

قول فصل حول الشفاعة :

الشفاعة هي من الشفع قبال الوتر ، فالعاصي بنفسه يستحق العقاب فيضم إلى نفسه وجيهاً عند صاحب الأمر فيستعين به في الغفران ، إذا لم تحصل له وسيلة أخرى^(٢) وكانت الشفاعة في إطار التشريع ، أو أن سبباً من الأسباب ينضم إلى الموجود الناقص فتتم السببية بهذه الشفاعة التكوينية إذا كانت في إطار التكوين كمعجزات الرسل ، فإنها أفعال الله لا سواء ، تجري على أيدي أنبياء الله تدليلاً على أنهم يحملون رسالة من الله ، فلا يكفي أن يخلق المسيح من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه ليكون طيراً إلا بإذن الله وهذه شفاعة تكوينية للتدليل على الرسالة الإلهية .

وتأتي الشفاعة بمختلف صيغها ومسوغاتها أم الإحالة لها أو التي تفرضها في (٣١) موضعاً من الذكر الحكيم :

ومن آيات الشفاعة ما تنحو منحى التكوينية أو أنها الهدف الرئيسي

(١) الدر المنثور ١ : ٦٨ - اخرج ابن جرير عن عمر بن قيس الملائي عن رجل من بني أمية من أهل الشام أحسن الثناء عليه قال : قيل يا رسول الله (صل الله عليه وآله وسلم) ما العدل ؟ قال : العدل الفدية .

(٢) كالتوبة ورجاحة الحسنات واجتناب كبائر السيئات ، حيث الشفاعة هي في المرحلة الرابعة .

فيها : «إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ما من شفيع إلا من بعد إذنه . . . » (١٠ : ٣) فإنها الشفاعة في الخلق والإيجاد ، فلا وسيط فيه تغييراً وتطوراً بعد الخلق الأول إلا بإذنه ، فإنه الوحيد في شئون الخلقية^(١) .

ثم هناك آيات كثيرة أخرى بين ناكرة نافية للشفاعة في التشريع مثل التي مضت وأضرابها حيث تنفي الشفاعة يوم الدين وتُنكرها من كل نفس لكل نفس : «ولا يقبل منها شفاعة» من نفس شافعة ان تشفع او مشفع لها ان تُشفع ، وان كان الآية تبدء بخطاب بني اسرائيل ، فإن هذه من مقررات يوم الدين ، لهم ولمن سواهم على سواء ، وآيات نفي الشفاعة لا تنفي مطلق الشفاعة وإنما المنفي فيها هو الشفاعة المطلقة .

وهنا آيات أخرى تثبت الشفاعة بعض الإثبات لله وبإذن الله

(١) الشفاعة منها تكوينية ومنها تشريعية ، ومن الثانية ان تشفع نفس متقاضية حكماً من ربه يعطف من الله ولطفه كما فعل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في تحويل القبلة ، او ان تشفع حكمة ومصلحة فيما يروم ، وعلى اية حال فلا شفاعة في التشريع كأصل لغير الله فانه الشارع لا سواه ، ثم لا إذن ولا توكيل ولا تحويل في تشريع لسواه !

ومن الاولى ان يشفع نفسه برحمة من الله حتى يوحى اويلهم ويعلم ، او يشفع فعله بارادة الله حتى يجعل له آية كما في المسيح (عليه السلام) ، او يشفع استغفاره باستغفار المذنبين حتى يغفر الله لهم كما في الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، او يشفع نفسه بوجاهتها برحمة الله وهكذا الامر ، او يشفعها بشخص المذنب او بهما -

وفي كل ذلك ليس الله بحاجة الى شفيع ، فقد يشفع دون شفيع كما في التوبة او رجاحة الحسنات ام ترك كبائر السيئات في باب المعاصي ، ام يشرع دون شفيع كما في سائر الاحكام التشريعية ، فما شفع الشافع إلا تكرماً له ، وتقريباً للمشفع له ان يترى تربية بُغية أن يشفع له .

ويجمعها : « قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون » (٣٩ : ٤٤) فله أن يشفع برحمته ، أو يأذن لمن يشفع فيمن يشفع بشروط .

فلا شفاعة إلا بإذنه ، دون وكالة وتحويل : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » (٢ : ٢٥٦) « ولا تنفع الشفاعة إلا من أذن له » (٣٤ : ٢٣) إذن للشافع أن يشفع وللمشفّع له أن يشفع له ، شفع الإذن وإذن الشفع ، وليس الإذن فوضى جزاف ، وإنما على شروط فيها ، جميعاً أو فرادى ، ومنها الرضى : « وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » (٥٣ : ٢٦) : يرضى الشافع ديناً ويرضى له قولاً : « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضى له قولاً » (٢٠ : ١٠٩) « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » (٧٨ : ٣٨) ويرضى المشفع له ديناً : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » (٢١ : ٢٨) من ارتضى الله دينه وهو « من ساءته سيئة وسرته حسنته » ^(١) أن يعيش ديناً مهما يقلت منه فالت ويفوت عنه فالت ، ويرضى له قولاً في اعتذاره .

ومنها الحفاظ على عهد الرحمن واتخاذ : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً . ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً . لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً » (١٩ : ٨٧) لا المتقون إلا من اتخذ عند الرحمن عهد الشفاعة واذنهما ، ولا المجرمون إلا من اتخذ عند الرحمن عهد العبودية :

(١) كما يروى عن الامام الرضا (عليه السلام) (تفسير البرهان عن امالي الصدوق) وفي الكافي عن حفص المؤذن عن ابي عبد الله (عليه السلام) في رسالته الى اصحابه قال : واعلموا انه ليس يغني عنكم من الله احد من خلقه لا ملك ولا نبي مرسل ولا من دون ذلك ، من سره ان يتفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب الى الله ان يرضى عنه .

سورة البقرة آية - ٤٦ - ٤٧ ٣٩٩

«ألم اعهد اليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان . . .» أن يعيش حياته تطبيقاً لعهد العبودية إلا أن يفلت فالت من اللمم أم ماذا ؟

ومنها الشهادة بالحق وهم يعلمون : «ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون» (٤٣ : ٨٦) ٤ فلا شفاعة ممن يدعون من دون الله ولا لهم ، اللهم إلا لأهل الله شافعين ومشفعين أن يشهدوا بالحق عالمين ، فيشهد الشافع أن فلاناً كانت حياته إيمانية ويشهد المشفع بأعماله ما يصدق الشافع^(١) .

فمن عاش حياة الإيمان ومات على إيمان ، وبقيت له سيئات من كبائر لم تكفر ولم تغفر ، فهو الذي يُشفع له يوم القيامة ، حيث التوبة شافعة يوم الدنيا لأي ذنب ، وإن كان شركاً ، والصغائر مكفرة بترك الكبائر : «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً» (٤ : ٣١) «ويجزى الذي أحسنوا بالحسنى الذين يجتنبون كبائر الأثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة . . .» (٥٣ : ٣٢) .

وبرجاجة الحسنات الكبرى مثل الصلاة ، فإنها يذهبن السيئات : «وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين» (١١ : ١١٤) .

ومن الحسنات ما يبدل السيئات حسنات : «إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات» (٢٥ : ٧٠) .
ولا شفاعة إلا في القيامة لمن رضي الله له قولاً وديناً واتخذ عند الرحمن عهداً ومات على إيمان ، بعد ما كُفرت سيئاته بترك الكبائر أو بدلت حسنات ، أو

(١) في الخصال عن علي (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ثلاثة يشفعون الى الله عز وجل فيشفعون : الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء .
العلماء هنا هم اوصياء الانبياء والشهداء هم شهداء الاعمال من الاولياء .

٤٠٠ الجزء الأول

أذهبت حسناته سيئات، ثم مات وعليه كبائر لم تكفر بما يجازى في البرزخ فاستحق العذاب يوم القيامة ، فهناك الشفاعة على شروطها لمن يأذن الله ويرضى ، كما يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) :
«إِنَّمَا شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»^(١) .

إذن فليست الشفاعة بالتي تشجع على الإتهام في المعاصي دون مبالاة ، وإنما هي سياج صارم على نزوات المسلم في حياته الإيمانية ، ألا يقنط من رحمة الله فيترك سائر الحسنات لأنه ترك واحدة ، او يخوض في السيئات لأنه اقترف واحدة ، لولا الشفاعة بتوبة اورجاجة للحسنات ، او ترك للكبائر، او شفاعة يوم القيامة .

فإنما الشفاعة الفوضى ودون شروط هي التي تشجع على اللامبالاة ، وتناقض تشريع الأحكام ، كالتي عند المسيحيين من الفداء الصليبي ، كما أن نفي الشفاعة إطلاقاً يخلف قنوطاً من رحمة الله ، حيث الكثرة الكثيرة من الناس يُبتلون أحياناً بمنكرات ، فلولا الشفاعة لخاضوا المحرمات ، إذ يرون أنفسهم من أهل النار ، دون مناص ولا فرار !
والحالة العوان بين الخوف والرجاء هي التي تصلح الإنسان ، بين

(١) تفسير البرهان ٣ عن أمالي الصدوق عن الإمام الرضا عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من لم يؤمن بحوضي فلا اورده الله حوضي ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أنا له الله شفاعتي ثم قال :
إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي فاما المحسنون فما عليهم من سبيل فقيل للرضا (عليه السلام) يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فما معنى قول الله عز وجل «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى» قال : من ارتضى الله دينه وهو من ساءته سيئته وحسنته ورواه «إنما شفاعتي» الفريقان بطرق عدة ، فمن ليس من أمة الاسلام لا تناله الشفاعة ومن ليست له كبيرة ليس بحاجة الى شفاعة حيث كفرت صفائره بكبائر المنهيات .

سورة البقرة آية ٤٦-٤٧ ٤٠١
تحذّر من المعاصي ورجاء للغفران ، بعد العلم أن كسب السيئات دون
جبران يُنهي بالإنسان إلى النار : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته
فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وإذا كان من الشروط الأصلية للشفاعة أن يكون المشفع له مرضياً
عند الله قولاً في اعتذار وإيماناً وفعلاً ، فليحاول المؤمن كلّ جهده أن يعيش
حياة الإيمان ، بتحقيق العهد الذي اتخذ عند الرحمن ، لكي تنفعه شفاعة
الشافعين ، دون حياة اللامبالاة اللّايمان ، إتكالاً على الإقرار باللسان
وإدعاء الإيمان ، دون أن يقوم بشرائط الإيمان ، راجياً أن
يشفع له الشافعون « كسراب بقية يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم
يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه » كما نراه من كثيرين ، يغترون بما
يزخرفه لهم قراء التمازي أنه تكفيكم البكاء ثم الله يغفر لكم عدد النجوم
وقطر السماء ! خلافاً لما ترسمه لنا آيات من القرآن .

فلا نصدق إفراط المفرطين في الشفاعة هكذا ولا تفريط المفرطين في
نكرانها ، وإنما هي عوان بين ذلك ، تصلح الأمة وتجعلها دوماً بين الخوف
والرجاء ، ثم الأحاديث لا تصدّق منها إلّا ما يصدقها كتاب الله ، مهما
كثرت روايتها وعلت علّاتها ، أو ضعفت وكثرت علّاتها ، حيث الأصل هو
كتاب الله لا سواه .

ومن الثابت كتاباً وستة أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو
أفضل الشافعين: « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » فانه بعث الشفاعة
يوم الدين ، لا بعث الرسالة يوم الدنيا حيث كان مبعوثاً يوحي إليه ،
واستفاضت الأحاديث أن المقام المحمود هو الشفاعة ، وليست هي
غروراً « فهل يشفع إلّا لمن وجبت عليه النار » (١) .

(١) تفسير القمي في قوله تعالى « ولا تنفع الشفاعة إلا لمن لمن اذن له » عن أبي =

و كيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر ومن وجبت عليه النار ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ومن ارتكب الكبيرة لا يكون مرتضى ؟؟ -

الجواب «ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلا ساءه ذلك وندم عليه وكفى بالندم توبة ومن سرته حسنة وسائته سيئة فهو مؤمن فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له الشفاعة وكان ظالماً و«ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع ..»^(١) .

فجملة القول انه لا يُشفع إلا لمن ارتضى الله دينه ، الذي يتخوف عن المعصية ويندم عندها ، ويرغب في الطاعة ويفرح عندها ، حيث يعيش حياة الإيمان مهما اعتراه من عارض العصيان .

= العباس الكبير قال : دخل مولى لامرأة علي بن الحسين يقال له : ابو ايمن فقال : يا ابا جعفر تغفرون الناس وتقولون : شفاعة محمد شفاعة محمد ! فغضب ابو جعفر (عليه السلام) حتى تربد وجهه ثم قال : ويحك يا ابا ايمن أغررك ان عف بطنك وفرجك ؟ اما لو قد رأيت أفزاع القيامة لقد احتجت إلى شفاعة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وملك فهل يشفع الا لمن وجبت له النار ؟ .. » .

(١) رواه في التوحيد عن الكاظم عن ابيه عن آبائه عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : انما شفاعتي لأهل الكبائر من امي فاما المحسنون فما عليهم من سبيل ، قيل يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! وكيف . يكون مؤمناً من لا يندم على ذنب يرتكبه ؟ فقال : ما من احد يرتكب كبيرة من المعاصي وهو يعلم انه سيعاقب عليه الا ندم على ما ارتكب ومتى ندم كان ثانياً مستحقاً للشفاعة ومتى لم يندم عليها كان مصراً والمصر لا يغفر له لأنه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب ولو كان مؤمناً بالعقوبة لندم وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار واما قول الله عز وجل : «ولا يشفعون الا لمن ارتضى» فانهم لا يشفعون الا لمن ارتضى الله دينه والدين الاقرار بالجزاء على الحسنات والسيئات ، فمن ارتضى دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب لمعرفة بعاقبه في القيامة . » .

وأما المنهمكون في الشهوات ، الذين يهرعون اليها مسرعين ، وإذا ما فاتتهم ذعروا مغضيين ، ثم إذا حُلُّوا على واجبات تحمّلوها نادمين ، فهولاء ليسوا من المؤمنين فـ«لا تنفعهم شفاعة الشافعين» بل «وما لهم من شافعين» .

وكذلك الذين لا يندمون ، فهم يمارسون الشهوات ما يُفسح لهم مجال ، تسويفاً للندم ورجاءاً للغفران ، وإن كانوا يؤمنون بالحساب والعقاب ، فإن دينهم هذا خطأ غير مرضي معرفياً ، كما أن أولئك أخطأوا عقيدياً ، وإن كانوا يختلفان دَرَكاً باختلاف اللا معرفة والإيمان .

فسواء عليك في حرمان الشفاعة أنك من الكافرين ، أو لست من النادمين في مآسيك ومعاصيك رغم سمة من الإيمان ، لمكان وصمة العصيان اللزام ، أو تسوّف الندم وتمارس العصيان ، فدينك ليس مرضياً مهما اختلفت هذه الدركات ، على أن تراكم المعاصي تَرين على قلبك وتسلب عنك نور الإيمان : «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئة فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» فتموت على غير إيمان خارجاً عن أمة الاسلام .

فالمؤمن لا يخلد في النار شرط أن يلاقي ربه بالدين الحق والإيمان المرضي ، ولكننا الإيمان من حيث بقاءه على خطر عظيم من جهة الإدمان في العصيان ، فليكن الأصل في حياة المؤمن الإلتزام بشرائط الإيمان قدر الإمكان ، ثم إذا فلت قالت فهناك الندم والتوبة ، ورجاحة الحسنات على السيئات ، وترك الكبائر ، ثم أخيراً الشفاعة يوم القيامة بعد ما كَلَّتْ أو قَلَّتْ مكفراتها من ذي قبل ، ولا شفاعة قبل الآخرة ولا في البرزخ وكما يروى عن الصادق (عليه السلام) وفقاً للقرآن : «ولكن والله اتخوف عليكم

في البرزخ .. «^(١) وقد تكون في الدنيا باستغفار الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أم ذوية ؟ : «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً» (٤ : ٦٤) وكما الملائكة يستغفرون : «الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم» (٤٠ : ٩) .

ثم الشفاعة هي في حقوق الله إلا الشرك : «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» دون حقوق الناس اللهم إلا أن يرضى الله مظلوماً يوم الحساب : «وأُنذِرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين . ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع» (٤٠ : ١٨) .

حصول البحث حول الشفاعة : علوم ردي

هنالك شروط مشتركة بين الشافعين والمشفوع لهم : «من أذن له الرحمن ورضى له قولاً واتخذ عند الرحمن عهداً» .

وللشافعين «شاهد بالحق وهم يعلمون» وللمشفعين «لمن ارتضى» الله دينه .

(١) سفينة البحار ١ : ٧١ عن الكافي عن عمر بن يزيد قال قلت لابي عبد الله (عليه السلام) اني سمعتك وانت تقول : كل شيعتنا في الجنة على ما كان فيهم ؟ قال : صدقتك كلهم والله في الجنة ، قال قلت جعلت فداك ان الذنوب كثيرة كبائر فقال : اما في القيامة فكلكم في الجنة بشفاعة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) او وصي النبي (عليه السلام) ولكن والله اتخوف عليكم في البرزخ . قلت : وما البرزخ ؟ قال : القبر حين موته الى يوم القيامة .

شروط خمسة بينها تقتضي قبول الشفاعة قضية آياتها.

ثم لا شفاعة في الدنيا ولا في البرزخ ، إلا ما تشفع التوبة ورفاقها من مكفرات دون الصالحين ، فلو كانت في الدنيا لم يبق مجال للأخرى ، ولو كانت في البرزخ لم يبق مجال للقيامة ، وآيات الشفاعة كلها تنحو منحى القيامة ، وبما لنسبة للذنوب التي لم تكفر بمكفرات الدنيا والبرزخ ، كما ورواياتها في ظلالها طبقاً عن طبق !

إذاً فلا شفاعة إلا في كبائر السيئات وترك كبائر الحسنات حيث الصغائر منها مكفرة بترك الكبائر ، اللهم لمن جمع بينهما سلباً او إيجاباً فلا مكفر لصغائره فتصبح صغائره كبائر قد يشفع فيها بشروطها .

وَإِذْ نَجَّيْنَكُمْ

مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾
وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا
الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ
ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ
وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ
يَبْقَومُ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ أَنْفُسَكُمْ بِأَخَذِ كُرِّ الْعِجْلِ فَتُوبُوا إِلَىٰ
بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ
لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ
وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْنِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ
وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن
كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ
فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَأَدْخُلُوا الْبَابَ حُبِّدًا وَقُولُوا
حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٨﴾
فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾
* وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ
الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ
مُقْسِدِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ
وَاحِدٍ فَاذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ
بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبِدُّونَ

الَّذِي هُوَ أَذْنَىٰ بِاللَّهِ هُوَ خَيْرٌ أَمِيطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا
 سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ وَبَغَضِبَ
 مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
 النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾
 إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّبِيَّانَ مِنْ
 ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
 رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

عرض لنعم عشر بعد ما أجملت في «نعمتي التي أنعمت عليكم» ترسم
 أمام الاختلاف مشاهدتها التي كانت للإسلام، استحياء لمشاعرهم صور
 الكروب التي عاشها آباؤهم وانجاهم الله منها وهم قابلوا نعمة الله بالكفران
 وبدلوها كفرًا فأحلوا قومهم دار البوار، عظة للأخلاف لكي يخالفوا
 الأسلاف في الكفران الطغيان.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ^(١) يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^٢.

نعمة أولى أن انجاءهم الله عن سوم العذاب ، فالإنجاء من النجاء والنجوة والنجاة هو الفصل إلى عل ، مكان مرتفع بعيد عن الأدنى .

وسوم العذاب هو دوامه في دوامة لمرعاه ، كماشية سائمة ترعى دائمة ، ولكنها ترعى في المرعى الكلاء ، وهم يُسامون في المرعى البلاء ، كأنها لهم غذاء ، كما الكلاء دائمة للماشية السائمة .

فهذه الطغمة الطاغوتية النكراء كانت تسومهم سوء العذاب ، كذبح الأبناء واستحياء النساء دوغماً انقطاع ، وكأنه نعمة يمنون بها عليهم فعليهم الشكر كما السائمة في الكلاء .

وعدم العطف في «يذبحون-يستحيون-يعطف بنا إلى أنها فقط سوم العذاب ، بياناً ردفاً دون عطف لسوء العذاب ، وكما في أخرى : «... يقتلون أبناءكم و...» (٧ : ١٤١) مهما عطفاً في ثالثة عليه «... ويذبحون أبناءكم و...» (١٤ : ٦) آيات ثلاث في صيغة واحدة إلا في «يقتلون» الوسطى وعطف الأخيرة ، وهذا العطف لا يعني إلا أنها من أسوء العذاب الذي كانوا يسامونه : قتل الأبناء تضعيفاً لساعدهم ، واستحياء النساء خدمة لآل فرعون ومتعة جنس .

(١) «فرعون» اسم للملوك العمالقة كما قيل : «قصر» لملك الروم و«كسرى» لملك الفرس و«خاقان» لملك الترك و«تبع» لملك التبابعة ، إذا فرعون لقب عام وقد كان في مصر فراعنة تلو بعض فرعون موسى هو «رامسيس الأول» وقد رأيت جسده في معرض الآثار القديمة في القاهرة ، وهو تصديق لقوله تعالى : «فاليوم ننجيكَ بيدنك لتكون لمن خلفك آية» .

٤١٠ الجزء الأول

فتقتيل الأبناء إبادة للنسل والساعد ، وعزاء دائب ، واستحياء النساء : إبقاء لحياتهن خادמות ، وإفناء لحياتهن في دعارات^(١) عذاب فوق العذاب ، على ما ينالهن وغير الأبناء من سوء الخدمات الإجبارية ، دون مقابل إلا الإبقاء على رمق الحياة قدر ما يخدمون ، وفي الحق ان استحياء النساء كان أصعب عليهم وأنكى من تقتيل الأبناء !

وترى هل الأبناء المذبّحون هنا هم - فقط - الولائد حين الولادة كما تدل عليه روايات ؟ أم هم الأبناء ، ولائد أم كباراً ما هم أبناء ، كما تدل عليه الآيات ؟

لا رية هنا في العموم ، حيث يشمل - لأقل تقدير - الأبناء الذين ولدوا منذ أخبر فرعون أنه سيولد فيهم من يهلك سلطانه ، فالذين تنالهم أيدي البغي يقتلون حين ولادتهم ، ومن يفلت حينها يُغتال أياً كان وأيان ، وإن كان بالغاً حد الغلظة أم زاد علوم^{سري}

ثم النساء هنا أعم من الولائد واللّدت والكبيرات ، فهن معفون عنهن في هذا النظام ، خدمة للجنس ولآل فرعون .

وترى ان البلاء العظيم هو فقط سوم العذاب ؟ ام وإنجاءهم من سوم العذاب ؟ لفظة البلاء تشملها بلاء سيئاً وحسناً وفي ذلكم « البعيد المدى من سوء البلاء وحسنه » بلاء من ربكم عظيم : « ونبلونكم بالشر والخير فتنة » (٢١ : ٣٥) « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » .

وترى كيف ينسب سوء البلاء - بعنبر حسنه - الى الله وهو من آل

(١) الاستحياء هو طلب الحياة ابقاء وطلب الحياء إزالة فيها - إذا - معنيان كما هما الواقع في آل فرعون .

فرعون؟ إنه سوء العذاب من آل فرعون ظلماً وطغياناً حيث افتعلوه ، وبلاء عظيم من ربكم إذ أمهله ردحاً من الزمن دون ردع تسييراً ومنعاً ، امتهاناً لهم واملاءً ليزدادوا إثماً ولهم عذاب اليم ، ثم وامتحاناً لكم وبلاءً حسناً بعد هذا البلاء لكي تستعظموا نعمة ربكم بإنجاءكم وتشكروه ، فإن فرعون عبّد بني اسرائيل واعتبره نعمة عليهم وعلى موسى الرسول (عليه السلام) : «وتلك نعمة تمنها علي أن عبّدت بني اسرائيل» (٢٦ : ٢٢) فسامهم بذلك سوء العذاب .

وترى ولماذا قتل الأبناء وهم أنفع له خدمة وأقوى ؟ دون الكبار وهم جمل لا يتحملون خدمة لأئمة !

ذلك حيث أخبر فرعون أن هلاكه وقومه على يدي موسى (عليه السلام) الذي يولد من بني اسرائيل فوضع القوابل على النساء وقال لا يولد العام ولد إلا ذبح ووضع على أم موسى قابلة .. ولكن الله نجاه .. (١)

(١) نور الثقلين ١ : ٧٩ عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسنادة الى محمد الحلي عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ان يوسف بن يعقوب (عليه السلام) حين حضرته الوفاة جمع آل يعقوب وهم ثمانون رجلاً فقال : ان هؤلاء القبط سيظهرون عليكم ويسومونكم سوء العذاب وانما ينجيكم الله من ايديهم برجل من ولد لاوي بن يعقوب اسمه موسى بن عمران (عليه السلام) غلام طوال جعد آدم ، فجعل الرجل من بني اسرائيل يسمي ابنه عمران ويسمي ابنه موسى -

فذكر ابان بن عثمان عن ابي الحصين عن ابي بصير عن ابي جعفر انه قال : ما خرج موسى حتى خرج قبله خمسون كذاباً من بني اسرائيل كلهم يدعي انه موسى بن عمران فبلغ فرعون انه يرجعون ويطلبون هذا الغلام وقال له كهنته وسحرته : ان هلاك دينك وقومك على يدي هذا الغلام الذي يولد العام من بني اسرائيل فوضع القوابل على النساء وقال : لا يولد العام ولد إلا ذبح ووضع على ام موسى قابلة فلما عرف ذلك بنوه

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ﴾^{٤٤}.

نعمة ثانية هنا لبني اسرائيل هي الاخيرة لهم في الجو الفرعوني الطاغى حيث اغرق آل فرعون وهم ينظرون ، والبحر هو البحر ، ولكن الله فرق بهم البحر فعبروه يساً ورهوا ، ثم اغرق فرعون وجنده آية عظيمة إلهية تبصر الأعمى وتنبيه النائم .

وترى كيف فرق بهم ؟ فهل فرق البحر بهم : بسببهم ، حيث دخلوه بكثرة واستعجال فراراً عن فرعون وملايه ؟ والبحر لا يفرق لأية جماعة إلا وتفرق ! وكما آل فرعون وهم كانوا كما هم وأعجل دخولاً وأقوى وطأة ، وانما ذلك آية معجزة إلهية بهم : بدخولهم البحر فراراً ! وقد امر موسى ان يضرب بعصاه البحر : «فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » (٢٦ : ٦٣) «ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يساً لا تخاف دركاً ولا تخشى » (٢٠ : ٧٧) «واترك البحر رهواً انهم جند مغرقون » (٤٤ : ٢٤) .

« اسرائيل قالوا : اذا ذبح الغلمان واستحيى النساء هلكنا فلم نبق ؟ فتعالوا لا تقرب النساء فقال عمران ابو موسى (عليه السلام) بل اتئوهن فان امر الله واقع ولو كره المشركون ، اللهم من حرمة فاني لا احرمه ومن تركه فاني لا اتركه ووقع على ام موسى فحملت فوضع على ام موسى قابلة تحرسها فاذا قامت قامت واذا قعدت قعدت فلما حملته امه وقعت عليه المحبة فقالت لها القابلة مالك يا بنية تصفرين وتذوين فقال لا تلوميني فاني اذا ولدت اخذولدي فذبح قالت لا تحزني فاني سوف اكنم عليك فلم تصدقها ، فلما ان ولدت التفت اليها وهي مقبلة فقالت : ما شاء الله ، فقالت لها : الم اقل اني سوف اكنم عليك ثم حملته فادخلته المخدع واصلحت امره ثم خرجت الى الحرس فقالت : انصرفوا - وكانوا على الباب - فانما خرج دم مقطع فانصرفوا ... » .

سورة البقرة آية - ٥٠ سورة البقرة آية - ٤١٣

فقد انقلب البحر وأصبح لهم طريقاً ييساً بأن ضرب موسى عصاه ،
وبدخول بني اسرائيل ، فلولا عصى موسى كما أرادها الله لم يقلب البحر
ويفرق ، ولولا دخولهم البحر لم يضرب موسى عصاه ، حيث الفرق الفلق
كان لإنجاءهم وإن كانت كذلك آية لهم .

وترى - بعد - أن انفلاق البحر وانفراقه طريقاً ييساً ، كل ذلك لصدفه
جزر عظيم ، او كثرة الواردين فيه ؟ وكما بهرته من لا يعرفه ، هُراءً دائماً
مغبة نكران المعجزات ، مهما أقحم نفسه في المفسرين .

فالبحر المفروق لبني اسرائيل نعمة إلهية حيث أنجاهم وأغرق آل فرعون وهم
ينظرون ، إذ انخدعوا بعبور بني اسرائيل فعبروا ، ونعمة لهم إيقاناً بأن
الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل ، نعمة تجمع بين إنجاء
أبد لإنهم من غرق البحر وملاحقة آل فرعون ، وإنجاء أرواحهم من الشكوك
التي اعترضتهم إذ قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال
عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ،
(٧ : ١٢٩) .

«أنجيناكم - وأغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون» : مشهد النجاة والفرق
بأم أعينكم .

وترى كيف دخل آل فرعون عن آخرهم البحر ، أفلم يروا أوائلهم
غارقين ؟ انهم انخدعوا أن جاوزه بنو اسرائيل وهم ضعفاء ، فهم أخرى
بالجواز وهم أقوياء ، فتجرءوا على الجواز ، وقد ترك البحر رهواً كما أوحى
الله لموسى : «واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون» (٤٤ : ٢٤) :
والرهو هو الساكن المستوي بطريق ييس ، فلما دخلوا كلهم غرقوا أجمعين :
«وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا
الآخرين » (٢٦ : ٦٦) حيث تدل أن إغراقهم كان بعد إزلا فهم وجمعهم

في البحر اجمعين ، وبعد ما جاوز بنو اسرائيل البحر : «وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت ...» (١٠ : ٩٠) .

أتبعوهم عدواً بسرعة ليدركوهم فأدركهم الغرق قبل أن يدركوهم !
«وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْمِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ»^١ ثُمَّ عَفَوْنَا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^٢ .

«موسى» معرب عن «موشة» عبرانية ، كلمة مركبة تعني «ماء - شجر» حيث اخذه آل فرعون عن التابوت الذي ألقته أمه في اليم فوقف في الماء بين الشجر أمام القصر الفرعوني ، ففيه تلميحة طريفة إلى المعجزة الربانية في إنجاء موسى بيد عدوه الذي قتل - بغية الحصول عليه وقتله - نيفاً وعشرين ألفاً من أبناء بني اسرائيل ! .

يأتي ذكر «موسى» ١٣٦ مرة في القرآن في ٣٥ سورة ، من البقرة الى الأعلى ، مما يدل على مدى قراسه في الدعوة واكتراسه لها ومجاهاته وجاه عدوه وبني اسرائيل الذين آذوه ، أكثر من كافة المرسلين اللهم إلا خاتم المرسلين^(١) .

وهل كانت هذه المواعدة مرة هي اربعين كما هو اللائح هنا ، او مرتين أولاً ثلاثين ثم العشر المتتم للأربعين ، مواعدتين تلو بعض ، فهما مع بعض مواعدة واحدة كاملة كما يُعرف من الأعراف : «وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتٍ رِيبَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ...» (٧ : ١٣٩) وللأربعين مواقف مجيدة في مختلف الحقول ، في الحق ان آيى المواعدة

(١) حيث يذكر اكثر منه بكثير باشراف خطاب : الرسول - النبي - حين لم يذكر غيره فيها يذكر الا باسمه دون لقب الرسالة او النبوة إلا قليلاً .

تتجاوبان في تمام المواعدة، وأن ثلاثين الأولى لا تستقل عن الأربعين، حيث العشر مكملة لها، وإن كانت كأنها هي البداية «وواعدنا موسى ثلاثين...» فإنها ثلاثون في صيغة التعبير امتحاناً لبني إسرائيل - لابتداء الله في التكميل - (١) حتى إذا تأخر موسى لحد الأربعين أهم باقون على إيمان أم هم مكذبون موسى ومكذبون الله كما فعلوا والتفصيل إلى الأعراف وطه .

وهذه المواعدة - هنا - نعمة ثالثة بإنزال التوراة على موسى وبمشهد من منتخبهم جانب الطور الايمن : «يا بني اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن...» (٢٠ : ٨٠) مواعدة لهم ضمن ما لموسى (عليه السلام) .

ولكنهم وهم بين نعمتين : الإنجاء من آل فرعون، وإنزال التوراة «اتخذوا العجل» الذي صنعه السامري فعبدوه : «ثم اتخذتم العجل من بعده» : بعد موسى حيث غاب عنهم إلى ميقات ربه ولما يتم او يرجع «وانتم ظالمون» : انفسكم «انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل» .

«ثم عفونا عنكم من بعد ذلك» شرط التوبة بعد ان تقتلوا انفسكم : «فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا انفسكم» - «عفونا... لعلكم تشكرون» .

ثم ونتيجة المواعدة الأربعين :

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٥٣) .

(١) تفسير البرهان ١ : ٩٧ - نقلا عن تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن ابي جعفر (عليه السلام) في آية الأربعين قال : كان في العلم والتقدير ثلاثين ليلة ثم بدا الله فزاد عشراً فتم ميقات ربه الاول والآخر أربعين ليلة «اقول هل كان في العلم والتقدير ميقات ناقص لتقصان العلم والتقدير ثم كملا بالبداء؟ ان هذا إلا اختلاق !

وهدي ابتداء الكتاب والفرقان هو أهم النعم التي أنعم عليكم ،
هنا الكتاب : التوراة - يقابل الفرقان ، مما يدل على انه غيره ، وحقاً ان
الفرقان وهو البرهان المفرق بين الحق والباطل ، ليس هو التوراة ولا غيرها
من كتابات الوحي إلا القرآن ، فانه كتاب وفرقان لا سواه .

فلا نجد آية تصف كتاب وحي بالفرقان إلا القرآن : «شهر رمضان
الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان» (٢ :
١٨٥) وقد يختص باسم الفرقان : «وأنزل التوراة والإنجيل وأنزل
الفرقان» (٣ : ٤) «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده» . فالقرآن هو
كتاب تشريع وهو فرقان ، يفرق بين الحق والباطل جملة وتفصيلاً ، وما
هكذا سائر كتب الوحي ، ولا سيما بعد تحرفها ، ولقد أوتي المرسلون
مع كتبهم فرقاناً يدل على رسالتهم ووجيههم كموسى وهارون واضرابهما :
«ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين» (٢١ : ٤٨)
وقد يكون التوراة هنا ضياءً وذكرًا على ضوء الفرقان : الآيات التسع التي
أوتي موسى ، حيث يهتدى بالكتاب والفرقان : «لعلكم تهتدون» .

ثم الفرقان درجات من فرقان الرسالات على درجاتها وفي درجاتها ،
وهي المعجزات ، ومن فرقان التقوى الإيمان : «يا ايها الذين آمنوا ان تقنوا
الله يجعل لكم فرقاناً» (٨ : ٢٩) او فرقان الحرب المنتصرة بنصر الله :
«ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان»
(٨ : ٤١) ففي كل ميدان من معارك الحق والباطل فرقان
كما يناسب حقولها .

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ تَحِبُّونَ لِي فَلَم تَمْلِكُوا فِي الْكَافَّةِ فَأَسْرَفْتُمْ فِي آلِكُمْ وَآتَيْتُمْهُمْ زِينَةَ الْبِلَاسِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَمِنْ أَهْلِكُمْ الَّذِينَ يُبَايِعُونَ بِآلِكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَ الْغَمُّ الْمَكِينُ فَذَرَوْا آلَهُمْ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَكَفَرُوا بِمَا عَاهَدُوا عَلَيْنَا لَئِنْ رَجَعْنَاهُمْ لَشَأْلُنَا فِيكُمْ عَذَابًا مُّهِينًا» (١٢٨ : ١٢٩)

نعمة خامسة يمن بها عليهم ، وترى كيف يكون حملُ القتل لأنفسهم
نعمة ؟ إنها نعمة حيث هي في سبيل التوبة ، فإنها خيرٌ من حياة اللعنة
الدائبة في وصمة اتخاذ العجل .

« .. انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل » إلهاً تعبدونه ، وليس
الله هو المظلوم : « وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٥٧ : ٢)
حيث الظلم هو الانتقاص والله لا يُنتقص منه شيء ذاتاً أو صفاتٍ أو
أفعالاً - ف « لا يتغير بانغيار المخلوقين » وإنما الظلم الانتقاص راجع إلى الظالم
نفسه ، حيث يخرج عن مستوى العدل ، مهما انتقص غيره من الخلق في
الظلم المتعدي إليهم ، ولا تجد آية تلمح بأن الله يُظلم ، وإنما هو لغير الله
نفسه أم سواه .

وحيث « إن الشرك لظلم عظيم » فالتوبة عنه - ولا سيما من المرتد عن
فطرة - إنها قد تُرد ولا تُقبل في الظاهر مهما قبلت في الباطن ، وقد تقبل كما
هنا ولكنه بعبء عظيم .

« فتوبوا إلى بارئكم » ولماذا « إلى بارئكم » دون « الله » أو « خالقكم »
أو « ربكم » أو ... لأن البرء هو التخلص عن مرض أو عيب أو أي
نقص ، فالمریض المعيب المنتقص بالخروج عن حكم الفطرة يجب عليه
التوبة : الرجوع - إلى من برءه إذ خلقه حتى يبرئه بعد نقصه بظلمه ،
ف « هو الله الخالق البارئ المصور .. » (٥٩ : ٢٤) حيث خلق ثم برء
ما خلق ثم صور ما برء ، ومن برءه براءة الفطرة في يراعه التوحيد ،
فحيث تخلف عبدة العجل عن هذه البراءة ، فتوبتهم هي الرجوع إلى
البارئ ليرجعهم إلى هذه البراءة التي افتقدوها بكل غباوة ، اذ عبدوا
العجل الذي يضرب به المثل في الغباوة ، فاصبحوا أحق وأغبي من العجل
في هذه العبادة .

ولأنهم قتلوا روح التوحيد وفطرته بما استهوت به أنفسهم الأمانة الغبية ،
فليقتلوا أنفسهم قتلاً بقتل حتى يحيا حياة طيبة جديدة .

«فاقتلوا انفسكم» : انتم الذين اتخذتم العجل إلهاً تعبدون ، فإنما
هم المأمورون أن يقتلوا أنفسهم حيث ظلموا أنفسهم باتخاذهم العجل ،
دون من لم يظلم حيث لم يتخذ العجل ، خلافاً لبعض ما يروى^(١) .

وترى انهم امرؤا ان يقتل كل واحد نفسه انتحاراً بنفسه ؟ وإنه إبادة
لهم أجمع فمن يبقى إذا حتى يتاب عليه لو أنهم ائتمروا كلهم ؟ أم كيف
يتاب على المتخلفين عن أمر الإنتحار لو لم يأتهموا كلهم .

أو أنهم امرؤا أن يقتلوا فيما بينهم ، كل يقتل من تناله يده أياً كان ؟
فكيف يعبر عن ذلك بـ «أقتلوا انفسكم» !

في الحق إن ذلك قتل لأنفسهم في زوايا ثلاث : أن يقتل كل نفسه
الطائشة بعبادة العجل ، فيعرض نفسه للقتل في معترك القتال فيما بينهم ،
ويقتل من هو كنفسه أباً أو إبناً أو أخاً أو أياً كان^(٢) قتلاً لنفسه في هذه

(١) كمرسلة المجمع : روي : ان موسى (عليه السلام) امرهم ان يقوموا صفين
فاغتسلوا ولبسوا اكفانهم فجاء هارون باثني عشر ألفاً ممن لم يعبدوا العجل ومعهم الشفار
المرهفة وكانوا يقتلونهم فلما قتلوا سبعين ألفاً تاب الله على الباقيين وجعل قتل الماضي
شهادة لهم .

وفي تفسير البرهان ١ : ٩٨ عن الامام العسكري في الآية : ويقتل من لم يعبد العجل
من عبده ، اقول وهما مردودان لمخالفة الآية والمقبول هو المروي عن علي (عليه السلام)
وعن غيره الآتي .

(٢) انفسكم هنا مثلها في امثالها ك : لا تلمزوا انفسكم - حيث المؤمنون كنفس
واحدة - كذلك هؤلاء اذ كانوا اقارب اضافة الى قرينة الايمان ايأ كان ، وكقوله : لولا اذ
سمعتوه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيراً - فسلموا على انفسكم - وامثالها .

الزوايا الثلاث توبة الى البارئ فتوبة منه عليهم ، وإنه لتكليف شاق مرهق مرير ، أن يقتل الأخ أخاه ، فكأنما يقتل نفسه برضاه ، كما ويقدم نفسه ويعرضه ليقتله أخوه ، وهما يتطلبان قتل النفس الأمانة بالسوء في رأس الزاوية ، ولكنه من وراء هذا الإرهاق تربية لتلك الحالة البئيسة الخوارة ، التعيسة المنهارة التي تنهار إلى جحيم عبادة العجل ، وبعد ما ترى من آيات الله البينات من فرق البحر أم ماذا ؟ فليؤدوا هذه الضريبة الفادحة الكادحة: «فاقتلوا أنفسكم» .

و«ذلكم خير لكم عند بارئكم» من أن تظلوا مرتكسين في حمأة الإرتداد والضلال ، أو نادمين تائبين دون تقديم لشريطة التوبة ، عاثشين عُدْجالة الحياة في وصمة عبادة العجل الدائبة لو لم تقدموا هذه الضريبة : «فتاب عليكم» بعد ما تبتم إليه هكذا «إنه هو التواب الرحيم» : لمن يتوب ويسترحم كما يؤمر .

وقد تاب على القاتلين والمقتولين سواء (١) ، اذ يحققوا امر الله فيها

(١) الدر المنثور ١ : ٦٩ - اخرج ابن أبي حاتم عن علي (عليه السلام) قال : قالوا لموسى ما توتنا ؟ قال : يقتل بعضكم بعضاً فاخذوا سكاكينهم فجعل الرجل يقتل أخاه وإباه وابنه والله لا يبالي من قتل حتى قتل منهم سبعون ألفاً فاوحى الله الى موسى مرهم فليرفعوا ايديهم وقد عُفِرَ لمن قتل ويتب على من بقي ، وفي تفسير القمي قال (عليه السلام) ان موسى لما خرج إلى الميقات ورجع إلى قومه وقد عبدوا العجل قال لهم موسى : يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم - فقالوا له : كيف نقتل أنفسنا ؟ فقال لهم موسى (عليه السلام) اغدوا كل واحد منكم إلى بيت المقدس ومعه سكين أو حديدة أو سيف فاذا صعدت انا منبر بني اسرائيل فكونوا انتم ملثمين لا يعرف احد صاحبه فاقتلوا بعضكم بعضاً فاجتمعوا سبعين الف رجل عن كان عبدوا العجل إلى بيت المقدس فلما صلى بهم موسى وصعد المنبر اقبل بعضهم يقتل بعضاً حتى نزل جبرائيل فقال : قل لهم يا

بينهم سواء، حيث قُتل من قَتَلَ بأمر الله ، وقُتل من قُتل بأمر الله ، مقدمين على هذا القتال في زواياه الثلاث .

وإن هذه منقبة لهؤلاء حيث اقتتلوا هكذا بأمر الله تفدية في التوبة إلى الله ، كما ويندد بالمنافقين من المسلمين حيث لا يفعلونه إلا قليلاً : «ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً» (٤ : ٦٦) .

وتوبة المرتد عن فطرة تقبل عندنا بقتله ، كما قبلت من هؤلاء ، مهما اختلفت شاكلته ، حيث إنها في بني اسرائيل كانت بأمر خاص وأصعب مما عندنا وأنكى ا .

«وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ»^(٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»^(٥٦) .

نعمة سادسة لهم ان بعثوا بعد موتهم بصاعقة العذاب الهون وهم ينظرون .

ولقد كان سئوال الرؤية قبل اتخاذ العجل : « فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فاخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جائتهم البينات » (٤ : ١٥٣)

اترى أن الذين سألوا الرؤية هم الذين عبدوا العجل ؟ كأنهم هم كما

« موسى ارفعوا القتل فقد تاب الله لكم فقتل منهم عشرة آلاف وانزل الله «ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم » .

اقول : واختلاف عدد القتل والذين عبدوا العجل في الحديثين لا مرجع له من كتاب او سنة يرجع اليه ولا يهمننا العدد وكما سكت الله عنه فلنسكت عنه .

تقول هذه الآية ! ولكنهم السبعون الذين اختارهم موسى لميقات ربه حيث سألوا الرؤية ، ومن بعده عبد الباقون عجل السامري : « واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة .. » (٧ : ١٥٥) ^(١) ولم يكن الميقات إلا واحداً كما تلمح له « ميقاتنا » ، فلأن عبادة العجل وسؤال الرؤية هما من باب واحد في تجسيم الإله - مهما اختلفا في تعيينه - نُسبا معاً إليهم جميعاً ، كما ويُنسبان إلى الموجودين منهم زمن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأن الشيمة في الأخلاف هي نفسها في الأسلاف ، والشكيمة هي نفس الشكيمة . طبيعة جاسية لا تؤمن إلا بالمحسوس .

ولأن سؤال الرؤية كان أخف وطأة من عبادة العجل ، كانت عقوبته كذلك أخف منها ، حيث أولاء قتلوا بالصاعقة ثم بعثوا ، وهولاء تقاتلوا دون بعث لمن قُتلوا ، وعَلَ القاتل منهم ترجى ليته المقتول لعظم المشهد وهول المطلع .

فإطلال فترة الإذلال الفرعوني أفسد من فطرتهم الشيء الكثير ، الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل الطويل ، تحطياً للفضائل وتحليلاً للفواضل ، وغرساً للردائل ، واستخذاءً تحت رحمة الجلاّد ، ثم تمرداً بعد رفع السوط ، وتبطلاً حين النّهمة بالنعمة ، على ما كانوا عليه من حب المادة ، وصلابة العقيدة والحماسة العميقة .

ولكن الله تعالى يمهّلهم دون أن يمهّلهم ، ففي كل مرة من تهريف أو تجديف تدركهم رحمة الله وتوهب لهم فرصة الحياة لعلهم يشكرون فلا يهرفون بما لا يعرفون : « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » .

وفي هذا البعث رجعة إلى الحياة الدنيا دليل قاطع لا مردّ له على إمكانية

(١) ويأتي تفصيل سؤال الرؤية منهم ومن موسى في محاله .

الرجعة وقوعاً فيما بعد كما نعتقده في دولة القائم المهدي (عليه السلام) وكما في آيات أخرى تبعث جماعات بعد موتهم ^(١) .

ثم وفي هذه الآية دلالة باهرة على امتناع رؤية الله جهرة ، فلو امكنت لم يستحق طالب الرؤية لمزيد الايمان عقوبة وتنديداً ، ولم يك ذلك منهم ظلماً : « يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا ارنا الله جهرة فاخذتهم الصاعقة بظلمهم » (٤ : ١٥٣) ولم يك كذلك استكباراً وعتواً : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا انزل علينا الملائكة او نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً » (٢٥ : ٢١) لا بالنسبة للناس العاديين فحسب بل والنبين كذلك كما في موسى : « لن تراني .. » اضافة الى سائر الدلالات القرآنية والعقلية التي تحيل الرؤية البصرية جهراً في كافة العوالم .

« وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » ^(٥٧)

نعمة سابعة سابعة إذ كانوا في التيه ^(٢) نتيجة عصيانهم حيث لم

^{دم:أرف}
(١) كما في «الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم احياهم » وفي الذي قتله بنو اسرائيل واحياه الله ببعض بقرة : « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى » وفي «الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها .. فاماتته الله مائة عام ثم بعثه .. » واضرابها التي يأتي تفاصيلها في طياتها .

(٢) نور الثقلين ١ : ٨٢ عن الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر (عليه السلام) عن ابيه عن آباءه عن الحسين بن علي (عليه السلام) فيما سأل اليهودي عن علي (عليه السلام) قال له اليهودي : فان موسى قد ظلل عليه الغمام ؟ قال له علي (عليه السلام) لقد كان كذلك وقد فعل ذلك لموسى في التيه وأعطى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) افضل من هذا : ان الغمامة كانت لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

سورة البقرة آية - ٥٧ ٤٢٣

يدخلوا «الأرض المقدسة التي كتب الله لهم فارتدوا على أدبارهم فانقلبوا خاسرين . . .» قال فانها محرمة عليهم اربعين سنة يتبهون في الارض فلا تبأس على القوم الفاسقين « (٥ : ٢٦) . . . وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون « (٧ : ١٦٠) « وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يجلل عليه غضبي فقد هوى « (٢٠ : ٨١) .

نعمة تضم نعماً ثلاث : تظليل الغمام - إنزال المن - إنزال السلوى -

والغمام من الغم : الستر، وهو لا يحمل ماءً أو لا يمطر : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام » (٢ : ٢١٠) « ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً » (٢٥ : ٢٥) ثم ولا نجد غمامة في آية تمطر وإنما تغم وتستر ، بخلاف السحاب والغيم والمزن والمُعصر فإنها هي التي تمطر، وإن كانت كذلك تستر ، فقد كان الغمام في أربعين الية ستره لهم من الشمس دائبة ، اللهم إلا شتاء حيث تلزمهم نور الشمس ونارها .

وإنها لنعمة كبرى حيث يراعيهم ربهم بها في الصحراء الجرداء ، يقيهم هجيرها بالغمام ، وجوعهم - حيث هم منقطعون عن مواد الغذاء - بطيبات من الغذاء لا جهد فيها ولا عناء .

غمام يظلمهم من الهاجرة التي كانت تفور بالنار ، ومن يمن به عليهم وسلوى يتسلون به ، مثلث النعم السابقة رغم ما لهم من سوء الحال والسابقة .

= تظله من يوم ولد الى يوم قبض في حضره وسفره فهذا افضل مما اعطي موسى (عليه السلام) .

وترى ما هو المن وما هي السلوى اللذان رزقوها في التيه ؟

ذكرهما في موضع الإمتنان دليل على أنها لم يكونا من ارزاق التيه كبر من البراري، وقد يلح إنزالهما إلى «إتيانها من السماء، كما و«طيات ما رزقناكم » تشير إلى أنها أو أحدهما مجموعة طيات دون لون أو لونين من الأكل ، ولا تنافيها الوحدة في قولهم : « لن نصبر على طعام واحد » إذ قد يعني النوع الواحد على طيته كله ، وهم تهوسوا « من بقلها وقثاءها وفومها وعدسها وبصلها » .

فهل هما اثنان : من وسلوى : طيان ؟ وهناك « طيات »! أو أن المن ما يُمن به من طعام وهو الطيات ، والسلوى ما يتسلى بها نفسياً ؟ لا نص في القرآن او ظاهر يفسرهما إلا قدر ما فسر : أنه أو أنها طيات ليس من رزق الأرض المعتاد ، بل هي منزلة السماء وإن كانت على أشجار .

وقد يروى أن « الكمأة من المن وماءها شفاء للعين » (١) لا أنها فقط هي المن ، وهي ثمرة بيضاء كالشحم تنبت من الأرض يقال لها شحم الأرض ، فنزولها إذاً هو كثرة إنباتها في التيه تقصداً لأصحاب التيه ، كما

(١) رواها أصحابنا وإخواننا جميعاً ، فمن الأول ابن بابويه القمي عن أحمد بن محمد بن خالد البرقي عن محمد بن علي عن محمد بن الفضل عن عبد الرحمن بن زيد بن مسلم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

وفي الدر المنثور ١ : ٧٠ - أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم عن سعيد بن زيد قال قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... كما وأخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم عن سعيد بن زيد قال قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... كما وأخرجه أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة والنسائي من حديث جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وابن عباس .

ومنها « الترنجيين » ^(١) او شيء كان يسقط على شجرة الترنجيين ^(٢) او ما كان ينزل عليهم بالليل فيقع على النبات والشجر والحجر فياكلونه ^(٣) وجملة القول هنا أن ليس شيء مما ذكر او يذكر ^(٤) هو المن فقط، إذ لا تعنيها لغته ، وإنما هي مصاديق عدة من المن : « ما يُمن به عليهم في التيه من الأكل » وهي كلها « طيبات ما رزقناكم » فالأرضي منها نازلة من علو الرحمة ، والسمائي منها نازلة من عل كما هي نازلة برحمة ، فهما إذاً نازلان من عل أياً كان .

ثم السلوى هي في الأصل ما يتسلى به ومنه السُّلو ان والتسلي ، وإذا كان المن منة الغذاء البدنية ، فالسلوى إذاً هي الغذاء النفسية ، فالأول يصلح ويصحح البدن ، والثاني يؤمن ويسلي الروح . وهما « نعمتان مجهولتان الصحة والأمان » والطير السمائي الذي جاء تفسيراً للسلوى هو من المن ، فان السلوى لغوياً لا تعني طيراً أم شيئاً خاصاً ، وقد يكون السمائي سلوى في المن يسلي الذائقة بلحمه المُلذِّ بين سائر المن ، لا أنه هو السلوى

(١) تفسير البرهان ١ : ١٠١ - عن الامام الحسن العسكري (عليه السلام) ان المن الترنجيين كان يسقط على شجرهم فيتناولونه

(٢) الدر المنثور ١ : ٧٠ - اخرج جماعة عن السدي : فانزل الله عليهم المن فكان يسقط على شجرة الترنجيين .

(٣) علي بن ابراهيم القمي في معنى الآية .

(٤) فعن عكرمة انه شيء مثل الطلّ شبه الرب الغليظ، وعن مجاهد انه صمغة. وعن الربيع بن انس انه شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه ، وعن وهب بن منبه انه خبز الرقاق مثل الذر (الدر المنثور ١ : ٧٠) او شيء كالطل فيه حلاوة يسقط على الشجر (مفردات القرآن للراغب) ولعله المادة التي يصنع منها في ايران «الغز» والعرب اصطلمحوا له المن بالاضافة السلوى ، ولكنه فقط المن دون السلوى .

والسلوى هي - فقط - السمانى (١) .

«كلوا من طيبات ما رزقناكم» من المن ، على السلوى الطمأنينة ، حيث لا تطيب الطيبات على غير طمأنينة ، فلا طيبات في المن - بل ولا من إلا بالسلوى .

« وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » : إنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وكفرانهم نعم الله التي كانت تنزل عليهم تترى ، ولا سيما في صحراء التيه القاحلة الجرداء ، حيث سقاهم - إلى سائر النعم - عيون الماء : « وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن يضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس

(١) البرهان ١ : ١٠١ عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) . . . والسلوى : السمانى طير اطيح طير لحماً يسترسل فيهم فيصطادونه . . . والشيخ مرسلاً عن الصادق (عليه السلام) « . . . وكان المن والسلوى ينزل على بني اسرائيل ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس فلمن نام تلك الساعة لم ينزل نصيبه وكان اذا انتبه فلا يرى نصيبه احتاج الى السؤال والطلب » ونزول السلوى مع المن في هذه الفترة تدل على انها غير التسلية ولكنها رواية مرسله . ثم والتفسير المنسوب الى الامام (عليه السلام) مخدوش في نسبه ، كما وان متنه يشمل على غرائب من التفسير قد لا تلائم القرآن او يخالفه - ولم يرد تفسير السلوى بالسماني الا فيه فلا حجة - اذاً - فيه ، وقد يؤول بما أولناه ، حيث السلوى لا تعني - لغوياً - السمانى . وفي الدر المنثور ١ : ٧٠ عن ابن عباس ان السلوى طائر شبيه بالسماني كانوا يأكلون منه ما شاءوا وكما اخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة ، وعن الضحاك - وفقاً للعسكري - : السمانى هي السلوى وعن قتادة كانت السلوى طيراً الى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب فكان الرجل منهم يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك فاذا تعدى فسد ولم يبق عنده ، وعن وهب بن منبه قال : سألت ، بنو اسرائيل موسى اللحم فقال الله : لأطعمنهم من أقل لحم يعلم في الأرض ، فارسل عليهم ريحاً فاذرت عند مساكنهم السلوى وهو السمانى ميلاً في ميل قيد رمح في السماء فخبوا للغد ففتن اللحم .

سورة البقرة آية ٥٨-٥٩ ٤٢٧

مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون « (٧ : ١٦٠) .
أتراهم بعد كل ذلك شكروا ، كلا ! إنهم ظلموا حيث خالفوا أوامر الله إلى غيرها ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، ومن مظلهمهم :

« وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْحَسَنِينَ^(٥٨) قِبَلَهُ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ^(٥٩) .

نعمة ثامنة : « وإذ قلنا » لهم بعدما تاهوا في الأرض أربعين سنة لتخلفهم عن أمر ربهم بدخول بيت المقدس بعد خروجهم عن مصر : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا فانا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلا عليها الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تاس على القوم الفاسقين » (٥ : ٢٦) .

فبعد ما تاهوا في الأرض هذه السنين ، وأنعمنا عليهم فيها بطيبات وانتهى أمد التيه « قلنا لهم ادخلوا هذه القرية » : الأرض المقدسة التي كتب الله لكم دخولا للسكنى : « وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطاياكم سنزيد

المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجلاً
من السماء بما كانوا يظلمون » (٧ : ١٦٢) .

أمرنا أن يدخلوا باب القدس سجداً ويقولوا حطة ، وترى كيف يمكن
الدخول سجداً والسجدة المعروفة هي وضع الجبهة على الأرض ولزامه
السكون ، والدخول هو حركة المشي فكيف السجود ؟ .

إن قرينة الدخول الحركة تُحوّل السجود عن الساكن منه إلى غاية
الخضوع حالة الحراك في الدخول ، أن يركعوا في دخولهم قدر المستطاع ،
حيث يمكنهم المشي حالته ، فلا يعني السجود إلا غاية الخضوع، ولها في كل
حقل ما لها من هيئة تناسبها على كونها غاية الخضوع حالها ، وكما « ان الله
يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم
والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب . . »
(٢٢ : ١٨) .

أترى أنها تسجد لله على هيئة سواء ؟ وإنما حالة خاشعة سواء في
مداها ، فكذلك يفسر « ادخلوا الباب سجداً » خُشَعاً لله حيث تدخلون
بيت الله ، ولأن الله أدخلكم الأرض التي كتب لكم .

فهنا دخولان : « ادخلوا هذه القرية » دخولاً في قرية القدس ،
« وادخلوا الباب سجداً » دخولاً في القدس نفسه : البيت المقدس من باب
خاص وهو المعروف الآن بباب حطة ، وعلى الباب الثامن أو التي كان
يصلي إليها موسى .

« وقولوا حطة نغفر لكم . . » ولأن غفر الخطايا فرّع على قول حطة
كما فرّع على دخول الباب سجداً كجزاء لهما ، نعرف أن « حطة » تعني
حطّ الخطايا ، أن يستغفروا ربهم لكي يحط عنهم خطايا من كان منهم
مخطئين ، وأن يزيد في درجات من كانوا محسنين .

فهم لم يؤمروا فقط بالقول « حطة » : كيفية من الخط ، كلمة مفردة لا تعني كلاماً يفيد معنى ! وإنما طلباً لانحطاط خطاياهم بكيفية خاصة يتقدمها الدخول سجداً ، لكي تتكيف جوارحهم وألسنتهم ومعها قلوبهم بعباد منحطين أذلاء حين يدخلون ، شكراً لما أنعم عليهم والتماساً لخط خطاياهم (١) .

فلا يصح القول : أنهم أمروا أن يقولوا « حطة » بنفس اللغة وهي عربية وهم عبريون ، بل ما يفيد معناها في كیفيتها الكلامية التامة بعبريتهم .

فكما أن سجدهم كانت غير السجدة المعروفة ، كذلك حطتهم كانت غير هذه الحطة في صيغة التعبير ، وإنما معنى الحطة ومعنى السجدة كما يناسب حالهم ومقالمهم .

« نغفر لكم خطاياكم » ان كنتم مخطئين « وسنزيد المحسنين » من كان منكم محسنين - ولكن :

« فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم » .. « الذين ظلموا » خاصة ، لا هم باجمعهم ، حيث كان فيهم محسنون دخلوا الباب سجداً وقالوا

(١) هنا وردت روايات عن الائمة من آل الرسول (عليهم السلام) «انما مثلنا في هذه الامة كسفينة نوح وكباب حطة في بني اسرائيل» ففي الدر المنثور ١ : ٧٣ - اخرج ابن ابي شيبة عن علي بن ابي طالب قال : انما ...

ونور الثقلين ١ : ٨٢ عن عيون الاخبار باسناده الى الحسين بن خالد عن الرضا (عليه السلام) عن ابيه عن آباءه عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليها السلام) قال : قال رسول الله (صلی الله عليه وآله وسلم) لكل امة صديق وفاروق وصديق هذه الامة وفاروقها علي بن ابي طالب (عليه السلام) ان علياً سفينة نجاتها وباب حطتها . اقول : وهكذا تظافرت الروايات من طريق اصحابنا واخوننا ..

حطة : « وستزيد المحسنين . »

وقد تلمح « الذين ظلموا » بدلاً عن « المخطئين » او « الظالمين » أنهم جماعة من الخاطئين إذ ظلموا بتبديل القول غير الذي قيل لهم ، ظلماً على خطيئتهم ، لا كل الخاطئين ، إذ تابعت فرقة منهم سيرة المحسنين ، ففعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا ، وتخلفت أخرى قُدماً الى تخلفات أخرى : « فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » - « بما كانوا يظلمون » (٧ : ١٦٢) فهم إذاً ثلاث : محسنون - تائبون - خاطئون ظالمون فاسقون - ولم يكن الرجز إلا على الآخرين .

وترى ان « قولاً غير الذي قيل لهم » يعني تبديل قول « حطة » فقط الى غيره ؟ دون تبديل لفعل : « ادخلوا الباب سجداً » ؟ والفعل أصعب تحقيقاً وأقرب تخلفاً !

إن قولاً - هنا - الموصوف بتغير الذي قيل لهم هو مفعول ثان لـ « بدل » فأولها : قول الله ، فقد بدلوه الى غيره : ما يغيره - فتبديل قوله : « ادخلوا الباب سجداً » دخولهم معاكساً كأن يدخلوها زاحفين على أستاذهم (١) مقبلين لها بأدبارهم مهما كانوا راكعين لكي يعاكسوا امر الله مستهزئين .

(١) الدر المنثور ١ : ٧١ - اخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس وابي هريرة قالاً قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : دخلوا الباب الذي امرؤا ان يدخلوا فيه سجداً يزحفون على أستاذهم وهم يقولون : حنطة في شعيرة .
ورواه مثله في تفسير البرهان ١ : ١٠٣ عن تفسير الامام الحسن العسكري (عليه السلام) بقوله : « لم يسجدوا كما امرؤا ولا قالوا ما امرؤا ولكن دخلوها مستقيلاً بأستاذهم وقالوا : هظا سمقنا ، يعني حنطة حمراء نتقوتها احب الينا من هذا الفعل وهذا القول ... » .

وتبديل قوله « قولوا حطة » قوله معاكسة كالقول « لا حطة » او مستهزئة كـ « حنطة » . أما هيه ؟

والرجز من السماء الذي أنزل على الظالمين منهم الفاسقين هو الإضطراب حيث تعنيه لغته ومنه رَجَزَ البعير إذا تقارب خَطُوهَا واضطرب لضعف فيها ، والرَّجَزُ لتقارب أجزاءه ، فرجزهم هو الاضطراب المتتابع المتقارب ، وكما وأنزل على آل فرعون رجزاً من السماء : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل » (٧ : ١٣٤) ومهما عُرف رجز آل فرعون كما هنا لم يُعرف رجز بني اسرائيل إلا بوصفه العام : عذاب مضطرب متناوب ينزل على الذين فسقوا وظلموا دون أن يعرف قومية ولا عنصرية ، على آل فرعون الظالمين او بني اسرائيل الظالمين سواء !

« وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » (٦٠) .

نعمة تاسعة هي إسقاءهم في التيه في صحراء جرداء لا ماء فيها ولا كلاء ، وجحيم الهاجرة تفور بالنار : « وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً وأوحينا إلى موسى إذا استسقاها قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية . . » (٧ : ١٦١) .

فاستسقاء قومه - لا طلبهم للاعجاز - يلمح أنهم كانوا عطاشى في قفر ،

لا في مدينة او قرية ، فهو التيه ، ودلالة ثانية أمرهم بعد ذلك : « اسكنوا هذه القرية » فقد تمت لهم مربع النعم السابعة وهم في التيه حيارى ، رغم أنهم تاهوا جزاء عما تخلفوا من اقتحام القدس وفيها العمالة الجبارون .

ثم الإنبجاس والإنفجار مترتبان تلوا بعض ، فلما ضرب بعصاه الحجر انبجس : إنفراجاً أضيق من الإنفجار، ثم إنفجاراً يائتي عشرة عيناً منبجسة عدد الأسباط المقطعة اثني عشرة أمماً ، حيث كانوا يرجعون إلى اثني عشر سبطاً عدد أحفاد يعقوب (عليه السلام) وهو إسرائيل المنسوبون إليه المتسللون عنه ، وهم رؤوس القبائل الإسرائيلية « قد علم كل اناس مشربهم » حيث عين لكل خاصة لا تعدوهم إلى سواهم ، وقيل لهم : «كلوا واشربوا من رزق الله » أكلا من طيبات المن وشرباً من هذه العيون «ولا تعثوا في الأرض مفسدين » حيث كانت لهم نفسيات مفككة وجبيلات متداعية هابطة ، آية من الإرتفاع إلى مثل الأخلاق الأبية .

وأصل العثا شدة الفساد فهو السعي في شديد الإفساد ، فقد يكون الفساد نتيجة عدم انضباط النفس عن الحرام أحياناً ما فهو من اللمم ، وأخرى إنضباط النفس غوراً في الحرام وخوضاً فيما لا يُرام ، وثالثة تجنيداً للقوى للإفساد وهو عثا الإفساد وعيثة محسوساً وغير محسوس^(١) وهنا النهي موجه إلى حالتهم الفعلية الرديئة : السعي في عيث الفساد حالة الإفساد ، وهو غاية الطغيان والكفران رغم أنهم نالوا من رحمة الله غاية النعمة ، واين نعمة من نقمة ! .

ثم ترى أكان هذا الحجر خصيصاً من حجر التيه ؟ أم حجراً منكراً

(١) في غريب القرآن ان العيث والعثى متقاربان الا ان العيث اكثر ما يستعمل في الفساد المحسوس والعثى فيما يدرك حكماً لاحساً ، اقول : ولعل العثى هنا تجمع بين الافساد غير المحسوس والمحسوس ، حيث الاول اذا تجاوز حده ظهر في المحسوس .

أَيُّ حَجَرٍ؟.. تعريف « الحجر » دون منكره: « حجر » دليل الإختصاص، وكما ان عصاه عصي خاص: « بعصاك الحجر » لا «بعصى حجراً» وهي عصي لها معجزاتها الأربع: فلق البحر- تفجير العيون- صيرورتها جانا تهتز (٢٧ : ١٠) و ثعباناً مبيناً (٧ : ١٠٧) «فاذا هي تلقف ما يأفكون» (٧ : ١١٧) وقد كان موسى يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه وله فيها مآرب اخرى (٢٠ : ١٨) .

ولزام هذا الحجر ان يكون من الكبر بقدر يمكن ان تتفجر منه اثني عشرة عيناً ترد مشاربها مئات الآلاف من بني اسرائيل دون تضايق وانتظار، او ثمانع واحتصار، بعيون واسعة، ومشارب شاسعة، فلا يمكن أن يكون حجراً صغيراً يُحمل، كما لا يكون جبلاً كبيراً، حيث النص «الحجر» لا «الجليل» فليكن حجراً كبيراً أياً كان في جبل أو غير جبل حتى يستجيب طلب هكذا انفجار بمشارب فاسحة دون انتظار واحتصار، والنص لا يثبت هنا الإعجاز إلا في انفجار العيون الإثني عشرة:

ان ضُرب موسى بعصاه الحجر، دون أن يحمل الحجر- ايضاً- على صغره كجمل بعير، هكذا انفجار شرباً لعشرات الآلاف المنقسمة إلى أسباط اثني عشر (١) .

(١) في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى ابي الجارود (وهو من الكذابين المعروفين بالجعل) قال قال ابو جعفر (عليه السلام) اذا خرج القائم من مكة ينادي مناديه الا لا يحملن احد طعاماً ولا شرباً وحمل معه حجر موسى بن عمران (عليه السلام) وهو وقر بعير فلا ينزل منزلاً الا انفجرت منه عيون فمن كان جائعاً شبع ومن كان ظمآنً روي ورويت دوابهم حتى ينزلوا النجف من ظهر الكوفة .

وفي الخرائج والجرائح عن ابي سعيد الخراساني عن جعفر بن محمد عن ابيه مثله وفي آخره: فاذا نزلوا ظاهره انبعث منه الماء واللبن دائباً فمن كان جائعاً شبع ومن كان

« وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمُسْكِنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » (٦١).

نعمة عاشرة وتلك عشرة كاملة مما أنعم الله به عليهم وهم يكفرون ويقتلون ويعصون ويعتدون، ف « ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله... ».

« لن نصبر على طعام واحد » ف « لن » تحيل صبرهم ، وطبعاً إحالة - هنا - باختيار، أن لن يرضوا بمن الله في طيبات ما رزقهم : « كلوا من طيبات ما رزقناكم » كما مضت تفسيراً للمن والسلوى ، فوحدة الطعام لا تعني الوحدة العددية صنفياً فإنه المن : الطيبات ، بل هي وحدة النهج بغيث نزوله : « وأنزلنا عليكم المن والسلوى » بعيداً عن الإعتياد الأرضي وأتاعها وأشغابها ، مستبدلين الذي هو أدنى بالذي هو خير كرزق الجنة ، حيث أرادوا الدنية رغم أن الله اختار لهم العلية ، ولكن الطبائع المتخلفة النحسة ليست لتقبل إلا الدنية .

هنا يسيئون الأدب بجنب الله مرة حيث استحالوا صبرهم على هذه الطيبات ، وأخرى إذ طلبوا من موسى متعنتين : « فادع لنا ربك » كأنه - فقط - ربه وليس ربهم ، وليتهم طلبوا ما هو أطيب وأعلى ! ولكنهم طلبوا من رزق الارض الأرذل الأدنى : « من بقلها وقثاءها وفومها وعدسها وبصلها »

= عطشاناً رُوي ، اقول : بهذا المرسل وذلك المخدوش لا يمكن اثبات معجزة لا تشير إليها الآية والله اعلم .

فالفوم: الثوم - والبصل هما الخبيثان على لسان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من اكل هذين الخبيثين فلا يقرب مسجدنا » خبث الريح وامثاله ، مهما طابا في مآرب اخرى أكسلاً ام سواه ، والقضاء ليست طعاماً يغني من جوع ولا فاكهة ، والبقل والعدس ليسا من الحاجيات الدائبة .

فرغم أن هذه الخمسة من المأكولات ، ولكنها ليست من ضروريات الطيبات ، : « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرأ... » ف « اهبطوا » توحى الى انتقالهم من حياة عالية الى حياة هابطة ، و « مصرأ » تشير تنكيرها الى انها ليست مصرأ معينة فليكن مصرأ : الذي خرجوا منها حيث لم يقل « مصر » حتى تعنيها .

فاجابة هذه الطلبة الهينة الزهيدة لا تتطلب دعاء ولا محاولة إقية فانها موفورة في كافة الأمصار ، فلا حاجة الى : « ادع لنا ربك » اللهم إلا في خروجهم عن التيه الى مصر ، ولكنهم لم يطلبوه وانما « من بقلها وقضاءها .. » في التيه ام سواه ! وإذا انتم ترفضون حياة الطيبات دون صراع ومخائفة في تحصيلها ف « اهبطوا مصرأ .. » الى حياة خانعة خائفة متعبة حيث تجدون بغيتكم حاضرة : من بقلها وقضاءها وفومها وعدسها وبصلها ..

« وضربت عليهم الذلة والمسكنة » وترى ما هي هذه الذلة وهذه المسكنة ؟ ولماذا ضربت عليهم ؟ وحتى متى ؟ وهل ضربت عليهم - فقط - ام يعدوهم الى اضرابهم بما يفتعلون ؟ اسئلة تطرح نفسها في الظرف الذي احتلت اسرائيل فلسطينا وقد سنا فاختلت الموازين بهذا الاحتلال الإختلال ، فهل هم بعد أذلاء مساكين ؟ ! .

في الحق ان الذلة والمسكنة هما لزمان لكل من يجذو حذوهم كما قال الله : « ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك

بما عصوا وكانوا يعتدون « ولا نجد شعباً أنحس منهم في تاريخهم الأسود ، ، ولذلك نرى الدلة والمسكنة لزامهم دائماً ، إلا بحبل من الله وحبل من الناس : » ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وبأعوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، (٣ : ١١٢) : عصياناً لله حيث يكفرون بآيات الله ، واعتداءً على عباد الله حيث يقتلون أنبياء الله ، شر عصيان بجنب الله وشر اعتداء على عباد الله ، كسيرة لهم دائمة مهما اختلفت صورته ، فعصيانهم لله وكفرهم وتكذيبهم بآيات الله مستمر ، وقتلهم رسل الله كذلك حيث اختلقوا عليهم في كتابات الوحي الإسرائيلية ما يمس من كراماتهم كرسل وصالحين ، وانكروا محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) شر نكير ، ولو كان بين أظهرهم لقتلوه كما حاولوه في زمنه ^(١) ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

فهم - إذاً - قتالون لرسل الله ورسالاته كما يستطيعون بسيرة واحدة مهما اختلفت الصورة ، فالسيره هي السيره والسريرة هي السريرة « وكل انسان يعمل على شاكلته » .

ثم المسكنة هي حياتهم دائماً أياً كانوا وإيان وكما نراهم حتى في

(١) نور الثقلين ١ : ٨٤ عن اصول الكافي بسنده عن اسحاق بن عمار عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : والله ما قتلوهم بأيديهم ولا ضربوهم بأسياقهم ولكنهم سمعوا احاديثهم فاذاعوها فاخذوا عليها فقتلوا فصار قتلاً واعتداءً ومعصيةً اقول : هذا من باب التطبيق وبيان مصداق خفي لقتلهم ، لا انهم ما قتلوهم ابداً ، ففريق قتلوهم بما دلهم اخرون ثم وفريق رضوا وهم شركاء ثلاثة في قتلهم ، كما ان الذين حرقوا شرائعهم وكذبوهم وافترؤا عليهم ، فقد قتلوا رسالاتهم فهم كلهم شرع سواء .

دويلتهم لأول مرة يعيشون بأضييق المعيشة رغم انهم يمتلكون أضخم الثروات ، حيث يصرفونها في الأسلحة المحافظة على استمرارية الاحتلال ، فميزانية التسليح للجنود ، والتصليح لما يدمر دوماً من عمرائهم بالعمليات الفدائية ، هذه الميزانية هي اضعاف ما تصرف في حاجياتهم المعيشية ، رغم كافة الحيل والإحتيالات في جمعهم للأموال والثروات من كافة أنحاء العالم ، فهم أقنأهم رغم انهم أغناهم ، وأسكنهم حين انهم أثراهم !

ثم الذلة هي حياتهم « إلا بحبل من الله » وليس لهم هكذا حبل طول تاريخهم العتيق « وحبل من الناس » وذلك حينما اخذت تستحكم حبلاً من الناس المستعمرين بمئة ويسرة بكل شغب وعسرة ، عمالة عَجالة للاستعمار حتى تشكيل دولة العصابات ، وترى أن هذا الحبل يدوم ؟ كلاً فإنه ينقسم بعباد صالحين مرتين ثم لا حبل لهم الى يوم الدين^(١) ؟ .

ثم ولا يتغلب حبلمهم من هؤلاء الناس النسناس إلا حين ترك المسلمون حبلمهم من الله ومن الناس^(٢) لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا يُنصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس .. « (٣ : ١١٢) » وليس المخاطبون بـ « لن يضروكم » هنا إلا المسلمون المتمسكون بالحبلين وكما تتقدم آياتهما : « يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين كفروا يردوكم عن ايمانكم كافرين ... ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم . يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وانتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ... ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ... »

(١) راجع الفرقان ١٥ تفسير سورة الاسراء آية بني اسرائيل .

كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . لن يضروكم إلا أذى . . . (٣ : ٩٦ - ١١١) .

فحبيل من الله هو الإيمان والإعتصام بالله وتقوى الله، والإعتصام بحبل الله : كتاب الله ونبي الله - عقيدة الإيمان وعمل الإيمان ، إنها حبل من الله ، ثم جماعية الإعتصام بحبل الله على تكون أمة فيهم داعية الى الخير امرة بالمعروف ناهية عن المنكر، وعدم التفرق عن دين الله أوفي دين الله ، إنها حبل من الناس ، دون سناد إلى النسب . وإذا : « لن يضروكم إلا أذى » .

ثم حبل اليهود من الناس لن يفيدهم خروجاً عن ظاهر الذل إلا مرتين على بقاءهم في مسكنتهم : « وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين لتعلن علواً كبيراً » إفساداً في الأرض كل الأرض مرتين ، وعلواً كبيراً مرة واحدة هي الثانية « فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً » واحتلال فلسطيني ومن ثم القدس ولحد الآن هي المرة الأولى من الإفساد العالمي بعلو غير كبير ، وسوف يقضي عليهم « عباداً لنا » أقوياء صالحون يجوسون خلال الديار « وكان وعداً مفعولاً » .

« ثم رددنا لكم الكرة عليهم » رداً لإسرائيل الى ما كانت أول مرة وأقوى علواً : « وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نقباً . . . فاذا جاء وعد الآخرة » المرة الآخرة الثانية ، « ليسوءوا » هؤلاء العباد الصالحون « وجوهكم » أسوء من الأولى « وليدخلوا المسجد (الاقصى) كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتيهاً » (١٧ : ٧) .

ولم يسبق لإسرائيل إفساد عالمي طول تاريخ إفسادهم أن يؤسسوا دولة

سورة البقرة آية - ٦١ ٤٣٩

الإفساد إلّا في احتلال القدس ، ولا علو كبير عالمي إلّا مستقبلاً بعد ان يدخل «عبادنا» القدس بجوسهم خلال الديار أول مرة ، ثم رجوعهم الى ما كانوا وأفسد وأعلى «فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم» حيث يرجعون الى المسجد الأقصى «وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا» .

وهم منذ وجدوا مفسدين والى يوم الدين يسامون سوء العذاب وحتى في قوتهم وشوكتهم حيث دويلة العصابات : «وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم» (٧ : ١٦٧) سوء عذاب دائب بعباد صالحين كما هنا وهناك ومنذ التأديبات المتتالية زمن الرسالات الاسرائيلية والرسالة الاسلامية حتى الآن ، ام وطالحين كاهلترين ام من ذا ؟ حيث هم قبل دويلة العصابات المقتصبة كانوا مشردين نيلة كل نائل وغيلة كل غائل ، وهم في دويلتهم الآن في خطر دائب وتفجرات داخل اراضيهم ليل نهار ، أفلا يكفي هذا لسومهم سوء العذاب ؟

إذا فالمسكة لزامهم مضروبة عليهم ضرب السكة لا تمحى ، مهما كانت الذلة «إلا . . . وحبل من الناس» حيث لا يبقى ، وانما ربح من الزمن «مرتين» على سومهم سوء العذاب حتى في هاتين المرتين ، كما وانها مضروبتان لكل من يفتعل فعلتهم : تركاً لحبل من الله وحبل من الناس . حتى وان كانوا مسلمين و«ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغيرالحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» دون المتمسكين بالحبلين ، القائمين بشروط الله حتى وان كانوا غير مسلمين ف : «ليسوا سواء من اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات واولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم

بالمُتقين» (٣ : ١١٥) .

وهذه الآيات تأتي بعد التي تأمر المسلمين بما تأمر وتضرب على اليهود الذلة والمسكنة فـ «ليس بأمانيتكم ولا أما في أهل الكتاب من يعمل سوءً يجزيه ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فألئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً» (٤ : ١٢٤) .

فإنما هو الإيمان وعمل الصالحات فقط دون جنسيات أو هويات :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) .

طوائف اربع ذكروا ردف بعض بمختلف أسماءهم الحاكية عن مختلف شرائعهم وطرائقهم ، ثم جمعوا وأمثالهم غير المذكورين هنا في طابع الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، كما يوحى لذلك ترك الضمير الراجع اليهم «من آمن» دون «منهم» مما يوحى بأن الضابطة العامة في مثلث النجاة : «لهم أجرهم عند ربهم - ولا خوف عليهم - ولا هم يحزنون» إنها - فقط - مثلث : الإيمان بالله - واليوم الآخر - والعمل الصالح ، مهما كانوا من الذين آمنوا أو الذين هادوا أو النصارى والصابئين ، أم أياً كانوا من الموحدين ، وكما دلت آية «ليسوا سواء» ان أهل الكتاب منهم ليسوا سواء فيما يذكر لليهود منهم ، فحتى اليهود ايضاً إن كانوا في مثلث الإيمان فهم ناجون ، فضلاً عن سواهم ! وكما أن الثلاث الأخرى موحدون ، كذلك الصابئون ، حيث ذكروا معهم ثم يشملهم «من آمن ..» ولألم يكن لذكرهم في شمل الموحدين هنا من معنى .

وفي حين انهم يتأخرون هنا ذكراً عن الذين هادوا والنصارى ، نراهم في المائدة يتوسطون بينهم : «ان الذين آمنوا والذين هادوا

سورة البقرة آية - ٦٢ ٤٤١

والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٥ : ٦٩) تدليلاً على انهم واياهم سواء في التوحيد مهما اختلفوا في شرائع التوحيد .

ثم نراهم بنفس الصيغة في الحج ومع المجوس يُردفان بالثلاث الأخرى من الموحدين ، خمساً تجاه المشركين : «ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشرکوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد (٢٢ : ١٧) مما يدل على ان الخمس الأول ليسوا في عداد المشركين مهما كانوا منحرفين في عقيدة التوحيد ، ولكنهم تجمعهم كلمة التوحيد : ان ليسوا وثنيين .

ومن الملاحظ ان الأولين تحكمان بالنجاة لمن آمن منهم اذ لم يكن بينهم مشركون ، ثم الثالثة تأتي بكلمة الفصل فيما بينهم بدل النجاة ، حيث الانفصالية للذين اشرکوا عن سواهم في عقيدة التوحيد ، مما يبرهن ان العبرة في مجال النجاة انما هي بحقيقة العقيدة ، دون عصبية جنس او طائفية ام ماذا من الفوارق .

لذلك ترى «ان الذين آمنوا» لا تكفي نجاة بمجرد أنهم مسلمون ، كما الألقاب الأخرى على سواء ، اللهم إلا بانضمام الحقيقة الى الإدعاء : «من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً دون الإدعاءات الخاوية الجوفاء من : مسلمين او الذين هادوا والنصارى والصابئين والمجوس ام من ذا ؟ من المنسلكين في سلك التوحيد بالسنتهم - فقط - ام وفي عقائدهم ايضاً ، إلا بمظهر العمل الصالح للايمان بالله واليوم الآخر .

فـ «الذين آمنوا» هنا هم المسلمون المؤمنون بالرسالة الإسلامية دون المنافقين اذ لا ايمان لهم ولا عمل صالحاً ، إنما هم المؤمنون ، دخل الايمان في قلوبهم او لما يدخل وهم في سبيل الايمان ، وهذه مواصفة للمسلمين غير

المنافقين في مثلات الآيات تكريماً لهم بكرامة الإيمان، دون الألقاب الخاوية الأخرى^(١) ولا ينافي تكراره ذيل الآية بملحقات أخرى «من آمن منهم ...» حيث المعنى من الأول مطلق الإيمان والآخر هو الإيمان المطلق كما في : «يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ...» (٤ : ١٣٦) .

«والذين هادوا» هم اليهود ، يُذكرون بهذه الصيغة في آيات عشر ، وكما يذكرون هوداً أو اليهود ، وعلى الأصل من «هدنا إليك»^(٢) رجوعاً عما طلبوا من رؤية الله جهرة ، وعما عبدوا العجل ، الى الله وحده حيث مقالهم : «... واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يمدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ...» (٧ : ١٥٧) .

«والذين هادوا» قد تأتي علماً لليهود كطائفة ، هادوا هكذا أولم يهودوا ، كما هنا ، حيث يستثنى أخيراً في النجاة من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً كما للمؤمنين وسواهم من المذكورين ، وقد تأتي تنديداً وتعريضاً بالذين سُموا هوداً ولم يهودوا : «قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» (٦٢ : ٦٢) .

(١) تتكرر هذه المواصفة لهم في القرآن (٢٥٨) مرة في مختلف الواجهات ، والدرجات الإيمانية ، ولكننا المنافقون لا يعبر عنهم إلا به أو يشملهم المسلمون حيث يعهم المؤمنين بقلوبهم والذين هم في سبيل الإيمان .

(٢) الدر المثور ١ : ٧٤ - اخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن نجى عن علي (عليه السلام) قال : إنما سميت اليهود لانهم قالوا : انا هدنا إليك .

سورة البقرة آية - ٦٢ ٤٤٣

٦) ولم تأت كمدح ومواصفة لهودهم ورجوعهم إلى الله إلا في آية يتيمة هي الأصل في تسميتهم هوداً : «إنا هدنا اليك» ثم اشتقت منها صيغ اليهود واليهود تنبيهاً على الأصل، وتأنياً على الشاذين عن هذا الأصل .

«والنصارى» الآتية في (١٤) موضعاً عنه جمع نصري^(١) : المنسوب إلى النصر حيث «قال الحواريون نحن انصار الله» لما قال المسيح «من انصاري إلى الله» (٣ : ٥٣) كما وان المسيح والحواريين كانوا في «الناصر» حيث يقال : «المسيح الناصري»^(٢) ولكنها الأصل في «النصارى» قرآنيًا وفي اللغة هو النصري ، وليس الناصري ، مهما لمح إليه النصري هامشيًا^(٣)

(١) هذا هو المشهور من مفرداتها مثل صهري وصهاري ، وفي غريب القرآن للراغب : سموا بذلك انتساباً إلى قرية يقال لها نصران فيقال : نصرائي وجمعه نصاري ، اقول : هذه القرية هي الناصرة ومنسوبها نصري لا نصرائي ، ثم الناصري ليست جمعاً للنصرائي وإنما جمعها نصرائيون ، وجمع الناصري أيضاً ناصريون ، ولا يناسب النصارى هذه المفردات ، وإنما نصري أو نصري والثاني أوفق بالنسبة إلى النصر المدلول عليه في مقالة النصارى : نحن انصار الله ، وفي الكشف أنها جمع نصران ، اقول : عله مثل سكران سكارى ولكن فاء الجمع هنا مضموم وهناك مفتوح إذا فمفرداهما بين نصري ونصري .

(٢) في قاموس الكتاب المقدس : ذكرت الناصرة (٢٩) مرة في العهد الجديد ، ولقد أمضى المسيح أيام طفولته فيها فاشتهرت بوطنه ولقب المسيح الناصري كما الحواريون ناصريون ، (متى ١٣ : ٥٤ - ٥٨) - (مرقس ٦ : ١ - ٦) - (اعمال الرسل ٢ : ٢٢ و ٣ : ٦ و ٤ : ١٠ و ٦ : ١٤) والجيل السادس من المسيحيين أخذ يزورون الناصرة .

(٣) نور الثقلين ١ : ٨٥ في عيون الاخبار باسناده إلى الرضا (عليه السلام) قيل له : فلم سمي النصارى نصاري ؟ قال : لانهم من قرية اسمها ناصرة من بلاد الشام نزها مريم وعيسى بعد رجوعهما من مصر ، اقول : لم يكن كل النصارى من الناصرة ، وإنما هو المسيح والحواريون ، وقد تناسب هذه النسبة على هامش النصرة الآتية كما قلناه .

وكما كانت «هود» كذلك «النصارى» تأتي عاماً كما هنا حيث تشمل المؤمن الناصر للحق ، والمنتسب اليه بالهوية ، وتأتي عاماً بترك النصره : « .. وقالت النصارى المسيح ابن الله » (٩ : ٣٠) كما وتأتي مدحاً بالنصره : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » (٥ : ٨٢) .

«والصابئين» هم الذين صباوا وانتقلوا من دين الى دين ، فهل من دين التوحيد الى الشرك ؟ وهذا ينافي ردفهم بالموحدين ونجاتهم بالإيمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات ، كذلك ومقابلتهم بالذين أشركوا (٢٢ : ١٧) ! إذا فهم الصابئون من الشرك إلى التوحيد ، (١) متحللين عن اي كتاب سماوي ، ام صابئين من توحيد كتابي كشرعية ابراهيم الى شريعة خليطة من وحي الأرض الزردشي ووحى السماء الإبراهيمي كما تؤيده الروايات (٢) كم المجوس ايضاً من الموحدين (٣) مهما

مركز تحقيق كميته علوم إسلامي

(١) كان العرب يسمون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صابئاً لانه اظهر ديناً بخلاف اديانهم .

(٢) الدر المنثور ١ : ٧٣ - اخرج ابن ابي عمر العدني في مسنده وابن ابي حاتم عن سلمان قال : سألت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن اهل دين كنت معهم فذكر من صلاتهم وعبادتهم فنزلت الآية - اقول ولا شك ان من كان سلمان معهم ومنهم هم الزرادشت الايرانيون .

(٣) وفيه عن وهب بن منبه الصابئي هو الذي يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ومن المحتمل انهم اتباع ما في وعلى حد المروي عن الصادق (عليه السلام) وقد سئل لم سمي المجوس مجوساً قال : لانهم تمجسوا في السريانية وادعوا على آدم وشيت وهو هبة الله انها اطلقا نكاح الامهات والاخوات والبنات والخالات والعمات والحرمات من النساء ولم يجعلوا لصلاتهم وقتاً وانما هو افتراء على الله وعلى آدم وشيت (مجمع البحرين) .

اخطأ هؤلاء وهؤلاء في توحيد الله ، وفي الصبوء والتمجس عن الشريعة الكتابية ، ومهما يكن من شيء فليس الصابئون والمجوس من اهل الكتاب تماماً مهما يحترم فريق منهم النار الا انه ليس لحد الإشرارك بالله ، وعبادة من دون الله .

هؤلاء الطوائف الخمس الموحدون ، من كتابين وسواهم ، هم المشهورون المذكورون في القرآن بأسماءهم ، وقد أجمل عن ذكر موحدين آخرين كانوا او تكونوا ام سوف يكونون ، من «من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» وهكذا تحدد شاكلة الايمان المنجي اولاً واخيراً كضابطة عامة تخلق على الالقاب : مسلم - يهودي - نصراي - صابئي - مجوسي آمن ذا ؟

فمن مات على غير الايمان بالرسالة الاسلامية موحداً : كتابياً من هود او نصارى ، ام غير كتابي كالصابئين والمجوس ، «فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» شريطة القصور والإستضعاف حيث لم يسمعوا بهذه الرسالة^(١) او لم يعرفوا حقها ، دون المقصرين في التعرف اليها ، او الذين «جحّدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً» (٢٧) : (١٤).

فالجحد بآيات الله وتكذيب آيات الله ينافيان الإيمان بالله ، ونكران يوم

(١) الدر المنثور ١ : ٧٤ - اخرج ابن جرير عن مجاهد قال : سأل سلمان الفارسي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن اولئك النصاري وما رأى من اعمالهم ؟ قال : لم يموتوا على الاسلام ، قال سلمان : فاظلمت علي الارض وذكرت اجتهدهم فنزلت هذه الآية : ان الذين هادوا ... « فدعى سلمان فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : نزلت هذه الآية في اصحابك ، ثم قال : من مات على دين عيسى قبل ان يسمع بي فهو على خير ومن سمع بي ولم يؤمن بي فقد هلك » .

لقاء الله - ينقص من الايمان بالله ، وترك الصالحات التي تناسب الإيمان ، دليل على خواء الإيمان ، فهؤلاء ليسوا من المبشرين بالأجر وعدم الخوف والحزن ، وإنما هم المؤمنون بالله واليوم الآخر والعاملون الصالحات ، ومهما كانوا درجات في مثلث الايمان ، فهم درجات في مثلث النجاة ، كما أن من سواهم درجات في اللاإيمان واللا نجاة دون تسوية هنا وهناك «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» «ولا يظلمون نقيراً» في نقيير الإيمان وعمل الصالحات ، دون ترسب على عنصريات او طائفيات ، فبعد ما ضربت آية الضرب الذلة والمسكنة على اليهود ، تستدرك هذه الآية عما ربما يختلج بالبال انه خاص باليهود ، فهناك بينت سبب الذلة المسكنة انه الكفر والتكذيب والإعتداء أينما كانت ، وهنا تبين سبب النجاة في مثله أينما كان ، دون فرق بين الموحدين ، من «الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين والمجوس» لا هنا ولا هناك !

«فلهم أجرهم» على غرار ما آمنوا وعملوا «عند ربهم» في عالم الرب يوم الأجر والجزاء «ولا خوف عليهم» من عذاب «ولا هم يحزنون» لما فات عنهم ، جمعاً لهم بين أمن الحاضر والمستقبل والغابر .

وَإِذْ أَخَذْنَا

مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ قَوْلَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
فَلَوْلَا فُضِّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ قُلُوبًا لَهُمْ
كُفُورًا فَرْدَةٌ خَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ لَعَلَّهَا نَكَلًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا
وَمَا خَلَقَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ قَوْلَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فُضِّلَ اللَّهُ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (٦٤) .

الميثاق هنا هو ميثاق الكتاب حيث يشمل المواثيق كلها ، ميثاق واحد
هو جمعية الميثاق ، كما توحى له وحدة « ميثاقكم » ويصرح به ميثاق
الكتاب : « .. أَلَمْ يُوَخِّذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا
الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ .. وَالَّذِينَ يَمْسُكُونَ بِالْكِتَابِ .. وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ
فَوْقَهُمْ ... » (٧ : ١٦٩ - ١٧١) .

وقد رفع فوقهم الطور بميثاقهم المأخوذ عليهم : « ورفعنا فوقهم الطور

بميثاقهم « (٤ : ١٥٤) حيث سببه الميثاق لكي يعرفوا مدى تحمل الميثاق وجملة كما يرفع الطور بقوة ، وحتى يخافوا من ترك الميثاق فقد امروا حينه : «خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » كما هنا وفي الأعراف ، او « واسمعوا ما فيه » كما في أخرى : « وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ما فيه .. » (٢ : ٨٨) فالأصل هو أخذ ما أوتوا بقوة ، بأن يذكروا ما فيه ويسمعوا ويعوا ثم يعملوا .

ولقد رفع الطور فوقهم نتقاً : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظله كأنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » (٧ : ١٧١) فالجبل هنا هو الطور دون رب كما توحيه لام التعريف ، ولم يكن المعروف عندهم إلا الطور كما وهو في التوراة « طور » او : جبل الزيتون ، والجبل الذي امام اورشليم ، والذي على شرقى البلد .

ونتق الشيء جذبه ونزعه حتى يسترخي كنتق عرى الجمل ، فقد جذب الله الطور ونزعه فاسترخى فرفعه « فوقهم كأنه ظله كأنه واقع بهم » .

مع نتق الجبل فوقهم بميثاقهم نراهم في مثلث الأمر حيث جملة كجمل الجبل : « خذوا ما آتيناكم بقوة » بقوة الأبدان والقلوب ^(١) حيث يعم التكاليف البدنية والنفسية : عقلية ام قلبية ، استجاشة لكافة القوى حتى يتم الأخذ الذي يحمل أخذه على التقوى .

٢ - « واذكروا ما فيه » حيث الأخذ الصحيح ليس وارداً إلا بعد الفهم الصحيح ، وتذكر ما فيه ، دون غفلة وغفوة ، او لفظة عما فيه .

(١) تفسير البرهان ١ : ١٠٥ - العياشي عن اسحاق بن عمار قال : سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله : « خذوا ما آتيناكم بقوة » أقوة في الأبدان ام قوة في القلوب ؟ قال : فيها جميعاً « ورواه عن ابن بابويه مسنداً الى اسحاق ويونس مثله .

٣- « واسمعوا » بسمع آذانكم ^(١) ما يقرأ عليكم رسولكم حيث يقرع به اسماعكم ، ومن ثم بآذان قلوبكم لكي يكمل الوعي ، فيحصل العمل : « لعلكم تتقون » : حيث إن فطنة الاتقاء ومغبته ليس إلا بعد التحليق في هذا المثلث بتحقيق زواياه ، آخذاً من ظن الإلتقاء وعلمه وواقعه اليقين .

ويا له من مشهد متناسق في لزام القوتين : نتق الجبل فوقهم كانه ظلة ، وأخذ الميثاق بقوة ، مما يوحي بانه من معجزاتهم كما نتق الجبل معجزة ، بما عرف من إخلادهم إلى الأرض واتباع أهوائهم وفُرط أمرهم وانجذابهم إلى جواذب الفسوق والعصيان ونزعات الطغيان ، وكما الجبل منجذب لا محالة إلى الأرض إلا بقوة الله ، فليأخذ وأما اوتوا بقوة التصميم حسب المستطاع ، وليستعينوا بالله في تحقيق ميثاق الله باستجماع نفس وتصميم .

هذا المشهد الرائع المروّع المتناسق ينبههم أن المجال في ميثاق الكتاب لا يتحمل أية رخاوة وتميع وفلول ، ولا أية أنصاف حلول ، وإنما هو نتق لجبل الإنبيات والشهوات والنزعات ، لا سبيل فيه إلا الجد بكافة الطاقات والإمكانات ، حيث يؤدّ عون حياه الدعة والرخاوة واللامبالاة ويقبلون إلى الله بكلهم اقبال الجادّ العارف المصمم .

فميثاق الكتاب منهج حياة إيمانية : يقيناً فنظاماً ينظم الحياة في كافة حقوقها كما يريد الله « لعلكم تتقون » .

(١) لأن « اسمعوا ما فيه » يُذكر في آيته بدلاً عن « اذكروا ما فيه » في آيته ، نعرف أن سمع ما فيه هو سمع القلب كما الذكر هو فعل القلب ، فسمع القلب هو ذكره وذكره سمعه ، يتجاوبان في آيتهما .

وترى انهم اخذوه بقوة وسمعوه وتذكروا ما فيه ؟ .. انهم خادعوا الله حيث تظاهروا - والجبل فوقهم كانه ظلة - كانوا موفون بميثاق الكتاب خشية وقوح الجبل عليهم ، ثم تولوا : « ثم توليتم من بعد ذلك » وكان لازماً نتق الجبل ووقوعه عليهم بعد ذلك : « ولو لا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » .

ليس فحسب انهم تولوا من بعد ذلك ، بل وقالوا قولتهم الفاتكة بعد ما قيل لهم « .. خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا » - : « قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بشئنا يامرکم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » (٢ : ٩٣) .

« ثم » في آيتنا توخر قولتهم الفاتكة عن واقعة الجبل ، وتفسر هذه : « قالوا سمعنا وعصينا » أنها كانت بعد الواقعة ، فلو كانت عندها لوقعت الواقعة حيث لم ينتق الجبل حينه إلا إخافة .

ولم يكن رفع الجبل إكراهاً لهم في الدين : العقيدة - حتى تنافيه « لا إكراه في الدين » وإنما حملاً لهم على تطبيق الدين بعدما تبين لهم كعقيدة ، حيث النص : « وإذ اخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور » فقد كان أخذ الميثاق قبل رفع الطور وبعد ظاهر الإيمان بما أخذ عليهم ميثاقه ، ثم تحقق رفع الطور بذلك الميثاق : « ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم .. » (٤ : ١٥٤) .

ورفع الجبل هذا كان لهم موعظة وذكرى وإخافة « ان لم تقبلوه وقع عليكم الجبل فقبلوه وطأطأوا رؤوسهم »^(١) . آية إلهية

(١) نور الثقلين ١ : ٨٥ عن تفسير القمي قال الصادق (عليه السلام) لما انزل الله التوراة على بني اسرائيل لم يقبلوه فرفع الله عليهم جبل طور سيناء فقال لهم موسى (عليه السلام) : « ... » .

تزيد في الايمان بالله ، فالتمسك بميثاق الله ، والإخافة عن النكثة النكسة عما اخذ عليهم الله ، آية يتيمة في تاريخهم لم تتكرر ، حيث الآيات التي عاشوها زمن الرسالة الموسوية لم تكن لتحمل إخافة لبني اسرائيل ، إلا هذه التي تضمنها بجانب الحجة والموعظة .

وهكذا ينطق الجبل بتثقه آية إلهية ليست بمقدور من سوى الله ان يرفع فوقهم كأنه ظلة دون عمَد يرونها إلا إرادة الله ، فمهما ينتق الإنسان جبلاً من حديد ام ماذا بعمَد يصنعها، ولكنه ليس إلا بوسائل معروفة علمية ، لا فقط إرادة التثقيق مهما كانت هناك عمَد إلهية أخرى ، مما لا يرى .

فمن الهراء القولة الناكرة للمعجزات : إن بني اسرائيل كانوا في أصل الجبل فزعزع وزلزل حتى أظل رأسه عليهم فظنوا أنه واقع بهم ، إقانه تاويل عليل للنص : « رفعنا .. نتقنا الجبل » وتري إذ يراد الإفصاح عن رفع الجبل ونتقه ، هل هناك نص أو في من رفعه ونتقه ؟ ..

أم لو اريدت الزلزال والزعزعة كيف لا يعبر عنها بنصه ؟ رغم أنها لا تنتقان الجبل وترفعانه فوقهم كأنه ظلة .

وتري ما هو موقع الترجي في « لعلكم تتقون » ؟ والله لا يترجي ، بل الذي لا يعلم عواقب الامور هو الذي يترجي ! .

الجواب : أن المقام هو مقام الرجاء وإن كان الله لا يترجي ، وإنما المكلف بامر الله له أن يترجي الإتقاء عن المحاذير إن حقق أمر الله ، حيث الأخذ بما أوتوا بقوة مترجي ، ثم الإتقاء بعد ذلك رجاء بعد رجاء ، حيث العوائق قد تحول بين الأخذ والاتقاء ، إلا أن يشاء الله ، فلا يملك العبد على أية حال إلا الخوف والرجاء .

ولعل أخذ ما أوتوا بقوة هو أخذ التصميم بالإيمان كما وأن ذكر ما فيه وسمعه هو الإرادة القلبية عن بصيرة ويقين ، وهذا كله تقوى باطنية ، فـ «لعلكم تتقون» تعني التقوى الظاهرية حيث تُترجى على أثر التقوى الباطنية ، ولكل وجه والجمع اوجه .

و « تم توليتم من بعد ذلك » تشمل الغابرين حيث « قالوا سمعنا وعصينا » وكذلك الحاضرين زمن الخطاب حيث كانوا تاركين التوراة كالغابرين ، مهما لم يكونوا قائلين قولتهم : « سمعنا وعصينا » او قالوها ، فإنما العبرة بالتطبيق المفقود هنا وهناك على سواء ، فتراهم يمارسون تحريف التوراة لفظياً ومعنوياً وعملياً ، عائشين مثلث التحريف والتجديف ، في هذه التهريف وجدة التزييف ! حيث تعنيها كلها : « ثم توليتم من بعد ذلك » .

ومن فضل الله عليهم أن لم يسحقهم بوقعة الجبل بعدما عصوا « ولو لا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » المُقدمين بسحق آباءكم العاصين ! .

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِثِينَ^(٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ^(٦٦) .

.. هنا اعتداء في السبت عملياً تحت ستارٍ مكرٍ يخادعون الله فيه ، إذ لم يسبتوا عن العمل والصيد يوم سبتهم متظاهرين أنهم سبتوا بما مكروا في خدعة شرعية ! هازئة بحكم الله : « وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ... فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » (٧ : ١٦٦) .

فكونهم بما اعتدوا قردة خاسئين « نكالاً لما بين يديها » الحاضرين « وما

سورة البقرة آية - ٦٥-٦٦ ٤٥٣

خلفها : المستقلين ، ممن سلكوا سبيلهم - حيث تنكلهم : تقيدهم عما يشتهون ، وكذلك نكالاً للحياة الحاضرة الأولى والمستقبلية الأخرى ، «وموعظة للمتقين» الذين يتقون طيب أنفسهم ، أن تقيدهم وتنكلهم تقواهم عن طغواهم ، فليست القردة الخاسئة لهم نكالاً ، وإنما هي موعظة بها يتعظون .

ان هذا التطور القاصد : تحويل الخاطئين الى قردة خاسئين ، يضم إلى زاويتيها لجمعي الطاغين والمتقين ، ثالثاً هي اللعنة عليهم يوم الدنيا ويوم الدين : « يا ايها الذين اوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فزدها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً » (٤ : ٤٧) .

هذا الإعتداء السافر الماكر بعدما « قلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » (٤ : ١٥٤) وإنما جعل عليهم بما اختلفوا في ابراهيم بلاء وامتحاناً وحرماناً مؤقتاً : « إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه » (ابراهيم) (١٦ : ١٢٤) .

والسبت لغويا هو القطع كما « جعلنا نومكم سباتاً » : قطعاً لحركات التعب ونهضات النصب ، كذلك جعل السبت على الذين هادوا حكماً رابعاً من النواميس العشرة التوراتية (الخروج ٢٠ : ٨) وهو حكم ثابت في الشريعة التوراتية حتى جاء الإسلام ونسخه إلى الجمعة ، وكما ليس لنا تحويل الجمعة بفرضها وأحكامها إلى غيرها ، كذلك السبت ثابت طوال الزمن التوراتي .

فمن الهراء قولة المسيحيين : (لنا تغيير السبت إلى يوم الأحد لأن المراد منه الإنقطاع إلى عبادة الله في كل سبعة واحدة . سواء السبت او الاحد أم ماذا) لذلك يسمى النصارى الأحد سبت المسيحية لأنه اليوم الذي قام فيه

المسيح من دور الأموات بعد صلبه يوم الخميس ، فدخل جحيم النار ليدوق العذاب بجسمه البشري ثم صعد إلى أبيه في السماوات^(١) وقد حادوا الله في تفسير السبب إلى الأحد ، وأهانوا المسيح أن اتخذوا يوم جحيمه - على حد قولهم - يوم عيدهم ، وهكذا فعلوا وافتعلوا بشريعة التورات بما اضلهم سامريهم بولس الرسول !.

ثم القول : « كونوا قردة خاسئين » ليس لفظة قول ، وإنما هي إرادة فعل ، فقوله تعالى فعله في مجالات التكوين ، كما : « قال لها وللأرض اثريا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » (٤١ : ١١) فعبارة القول إشارة إلى مدى نفاذ أمره دوناً وقفة أو شريطة أمر آخر أو أمر آخرى . فـ « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » (٣٦ : ٨٢) . وتعني « خاسئين » مهانين بعيدين ، حيث القردة العاديين ليست خاسئة حيث خلقت قردة كسائر الحيوان المخلوقة حيواناً دوناً بعد عن رحمة الله وكرامته ، وهؤلاء حوّلوا قردة بعد ما خلّقوا أناسي ، فحوّلوا إلى « خاسئين » طريدين مهمانين بعيدين عن رحمة الله .

وترى أنهم كَوْنُوا قردة - فقط - في أبدانهم أو أرواحهم ، أم فيهما معاً؟ علّ الأليح من « كونوا قردة » تحوّل الجزئين إلى قردة ، ولم يقل : كونوا في أرواحكم ، أو في أبدانكم ! أو يقال : الأمر لا يوجه إلا إلى العاقل وليست الأبدان بالتي تعقل فتقبل الأمر أو لا تقبل ؟ ولكنها الأمر هنا أمر التكوين فيعم مطلق التكوين عاقلاً وسواء وكما « قال لها وللأرض اتيا طوعاً أو كرهاً » .

ولعل « خاسئين » دون « خاسئة » تلمح إلى بقاء أرواحهم الإنسانية عاقلة ، لمكان جمع العاقل ، ولأن نكاهم لا يبقى لأنفسهم ما عاشوا لو حوّلت أرواحهم قردة ، فإنها لا تشعر تحوّلها ، ثم ولأن القردة المحولة

(١) راجع كتابنا : عقائدنا عند البحث عن الصلب .

بجزئيتها عن جزئي الإنسان لا تبقى مكلفة تعذب هنا وفي الأخرى، كما لو جنّ عاقل عاص ومات مجنوناً، حيث المعيار في الحساب هو الحالة التي يموت فيها المحاسب، إن عاقلاً فإلى ثواب أو عقاب، وإن مجنوناً أو قرداً أم أي حيوان لا يعقل فلا حساب إلا قدر ما يشعر.

فالروح الإنسانية التي عاشت جسمها فترة، ثم حول جسمها إلى قرد إنها تذوق أشد العذاب بما تعقل.

وأما أن تحوّل أرواحهم - فقط - قردة مع بقاء أبدانهم فلا نكال لهم - إذاً - ولا لما بين يديها ولا خلفها، حيث لا يرون نكالها.

هنا تحوّل إلى قردة خاسئين نكالاً أو موعظة، فماذا تحوّل القردة أناسي - على حدّ مزعمة دارون - فإذا نقبل التحول الأول بدليل قاطع كما هنا، لسنا لنقبل التحول الآخر بمجرد التشابه دون دليل، وآيات خلق الإنسان من طين لازب - من صلصال من حماء مسنون - وكالفخار ليست لتقبل هكذا تأويل، والبحث آت في طيات آياته.

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٦).

النكال هو الضعف والمجر والقيد والحجز، فالنكال العجز والحجز مجعول هنا لمثلث « ما بين يديها - وما خلفها - وموعظة للمتقين ».

وترى « ما بين يديها وما خلفها » أهم الأمم التي كانت تشاهدها من حاضرين لمشهدها ليكونوا ذرين عن محبتها « وما خلفها » هم الأمم التي أتت بعدها وهوت هواها فطغت طفوها (١) ؟ إذاً فلماذا « ما » وهي تلمح لغير ذوي العقول ؟.

(١) في تفسير البرهان ١ : ١٠٥ عن زرارة عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام) في الآية قال : لما معها ينظر اليها من أهل القرى، ولما خلفها قال : نحن ولنا فيها وعظة.

٤٥٦ الجزء الأول

او « ما بين يديها » هم القرييون الناظرون ، و « ما خلفها » هم البعيدون عن مشهدها أمكنةً كمعاصريها ، أو أزمنة كمستقبلها^(٢) ؟ فكذلك الأمر ؟

أو أن « ما بين يديها » حياتها الحاضرة الدنيا « وما خلفها » حياتها الآتية الأخرى ، حيث النكال هنا ضعف وعجز ، كما أنه هناك قيد وحجز ؟ وهذا يناسب صيغة اللفظ « ما » وسياق المعنى ، إذا النكال عنى ضعفاً وعجزاً ، لا قيداً وحجزاً ، اللهم إلا للآخرين ؟

أو أن « ما » تعني مثلث المعنى - ف « ما بين يديها » من الناظرين او الحاضرين المعاصرين ، ناظرين وسواهم ، أو الحياة الدنيا للخاسئين وسواهم من أضرابهم ، و « ما خلفها » من المعاصرين البعيدين غير الحاضرين ذلك المشهد ، أو المستقبلين من مواطنين وسواهم ، أو الحياة الأخرى ؟ وهذا هو الأخرى حيث تنحمله الآية

كما وأن « نكالا » تعني القيد والحجز لـ « ما بين يديها ومن خلفها » والضعف والعجز لـ « ما بين يديها وما خلفها » من الحياتين للخاسئين .

وترى في المحتملة الأولى لـ « ما بين يديها وما خلفها » كيف اعتبرت الأمم التالية للقردة الخاسئين « ما خلفها » رغم أن كل امة تستقبل الحياة والأمم الأخرى ، فهي إذاً « ما بين يديها » لا « ما خلفها » ؟

علّه لأنه يجمعه والمحتملين الآخرين ، وأن هذه الخاسئة خلّفت أمماً كأمثالها في طغواها : « فخلف من بعدهم خلّف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات » (٧ : ١٦٩) وقد كانت القردة الخاسئة مخلدة إلى حاضرها ، ناظرة الى غابرها ، ناكرة لحياتها الأخرى ، فهي إذاً لم تكن لتستقبل الحياة الأخرى ، مهما كانت الأخرى والأمم الأخرى تستقبلها ، فالواقع أن

= وفي الرقم (٢) الآتي عن الرضا (عليه السلام) وجعل غطة وعبرة للخلق ...

مستقبل كل أمة - من أمة ومن الحياة الأخرى - هو بين يديها، ولتنظر إليه نظرة البصيرة النافذة، إلا أن هذه الأوغاد المناكيد لم يكونوا يفكرون في مستقبل الأخرى، فأصبحت الأمم والحياة الأخرى « بين يديها » هي بنفسها « ما خلفها » في نظرة مركوسة مطموسة .

هذا هو نكال القردة الخاسئة في مثلث الأضلاع، حيث ينكل الخاسئة أنفسها ضعفاً وعجزاً في « ما بين يديها » : دنيها « و » ما خلفها » : عقباها، وتنكل كذلك أضرابها من الطغات، من هم « بين يديها » : حاضرة ناظرة، او معاصرة سامعة، ومن هم « خلفها » : الآتية العاتية، تنكلهم جميعاً قيلاً وحجزاً، كما نكلت القردة ضعفاً وعجزاً .

« وموعظة للمتقين » .. كما كانت القردة الخاسئة : البعيدة المهانة نكالا لأهل الطغوى، كذلك هي موعظة لأهل التقوى، من كانوا بين يديها أو أتوا ويأتون من خلفها، حيث يتخذونها عبرة وعظة .

وترى أن القردة الخاسئين هل ظلت مشهد النكال والموعظة لأهل الطغوى والتقوى بأنفسها أحياء، أن عاشت زمناً بعيداً؟ أم هلكت بعد ثلاثة أيام كما يروى (١) أم ماذا؟

واقع النكال والموعظة للآخرين - وإن لزم من تعيشه سائر القردة - يحكم بالبقاء، حيث الهلاك بعد ثلاثة وما إليها يحول دون نكالها « لما بين يديها »

(١) نور الثقلين ٢ : ٩٠٦ في من لا يحضره الفقيه وقد روي أن المسوخ لم تبق أكثر من ثلاثة أيام وإن هذه مثل لها فهي الله عز وجل عن أكلها، وفي المجمع وردت الرواية عن ابن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن الله لم يمسح شيئاً فجعل له نسلاً وعقباً

وفي الدر المنثور ١ : ٧٥ عن ابن عباس : ولم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ولم ياكل ولم يشرب ولم ينسل، واخرج ابن المنذر عن الحسن قال : انقطع ذلك النسل،

ككل المعاصرين ، فضلاً عن « ما خلفها » .

إلا ان النكاح هذا لا يختص بالآخرين ، حيث يعني - وبأحرى - أنفس القردة الخاسئين في الأولى « ما بين يديها » والآخرى « وما خلفها » وإن لثلاثة أيام هنا .

ثم النكاح للآخرين لا يختص بحاضر المشهد وشاهده ، فشاهده يتنكح او يتقي ، وغائبه يقبل من شاهده حيث الخبر المتواتر يقبل ، وليس النكاح القيد والحجز إلا لواقع الواقعة وكما في الواقعة ولما تأت ، دون خصوص الشهود ، وهكذا يكون دور النكاح والموعظة لكل واقعة هي عبرة وتذكرة ، لكل من يسمعها ويصدقها .

فلقد حق عليهم النكاح عن أمر الله فتحول نكاحاً ، ولو أنهم لم يكونوا قردة في نفسياتهم لم ينكحوا هكذا عن أمر الله ، ولكنهم نكحوا فانتكسوا قردة خاسئين ، حيث انطباعات الشعور - عن تقصير لا عن قصور - تعكس على الوجوه ، لزاماً في الأخرى ، وأحياناً في الأولى .

وهل إن سائر القردة هي من نسل هذه الخاسئة ؟ قد تروى : نعم (١) ولكنه لا وكما تروى (٢) وان المقطوع تكوّن سائر القردة قبل الخاسئة بدهر طويل .

(١) هنا احاديث يفسرها الحديث الاول الى غير اللائح منها ، ففي نور الثقلين ١ : ٧٣ في عيون الاخبار عن محمد بن سنان عن الرضا (عليه السلام) حديث طويل وفيه : كذلك حرّم القردة لانه مسخ مثل الخنزير وجعل عظة وعبرة للخلق دليلاً على ما مسخ على خلقه وصورته وجعل فيه شبه من الانسان ليدل على انه من الخلق المغضوب عليه .

وفيه عن جعفر عن ابيه عن جده علي بن ابي طالب (عليهم السلام) قال : سالت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن المسوخ فقال : هم ثلاثة عشر : الفيل - الى ان قال : واما القردة فقوم اعتدوا في السبت .

(٢) مضت روايته في الرقم (١) هنا .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المدخل	٣٨ - ٧
كلام حول النسخ	٤١ - ٣٩
صيانة القرآن عن التحريف	٤٨ - ٤٢
التفسير بالمأثور - الظاهر والباطن	٥٧ - ٤٩
سورة الفاتحة - حول البسملة - الحمد له	٩٧ - ٦١
حول مالك - وملك - حول حصر العبودية والاستعانة	١١٦ - ٩٨
حول مراتب الهداية	١٢٧ - ١١٧
حول الصراط بأقسامه الثلاثة - مقارنة بين صلاة المسلمين ، والنصارى - مسائل فقهية حول الحمد	١٤٧ - ١٢٨
سورة البقرة - مفاتيح السور	١٦٠ - ١٥١
حول الكتاب ومراتب الهدى والتقوى	١٦٨ - ١٦١
الايمان بالغيب ومراتبه	١٧٩ - ١٦٩
الصامدون في الكفر المستقرون فيه	١٨٦ - ١٧٩
أبواب جحيم المنافقين السبع ومثلهم	٢١١ - ١٨٨
سر العبادة ومسيرها ومصيرها	٢١٧ - ٢١٣
فراش الأرض وبناء السماء وماءها	٢٢١ - ٢١٧
حول إعجاز القرآن : التحدي بالقرآن في كافة الحقول - عدم الاختلاف فيه - علم الغيب ومطلق العلم	٢٤٥ - ٢٢٨

٤٦٠ الفهرس

الموضوع الصفحة

- كلام حول الضلال والهدى - عديد الموت والحياة للانسان ... ٢٥٨ - ٢٦٧
- الأموال العامة والخاصة ، ونظر في الاقتصاد الاسلامي ٢٦٧ - ٢٧٣
- بين خلق السماء والأرض ٢٧٣ - ٢٧٧
- حول خلاقة الأرض وانها من الأنسال المنقرضة الإنسانية ... ٢٧٩ - ٢٨٧
- ما هي الأسماء التي علمها آدم دون الملائكة ٢٨٧ - ٢٩٣
- سجود الملائكة لآدم وقصة الأكل من الشجرة ٢٩٤ - ٣١١
- اين جنة آدم والشجرة المنهية - عصيان آدم ليس ترك الأولى . ٣١١ - ٣٣١
- ما هي الكلمات التي تلقاها آدم ، والهدى التي وعدّها ٣٣١ - ٣٤٣
- بنو اسرائيل في القرآن - بشارة توراتية بحق القرآن - تحريفات
في بشارات ٣٤٦ - ٣٦٩
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ضوء القرآن والسنة .. ٣٧٣ - ٣٨٤
- ظنّ الخاشعين ظن في قلوبهم وعلم في عقولهم ٣٨٥ - ٣٩٢
- قول فصل حول الشفاعة ٣٩٦ - ٤٠٥
- فرق البحر آية الهية - منن الهية على بني اسرائيل ٤١٢ - ٤٤٠
- الإيمان وعمل الصالحات هو الأصل دون الفوارق الطائفية .. ٤٤٠ - ٤٤٦

كتب للمؤلف

باللغة العربية

١ - « الفرقان » في تفسير القرآن بالقرآن والسنة : تفسير مقارن علمياً
وكتائباً يستغرق كافة البحوث العلمية على ضوء القرآن والسنة في
(٣٠) جلدا .



- ٢ - « حوار » بين الإلهيين والماديين .
- ٣ - « عقائدنا » .
- ٤ - « المقارنات » العلمية والكتابية بين الكتب السماوية .
- ٥ - « رسول الإسلام » في الكتب السماوية .
- ٦ - « علي والحاكمون » = « الخلفاء بين الكتاب والسنة » .
- ٧ - « تاريخ الفكر والحضارة » .
- ٨ - « على شاطئ الجمعة » .
- ٩ - « المناظرات » بين الإلهيين والماديين .
- ١٠ - « حوار » بين أهل الجنة والنار .
- ١١ - « لماذا نصلي ومتى نقصر من الصلاة » .
- ١٢ - « لماذا انتصرت ومتى تنهزم » .
- ١٣ - « فتياتنا » .



مرکز تحقیقات کتب و پژوهش‌های اسلامی

کتاب للمؤلف باللغة الفارسية

- ۱ - « اسرار - مناسک - ادلة : حج » .
- ۲ - « انقلاب اسلامي ۱۹۲۰ عراق » .
- ۳ - « مفسدين في الأرض » .
- ۴ - « ما تريا ليسم متا فيزيك » (۴) جلد ترجمه : محمد محمدی - و (۱) جلد ترجمه محمد امين : برخوردار و جهان بيبي
- ۵ - « مسيح از نظر قرآن وانجيل » .
- ۶ - « ستارگان » از نظر قرآن
- ۷ - « بشارات عهدين » .
- ۸ - « گفتلونی در مسجد النبي » .
- ۹ - « تورات - قرآن - انجيل : وخاتم پيمبران »
- ۱۰ - « نماز جمعه » ترجمه محمد امين .
- ۱۱ - « دولت مهدي » .
- ۱۲ - « حکومت قرآن » .
- ۱۳ - « نماز مسافر با وسائل امروزی » .
- ۱۴ - « پروزي اسرائيل چراوشکسن آن کي ؟ ترجمه : محمدی .
- ۱۵ - « سپاه نگهبانان اسلام » : امر بمعروف ونهي از منکر .
- ۱۶ - آفرید گارو آفریده إذ نظر مادي والهي .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

